TIGHT BINDING BOOK

الرحلة الحجازية

لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر

بقلم

محمد لبيب البتنوني

قررت نظارة المعارف هذا الكتاب للمطالعة بمدارسها

﴿ الطبعة الثانية ﴾

(تم تنقيحها وتهذيبها وزادت أسماء الآثار فيها عليها)

(سنة ١٣٢٩ هجرية)

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر

(الكائنة بحارة الروم بعطفة التري)

(لأصحابها محمد أمين الخانجي وشركاه وأحمد عارف)

(فهرست)

— المقدمة والتمهيد —

صحيفة

فهرست كتاب الرحلة

صحيفة

صحيفة

تمت



الى سمو ولى النعم الافخم

لقد شرفني مولاى حفظه الله بخدمة ركابه العالى فى حجه المبرور.
لذلك رأيت قياما بواجب شكر آلائه، وحمد نعمائه، أن أمثل صورة هذه الرحلة الميمونة فى هذا السفر، وأن أكتب معها كلمة عما فى هاتيك الارجاء الشريفة من المواقف المقدسة، يرى المطلع عليها كل ماتهمه معرفته منها.

وقد رأيت ان أضيف اليها في هذه الطبعة من تاريخ الدول العربية وجغرافية جزيرة العرب ماتكون به الفائدة أعم. والمنفعة أعظم.

وها أنا يامولاى أرفعها لاعتابكم السنية بيد الاجلال والاعظام، هدية للاسلام والمسلمين، وخدمة للعلم والتاريخ.

وغاية المأمول اسعادها بالقبول

العبد المخلص

محمد لبيب البتنونى



BOEHME & ANDERER, CAIRO

الحاج عباس حلمى الثانى خديو مصر

ولد حفظه الله فى غرة جمادى الثانية سنة ١٢٩١ (١٤ يوليه سنة ١٨٧٤) وجلس على عرش الخديوية فى ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ (٨ يناير سنة ١٨٩٢)

﴿ كتاب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار الى المؤلف ﴾

تفضل صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار فأرسل الى صاحب كتاب الرحلة الحجازية بكتاب ثناء على مؤلفه ، يرى المطلع من خلال كلماته ذلك النور الذي يضيء للناس المحجة التي تسلكها هذه الحكومة السعيدة السعيدية لترقية الامة، بتنشيط المعارف ، وتربية المدارك ، والنهوض بالهمم الى الدرجة التي تتناسب مع الحياة الصحيحة . فهو اذا شكر الكاتبين ، وحمد المجتهدين ، فانما يشكر نفسه ويحمد اهتمامه بمصلحة البلاد ، من الطريق الانفع والسبيل الاصلح . جزاه الله عن الامة خير الجزاء .

وانا نتشرف بان نذكر هنا هذا الكتاب الكريم بكل اجلال وتعظيم ، ووجودنا كله شكر لعطوفته على هذه العناية الكبرى والرعاية العظمى :

القاهرة في ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٢٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠

عزتلو لبيب بك

أمعنت النظر في كتابكم الجديد الموسوم بالرحلة الحجازية ، ورأيت فيه آيات البراعة في التحرير والتحبير ، وأعجبني منكم التعويل على التحقيق والتدقيق ، وأملي وطيد في أن ينسج الكاتبون على منوالكم المفيد ، حتى يكون القارئ مشاركا للكاتب في عواطفه ، مرافقا له في حله وترحاله ، وتلك عندي أفضل وسيلة لتربية الملكات وترقية المدارك . أما ما زينتم به صحائف الكتاب من الرسوم فقد زاد في قيمته الثمينة ، وقد تجلت بها تلك المعاهد المقدسة للانظار ، وتمثلت تلك المشاهد المباركة للعيان . هذا فضلا عن المباحث العمرانية في فلسفة الحج ، فقد أفضتم فيها بقلمكم السيال ، وجردتم هذا الموضوع الجليل مما اعتوره من الشوائب على طول الزمان ، وأبرزتموه في حلته الاولى وبهجته الصحيحة ، وفقكم الله للقيام بأمثال هذه الخدمة للامة والسلام .

رئيس مجلس النظار

محمد سعيد .

﴿مقدمة الكتاب﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين . أما بعد فقد شرفني مولاي الخديو الأعظم بتعييني منذ و باً خصوصياً في خدمة ركابه العالي مدة سفره الى الاقطار الحجازيه . و بعد عودة سموه بسلامة الله أسعدني بصدور أمره الكريم إلى هذا العاجز بوضع شيء عن هذه الرحلة المباركة .

ولما كانت هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوي البصيرة والعرفان، مع أنه يقصدها سنوياً أكثر من مائتي ألف نفس من المسلمين، وكل ما كتب عن رحلة الحاج الها لا يخرج عن بعض المناسك التي يصل المطلع في كثرة شعائرها ووعورة طرقها ومجاهلها، مما يزيده ارتباكا وجهالة، رأيت أن أضيف الى الرحلة الخديويه كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة، مبتعداً عن الترهات التي ألحقتها بها مبالغة الوهم أو مغالبة الغرض ، مما اتخذه أعداء المسلمين وسيلة إلى الطعن عليهم في دينهم الذي جل ما تعرفوا به منه إنما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رزىء بهم الإسلام، فيكيلون لهم الكلام جزافا من غير ما يشعرون بأنهم به يتنحرون !!!

لذلك سلكت في هذا الطريق مسالك التحقيق والتدقيق ، حتى جاءت كلمتي فيه والحمد لله مسفرة عن حقيقة الحج ، مبينة الغرض منه ، شارحة مناسكه بعبارة هينة لينة سهلة على كل مسترشد وضروريه لكل من قصد سفراً اليه أو معرفة به .

و إنى قياماً بهذا الواجب الاقدس لم أقتصر على الكلام فى النقط الدينية ، بل تناول بحثى مايهم القارئ من المسائل العمرانية ، والاجتماعية ، والجغرافية ، والتاريخية ، مما لم يسبقنى اليه أحد من الذين كتبوا عن هذه الديار ، راجياً بذلك الخدمة العامة للعلم والاسلام .
وتتميما للفائدة قد وضعت فى هذا السفر المبارك كثيراً من الخرط الجغرافية ، والرسوم النظرية التى وضعتها بنفسى ، والصور الفوطوغرافية التى أخذت بمعرفة بعض من كان فى معية الجناب العالى الخديوى وسواهم من أفاضل المصوّرين الذين سبق لهم السفر الى تلكم الارجاء من مصريين وغيرهم ، ووضعت للحرمين الشريفين رسماً نظريا معتمداً على الابعاد التى وضعها لهما المرحوم محمد صادق باشا المصرى وغيره من مهندسى الاتراك .
و رسمت كروكى مكة ، ومنى ، وعرفة ، والمدينة ، مستمداً من بعض الرسوم القديمة المأخوذة عن الكروكيات التى وضعها بوركارت فى أوائل القرن الماضى لهذه الجهات التى لم تختلف كثيراً فى هيئتها ونظام أبنيتها وعمارتها عما كانت عليه من قرون مضت .

هذا و إنى أتشرف بتكرار عبارات الشكران إلى صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار على تنشيطه للعاملين بإعلان رضاه عن هذا العمل وثنائه عليه ، رافعاً واجب الامتنان الى نظارة معارفنا الجليلة وخصوصاً الى ناظرها صاحب السعادة حشمت باشا على تقريرهذا الكتاب للمطالعة بمدارس الحكومة ، مسدياً آيات الحمد الى من اسعدونى بتقريظه من أهل الفضل والعرفان : أخص بالذكر منهم صاحبى الدولة والفخامة البرنس حسين كامل باشا ، والبرنس فؤاد باشا رئيس الجامعة المصرية ، ومولانا الاستاذ الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر ، والاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ، وجناب المستشرق الكبير والعالم الجليل الالمانى المسيو شوينفورت ، والعلامة الفرساوى المسيو دفلير ، وجناب المسيو ماسبيرو مدير الانتكخانه المصرية ، وغيرهم من أكابر العلماء والكتاب لاسيما حضرات أصحاب الجرائد المصرية عربية و أفرنكية ، سواء الذين استقبلوه بالمنة أوانتقدوه باخلاص .

وهنا أقدم عاطر ثنائى الى السادة الافاضل الذين ينبهونى الى ما جرنى اليه السهو أو السرعة فى العمل، مما أصلحته فى هذه الطبعة التى عنيت بها وأكملت فيها الكلام على ما أهملته فى بعض مواضيع الكتاب فى الطبعة الاولى، وأخص بشكرانى حضرة صديقى الفاضل محمد كمال بك الذى ساعدنى بشئ كثير من معلوماته الثابتة عن جزيرة العرب التى أقام فيها زمناً .

ولقد أضفت الى الكتاب فى هذه المرة بعض الصور الفوطوغرافية التى تزيد فى فائدته، كما أضفت اليه أبواباً مهمة جداً مثل: سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، وتاريخ الخلفاء الراشدين، وعقدت به باباً لبيت المقدس . وآخر للقرابين وأصولها فى جميع الديانات، وبعد كمال طبع الكتاب وجدت أن أضيف اليه تمهيداً عن وصف جزيرة العرب الحالية وتاريخ جميع الدول العربية التى قامت قبل وبعد الاسلام، استرسل القلم فيه بما لم يمكنى ايقافه الى الحد الذى يناسب مع كتاب الرحلة . وقد أضفت الى ذلك جداولاً مهمة جداً بملوك بعض هذه الدول، وباشراف مكة والمدينة، وقبائل العرب الموجودة الان، وعملت شجرة لامهات القبائل العربية من قحطانية وعدنانية وقرشية، مما لم يسبقنى لمثلها أحد من المؤرخين، والله المسؤل أن ينفع به عنه وكرمه .

محمد لبيب البتنونى

- - -

تمهيد

لما كانت بلاد العرب يقصدها سنويا نحو ربع مليون من المسلمين لتأدية فريضة الحج ، رأيت أن أكتب عنها كلمة تمحضها مما ألصقته بها الاوهام ، وشوّهته الرواة على مدى الايام . وقد رأيت أن أقسم الكلام فيها إلى قسمين : قسم نتكلم فيه عن أمة العرب وأصلها وقبائلها وبطونها ودولها قبل الاسلام وبعده ، باختصار جمع اليه ما تشتت من الحقائق فى كتب التاريخ ، وقسم نتكلم فيه عن صفة جزيرة العرب الحاضرة وعشائرها وحكوماتها مما تغمض معرفته على كثير من الناس ، فنقول وبالله التوفيق .

الامة العربية

الامة العربية من أبعد الامم وجوداً ، وأطولها عمراً ، وأوسعها سلطاناً ، بل من أقدم الامم مدنية وعمرانا . ولقد كان لها قبل الاسلام من الدول ما يتحلى جيد التاريخ بذكره ، كما كان لها بعده ذلك الملك الشاسع الاطراف ، البعيد الاكناف ، الذى كان له الشأن الاول فى سياسة العالم بأسره مدة من الزمن طويلة .

وقد رأيت أن أقسم الامة العربية بالنسبة لاصولها الى ثلاثة أقسام : القسم الاول العماليق أو العرب البائدة ، الثانى العرب القحطانية ، الثالث العرب العدنانية :

العماليق

العماليق هم أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وأوّل ما وصلنا من أمرهم أنهم كانوا يسكنون على حالة بداوة فى الصحراء التى بين العراق والعجمة . وكانوا ينقسمون الى قبائل صغيرة تتنقل من جهة الى أخرى وراء الكلأ ، وكانت لهذه القبائل مشيخات منها تقوم بطبيعة الحال بتدبير أمورهم ، وكان ذوو العصبية منهم يشتغلون بنقل التجارة بين بابل ومصر . وما زالوا على هذه

البداوة حتى كبرت عصبيتهم، وتغلبوا على بابل، وقامت بها منهم فى القرن الخامس والعشرين قبل المسيح دولة يسمونها دولة الساموآبيين من (بنى سام بن نوح). ومازالوا بها حتى ظهر منهم فى القرن الثالث والعشرين قبل المسيح ملك اسمه حمورابى، فتغلب على مملكة آشور وما حولها، وأصبحت له مملكة واسعة، بلغت فى زمنها أسمى ما وصلت اليه أية دولة لذلك العهد فى الرقى الادبى والمادى، وسميت بمملكة حمورابى. واستمرت هذه الدولة حاكمة الى أواخر القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد: يعنى مدة أربعة قرون تقريبا. وقد عثر النقابون الذين يعملون فى آشور وبابل لهذه الدولة على كثير من الآثار التى تدل على رقيهم فى مدنيتهم، مكتوبة بالخط المسمارى[1]، مما حكموا معه بأنهم أبعد الامم رقياً فى حضارتهم.

ولما وصلت هذه الدولة الى سن الشيخوخة بطبيعة الحال، ضعف أمرها وانفصلت عنها أطرافها، واستقلت آشور. ولم تقف هذه المملكة الاخيرة عند هذا الاستقلال، بل نهضت بحكومتها حتى استولت على بابل فى سنة ١٢٨٠ ق م مدة الملك تغلاث بلسر. وأخذ الآشوريون يعاملون العرب معاملة قاسية، فلم يقبلوا البقاء على الضيم، كما هى شيمتهم فى كل زمان، وهاجر قسم كبير منهم الى جنوب جزيرة العرب والى غربها.

— الشاسو (الهكسوس) وهم عرب الشرق أو عرب الرعاة —

بينما كانت الدولة الحمورابية قائمة فى بابل، دخلت الهكسوس الى مصر من برزخ السويس فى القرن الثالث والعشرين قبل المسيح، واستولوا على الوجه البحرى وكوّنوا لهم به دولة كان مركزها فى مدينة صان. وأوّل ملوكهم يسمى سلاطيس وهو رأس العائلة السابعة عشرة المصرية. ومكث عرب الرعاة بمصر الى أن أجلاهم عنها الملك تُحتمُسْ ملك طيبة فى (الوجه القبلى)، حوالى سنة ١٧٠٠ ق م. وليست لهم بها آثار تذكر، اللهم الا بعض

(١) الخط المسمارى أخذه العماليق عن السومريين الذين كان لهم الملك قبلهم على بابل. وانما سمى بذلك لانهم كانوا يكتبونه أولا برؤوس المسامير نقشاً على الطين. وكثيراً ما كانوا يحرقونه بعد ذلك حفظاً له على كرور العصور. ولقد أدخل العرب على هذا الخط تحسينات كثيرة في أشكاله وكلماته وأدواته، وكان لا يزال يقرأ قبل الاسلام فى اليمن ولكنه تلاشى أمره بانتشار الخط القبطي الذى كان يكتب به الحجازيون.

تماثيل لمعبوداتهم وخصوصاً لمعبودهم سوتيخ . ويقال ان منهم فرعون ابراهيم ، والعرب يسمونه سنان بن الاشل ، وفرعون يوسف ويسمونه الريان بن الوليد ، وفرعون موسى ويسمونه الوليد بن مصعب . ويؤكد بعضهم ان هذا الاخير مصري الجنس ودليلهم على ذلك ان الاولان كانا يعطفان على الاجانب ، أما الثالث فكان ينقم عليهم .

— دولة عاد الأولى —

لما نزح عرب الشمال بعد سقوط الدولة الحمورابية الى جنوب جزيرة العرب ، في القرن العشرين قبل المسيح كما قلنا ، كوّنوا دولة عاد الاولى . وكانت مواطنهم بأحقاف الرمال بين اليمن وعمان . ومؤرخو العرب يزعمون أن عاداً أقدم الامم . ولذلك فانهم يطلقون وصف « عادي » على كل شيء قديم لا يعلم لهم تاريخه . ويذكرون لهم أموراً من الغرابة بمكان : كقولهم ان عاداً عاش ١٢٠٠ سنة وولد له ٤٠٠٠ ولد ذكر لصلبه ، وغير ذلك مما يمكنك مراجعته في تواريخهم . وذكروا أن عاداً لما مات تَملّك بعده بنوه : شديد ، ثم شداد ، ثم ارم . وقالوا ان شداداً هو الذي بنى مدينة إرم ذات العماد ، وقالوا في وصفها ما فاق الغرابة نفسها باهتة أمامه '' على أن بعض المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ » انها ذات الرفعة ، وان إرم اسم جدهم : وبه يكون ذات العماد وصفاً لعاد . ويؤيد ذلك نسبتهم الى إرم : فيقولون عاد إرم وثمود إرم . ولا يبعد أن كان لعاد من شامخ البنيان في مملكتهم هذه ما كان لغيرهم في ذلك الوقت في ممالك الشام ومصر والهند وسواها ، يدل على ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء خطاباً لهم : « أتبنون بكل ريع (مرتفع) آية (فسروها بالبناء العظيم) تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ،

وفي مدة شداد بغت عاد وأكثروا من الظلم والفساد ، فأرسل الله تعالى اليهم هوداً . فدعاهم الى ترك الاوثان وعبادة الرحمن ، فكذبوه وعادوا في ضلالهم . فانقطع عنهم المطر مدة ، فأرسلوا وفداً منهم الى مكة يستسقون ، ولكنهم استمروا في طغيانهم . ولما رأى هود أن سخط الله نازل بهم لا محالة ، اعتزلهم وابتعد عنهم مع من آمن به . وسخر الله عليهم ريحاً مدة سبع ليال وثمانية أيام حسوما (متتابعات) فأهلكتهم .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن عاداً الاولى اعماهم من قبل عرب الرعاة بعد طردهم من مصر : وعليه يكون ابتداء حكمهم بالاحقاف فى العصر السابع أو السادس عشر قبل الميلاد .

ولما هلكت عاد بقى هود ومن آمن معه . وانضم اليهم لقمان بن عاد الذى كان ذهب بوفدهم الى مكة (١) ، ولحق بهم خلق كثير فأقاموا دولة جديدة يسمونها عاداً الثانية ، دام ملكها ألف سنة ، ثم تغلب عليهم القحطانيون فانمحت دولتهم وانقطع ذكرهم .

وعلى كل حال فان النقابين لم يكشفوا لنا الآن شيئاً من أخبارهم ، وغاية ما ذكروه أنهم اعثروا فى تلك الاحقاف على مغاير محفوره فى الصخور التى تراكمت عليها طبقة كثيفة من الرمال . ولعلهم يبيدون لنا قريباً هذه الحجب التى اختفت من ورائها أخبار دولة كبيرة لا يبعد انها خدمت الانسانية خدمة نذكرها لها مع الشكر .

— المَعِينيّون —

المعينيون أو بنو معين قوم كانوا يسكنون شرق بلاد اليمن فوق حضرموت ، وكانت لهم بها دولة كبيرة . ومؤرخو العرب لم يحدثونا بكلمة عن هذه الامة . والذى أخبرنا بأمرها إنما هم أولئك المستشرقون ، وعلى الخصوص هاليفى الفرنساوى ، الذى أوفدته بلاده الى اليمن سنة ١٨٦٩ م ، واكتشف كثيراً من آثارها أهمها مدينة معين . وسار على أثره غلازر الالمانى وغيره ، وحدثونا بشئ من أخبار هذه الدولة . وقالوا ان بنى معين كانوا ذوى مدنية وكان اشتغالهم بالزراعة فى سفوح جبال اليمن وسهول حضرموت . وانهم أقاموا هناك السدود وفتحوا الخلجان وسيروا الماء الى مزارعهم . وقد اختلفوا فى تقدير عمر هذه الآثار : فبعضهم ذهب الى أنها من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وذهب آخرون الى أنها من القرن

(١) اذا اعتبرنا ان عادا لم تبرح الى بلاد اليمن الا في القرن العشرين على أصدق ما ذكره المؤرخون العصريون ، كان وفدهم الي مكة للاستسقاء انما كان بقصد الاستعانة بالكعبة بعد بناء ابراهيم لها ، لا كما قال بعض مؤرخي العرب من ان وفدهم كان قبل ذلك .

الثامن أو السابع . وقد كتب الاستاذ هومل بالالمانية كتابا فى لغتهم ولغة سبأ .

ولما كانت الخطوط التى على تلك الآثار مسمارية ولغتها بابلية، كان المعينيون من غير شك من عمالقة الشمال . ولا يبعد أنهم هم عاد الثانية، ان لم يكونوا نزحوا الى هذه البلاد فى تيار قدوم عاد الاولى اليها ، وربما كانت لهذه الغلبة عليهم، ولهذا لم يذكر اسمهم معها . وعلى كل حال فما دام المنقبون لا يفترون عن البحث عن آثارهم، فلا يبعد أن ينكشف لنا أمرهم فى القريب العاجل ان شاء الله .

ـ طسم وجديس ـ

هما أمتان يذكرهما مؤرخو العرب بأنهما من العرب البائدة . وقد كانتا تسكنان فى اليمامة شرق بلاد العرب . وكانت لطسم الكلمة السائدة لكثرة عصبتها . وكان مركز ملكها فى مدينة تسمى القرية وهى مدينة الحجر، ولا تزال بها آثارهم الى الآن . ويوجد فى مدينة جعده قصر يعبرون عنه بالعادى (و يعنون أنه قديم جداً) . وربما كانت لهذه الصفة نسبة صحيحة، وان هاتين الامتين انما قدمتا الى هذه البلاد مع عاد أو بعدها بزمن قليل . وربما كان لعاد الحكم عليهم، فلما هلكت بقيتا فى عزلة حتى دخلتا فى حكم التبابعة . وما زالتا حتى تملك من طسم رجل ظالم فاجر . فقضى بأن لا تزف فتاة من جديس الى بعلها قبل دخولها عليه . فانفت لذلك جديس وتحالفوا على قتله : فدفنوا اسلاحهم فى الرمل ودعوه الى وليمة عندهم، فحضر فى خاصة قومه . فهجموا عليهم وقتلوهم عن آخرهم . فذهب نفر من طسم واستصرخوا تبع حسان أبى سعد . فساق جنده على جديس . وقالت له طسم ان باليمامة امرأة تسمى الزرقاء تنظر من بعد ثلاث ليال، فنخشى ان هى أبصرتنا أخبرت قومها فيستعدون لنا . فأمر كل واحد من رجاله أن يأخذ فرعا من شجر فو يجعله أمامه . فلما فعلوا أبصرتهم الزرقاء قالت لقومها :

انى أرى شجراً من خلفه بشر * فكيف تجتمع الاشجار والبشر
ثوروا بأجمعكم فى وجه أولهم * فان ذلك منكم فاعلموا ظفر

فاستخفوا بقولها ولم يصدقوا قولها، فدهمتهم خيل تبع فأفنوهم عن آخرهم . ثم أصاب

ما بقي من طسم ما تشتت به شملهـم ، ونفرقوا الى جزائر البحرين وغـيرها ، و به قضى على ذكرهم . وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس للمسيـح .

— ثمود —

ومن أمم العمالقـة ثمود . نزحت من اليمن الى الشمال ونزلوا مـدائن صالح ، ثم كانت لهم بها دولة كبيرة ، وآثارهم فيها الى الآن ، وأهمها ما يسمونه قصر البنت ، الذى لا تزال توجد عليه نقوش يصعد تاريخها الى قبيل ميلاد المسيـح . ولقد اختلف المؤرخون فى انهم كانوا أصحاب السلطان على النبطيين الذين كانوا يسكنون فى بطره ، أو انهم كانوا تابعين لحكم عرب الانباط ، مما هو مشروح فى آخر باب من هذا الـكتاب عند الـكلام على مدائن صالح .

— القحطانية —

القحطانيون هم بنو قحطان بن سبأ الاكبر بن سام بن نوح . وكانوا يسكنون فى شمال جزيرة العرب ، ونزحوا الى بلاد اليمن فى القرن الثامن قبل المسيـح فى من نزح اليها بعـد تحـكم الآشوريين فيهم . وربما كانوا معاصرين للمعينيين ، وانتهى أمرهم بالتغلب عليهم ، وقاموا فى اليمن بدولة جديدة يسميها مؤرخو العرب سبأ الاولى .

ولقد ذكرها أعلمهم عرضاً عند الـكلام على سد مأرب . والهمدانى أول من شرحه لنا شرحا وافيا . وأتى من بعده أرنو ، وهاليفى ، وغلادر ، فى القرن الماضى فأيدوا قوله وزادوا عليه مما أخـذوه من الآثار التى نقلوا شيئاً كثيرا منها الى متاحف أوربا بعضها منقوش على أحجار و بعضها على برنز .

و يفهـم من مجموع ما قالوه ان مياه الامطار كانت تسكون فى بلاد اليمن بجبالها المرتفعة ، ثم تنزل على هيئة سيول كبيرة فى وديان الى الشرق والغرب . والوديان التى كانت تنزل الى شرق مدينة مأرب كانت تجتمع فى واد يسمونه الميزاب ، يرتفع عن سطح البحر بالف ومائة متر ، و يحيط به جبال من كل جهاته . وهذا الوادى يضيق من جهته الشرقية الشمالية و ينحصر بين

جبلين يسمونهما بلق الايمن و بلق الايسر فى مسافة ذكر الهمدانى انها ٦٠٠ خطوة، أى ٤٠٠ متر تقريبا ، وهنالك يسمى وادى أذينة، و بعده ينفرج الوادى انفراجا عظيما وتضيع فيه هذه السيول بلا فائدة . فاقام السبئيون على مسافة قليلة من مضيق هذا الوادى سدا من الحجر، طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعا كوّن مع جانبى البَلَقين الخارجين مجرى عموديا على مضيق أذينة يحوّل الماء عن مجراه الاصلى الى ذات اليمين وذات اليسار . وجعلوا الفتحتيه من جهتيه سدوداً ، فيما وراءها مجار يسير فيها الماء الى الجهة التى يراد سوقه اليها على حسب ارتفاعها أو انخفاضها . وهذا السد هو ما يسمونه سد العرم . وأول من بناه يثعمر ملك سبأ فى القرن السادس قبل المسيح . ووجدوا اسمه أخيرا منقوشا على جبل بلق فيما يقابل السد المذكور . وزاد فيه خلفاؤه بما كان يزيد فى فائدته . ولقد حصل من وراء هذا السد وترتيب المياه بواسطته، تنظيم الزراعة فى تلك الصحراء بما أتى بالخير الجسيم لبلاد اليمن الشرقية : لانه حولها من قفر بلقع الى رياض وجنان، حتى كانوا يعبرون عن الارض التى كانت فى يمناه بالجنة اليمنى، والتى فى يسراه بالجنة اليسرى .

ومازال هذا السد(١) حتى انكسر فحصل منه خراب جسيم قضى على دولة سبأ، وتشتت أهلوها فى جزيرة العرب : فنزلت خزاعة مكة ، ونزلت الاوس والخزرج يثرب (المدينة)، ونزلت الازد عمان واليمامة، وسار مزيقيا الى الشام فكان منهم الغسانيون ، ونزحت لخم الى العراق وكان منهم المناذرة . وبذلك انتهى أمر سبأ الاولى وفى المثل : تفرقوا أيدى سبأ .

وقد ورد تاريخ سبأ بالتفصيل فى القرآن الكريم قال تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط(٢) وأثل وشىء من سدر

(١) بعد كسر هذا السد بناه ملوك حمير وكانوا يتعهدونه بالعمارة ويقيمون ما اعتل منه . وآخر ماوصلنا من أمره أثر لابرهة الاشرم محفور على بعض جهاته نقوش قرأها غلازر : وفيها كيفية دخول اليمن فى ملك الاحباش، وقد ذكر فيها ان سد مأرب كسر فبناه ابرهة (انظر كتاب العرب قبل الاسلام لجورجي زيدان) ثم كسر قبل الاسلام وأهمل ، ولا تزال آثاره موجودة وخصوصاً العربية منها . (٢) خمط: حامض وقيل هو الاراك أو العضا .

قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » .

دولة سبأ الثانية أو حمير

لما انهدم بنيان دولة سبأ الاولى ، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم ، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة في أيدي من بقي فيها . وكان لكل قصر أوقرية أومدينة أو قصر رئيس منها . وهؤلاء الرؤساء كانوا يسمونهم الأدواء : وكانوا يعرفون في الغالب باضافة اسم بلدهم اليهم (بلفظ ذو) فيقال ذو باعط ، وذو ريدان ، وذو ظفار مثلا يعني صاحب ناعط وصاحب ظفار الخ . وأشهر ما وصلنا من أسماء هذه القصور وبالغ شعراء العرب ومؤرخوهم في وصفها وخصوصاً الهمداني : قصر ناعط ، وقصر سلحين ، وقصر كوكبان ، وقصر غمدان ، وقصر بينون الخ .

وكان القوى من هؤلاء الادواء يتغلب بطبيعة الحال على بعض البلاد التي في جواره ويكون له الحكم فيها ، وهنالك يسمى مجموع مملكته محفدا ، وصاحبه يسمى قيلا . وربما اجتمعت جملة محافد في حكم شخص واحد فيسمونها مخلافا وحاكمها يسمى ملكا : وعلى هذا كان شأن الدولة في حمير في صغرها وضخامتها .

وما زالت الحال في هذه البلاد على هذا النظام حتى قام صاحب ريدان (ظفار) واسمه علهان ، في نهاية القرن الاول قبل المسيح ، وتغلب على جملة مخاليف ومحافد تكونت منها مملكة حمير الثانية [1] . ومازالت هذه المملكة تكبر في زمن خلفائه حتى دخل في دائرتها

(١) ذكر حمزه الاصفهاني ان ملوك حمير ستة وعشرون ملكا ، مدة حكمهم ١٧٠٠ سنة . وهم : الحارث الرايش ومدة حكمه ١٢٥ سنة . أبرهه دو المنار وحكمه ١٨٣ سنة . افريقش بن ابرهه وحكمه ١٦٤ سنة . العبد ذو الادعار وحكمه ٢٥ سنة . هدهاد بن شرحبيل وحكمه ٧٥ سنة . بلقيس بنت هدهاد وحكمها ٢٠ سنة . ناشر ينعم وحكمه ٨٥ سنة . شمر يرعش وحكمه ٣٧ سنة . أبو مالك وحكمه ٥٥ سنة .

حضرموت وما والاها من البلاد شرقا مدة حكم شمر يرعش، فى نهاية القرن الثالث للميلاد، وبها قامت دولة التبابعة (واحدها تُبّع) ومعناه ملك الملوك، وهو فى قوة لفظ امبراطور عند الرومان. واستمر الحكم فيها لخلفائه الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد، أى مدة ٢٣٠ سنة، تولى الحكم فيها جملة ملوك منهم [١].

وأشهر ملوك التبابعة الهدهاد، وكان يحكم من سنة ٣٤٥ الى سنة ٣٧٤ بعد الميلاد. ثم أبو كرب أسعد وكان يحكم من سنة ٣٨٥ الى سنة ٤٢٠ بعد الميلاد. وحسان بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٠ الى سنة ٤٥٥. وذو نواس وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥.

ولقد كانت حكومة التبابعة فى غاية الرقى، وكانت بلادهم تسمى عند الرومان ببلاد العرب السعيدة، والعرب يسمونها اليمن الخضراء وكانت حضارتهم لا تقل عن حضارة الآشوريين وغيرهم من الممالك التى كانت فى شمال جزيرة العرب ان لم تزد عنها: وذلك لاحتكاكهم بتجار

تبع بن الاقرن وحكمه ٥٣ سنة. ذوجيشان وحكمه ٧٠ سنة. الاقرن بن أبى مالك وحكمه ١٦٣ سنه. كايكرب وحكمه ٣٥ سنة. أسعد أبو كرب وحكمه ١٢٠ سنة. حسان بن تبع وحكمه ٧٠ سنة. عمرو بن تبع وحكمه ٦٣ سنة. عبيد كلال وحكمه ٧٤ سنة. تبع بن حسان وحكمه ٧٨ سنة. مرثد بن عبيد وحكمه ٤١ سنه. وليعة بن مرثد وحكمه ٧٣ سنة. ابرهه بن الصباح وحكمه ٠٠٠ صهبان بن محرث وحكمه ١٥ سنة. حسان بن عمرو بن تبع وحكمه ٥٧ سنة. ذوشناتر وحكمه ٢٧ سنه. ذونواس وحكمه ٢٠ سنة. ذوجدن وحكمه ٨ سنين وعليه يكون أولهم وهو الحارث الرائش كان يحكم فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد. وقد سار المؤرخ نويل دى فرجيه على نحوه فى كتابه تاريخ العرب، ويخالفهما فى ذلك أبو الفداء وغيره من مؤرخى العرب.

(١) فى عدد ملوك التبابعة وأسمائهم ومدة حكمهم خلاف بين مؤرخى العرب والمؤرخين العصريين الذين بنوا حكمهم على ما عثروا عليه من آثارهم. وملوك التبابعة على ما جاء فى كتاب العرب قبل الاسلام هم: شمر يرعش وحكمه من سنة ٢٧٥ ميلاديه الى سنة ٣٠٠. ثم ذو القرنين الصعب (افريقش) وحكمه من سنة ٣٠٠ الى ٣٢٠. وعمرو زوج بلقيس وحكمه من ٣٢٠ الى ٣٣٠. بلقيس وحكمها من ٣٣٠ الى ٣٤٥ (وهى غير بلقيس سليمان لان هذه كانت فى العصر العاشر ق م). الهدهاد أخو بلقيس وحكمه من ٣٤٥ الى سنة ٣٧٤. ملكيكرب يهنعم وحكمه من ٣٧٤ الى ٣٨٥. أبو كرب اسعد وحكمه من ٣٨٥ الى ٤٢٠. حسان بن أسعد وحكمه من ٤٢٠ الى سنة ٤٢٥. شرحبيل يعفر بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٥ الى سنة ٤٥٥. شرحبيل ينوف وحكمه من سنه ٤٢٥ الى سنة ٤٧٠. معد يكرب يهنعم وابنه لخيعة (لعله لهيعه) وحكمهما من سنه ٤٧٠ الى سنه ٤٩٥. مرثد اللات ينوف وحكمه من سنة ٤٩٥ الى سنة ٥١٥. ذونواس (دميانوس) وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنه ٥٢٥. ذوجدن وحكمه من سنة ٥٢٥ الى سنه ٥٣٣.

الهنود والفرس والاحباش والمصريين والسوريين . وكانت الزراعة متقدمة فى بلادهم التى كانت لذلك العصر كلها مزارع وبساتين ورياضا وغياضاً . وكانوا يستخرجون من جبالهم المعادن المختلفة كالذهب والفضة والاحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والعقيق . وبذلك كان السبئيون والحِمْيَريّون من أغنى أهل الارض وأكثرهم حضارة ورفاهية : فكانت لهم القصور الفاخرة ، والرياض الزاهرة ، والرياش الباهرة ، وحسبك ما قاله الشعراء وذكره المؤرخون فى وصف قصورهم ، نذكر لك بعض ما قاله الهمدانى فى وصف قصر كوكبان : « كان مؤزّر الخارج بالفضة ، وما فوقها حجاره بيض ، وداخله ممرّد بالرعر والفسيفساء والجزع (١) وصنوف الجوهر » . وقيل فى وصف قصر بينون :

واسأل بينون وحيطانها ❊ قد نُطّمت بالدر والجوهر

ولم يقتصر حكم التبابعة على اليمن بل امتد الى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية وغيرها ، بل تعدت فتوحاتهم فى زمن أسعد أبو كرب وولده حسان الى الشام وبلاد الفرس والهند . وكانوا يقيمون على العرب حكاما منهم يسمونهم ملوكا : كزهير بن حباب الكلبي وغيره . وكانت وفود العرب تفد عليهم من جميع أطراف الجزيرة ، يبثون اليهم شكواهم ، أو يستمطرون من جدواهم . ومازال حكم التبابعة قائما فى اليمن حتى نقم ذو نواس على نصارى نجران ، فأساء معاملتهم ، وأخذ يقتل فيهم ظلما لانهم على غير ملته ، وكان يهوديا . ثم بالغ فى نقمته عليهم فحدّ (حَفَر) لهم أخدودا (حفره) وأضرم فيه النار ، وكان يرمى فيه كل من لم يرجع عن النصرانية . وقد وردت قصة أصحاب الاخدود اشمئزازاً مما أصابهم من الاعتساف فى سورة البروج : قال تعالى « قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود الخ » . واستنجد أهل نجران بنجاشى الحبشة وكان نصرانياً فأرسل الى اليمن جيشاً عليه أرياط ، وكان من ضباطه رجل يقال له أبرهة الاشرم . فلما علم ذو نواس بهم قابلهم وقاتلهم قتالا شديدا ، ولكنه انهزم وخاف من سقوطه فى يد عدوه فأغرق نفسه . وبذلك تم للاحباش الاستيلاء على أغلب بلاد اليمن . ومات أرياط بعد أن حكم البلاد عشرين سنة ، فتولى

(١) حجر يمانى يشبه العقيق وهو ما يسمونه عين الهر .

عليها أبرهة ، وجعل عاصمته صنعاء . وكان منه ما كان فى حملته على مكة و رجوعه الى اليمن مقهوراً ، فمرض ومات بعد أن حكم ٤٣ سنة . وتولى الملك بعده ابنه يكسوم وكان حكمه عشرين سنة كلها ظلم وجور . ثم ملك بعده أخوه مسروق بن أبرهة وكان أكثر ظلماً من أخيه . ولما هلك ذونواس قام أمير من قرابته اسمه ذو يزن (جدن) واستولى على بعض البلاد واستمر ملكه فيها نحو ثمان سنين . ثم تغلب عليه الحبشة فقتل نفسه ، وفر ابنه سيف الى قيصر الروم يستنجده ، وأقام ببابه سبع سنين ، فأبى أن ينجده . فسار الى كسرى أنوشروان فوعده بمساعدته ، ووجّه معه رجلا اسمه وهرز فى جيش من المسجونين وقال « ان هم فتحوا كان لنا وان هم هلكوا كان لنا » . وركب وهرز ومن معه البحر فلما وصلوا الى اليمن التقوا بيكسوم ورجاله ، فكانت الدائرة على الاحباش : وقتل يكسوم فى الواقعة وانهزم جيشه . وتبعهم الفرس فأثخنوا فيهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا . وبذلك دانت لهم البلاد ، وجلس سيف بن ذى يزن على كرسيها . وأتته وفود العرب تهنئه بالملك ، وأتاه عبد المطلب سيد قريش فى نفر من قومه فاكرم وفادتهم . وبعد مدة من حكمه قتله حجّابه وكانوا من الحبشة . وبه كان آخر حكم التبابعة فى اليمن التى صارت بعد ذلك تابعة لمملكة الفرس . حتى اذا كانت السنة التاسعة للهجرة أسلم أهل اليمن ، وأرسلوا وفداً منهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . فأرسل اليهم معاذ بن جبل وجعل له الامارة عليهم ، وأوصاه بهم خيرا . وكان عامل كسرى عليهم اسمه باذان فأسلم وبه صار حكم اليمن الى المسلمين .

— دولة كندة —

كندة بطن من كهلان ، كانت نزحت من اليمامة فى أوائل القرن الخامس من الميلاد وسكنت فى شمال حضرموت فى بلد سميت باسمهم . وكان سيدهم حجْر بن عمرو المشهور بآكل المرار ، له علاقة بحسان بن تبع ملك حِمْيَر ، لانه كان من أعوانه فى فتوحاته بشمال جزيرة العرب ، فولاه ملكا على قومه . وكان حجر ذا همة وشجاعة ودراية . فاستنجدت به بكر بن وائل على اللخميين ملوك العراق ، وكانوا غلبوهم على بلادهم وأجلوهم عنها . فسار مع بكر اليهم وحاربهم واستنقذ منهم أرض بكر . فولاه حسان ملكا على العرب . فسار الى نجد وجعل مقامه

بها فى بطن عاقل، ومازال به حتى مات . وتولى بعده ابنه عمرو، و يسمونه المقصور لاقتصاره على ملك أبيه . ثم خلفه ابنه الحارث . واتفق ان قباذ ملك الفرس نقم على المنذر بن ماء السماء فطرده عن الحيرة، وأقام الحارث مكانه على مُلكها . فلما ملك أنوشروان، أعاد المنذر وطرد الحارث فهرب الى ديار كلب ومات بها . وكان للحارث ولد اسمه حُجْر كان ولاه على أسد، فتنكروا له وقتلوه فى دمون باليمن فاستنجد عليهم ابنه امرؤ القيس الشاعر المشهور ببكر وتغلب، فساروا لنجدته وهو بت أسد من وجهه . ولما علم به المنذر بن ماء السماء سار فى طلبه فتفرقت جموعه . فاستنجد امرؤ القيس بابن ذى جدن ملك حمير وسار الى المنذر فى جمع من العرب . وكانت الدائرة على ابن حجر، فانهزم وسار يتنقل من قبيلة الى أخرى حتى قصد السموأل بن عاديا، وترك عنده قوسه ودروعه، ثم سار الى قيصر الروم يستنجد به فلم ينجده . فرجع من عنده خائباً ومات من الحزن فى سنة ٥٦٠ للميلاد، وهو آخر ملوك كندة .

— دولة تنوخ بالعراق —

اختلف النسابون فى أصل تنوخ: فمنهم من يجعلهم قحطانيين ومنهم من يجعلهم عدنانيين . ومع أننا أخذنا بالقول الثانى فى شجرة القبائل العربية، فانا ذاكروهم هنا لانهم هم الذين شادو الدولة العربية فى العراق، وخلفهم عليها اللخميون بلا فاصل بين الدولتين: وذلك ان تنوخ (١) لما نزلت بالعراق كونوا فيها لهم دولة عظيمة فى أوائل القرن الثالث للمسيح . وأول من قام بها مالك بن فهم أول ملوكهم . ثم خلفه عليها ابنه جُذيمة الابرش، المشهور بدهائه وقوته وشجاعته وحسن رأيه . وكانت له حروب مع ملك من العمالقة اسمه عمرو بن الظرب، كان ملكه فى مشارف الشام، و بعضهم ذهب الى أن عاصمة ملكه كانت مدينة تَدْمُر، فقتله جذيمة . وكانت لعمرو بنت اسمها الزَّباء (واليونان يسمونها زينوبى ولعله محرف عن زنوبه) فاحتالت على جذيمة فقتلته فى ثار أبيها . وكان جذيمة لم يعقب نسلا . وكان زوّج أخته رقاش

(١) كان لتنوخ فرع تولى الحكم فى مشارف الشام للرومانيين ولم تطل مدتهم حتى تملك عليها بنو سليح وهم بطن أخرى من قضاعه . وما زال هؤلاء حتى غلبهم عليها الغسانية .

برجل من لخم اسمه عدى وكان من ندمانه، فولدت له ولدا نجيباً اسمه عمرو، وكفله خاله ورباه أحسن تربية. فلما قتل جذيمة تولى عمرو بن عدى الحكم بعده على الحيرة. وبه انتقل الملك من تنوخ الى لخم.

وأراد عمرو أن يأخذ بثأر خاله فاحتال هو أيضاً على الزباء بواسطة عبد له اسمه قصير: فجدع قصيراً أنفه، وسار الى الزباء يشكو اليها ابن عدى. وأرسل عمرو بالرجال اليه فى صناديق، وقصير يوهم أنها أمواله. فلما كان الليل خرجت الرجال ووضعوا السيف فى قوم الزباء فهربت ولحق بها ابن عدى. فلما تحققت فتكه بها، كان بيدها سم فتناولته قائلة «بيدى لا بيد عمرو».

— دولة اللخميين بالعراق —

كانت ملوك الحيرة تابعة لدولة الفرس. وكانوا يستعملونهم فى الوقوف فى وجه من يقصدهم من الرومان من جهة الغرب، كما كان الرومان يستعملون الغسانية لصد هجمات من يقصدهم من جهة الشرق. وكان للخميين (ويسمونهم بنى نصر) دالة كبيرة على الملوك الساسانيين، ولهم عندهم مكانة اجلال واحترام، وكانوا يلقبونهم بملوك العرب: فعظم جاههم واشتهر أمرهم بين قبائل العرب، وقدمت عليهم وفودها، وقصدهم شعراؤها وانقطع لمدحهم جملة منهم النابغة الذبيانى، وطرفة، والمتلمس، وحسان وغيرهم.

وأغلب ملوك اللخميين من ذوى الهمة والعزة والسلطان. وأشهرهم ذكرا عند العرب النعمان بن المنذر لقرب عهده بالعصر الاسلامى. وحكمت هذه الدولة العربية الزاهرة من سنة ٢٦٨ الى سنة ٦٢٨ ميلاديه.

وهاك جدولا بملوكهم وتواريخ حكمهم مع ما اشتهروا به من الاعمال:

﴿ جدول ملوك اللخميين بالحيرة ﴾

﴿ إسم الملك ﴾	مدة الحكم من سنة م	الى سنة م	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
عمرو بن عدى بن نصر	٢٦٨	٢٨٨	هو الذى كون دولة اللخميين فى العراق .
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨	٣٢٨	اتسع سلطانه وامتد على قبائل العرب غربا وجنوبا، ودخل فى حكمه قبائل مذحج وربيعة ومضر، وحارب شمّر ملك حمير . وقد وجدوا اسمه مكتوبا بالعربية على قبر فى حوران ولعله كان ذهب اليها فى غزوة فمات ودفن بها .
عمرو بن امرئ القيس	٣٢٨	٣٧٧	ملك نحو نصف قرن وكان معاصراً لسابور ذى الاكتاف، وكانت مدته كلها خير ورخاء .
أوس بن قلام	٣٧٧	٣٨٢	ليس من اللخميين ولكنه تغلب عليهم واستمر على ملك الحيرة حتى قتله رجل من بنى نصر فرجعت الدولة اليهم .
امرؤ القيس بن عمرو الثانى	٣٨٢	٤٠٣	ليس له عمل يذكر .
النعمان الاعور بن امرئ القيس	٤٠٣	٤٣١	كان مهيباً حازما كثير الحروب، غزا الشام مرارا . وكان يغزو كل قبيلة من العرب لا تدين له . واجتمع له من الاموال مالم يجتمع لاحد من سلفه . وهو صاحب قصر الخَوَرْنَق، بناه له سنمّار، فلما أعجبه قطع يده حتى لا يبنى لغيره مثله وكان بينه و بين زهير بن قيس العبسى صلة نسب . و فى آخر أيامه زهد الملك وهام على وجهه فى القفار ولم يعلم من أمره شئ بعد ذلك .
المنذر بن النعمان بن امرئ القيس	٤٣١	٤٧٣	كان من أعوان ملوك الفرس . وكان معاصرا لىزدجرد (يزدكرد) و بهرام، وحارب جيوش الروم الذين كانوا يقصدون فارس وانتصر عليهم انتصارا باهرا .
الاسود بن المنذر بن النعمان	٤٧٣	٤٩٣	استصرخ به عمرو بن أذينة فى أخذ ثار خال له قتله الغسانيون فسار اليهم وحاربهم .

جدول بملوك اللخميين بالحيرة

إسم الملك	مدة الحكم من سنة م	مدة الحكم الى سنة م	أعماله ومناقبه
			وأسر كثيرا من وجوههم وقتلهم فيه .
المنذر بن المنذر بن النعمان	٤٩٣	٥٠٠	ليس له ما يستحق الذكر .
النعمان بن الاسود	٥٠٠	٥٠٤	أمضى مدة حكمه فى حرب الروم بالشام وغيرها
علقمة أبو يعفر	٥٠٤	٥٠٧	من غير آل نصر وليس له ما يذكر .
امرؤ القيس بن النعمان	٥٠٧	٥١٤	ليس له ما يذكر .
المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء .	٥١٤	٥٦٣	هو أشهر ملوك اللخميين . وقد حصل بينه و بين قباد ملك الفرس خلاف أفضى الى تولية قباد للحارث الكندى على الحيرة . فهرب المنذر ومازال محتفيا حتى مات قباد وتملك ولده أنوشروان . فتقدم عليه المنذر فرحب به وولاه الحيرة ثانيا . وكان له يومان (١) يوم بؤس و يوم نعيم : فمن وفد عليه فى بؤسه قتله ، ومن وفد فى يوم نعيمه أهال عليه عطاياه . وحارب المنذر بكر بن وائل فى يوم أوارة ثم قتل فى حرب بينه و بين الحارث بن جبلة الغسانى فى واقعة يسمونها ذات الخيار أو يوم اباغ .
عمرو بن هند مضرط الحجارة ابن المنذر بن ماء السماء	٥٦٣	٥٧٨	كان ذا همة علياء وشيمة شماء ، وكان صاحب خيلاء وكبرياء . دعا كبراء العرب يوما فوفدوا عليه ، ووفد عليه عمرو بن كلثوم التغلبى مع أمه بدعوة منه . فلما دخلت أم كلثوم على هند ، أرادت هند أن تستخدمها فقالت واذلاه !! فسمعها ابنها فاستل سيف بن هند وهو معلق فى السرادق وقتله به ، ثم خرج مع من كان معه من تغلب .
قابوس بن المنذر	٥٧٨	٥٨١	كان ضعيفا وله يوم طخفة مع بنى يربوع .
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨٢	٥٨٥	قتل يوم حليمة فى حرب بينه و بين الغسانية .

(١) ذكر بعض المؤرخين ان الذي كان له هذان اليومان هو النعمان بن المنذر أبو قابوس .

جدول بملوك اللخميين بالحيرة

إسم الملك	مدة الحكم من سنة م	مدة الحكم الى سنة م	أعماله ومناقبه
النعمان بن المنذر أبو قابوس	٥٨٥	٦١٣	بلغت الدوله فى أيامه منتهى الشرف . وهم عليه كسرى وطلبه فهرب الى طئ وطلب منها أن تمنعه فابت . فنزل على هانئ بن مسعود سيد بنى شيبان . وكان هانئ عزيزاً ، فأودعه أهله وسار الى كسرى فأمر به فسجن حتى مات فى طاعون سنة ٦١٣م . وهو صاحب يوم السُّلاّن بينه و بين بنى عامر بن صعصعة .
إياس بن قبيصة الطائى	٦١٣	٦١٨	لما سجن أبو قابوس استعمل كسرى اياسا سيد طئ على العراق . فأرسل الى هانئ بن مسعود وطلب منه ما استودعه النعمان فابى . فاخبر كسرى وسار اليه بجمع كبير . فثبت لهم بنو شيبان وانتصروا على الفرس انتصارا بينا بذى قار . وكان ذلك سنة ٧ قبل الهجرة .
زاديه (زادويه)	٦١٨	٦٢٨	ليس له مايذكر .
المنذر بن النعمان المغرور	٦٢٨	٦٣٢	وهو آخر ملوك الحيرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة ٦ للهجرة ، أرسل العلاء الحضرمى الى البحرين ليدعو أهلها الى الاسلام أو الى الحرب . وأرسل معه كتابا الى المنذر يدعوه الى الاسلام فاسلم ، وأسلم معه جميع من هناك من العرب . و ولى رسول الله العلاء على البحرين ومكث بها حتى كانت خلافة أبى بكر فارتدت العرب . فاستنجد أهل البحرين بالمنذر فخضر اليهم وحاصروا العلاء فى حصن الجوثاء ، ومازال محصوراً حتى غافلهم وخرج عليهم ليلا وأوقع بهم و قتل المنذر فى هذه الواقعة وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة وفيها انتهى حكم المناذرة باستيلاء المسلمين على العراق .

الغسانية

كانت الروم تستعمل العرب الذين كانوا يسكنون بادية الشام للاستعانة بهم على عرب العراق الذين كانوا يستعملهم ملوك الفرس فى مناوأة الرومان . فاستعملوا أوّلا بطناً من تنوخ ، ثم استعملوا اسليحا ، ثم الضجاعمة ، وكلهم من قضاعة . حتى اذا نزح الغسانيون الى بلاد الشام تغلبوا على بنى ضجعم وأقاموا فى البلقاء ، وصارت لهم الكلمة فى تلك البادية بحكم العصبية ، فأقامهم الرومانيون على المحافظة على حدودهم وعلى حروبهم مع الفرس وغيرهم . وقد اختلف مؤرخو العرب فى عدد ملوك الغسانية : فقال حمزة الاصفهانى انهم ٣٢ ملكا حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد ، وقال آخرون غير ذلك . وذهب المؤرخ نولدكى الى أنهم عشرة فقط ، وأن ملكهم يبتدئ من أواخر القرن الخامس للمسيح كما هو مبين فى الجدول الآتى :

سنة الوفاة	إسم الملك	سنة الوفاة	إسم الملك
٥٠٠	جبلة أبو شمر .	(من سنة ٥٨٣ الى سنة ٦١٤)	الحارث الاصغر ابن الحارث الاكبر .
٥٦٩	الحارث بن جبلة .		» الاعرج ابن الحارث الاصغر .
٥٨٢	المنذر أبو كرب بن الحارث .		النعمان بن الحارث الاصغر .
٥٨٣	النعمان بن المنذر الغسانى .		عمرو بن الحارث الاصغر .
			حجر بن عمرو .
		٦٣٦	جبلة بن الايهم .

ولما كان التاريخ الذى حكم فيه جبلة أبو شمر يقرب من الزمن الذى وضعه له حمزة وغيره من مؤرخى اليونان ، كان اختلافهم فى تاريخ مبدأ هذه الدولة مبنياً على الوقت الذى ابتدأت فيه ضخامتها فى عهد جبلة المذكور .

وأشهر هؤلاء الملوك هو الحارث بن جبلة ، وكانت له منزلة كبيرة عند الروم لشجاعته وشدة بأسه وعظيم سلطانه على العرب . ولما مات تولى ابنه المنذر مكانه فحارب قابوس

ملك الحيرة وانتصر عليه . وذهب المنذر الى القسطنطينية فألبسه الامبراطور طيبار يوس التاج ولم يلبسه أحد قبله من الغسانيين . واستمرت سوريا في يد الغسانيين حتى حمل الفرس عليها وافتتحوها سنة ٦١٣م ، فذهبت دولة العرب منها ، وكان عليها حجر بن عمرو . فلما نهض هرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانية جبلة بن الايهم . وهو الذي وفد على عمر بن الخطاب في أشراف قومه وأسلم معهم ، وبينما هو يطوف حول الكعبة وطئ إزاره أعرابي فلطمه جبلة . فاشتكى الاعرابي الى عمر . فاستدعاه وخيّره بين القصاص أو استرضاء الاعرابي حتى ينزل عن حقه . فاستمهله جبلة حتى يرى رأيه وفر ليلا الى فلسطين وركب البحر الى القسطنطينية وأقام بها حتى مات .

وللغسانية كثير من آثار العمارة في بلاد الشام : خصوصاً في أذرح ، ونجران ، ومعان . ومن أسماء قصورهم : صَرْح الغدير ، والقصر الابيض ، وقصر المشتى ، والقلعة الزرقاء ، وقصر منار . وقد عثروا أخيراً على بعض آثار هذه القصور في حوران .

العدنانية

لما أتى اسماعيل عليه السلام الى مكة تزوج بها وولد له اثنا عشر ولدا ، ومازال نسله يتكاثر ، وكانوا يسمونهم بالاسماعيلية ، حتى أنتج بعد نحو عشرين بطنا حفيده عدنان . فولد له معد . وولد لمعد نزار فانجب أنمارا ، ومضر ، وقضاعة ، وربيعة ، وأيادا . وبارك الله تعالى في نسله فكان منهم العرب العدنانية . وكانت منازل هذه البطون الخمسة حول مكة في مبدأ أمرها . ثم اضطرتهم الحالة المعاشية الى طلب الرزق في جهات جزيرة العرب فنزحت قضاعة الى نجد ، وتفرعت الى بطون كثيرة منها : تيم اللات وقد نزحت الى البحرين ، وتزيد نزلت عبقر بأرض الجزيرة ، وسليم نزلت مسارح الشام وفلسطين ، وأسلم نزلت الحِجْر شمال المدينة ، وتفرعت في جهاته أفخاذها الاربعة : عذرة ، ونهد ، والحواتكة ، وجهينة . ثم تنوخ وقد نزلت الى أرض الحيرة . وربان بن حلوان نزحوا الى بادية الشام . وبلى أقامت جنوب العقبة . وبهرا وقد لحقت باليمن . ولقد تفرعت من هذه البطون أفخاذ كثيرة كانت أمهات لقبائل كبيرة مشهورة .

وأما أنمار فانها نزحت الى جبال السروات فملكوها وكان منها بطنان: بجيلة وخثعم. وقد تفرقت أفخاذهما فى جهات الجزيره. ونزلت اياد العراق، وكانوا يغيرون على بلاد الفرس فأجلاهم أنوشروان عنها، فتفرقوا فى أرض الروم وبلاد الشام.

ولم يكن من العدنانية قبل الاسلام دول تستحق الذكر، ولكن كانت ملوك اليمن تعطى لقب ملك لبعض سادات العرب وتوليهم الزعامة على القبائل: ومن هؤلاء الملوك زهير ابن جناب الكلبي، ولاه أبرهة الاشرم على قبائل العرب، فخرجت عليه بكر وتغلب، فسار اليهم وغزاهم وأسر وجوههم ومنهم وائل بن ربيعة المشهور بكليب وأخوه مهلهل، وعاد بهم الى بلاده. ومكث كليب وأخوه عنده مدة حتى هب قومهما وأنقذوهما من الاسر. وكان زهير قد أسن وعجز وتولى بعده عبد الله بن أخيه حكيم. ولما رجع كليب الى قومه أخذ يستميل اليه العرب ويعمل فيهم بكمال درايته وحسن ادارته وكثير كرمه وجوده، وجمع اليه معدا وأفهمهم مقدار ما يصيبهم من تبعيتهم لملوك اليمن. وسار بهم وحارب ابن حكيم، فانتصر عليه فى واقعة عظيمة يسميها العرب يوم خزاز، وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس للميلاد: وبذلك خرج العدنانية من تبعيتهم لملوك اليمن، ونادوا بكليب ملكا على العرب. ومازال أمر كليب يكبر حتى قتل ناقة لامرأة اسمها البسوس، كانت نزيلة على ابن عمه جساس، فقتله بها غيرة على جواره، وقامت لذلك حروب هائلة بين بكر وتغلب مكثت أربعين سنة ويسمونها حرب البسوس.

ومن ملوك العرب أيضاً قيس بن زهير العبسى وله حروب مشهورة. وفى آخر أيامه اعتزل الملك وذهب الى عمان، وترهب فيها ومات بها. وكان له ولد اسمه فضالة وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه.

• وأما قريش فقد كانت لهم فى جزيرة العرب الزعامة الدينية العامة لاستيلائهم على الكعبة وكان لهم بذلك فى العرب كلهم منزلة اجلال واعظام لا تقل عن منازل الملوك ان لم تزد عنها.

ومازالت القبائل العدنانية على بداوتها حتى ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش، ونشر دين الاسلام فى قومه، ثم هاجر الى المدينة، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر فى

قبائل بلاد العرب كلها، وما لبث أن تجاوزها شرقاً وشمالاً وغرباً، واستولى العرب في حكم الراشدين الذين كان مركزهم المدينة، على بلاد فارس والشام وأرمنيا والقوقاز ومصر و بلاد المغرب . وفي مدة الامويين انتقل مركز الخلافة الى دمشق . ووصلت فتوحاتهم الى المحيط الاطلانطيقي ، ودخلت جنودهم الى أوروبا من بوغاز جبل طارق، ومازالت تفتح في بلادها حتى وصلت الى قلب فرانسا . بل نفذت سراياهم الى قلب أوروبا لتوطيد عرش من كان يطلب حمايتهم من ملوكها . وفي ذلك العهد كنت ترى تجار المسلمين يسيرون بتجارتهم من بغداد الى القسطنطينية ، ومنها الى شمال اوروبا . وهنالك كانوا يتقابلون مع اخوانهم من التجار الاندلسيين، فيتبادلون تجارة بعضهم البعض ثم يعودون في أمان الله وحماية حكوماتهم الى بلادهم . و بقيت العرب في الاندلس أربعة قرون، وكانت لهم بها دولة راقية جدا ، كانت سبباً في رقي المدنية الاوروبية الحالية في أخلاقها وعلومها وصناعاتها .

وحكم العرب في الاندلس يبتدئ من سنة ٩٢ بعد الهجرة وهي التي دخل فيها طارق الى بلادها من مضيق الزقاق (بوغاز جبل طارق)، ثم تبعه سيده موسى بن نصير . ومازالا يفتحان في البلاد حتى خافهما الوليد بن عبد الملك فاستدعاهما ونكبهما . ومازالت الاندلس تابعة للدولة الاموية ، وكانوا يولون عليها ولاة بلقب أمير الى سنة ١٣٨ هـ . وفيها استولى عليها عبد الرحمن بن معاوية الاموي واستقل بها . والسبب في ذلك أنه لما سقطت دولة الامويين بدمشق . وقامت دولة العباسيين على يد السفاح أخذوا يتعقبون الامويين بالقتل ولم يفلت منهم الا القليل ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . فدخل الى الاندلس ولذلك يسمونه بالداخل ، فاجتمع عليه الناس و بايعه أهل أشبيلية وقرطبة وغيرهما . وتم استيلاؤه على الاندلس في سنة ١٤١ ، فجعل عاصمته قرطبة، وقطع الخطبة عن العباسيين، و بنى بها القصر والمسجد الجامع . ومازال بنوه عليها حتى اذا تربع ثامنهم عبد الرحمن الناصر في دست الامارة سنة ٣٠٠، لقبوه بأمير المؤمنين، و به ابتدأت الخلافة العربية بالاندلس . وحكم الناصر خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بهذه البلاد، وارتقت فيها العلوم والاداب والصناعات وخصوصاً بقرطبة التي صارت تناظر بغداد في

فخامتها وضخامتها. و بنى عبد الرحمن مدينة الزهراء، وأنشأ بها من القصور ما لا يصل اليه الوصف. و بالجملة فقد كانت مدته كلها نوراً وعرفانا وعزة وسعادة. وتولى بعدها ابنه الحكم سنة ٣٥٠، وكان محباً للعلوم: ولقد شيد داراً للكتب لم يشيد مثلها أحد من الملوك، وقالوا ان عدد كتبها نيف وأربعمائة ألف مجلد، وكان لها أربعة وأربعون فهرستا. وخلفه ابنه هشام سنة ٣٦٦، ومازالت الخلافة تنتقل فى بيه حتى تولاها أمية بن عبد الرحمن فى سنة ٤٢٢. وكانت الفتنة قد كثرت فى البلاد واشتدت فى مدته، فهرب ومات فى هربه، وهو آخر خلفاء بنى أمية فى الاندلس وعددهم ١٦ خليفة: كانت دولتهم من أحسن الدول شأنا، وأضخمها سلطانا، وأعلاها ذكرا، وأكثرها ثروة. ولا يزال من آثارهم قصر الحمراء فى غرناطة، والقصر المشهور بالكازار و بجانبه المنارة التى كانوا يرصدون عليها الكواكب فى أشبيلية، والمسجد الجامع فى قرطبة: وكلها آثار حية تفوق حد الاتقان فى صناعتها و زخرفها وفخامتها مما لا تصل الى تصويره مقدرة الواصفين، و يقف أمامه الحاضر باهتا لقدرة الانسان الغابر فى ذلك الزمن الزاهر! وسبحان من بيده الملك.

وقامت بعدها بالاندلس دولة العلويين فى سنة ٤٠٧، واستمرت الى سنة ٤٦٠. وأول ملوكها على بن حمود الادريسى. ولما بايعوه تلقب بالناصر لدين الله. وضعفت الخلافة فى مدتهم حتى صارت لا هيبة لها. وكان ذلك سببا لانقسام ملك الاندلس بين ملوك الطوائف: فقام باشبيلية محمد بن عباد و بنوه من بعده. وقام ببطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالافطس وأولاده من بعده. وقام بطليطلة ابن يعيش، ثم اسماعيل بن ذى النون. وقام بسرقسطة سليمان بن هود الجذامى. وقام بطرطوشة لبيب العامرى. وقام فى بلنسية المنصور المغافرى. وقام بسهلة عبود بن زير بن البربرى. وقام بدانية الموفق العامرى. وقام بمرسية بنو طاهر، ثم استولى عليها ابن عباد. وقام بالمرية خيران العامرى. وقام بمالقة بنو حمود. وقام بغرناطة حبوس الصنهاجى. الا أن الافرنج ابتدأوا يستعملون هؤلاء الرؤساء أسلحة بعضهم فى نحور البعض الاخر. ثم أخذوا بعد هذا الانشقاق يستولون على الاندلس بلدا بلدا، حتى استولوا على أشبيلية فى سنة ٦٤٥. فانحازت العرب الى غرناطة

والمرّية ومالقة وضاق الملك بهم بعد اتساعه .

وكانت هـذه البقية الباقية يتدافع عليها ابن هود مع محمـد بن الاحمر، وفى أثناء ذلك كان عـدوّهم ينقض على أطرافها شيئاً فشيئاً، حتى أخرجهم الى سـيف البحر . وهناك اجتمع عليهم جموع من المسلمين، وزحف اليهم رجال من البربر، فاستولوا على بعض النواحى . ولـكنهم مالبثوا أن استولى الاسبانيون على غرناطة عاصمة ملـكهم صلحا فى سنة ٨٩٧، بعـد أن أمنوا المسلمين على أنفسهم وأموالهم واعراضهم . ولـكنهم أخفروا عهدهم وأذاقوهم صنوف العذاب ، خصوصاً بعد أن تشـكلت محـكمة القسوس المسماة بمحكمة التفتيش (الانكيز سيون)، فقتلوا النفوس، وسلبوا الاموال، وهـدموا الآثار، وأحرقوا القصور والمساجد ، التى لم يبق منها الا ماوارته عن أعينهم يد الزمن !!! وتشتت المسلمون الى بلاد المغرب ، ولم يبق فى الاندلس منهم الا المستضعفون الذين قعدت بهم حالهم عن الهجرة، وما زالوا يسامون سوء العذاب حتى ذابوا بين البلاد . وللآن ترى بعض الاسماء بأسبانيا عربية محضة مثل: الفارس، والقائد، و رمانه، و ريدان، وفران، و رمضان، ونصار، وميمون الخ .

هذا ما كان من أمر الدوله العربيه الغربيه . أما دولتهم الشرقية، فقد كانت فى صدر الخلافة العباسـية فى أعز أيامها ، وأرفع أعلامها، وخصوصاً فى مدة الرشيد وولده المأمون، اللذين قاما بكل مافيه رقى الافـكار ، ونشر العرفان ، وتنشيط الصناعات : حتى صارت الدوله الاسلاميـة فى مدتهم مشكاه يستنير بها العالم الشرقى ، فى حـين ما كانت الدوله الغربيـة الاسلامية بالاندلس نبراسا يضىء ماحوله من الـكائنات .

فلما كانت خلافة المعتصم العباسى فى سنة ٢١٨ جمع كثيراً من المماليك الى خدمته : حتى بلغ عدد من التركمان والجركس مايزيد عن خمسين ألفا واتخذ منهم حراسا لنفسه، وولاهم محافظة الثغور . فاخـذت شوكتهم تزداد يوما فيوما حتى تغلبوا على الدوله، وصارت الخلفاء ألعوبة فى أيديهم، يولون من يشاءون، و يعزلون من يريدون، حتى اذا كانت خلافة المعز بالله استولى أحمد بن طولون [1] على مصر سنة ٢٥٤ . ثم أخذت عمال النواحى تتغلب على أطراف الدولة

(١) هو الذى كون الدوله الطولونية بمصر ومكثت قائمة بها من سنة (٢٥٤هـ) الى سنة (٢٩٢هـ) . وفيها

شيئاً فشيئاً حتى اذا كانت سنة ٣٢٢ ضعف أمر الخلافة العباسية بالمرة : فكانت فارس فى يد بنى بويه[١]، والموصل وديار بكر فى يد بنى[٢] حمدان، ومصر والشام فى يد الاخشيديين ، والاندلس فى يد بنى أمية ، والمغرب وافريقية فى يد الفاطميين ، والبصرة فى يد ابن رائق، وماوراء النهر فى يد بنى سامان[٣] ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم[٤] ، وجهة البحرين واليمامة فى يد القرامطة[٥]، ولم يبق فى يد الخليفة الا بغداد وضواحيها . وبذلك أصبحت الخلافة كأن لا وجود لها بالمرة .

قامت الدولة الاخشيدية الي سنة ٣٥٨هـ وفيها تغلبت عليها الدولة الفاطمية الي سنة ٥٦٧هـ . وفيها استولت عليها الدولة الايوبية الى سنة ٦٤٨هـ . ثم قامت بها دولة المماليك البحرية الي سنة ٧٨٤هـ ثم دولة المماليك البرجية (دولة الجراكسة) الى سنة ٩٢٢هـ . وفيها استولت عليها الدولة العلية العثمانية . وفى سنة ١٢٢٠ تولاها محمد على باشا جد العائلة الخديوية وصار ارثا تاما لنسله من بعده .

(١) هم من الديلم قاموا بدولة ملكت العراقيين وفارس والاهواز على يد عماد الدولة بن بويه سنة ٣٢٢هـ، فساسها أحسن سياسة وأدارها بعقل وحكمة حتى عظم شأنه واستولى على بغداد سنة ٣٣٤هـ ثم استولى على كثير من الجهات ومنها جرجان واصبهان وخورسان ، وخطب له على المنابر فى بغداد وغيرها، وكان وزيره الصاحب بن عباد، وما زال الملك فى بنيه الي سنة ٤٤٧ حيث نزعه منهم طغرل السلجوقي . واستمرت الدولة السلجوقية الي سنة ٥٩٠ . وفيها ظهرت الدولة الخوارزمية، وأول من قام بها محمد خوارزم شاه الذى بعد ان تغلب على سلاجقة ايران استولى على بغداد ومازال خلفاؤه بها حتى تغلب عليها التتار .

(٢) ظهرت دولة بني حمدان فى الموصل سنة ٢٩٣ ، ولقد عظم شأن هذه الدولة حتى امتد سلطانها على الجزيرة والشام، وبلغ من أمر ملوكها انهم استبدوا بالدولة العباسية وصارت لهم فيها الكلمة النافذة . وأشهر ملوكها سيف الدولة الذى كان حكمه من سنة ٣٣٠ الى سنة ٣٥٦هـ وفيها مات . ولكن مآثره بقيت منشورة على صفحات شعر المتنبي الذى قصر حياته على مدائحه . وممن اشتهر من بنى حمدان أبو فراس الشاعر المشهور .

(٣) بنو سامان كانوا ولاة من العجم على ماوراء النهر للعباسيين، فلما ضعفت الخلافة العباسية استقلوا بها حتى غلبتهم عليها الدولة الغزنوية فى سنة ٣٨٩ هـ .

(٤) بعد تغلب الديلم على جرجان وطبرستان استولوا على بغداد حتى غلبتهم عليها الغزنوية .

(٥) القرامطة نسبة الى رجل يقال له قرمط قام بالبحرين ودعا قوما من أهل البادية الي دين جديد ذهب فيه الي ان عيسى المسيح انما هو أحمد بن محمد بن الحنفية، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات: ركعتين قبل طلوع الشمس ،وركعتين قبل غروبها، وكانت كلمة توحيدهم أشهد أن لااله الا الله وأن ابراهيم رسول الله، وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وان الصلاة الي بيت المقدس ،وان الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء، وان يصام يومان في السنة يوم المهرجان

وفى خلافة الطائع لله ظهرت الدولة الغزنوية(١) سنة ٣٦٦ . وفى خلافة المقتفى لامر الله قامت الدولة الغورية (٢) سنة ٥٤٣ ، ثم ظهر أمر الغز(٣) سنة ٥٤٨ .

وفى سنة ٦٥٦ استولى التتار(٤) على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم العباسى ، ومن ثم انقطعت الخلافة العباسية ثلاث سنوات ، وفى سنة ٦٤٦ وصل من فرّ من العباسيين الى مصر فاستقبلهم الملك الظاهر بيبرس أحسن استقبال وأقام بها الخلافة باسمهم . ومات هولاكو سنة ٦٦٢ بعد أن ملك الشام والعراق وفارس وماوراء النهر . وانقسمت مملكته بين بنيه وبين اخوته وما زلوا حتى انقرض حكم ملكهم بتغلب تيمورلنك التترى على بغداد فى سنة

ويوم النوروز ، وان النبيذ حرام والخمر حلال ، ولا غسل من جنابة ، وان الوضوء كوضوء الصلاة وان يؤكل كل ذي ناب وذي مخلب . وظهر أمر القرامطة سنة ٢٧٨ هثم استفحل ملكهم حتى استولوا على مكة والبصرة والكوفة وهاجموا الخليفة فى بغداد . وفى سنة ٣٢٩ ضعفت شوكتهم وانحصرت سلطتهم فى بلاد هجر حتى تلاشى أمرهم .

(١) الغزنوية أسسوا دولة في شرق بلاد العجم سنة ١٦٦ه على يد محمود بن سبكتكين غلام اسحاق صاحب جيش غزنة للسامانية ، واتخذ غزنة عاصمة له ، وفتح بلاداً كثيرة فى الهند واستمر الملك فى بنيه الى سنة ٥٧٨ . وقام بالملك بعدها الدولة الغورية .

(٢) الدولة الغورية قامت بالملك بعد الدولة الغزنوية وامتد ملكهم الى الهند والسند واستمر حكمهم الى سنة ٦٠٤ ومن أحسن ملوكها غياث الدين الغورى الذى كان يلقب بقسيم أمير المؤمنين .

(٣) الغز طائفة من الترك كانوا فيما وراء النهر ثم رحلوا الى خراسان وكانوا كفارا ومن أسلم منهم كان ترجمانا بينهم وبين المسلمين . فاما أسلموا اسموا بالتركمان ، وحاربهم السلطان سنجر السلجوقي فكسروه وهزموه شر هزيمة واستولوا على خراسان سنة ٥٥١ .

(٤) التتار لفظ يطلق على مجموع قبائل كثيرة فى أواسط أسيا واشتهر أمرهم فى القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة . وأول من اشتهر من ملوكهم جنكيزخان في أول القرن الحادي عشر للهجرة . وكان يدخل فى ملكه خوارزم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان والعراقين العربى والعجمي والجزيرة . وبعد وفاته انقسمت مملكته بين بنيه ، وفي مدة ملكهم سار هولاكو أحدهم الى بغداد بتواطىء مع مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم بالله العباسى ، وحصلت بينه وبين جنود المستعصم واقعة انتهت بانهزام جنود الخليفة سنة ٦٦٥٦ ودخل التتار بغداد ونهبوها وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي مع من فيها من الاشراف ، وسبوا نساءها وفتكوا بأهلها ، وكانت خزائن بغداد عامرة بالكتب النفيسة فأخذها هولاكو وعمل بها جسرا فى الدجلة مرت عليه جنوده!

واستمرت دولة التتار قائمة الى سنة ٦٧٩٧ وفيها استولى تيمورلنك (تيمور الاعرج) المغولي عليها . ودخل بغداد وفتك بأهلها فتكا ذريعاً .

٧٩٨ . ولما مات سنة ٨٠٨ اقتسم بنوه مملكته : فاستقلت بلاد فارس[١] والتركستان[٢]، وأخذ ملوك بني عثمان[٣] الذين كان لهم الحكم في أسيا الصغرى كلها في التغلب على مادونها شيئاً فشيئاً، حتى اذا دخلت الشام في حكم السلطان سليم سنة ٩٢٢، سار الى مصر من سنته ودخلها فاتحا، ومكث بها حتى رتب أمورها ونظم حكومتها ثم سافر الى بلاده، وأخذ معه محمد المتوكل على الله الخليفة الثامن عشر العباسي . ثم تنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية . ومن هذا الوقت وهي في أيدي ملوك بني عثمان . ومن ثم انحصر ملك العرب في بلاد المغرب . ولهذا رأينا أن نقول كلمة صغيرة عن كل قسم من أقسامها لتكمل به الفائدة .

(١) فارس كانت في يد الخلفاء الي أن قامت بها الدوله العربويه من سنة ٣٨٧هـ الي سنة ٥٤٥هـ. ثم وقعت في يد السلجوقيين الى سنة ٧٤٥هـ . ومن ثم تجزأ حكمها الي جملة خانات ثم استولي عليها التركمان في سنة ٨١٠هـ الى سنة ٩٠٧هـ ثم ظهرت بها الدولة الصفوية الي سنة ١١٣٥هـ ثم تداولها جملة أمراء . وفي سنة ١١١٢هـ استولت عليها عائلة قاجار الحالية، وانفصلت عنها في مدتهم بلاد الافغانستان سنة ١١٦٠هـ

(٢) بلاد تركستان التي من أهم مدنها بخارى لم يتم فتحها الا على يد قتيبة بن مسلم الخراساني في سنة ٨٧ ثم دخلت في ولاية بني سامان حكام خراسان من سنة ٢٠٤ الى سنة ٣٨٩، ثم تولى عليها ايلك التركي . ثم دخلت في حكم السلجوقية . ثم استولى عليها جنكيزخان . ثم تغلب عليها حكومة اربك التركية مدة قرن ونصف . ثم انقسمت الي خانيات مستقلة منها خانية بخارى، وخانية سمرقند، وطاشقند، وخيوه . ودخلت هذه الخانيات في حكومة الروسيا واحدة واحدة في نحو نصف القرن التاسع عشر من الميلاد .

(٣) أول ظهور هذه الدوله انه لما اضمحلت دوله السلجوقيين في سنة ٦٩٩ تغلب على ملكها دول كثيرة صغيرة . وكان من ضمنها دوله الترك، وفي سنة ٦٩٩ ظهر أمر السلطان عثمان التركي في الاناضول واشتهر بفضله وعدله وبلغت فتوحاته الي بحر الروم غربا والدردانيل والبوسفور شمالا ثم فتح بورصة سنة ٧٢٦ . ولما مات استولي على ملكه ابنه أورخان فقطع البحر الي أوربا واستولى على مدينة غاليبولي وتولى بعده ولده مراد الاول فسار الى أوربا وأوغل في بلاد الصرب والبلغار والبانيا . وخلفه ابنه بايزيد وكسر ملوك فرنسا والمجر وألمانيا الذين تحالفوا عليه، ثم قصد فتح القسطنطينية فمنعه ان تيمور لنك ملك المغول قصد بلاده فسار اليه وحاربه فوقع في أسره ومازال به حتى مات . وقام بالملك بعده ولده السلطان محمد بن بايزيد فسترد ملك أبيه ومات سنة ٨٢٣ وتولي بعده أحفاده وما زال ملكهم حتى افتتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ ثم افتتح البوسنه والهرسك وطربزون واستولي على كثير من جزر الارخبيل . وما زال ملك بني عثمان حتى تملك السلطان سليم الاول فاستولى على ديار بكر وكردستان وحارب الفرس وانتصر عليهم ثم تركها الى حرب مصر فاستولى عليها سنة ٩٢٢ . وما زال خلفاؤه يتوارثون عرش الدولة العلية حتي آل أمرها الي سلطانها الدستوري (محمد الخامس) في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ م حفظه الله وجعل أيامه كلها خيرا وبركة .

— طرابلس —

كانت طرابلس أولا في يد البربر ، ثم دخلت تحت الحكم الروماني حتى افتتحها العرب سنة ٢٢ﻫ : وتولاها الاغالبة ثم العبيديون ثم الصنهاجيون ، ثم استولى عليها صاحب صِقِلّية واستردها منه الموحدون . ثم استولى عليها الاسبانيون ، وفي سنة ٩٥٠ حضرت الاساطيل العثمانيه وطردوهم منها واستولوا على البلاد وهي في قبضتهم الى الآن .

ومما نذكره مع الاسف الشديد أن دولة ايطاليا التي تمني نفسها من زمن بعيد باحتلال هذه البلاد ، قد اعتدت بلا سبب على الدوله العلية ، وأشهرت عليها الحرب على غرّة منها وسيرت أساطيلها الى طرابلس ، وكانت الدوله في شاغل بحروبها الداخلية عن تقوية ثغورها . وطلب الطليان من حاكم طرابلس أن يسلمهم المدينة فلم يقبل . فأطلقوا نيرانهم على قلاعها في يومي ٨ و ٩ شوّال سنة ١٣٢٩ ، فانسحبت الحامية الى داخلية البلاد استعداداً للحرب ونزل الطليان الى البر واحتلوا المدينة في يوم ١٥ منه الذي نكتب فيه كلمتنا هذه . ولا يعلم الا الله مصير هذه البلاد من بعد ذلك ، ولعل الدائرة تدور على الباغي . ولا حول ولا قوة الا بالله .

— بلاد الجزائر —

أصل هذه البلاد من قبائل زناته وصنهاجه من البربر . وفتحها الرومان في سنة ٥٣٤م ، ثم فتحها المسلمون في خلافة سيدنا عثمان بن عفان . وفي مدة العباسيين قامت بها الدولة الزيريه من سنة ٣٦١ الى سنة ٥٤٣ ، ثم استظهر عليها صاحب صِقِلّية روجير الثاني النورماندي . وفي سنة ٥٥٤ﻫ استولت عليها دولة الموحدين المراكشية الى سنة ٦٦٩ ، حيث تغلب عليها بنو زيان من الصنهاجيين ، وجعلوا تلمسان عاصمة لملكهم . ثم استولى عليها الاسبانيّون سنة ٩١٥ ، وطردهم منها أهل البلاد سنة ٩٢٢ بمساعدة القُرصان الذين كانت مراكبهم تغدو وتروح في البحر الابيض المتوسط متعقبة مراكب الاسبانيين ، موقعة بهم كلما عثرت على شيءٍ منهم . وكان رئيس القرصان يسمى باربار وس وكان على جانب عظيم

من الشجاعة ، فطهر أمره وهابته دول الفرنجة ، ومازال حتى مات سنة ٩١٩ وتولى عمله أخوه خير الدين باربا روس . وكانت مدينة الجزائر فى يد الافرنج مع بعض السواحل الغربية ، فحاربهم خير الدين وأجلاهم عنها ، وصارت له الكلمة فى كل بلاد الجزائر . وكثرت فتوحاته واتسع ملكه الى داخل افريقية .

و فى هذا الوقت كانت الدولة العثمانية قد استولت على الشام ومصر و بلاد الحرمين . فبادر خير الدين وأرسل بالهدايا الفاخرة مع مفاتيح البلاد الى السلطان سليم ، فأقره عليها . ومن ذلك العهد أخذت تزداد مكانته و يعظم سلطانه . وسافر خير الدين الى الاستانه فى مدة السلطان سليمان ، فاكرمه كل الاكرام وأنعم عليه بلقب باشا . و فى مدة اقامته بها قام شارلكان ملك فرنسا بجيش عظيم ومعه كثير من أهل أسبانيا وهجم على بلاد الجزائر . فقاتلهم حسن أغا نائب خير الدين على البلاد بجأش رابط ، وحاربهم وهزمهم شر هزيمة . ونزلوا الى البحر منهزمين الى بلادهم بعد أن غرق أغلب سفنهم . و فى تلك الاثناء صدرت الارادة السنية بتعيين خير الدين باشا رئيسا للبحرية العثمانية . ومن ثم أخذت الدولة العلية تعين ولاتها على الجزائر . ومازالت فى يدها حتى استولى عليها الفرنساويون سنه ١٢٤٧ ﻫ (سنة ١٨٣١م) وهى فى أيديهم الى الآن .

— تونس —

هذه الولاية كانت قديما فى يد البربر واستولى عليها الفينيقيون وأسسوا فيها مدينة قرطاجنة فى القرن التاسع ق م ، ولا تزال تشاهد آثارها قرب مدينة تونس . وكانت لهم بها دولة راقية استمرت الى منتصف القرن الثامن ق م . ثم استولى عليها الرومانيون الى أن فتحها العرب سنة ٢٧ ﻫ . وكانت هذه البلاد أولا فى أدارتها تابعة لولاية مصر ، حتى قامت بها دولة بنى الاغلب فى سنة ١٨٤ ﻫ ، فاستقلوا بها واستمرت فى يدهم الى سنة ٢٩٦ ﻫ . وفيها قامت دولة العبيديين (العلويين) ، ومازالوا بها حتى استولوا على مصر سنة ٣٥٥ فى مدة المعزّ لدين الله . وسار المعز اليها سنة ٣٦١ وجعلها مقرّه ، ونزل بالقاهرة التى اختطها جوهر سنة

٣٥٨ ، وجعل على افريقية يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى . واستمرت فى يد الصنهاجيين الى سنة ٥٤٢ . وفيها استولى ملك صقلية على أغلب ثغور تونس . فسار اليها الامير يوسف ابن عبد المؤمن صاحب مراكش بجيوش الموحدين ، فطردهم منها واستولى على تونس فى سنة ٥٥٥ . ومازالت فى يد خلفائه الى سنة ٦٠٣ . وفيها قامت بها دولة الحفصيين ومازالوا عليها الى سنة ٩٨٢ هـ . وفيها استولت عليها أساطيل الدوله العلية ومازالت تولى عليها ولاتها باسم دايات (مفرده داى) حتى صارت الولاية لمولاى حسن ابن على باشا رأس الدولة الحسينية الحالية سنة ١١١٧ . ومازالت فى بنيه حتى تولى عليها منهم الباى محمد الصادق باشا سنة ١٢٧٦ . و فى مدته أخذت فرنسا تعمل لضم بلاده الى حكومة الجزائر واستعملت لهذا الغرض وزيره مصطفى بن اسماعيل ، وكانت أملته ان هوسعى جهده فى وضع تونس تحت الحمايه الفرنساويه اقامته بايا عليها . فاخذ هذا الدنى فى خلق القلاقل وبذر بذور الفتن فى البلاد . ومازال يخيف الصادق من الدوله العلية من جهة ، ومن أهل البلاد من اخرى ، حتى طلب حمايه فرنسا وعملت بينه وبينها معاهدة بردو وأمضاها فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ . وفى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٨٢ مات محمد الصادق وتعين مكانه ولى عهده مولانا على باى الموجود الآن على منصتها ، ساعده الله على ما فيه خير بلاده وصلاحها .

— مراكش —

مراكش يسمونها بالمغرب الاقصى ، وأهلها من قبائل صنهاجة والبربر . استولى عليها الرومانيون سنة ٥٣٤ م ، وكمل فتحها للمسلمين سنة ٨٨ هـ ، وتم اسلام البربر سنة ١٠٠ هـ وفى سنة ١٧٢ وصل الى هذه البلاد ادريس بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على كرم الله وجهه فاراً من وجه العباسيين . فالتف عليه أهل المغرب من البربر وقاموا بالدعوة له وجعل مقره مدينة وليلى . ولما تمكن بها قدمه كوّن فيها دولة الادارسة ، وما زال الملك فى بنيه الى سنة ٣٧٥ . و بعدها دخل المغرب الاقصى فى حكم العبيديين الى ان

قامت به دولة المُلَثّمين أو المرابطين من صنهاجه سنة ٤٦٢ على يد يوسف بن تاشفين . ولما اتسع ملكه وعظمت شوكته اشترى مكان مدينة مراكش وبناها قاعدة له . وبنى فيها القصور الرفيعة والدور الواسعة وجعلها مقر سلطانه . وبعد أن مكن دعائم سلطنته فى المغرب، زحف الى الاندلس بدعوة من أهلها . ووقعت بينه وبين الفُونْس السادس (الاذِفونْش) ملك قشتاله حرب نصر الله فيها ابن تاشفين فى واقعة الزلاقة، وهى أكبر واقعة حصلت فى الاندلس ، واستولى بعدها على غرناطة ، ثم تغلب على ملوك الطوائف، وصار له ملك الاندلس والمغرب جميعا الى أن توفى سنة ٥٠٠ ، وتولى بعده بنوه بالاندلس الى سنة ٥٤٢ .

وكانت قامت بالمغرب الاقصى فى سنة ٥١٤ دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت الملقب بالمهدى . وبعد موته فى سنة ٥٢٤ ، خلفه بعهد منه وزيره عبد المؤمن بن على . ولما ظهر أمره وتمكن سلطانه سير جنوده الى الاندلس، فاستولى عليها تماما فى سنة ٥٤٥ . وهو الذى بنى مدينة جبل طارق سنة ٥٥٥ ، ثم تقدم بجيوشه فافتتح الجزائر وتونس والمهدية ، ومازال يتسع سلطانه حتى مات سنة ٥٥٨ ، واستمر خلفاؤه الى سنة ٦٧٤ . ثم تولى المغرب الاقصى دوله بنى مُرين الى سنة ٨٩٠ . ثم دولة بنى طاوس الى سنة ٩٦١ . ثم دولة الاشراف السعديين الى سنة ١٠٦٩ . ثم دولة الاشراف السجلماسيين وهم الحاكمون الى الآن .

وقد كانت البلاد على تمام الاستقلال فى مدتهم حتى كان ما كان من تداخل الاجانب فى بلادهم، وكثرة الثورات الاهلية بها، ثم عقد مؤتمر الجزيرة، وعزل السلطان مولاى عبد العزيز ، وتعيين مولاى السلطان عبد الحفيظ ، ثم ظهور فرنسا بالكلمة فى بلاده بمظاهرة الانكليز لها ، ووقوف ألمانيا فى طريقها للحصول على نصيبها هى الاخرى من هذه الغنيمة التى لم يذق حرارتها غير الفرنساويين . والدولتان لا تزالان الى يوم كتابتنا هذه الكلمات بين وعد ووعيد وصلح وتهديد وتراخ وتشديد وتقريب وتبعيد . وعلى كل حال فقد قضى على استقلال هذه البلاد الاسلامية التى بقيت حافظة له مدة ثلاثة عشر قرنا، وهى آخر الدول العربية والله يرث الارض ومن عليها، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

صفة جزيرة العرب

بلاد العرب يحدها شمالا بادية الشام الكبرى، وشرقا البحر الاحمر، وغربا بادية العراق وخليج فارس و بحر عمان، وجنوبا المحيط الهندى .

وأرض هذه البلاد فى الغالب رملية وخصوصاً فى وسطها فيما بين نجد وحضرموت والحجاز وعسير و بلاد عمان، حيث توجد الصحراء الكبرى التى يسمونها بالدهناء . وطولها اكثر من درجتين جغرافيتين وعرضها نحو درجة ونصف، وهى ما يسمونه بالربع الخالى: وهى قفر بلقع لا نبات فيها ولا ماء، اللهم الا بحار من تلك الرمال الناعمة التى تنقلها الرياح على الدوام من جهة الى أخرى، واذا صادفت حركتها مرور بعض القوافل التى تخاطر بنفسها فى السير على حافاتها التهمتهم وأغرقتهم فى جوفها وقبرتهم فيه كأنهم ما كانوا . و يمتد من شمال هذه الصحراء لسان يسير بين بلاد الحسا والقصيم ، ثم يميل نحو الغرب حتى يمر ببلاد الجوف و يتصل ببادية الشام التى يسمونها بالنفود الصغرى .

أما سواحل البلاد فهى عامرة بالسكان وفيها كثير من المزارع . و يقطع بلاد العرب، من الشمال الى الجنوب جبال السروات، وفيها العيون والانهار والبساتين النضرة والمزارع الكثيرة . و فى سفوح جبال اليمن يزرع البن الذى هو أحسن أنواعه فى جميع العالم . وأشهر جبال الحجاز جبل الهدى وكرا بالطائف، وأشهر جبال معان الجبل الاخضر، و فى نجد جبل العارض وجبل طويق، و فى شمّر جبل سلمى: وكل هذه الجبال عامرة بالسكان كثيرة الخير والبركة .

وتنقسم بلاد العرب الى ستة أقسام : الحجاز . اليمن و يتبعها عسير . حضرموت . عمان . البحرين . نجد و يتبعها الحسا .

أما الحجاز فهو اقليم مستطيل يحده غربا البحر الاحمر ، وشرقا البادية الكبرى، وجنوبا بلاد عسير . وشمالا بادية الشام، وطوله من الشمال الى الجنوب يبلغ ١٥٠٠ كيلومتر، وعرضه من الغرب الى الشرق يبلغ ثلثمائة كيلومتر . و يقطعه من الشمال الى الجنوب جبال السراة و يبلغ

ارتفاع بعضها ٨٠٠٠ قدما . وفيها مياه كثيرة وغابات و بساتين وقرى آهلة بالسكان من الاعراب . ومنحدرات هذه الجبال يتصل بها سهل الى البحر يسمونه تهامة ، وأرضه رملية و بعضها صالح للزراعة ، و يزرع فيها الحبوب وغيرها من الخضر .

و بلاد الحجاز ولاية عثمانية منذ سنة ٩٢٢ هجرية . وكانت قبل الاسلام تتبع فى الغالب لحكومة مكة لاسيما بعد ظهور قريش ، وكانت تتداولها بعده ولاة مكة والمدينة الى أن دخلت البلاد فى يد الدوله العلية : فصارت تعين الولاة من قبلها ، وتكون أمور البلاد الماليه والادارية فى أيديهم ، وتعين على أمارة مكة اميراً من الاشراف لينظر فى أمور العرب . وكان مركز الوالى أولا جدة فانتقل الى مكة سنة ١٢٨٧ . وللولاية مجلس ينظر فى أمورها الهامة : يتركب من قاضى مكة ، والدفتردار ، ومدير الحرم ، والمكتوبجى (كاتب أسرار الولاية) ، ومن نقيب الاشراف ، ونائب الحرم ، وصاحب سدانه البيت المعظم ، ومفتى الحنفية ، وقائمقام الشريف فى مكة ، ومدير الصحة ، ونقيب السادة الحسينية . و يوجد بمكة ديوان تميز أى محكمة نظامية تنظر فى الدعاوى المدنية والجنائية فى الدرجة الابتدائية ، وأحكامها تستأنف فى محاكم الاستانة . وتتركب هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف ، وثلاثه أعضاء منتخبين من أهالى مكة ، وقائمقام الشريف . وقاضى مكة يعين من قبل الدولة لسنة واحدة قمرية ، أما نائب الشرع فيعين لسنتين . ولهذه الولاية نواح وأخطاط يسمى متوليها مدير ناحية ، وحاكمها يلقب بقائمقام : ومنها الطائف ، ورابغ . ولكل قائمقامية مجلس يتركب من القائمقام ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية (و يسمونه مال مديرى) ومن بعض الاهالى الذين ينتخبهم شريف مكة . وايرادات الولاية تنحصر فى رسوم المحاكم النظامية و بيع ورق البول (وهى أوراق مثل طوابع البريد تلصق على الاوراق الرسمية بدل التمغة فى مصر) .

أما القبائل فلهم مجالس عرفية تنظر فى أمورهم ابتدائية واستئنافية ، وتتألف من القاضى و بعض الشيوخ و رؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم فى الحكم .

ولاصحاب القضايا حق رفض أحكام هذه المجالس واستئنافها عند الشريف ، وهو اما يؤيد أحكامها أو يعدّلها ويكون حكمه نافذ المعمول ، ولهم الحق أيضاً في انابة من يدافع عنهم امام هذه المحاكم .

وأهل الحجاز يقدرون باثنين مليون ونصف من النفوس ، وكلهم الا أهل مكة وجدة بدو يعيشون من ماشيتهم في الجبال ، اما أهل السواحل فهم يعيشون من صيدهم وزوارقهم . وهم في الغالب شوافع المذهب .

— اليمن —

اليمن ولاية عثمانية واقعة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب ، وطوله من الشمال الى الجنوب نحو ٧٥٥ كيلومتر ، ومن الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ كيلومتر . ويقدرون أهله بأربعة مليون من النفوس ، كلهم مسلمون على مذهب الزيدية الا القليل فهم من اليهود ، أما أهل عسير فهم وهابيون . وأرض اليمن تنقسم الى قسمين قسم السهول وتسمى تهامة وهي الى البحر ، وقسم الجبال وهي سلسلة من جبال السروات متصلة ببعضها من الشمال الى الجنوب ، وأعلاها جبل كوكبان ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٣٠٠٠ متراً ، وجميع هذه الجبال عامرة بالسكان وفيها عيون كثيرة تتكون منها أنهار تسير في وديان خصبة : منها ما يسير الى الغرب وتصب في البحر الاحمر وأكبرها وادي مشرف ، ووادي كانون جنوب المنفذة ، ووادي عاشور عند ثغر حلي ، ووادي السهام قرب الحديدة ، ووادي هندان الذي يمر بمدينة تعز ، والوادي الكبير قرب مُخا

أما الانهار التي تصب في المحيط الهندي فهي وادي الميدان ويصب قرب ميناء عدن ، ووادي داما ، ووادي الشارد اللذان يجريان قرب صنعاء وينحدران الى الصحراء أحدهما مار بخرائب مأرب والثاني بخرائب مَعِين ، ثم وادي نجران ، ووادي بيشة وغيرها . وبعض هذه الانهار تنعدم مياهه في الصحراء ولا تصل الى البحر الا في زمن شدة الامطار التي تكاد لا تنقطع في هذه البلاد مدة الشتاء والربيعين ، وبعضها يسير الى جهة الشمال والشرق ولا يلبث ان تتلاشى في جوف الرمال .

وقد عمل اليمنيون فى جميع الازمان لهذه الانهار وفروعها سدوداً كثيرة على حسب ما تسمح به نظاماتهم الزراعية، وكان أكبرها فى الزمن السابق سد مأرب الذى تقدم الكلام عليه: لهذا ترى ان هذا الاقليم زراعى، وكلما صعدت فيه الى أعالى الجبال وجدتها مكسوة ببساط أخضر مما يوجد عليها من المزروعات المختلفة، التى ترى الى جوارها غابات من الاشجار المثمرة أو غير المثمرة كالساج والعرعر وغيرهما.

وحاصلات اليمن الزراعية هى الدخن، ويزرعونه فى الجهات العالية وعليه مدار حياة الاهالى، والقمح، والشعير، والعدس، والسمسم، والدرة، والفول، والقطن، والنيلة، والتبغ، والخضر بجميع أنواعها، والفاكهة الكثيرة: ومنها الامبا (المانجو) واللوز والبرقوق ويسمونه نُخاري والتين الشوكى ويسمونه البرشومى أو الصابور، وأهم حاصلات اليمن البن.

وتنقسم اليمن فى ادارتها الى أربع لواآت: لواء صنعاء، ولواء تعز، ولواء الحُدَيّدة، ولواء عسير. وفيها نحو ١٩٠٠ قرية.

وحيث انا تكلمنا على تاريخ الدول التى قامت فى هذه البلاد قبل الاسلام، فيجدر بنا ان نقول كلمة على الدول التى قامت بها بعده فنقول:

لما أسلمت اليمن فى السنة العاشرة من الهجرة وسار بذلك وفدهم الى المدينة: ولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل. و بعد وفاته صلى الله عليه وسلم صارت اليمن تابعة للخلافة الاسلامية الى سنة ٢٠٤. وفيها أعلن محمد بن زياد عامل العباسيين عليها استقلاله، وسميت دولته بالدولة الزيادية وكان مركزها زبيد. واستمر حكم بنيه عليها الى سنة ٤٠٩ هـ. وفى أثناء ذلك قامت دولة اليعافرة فى صنعاء من سنة ٢٤٧ الى سنة ٣٨٧. ثم قامت الدولة النجاحية فى زبيد من سنة ٤١٢ الى سنة ٥٥٣. ثم الدولة الصليحية فى صنعاء من سنة ٤٢٩ الى سنة ٤٩٢. وكانت قامت فى صعدة الدولة الرَّسية فى سنة ٢٤٦، واستمرت الى سنة ٦٨٠ وكان أمراؤها من الزيدية، وينسبون الى الهادى يحيي حفيد قاسم الرسىّ أحد غلاة الشيعة فى زمن المأمون. ثم قامت فى عدن الدولة الزريعية من سنة ٤٧٦ الى سنة ٥٦٩. وفى هذه السنة دخلت اليمن برمتها فى حكم الايوبيين الى سنة ٦٢٥، وفيها

قامت الدولة الرسولية الى سنة ٨٥٠ وفيها قامت الدولة الطاهرية الى سنة ٩٠٦، وفيها استولى عليها قانصوه الغورى . ومازالت تابعة لحكم المماليك حتى دخلت فى حكم العثمانيين فى عهد السلطان سليمان القانونى حوالى سنة ٩٥٠ . ولكنها انسحبت منها سنة ١٠٤٣ لكثرة الثورات الداخلية التى كانت تقوم بها . فعادت حكومتها الى الائمة، وكانوا نقلوا مركزهم الى صنعاء . وحوالى سنة ١٢٦٠هـ زحف الامام محمد ابن يحيي على تهامة (اليمن) وكانت فى سلطة شريف مكة واستولى عليها، ودخلت زبيد والحديدة فى سلطته . فانتهز الباب العالى هذه الفرصة و بعث حملة تحت قيادة توفيق باشا الى اليمن، فتخلى الشريف له عنها، وتحابر توفيق باشا مع الامام واتفقا على صلح فحواه: اعتراف الامام بسيادة الدولة ، وأن يرتب له ٣٧ ألف ريال شهريا يأخذها من ايرادات اليمن والباقى يقسم مناصفة بينه و بين الدولة ، وأن تقام فى صنعاء قوة عثمانية مركبة من ألف جندى . فلما علم اليمنيون بذلك ثاروا وقتلوا الحامية العثمانية، وانسحب توفيق باشا مجروحا الى الحديدة ومات فيها من جراحه . و بقيت سلطة العثمانيين فى هذه البلاد على الساحل الغربى لليمن أكثر من عشرين سنة . و بعدها جردت الدولة حملة على صنعاء مدة السلطان عبد الحميد المخلوع فاحتلتها، وحجزت الامام فى صنعاء ورتبت له مرتبات شهرية ومازال بها حتى مات ، وتولى بعده رجل من أقاربه اسمه السيد حميد الدين ثم تولى بعده ولده الامام يحيي الحالى، و فى مدته كثرت المخاصمات بينه و بين الدولة وقامت من أجلها حروب كثيرة بين اليمنيين والجند العثمانى كانت صنعاء تقع أثناءها فى يد هؤلاء تارة، وفى يد أولئك أخرى .

و بعد الدستور العثمانى قامت فتنتان باليمن: واحدة بزعامة الامام يحيي، وأخرى بعسير بزعامة الادريسى . فأرسلت الجنود العثمانية تلو الجنود الى اليمن لمحاربة الامام ، والى العسير لمحاربة الادريسى . فسارت فرقة اليمن من الحديدة الى صنعاء التى استولت عليها بعد وقائع شديدة . واستعصم الامام برجاله فى الجبال وأقام فى مدينة شهارة، ومن ثم لم يصل الينا شىء من أخبار اليمن يعول عليه، اللهم الا ما ورد فى التلغرافات العمومية من أن الدولة فوضت لقائد الحملة

اليمنية المخابرة مع الامام فى الصلح ولم يعلم شىء مما آل اليه أمر ذلك الى الان . اللهم الا ما ورد فى تلغرافات روتر بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٣٢٩ من ان الامام عرض على الدوله العليـة بمناسبة حربها مع الطليان لاعتدائهم على طرابلس، مساعدته لها بمائة ألف مقاتل من اليمن : وهو أكبر دليل على انضمام أطراف الدوله الى جسمها فى الشدائد التى يجب ان تنسى معها الاختلافات التى أوجدتها بعض الظروف بحق أو بغير حق ، ويد الله مع الجماعة .

- أما فتنة عسـير فقد سار اليها الشريف حسـين باشا من مكة فى أوائل ربيع الثانى سـنة ١٣٢٩، بعد أن استنفر معه قبائل عرب الحجاز . ولما وصل الى قنفذه أتته رؤوس قبائل عسير وقدمت له الطاعة فأمنهم ، الا قبيلة خرشان فانها أبت ان تذعن لامره . فأرسل الامير اليهم ينذرهم سوء العاقبة ان هم أصروا على عنادهم وعصيانهـم، فلم يسمعوا له . فجهز عليهـم جيشاً بقيادة ولده الشريف عبد الله بك، فهزمهم بعد قتال شديد وأسر كثيرا من وجوههم، وكان ذلك فى ١٩ جمادى الاولى من السنة المذكورة . ثم سار الشريف مع عسكر الدوله فدخل مدينة أبها عاصمة عسير يوم ١٩ رجب، ومعه سليمان باشا قائد الجنود العثمانية بعسير، وبعـد أن أقام بها خمسـة عشر يوما رتب فيها أمورها ووكد نظاماتها، بارحها عائدا الى مصـيفه بالطائف على طريق عامد . ولـكن بعد سفره وردت أخبار بمحاصرة العرب لها من جديد . ثم أعقبتها أخبار بعرض الادريسى للدوله مساعدته فى حربها مع الطليان، والله يلهم ولاة أمور المسلمين ما فيه مصلحتهم وبه تـكون حياتهم .

وأكبر ثغور الدوله باليمن الحـديدة وسكانها ٤٠ ألفا من أجناس مختلفة منهـم الحبشى والسومالى والهنـدى والجاوى والفرسى والسودانى . وهواؤها ردىء لـكثرة رطوبتها وحمياتها . والطريق منها الى صنعاء بين جبال عالية يصعب السير فيها جدا ، وأشهر البلاد التى فى هذا الطريق مناخـة وتبعد بمسافة ١٥٠ كيـلومترا عن الحديدة، وبمسافة ١٠٠ كيـلو متر عن صـنعاء التى بها مركز الولايه والتى ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠٠ متر .

وعدد أهالى صنعاء ٢٥ ألفا منهـم ٢٠ من العرب و٣ من الاتراك وألفان من الهنود ، وجوّ هذه المدينة حار ومطرها كثير .

وأهم موانى بلاد اليمن عدن وهى فى يد الانكليز من سنة ١٨٣٩ م . وهى الآن مركز تجارى مهم جداً بين الشرق والغرب . وموقعها الطبيعى من أمنع بلاد الدنيا : لانها فى وسط جزيرة صخرية تتصل بالقارة بلسان من الرمل . وقد حصنها الانكليز بما لا يقل عن تحصين جبل طارق، وبذلك كانت لهم الكلمة النافذة فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر . وميناء عدن تبعد عن مدينتها فليلا ، وهى من الاهمية بحيث تراها على الدوام غاصة باساطيل الانكليز وبكثير من المراكب التجارية وخصوصا التى تسير بينها وبين البصرة أو بينها وبين بومباى ويقدرون عدد السفن التى رست بمينائها فى سنة ١٩٠٨ م بنحو ١٨٠٠ سفينة ، وبلغت وارداتها فى السنة المذكورة سبعة ملايين وسبعمائة ألف ليرة . ومدينة عدن مشهورة بصهاريجها القديمة المنحوتة فى الصخور والتى تملؤها مياه الامطار . ويبلغ عدد سكانها الآن ٥٠ ألف نفس ، وكانوا عند استيلاء الانكليز عليها لا يزيدون عن عشر هذا العدد . وأغلب سكانها من الهنود والسوماليين والاحباش واليهود وقليل من العرب . وعلى مقتضى المعاهدة التى عملت بين الباب العالى وحكومة الانكليز سنة ١٩٠٤ ، جعلت أملاك الانكليز فى جنوب بلاد العرب ممتدة من بوغاز باب المندب الى نهر باناشرقا : وهو ما لا يقل عن مائتين وعشرين كيلومترا طولا على ساحل المحيط الهندى ، وخمسين كيلومترا فى داخل البلاد . ومما يدخل فى سلطة الانكليز فى جنوب بلاد العرب واحة الشيخ عثمان المشهورة بسلطنة لحج (ومركز سلطانها الحوطه) ، ثم جزيرة بريم الواقعة فى مدخل بوغاز باب المندب ومساحتها ٨٠ ميلا مربعا وهى مركز تجارى مهم ، ثم جزائر كوريا موريا على ساحل حضرموت .

وكل هذه الجهات تابعة ادارتها لحكومة عدن التى هى تابعة لامبراطورية الهند . وللانكليز عدا ذلك شبه سيادة على الحكومات الصغيرة التى فى سواحل حضرموت ، لانها تعطى ملوكهم مرتبات بدعوى عدم تنازلهم للممالك الاخرى عن شئ من أملاكهم : وأهمها سلطنة المكلّه ، وسلطنة مَهْره ، والشِحر ، وتُريم .

وهذه البلاد على الساحل الجنوبى لحضرموت الا تريم فانها تبعد عنه بنحو ٢٠ كيلومترا

واهلها يتكلمون بلغة يسمونها بالعُقَيْلِيّة ، وهى غير العربية ولعلها مستمدة من لغة البلاد الاصلية التي يسمونها بالمسند وهى لغة حمير .

— عمان —

حكومة عمان وتسمى امامة مسقط واقعة فى الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب . وكل ساحل عمان عامر بالبلاد والسكان ، وطوله من ثغر مربط الى بحيث جزيرة القطر نحو ٢٢٠٠ كيلومتر . وعرضه فى داخل البلاد الى الغرب نحو ٣٠٠ كيلومتر ، وعاصمتها مسقط . وتنقسم البلاد الى البطنة (تهامة) ولا تتعدا كثر من ٤٠ كيلومترا أغلبها مغطى بالنخيل المشهور بجودة ثمره ، ثم الى قسم الجبال وأكبرها الجبل الاخضر وارتفاعه نحو ٣٠٠٠ متر ، وفيه كثير من الغابات والاحراش . ويوجد بين هذه الجبال وديان كثيرة خصبة تسقى بواسطة مجارى ماء لها خزانات وسدود ، كما كان شأنها فى هذه البلاد من قديم الزمان . وأهم حاصلات عمان التمر والحنطة والذرة والشعير والبرسيم والنيلة والخضر وكثير من انواع الفاكهة لاسيما الجوز الهندى والمانجو ، ومن محاصلها خشب الند والصندل والصمغ العربى والصبر والتنباك . وفى جبال هذا الاقليم كثير من المعادن وبالاخص الحديد والرصاص والنحاس والكبريت والملح الجبلى . وعلى سواحلها مغاصات كثيرة للؤلؤ وأشهرها فى مدن صحار ، ودمار ، ومسقط . وأهل السواحل يشتغلون بصيد السمك ويصدرون منه كميات كبيرة الى بلاد العجم وغيرها ، ويجففون منه كميات كثيرة ، وما يبقى من التصدير يغذون منه البقر ويسمدون به الارض . وهذه البلاد مشهورة بخيلها وبقرها وغنمها ، وجوها حار كثير الجفاف .

وعدد أهالى حكومة عمان يبلغ مليونا وستمائة ألف شخص . ومساحتها لا تقل عن ثمانين ألف ميل مربع ، وعاصمتها مسقط أومسكت وسكانها ٢٥ ألف نفس ، وبينها وبين مكة أكثر من ألفين كيلومترا . ولها ميناء صغيرة ترسو السفن فيها . وتنقسم سكانها الى قسمين : البدو أوسكان الخيام وهم قوم رُحّل وراء المرعى وفى الغالب من العرب العدنانية ، ثم المتحضرون ويقال لهم العُمّانيون وهم خليط من الهنود والعجم والبلوچستان والعرب والزنوج .

وأهل عمان على مذهب الاباضية المنسوب الى عبد الله بن أباض المرّى (من المرّية من أعمال طرابلس الغرب) الذى استولى على افريقية الشمالية سنة ١٥٢ هـ وادعى فيها الخلافة .

وكانت عمان تابعة لحكم التبابعة ، وأسلمت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت الخوارج تلجأ اليها هربا من خلفاء بنى أمية والعباسيين ، لبعدها عن العمران الاسلامى . وكان تجارها يتنقلون فى جزر المحيط الهندى مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقية . ومن كثرة احتكاكهم بأهالى تلك البلاد اذاعوا فيهم دين المسلمين وقبحوا لهم الوثنية ففشا فيهم الاسلام . وكثر توارد العرب الى تلك الجهات وتقربوا من أهلها بالمصاهرة وما زالوا حتى أصبحت لهم الكلمة فيهم والسيادة عليهم .

وفى سنة ١٥٠٨ م استولى البورتغاليون على سواحل عمان واتخذوا مسقط قاعدة لغاراتهم البحرية ، ووجهوا عنايتهم لتحصينها . ولما استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز سنة ١٦٢٢ ، لجأ أهلها الى مسقط فازدادت بهم أهميتها . وفى سنة ١٦٥٨ ثار أهالى مسقط على البورتغاليين وطردوهم من أرضهم . وبعد مدة استولى الهولانديون على مسقط فطردهم أهلها . ثم أتى الايرانيون بقصد فتح بلادهم فاستصرخ العمانيون بأحمد بن سعيد حاكم الشحر ، فحضر وساعدهم على طردهم ، فبايعوه ونادوا به سلطانا عليهم فى سنة ١١٦٧ هـ . وامتد حكم ابن سعيد شمالا الى جزيرة القطر وجزائر البحرين ، وجنوبا الى حضرموت وظفار ، ثم توفى سنة ١١٨٨ هـ ، وتولى مكانه ابنه عبد الصمد . ولما مات تولى بعده ابنه سلطان بن عبد الصمد . ولما مات تولى عمه سعيد بن أحمد بن سعيد . وأدرك أهمية مركز بلاده الجغرافى وعرف أن مستقبلها مرتبط بالقوة البحرية . فانشأ أسطولا مركبا من ثلاثين سفينة حربية ، وسلحها بالمدافع واستولى بقوته على جزيرة هرمز فى الخليج العجمى ، ثم استولى على جزيرة سوقطرة وجزيرة زنجبار ، ثم وضع يده على سواحل زنجبار وراس غاردافوى : وبذلك أصبح له السلطان المطلق فى خليج العجم والبحر الهندى . وأنشأ طرقا كثيرة فى بلاده التى أصبحت محطا لرحال التجار من الهند وفارس وشرق أفريقيا ومصر . وكان الوهابيون قبل هذا الزمن قد أغاروا على عمان ووضعوا خراجا

سنو يا على صاحبها، ولكن السلطان سعيد امتنع من أدائه اليهم . فاغاروا عليه وأحرقوا كثيرا من بلاده ولم ينقذه منهم الا تحولهم عنه الى حرب ابراهيم بن محمد على باشا الذى قضى عليهم القضاء المبرم . بعد ذلك مال سعيد الى الراحة، فباع اسطوله وقسم مملكته بين أولاده الثلاثة: فجعل زنجبار وما يليها من سواحل افريقيا وجزيرة سوقطرة الى ولده ماجد، وجعل القسم الشمالى من مملكته وهو جزائر خليج البصرة وما يليه من الساحل الغربى لابنه الاكبر التوينى ، وجعل القسم الجنوبى الى ابنه تركى .

ولما توفى سعيد طلب التوينى من أخيه ماجد أن يؤدى اليه خراجا سنويا فلم يقبل . وقامت بينهما الحرب مدة سنتين حتى تداخل الانكليز وأصلحوا بينهما على أن يستقل ماجد بزنجبار، وأن يؤدى فى نظير ذلك الى أخيه التوينى كل سنة أربعين ألف ريال .

ثم نازع التوينى أخاه تركيا فى نصيبه فقام الناس عليه وانفضوا من حوله وبايعوا أخاه تركيا، وساعده الانكليز على دخوله مسقط . فهرب التوينى الى فيصل الوهابى، فارسل معه جيشاً بقيادة ابنه عبد الله واستولى على بلاد عمان وسلمها الى التوينى، وانفرد بالحكم فيها حتى توفى سنة ١٢٨٥ هـ . وخلفه ابنه سالم فقبض على عمه تركى وسجنه ، ثم أخلى سبيله بمداخلة الانكليز فسافر الى بومباى . أما سالم فانه ثار عليه فى السنة الثالثة من حكمه رجل من قرابته اسمه عزان، ونزع منه الملك . فبلغ ذلك تركيا وهو فى بومباى فاسرع الى بلاده وقتل عزان واستولى على عمان سنة ١٢٨٧ . وكان أخوه ماجد قد مات فى زنجبار، فعين أخاه برغشا سلطانا عليها .

ومن ثم بقيت حكومة عمان على غاية الصفاء مع الانكليز . ومن سنة ١٧٩٨ م الى الآن عقدت بين الحكومتين جملة معاهدات تضمن بها للسلطان مرتباً شهريا من خزينة الهند وتكفل له استقلاله وحفظ الامن فى داخلية بلاده، وذلك كله فى نظير عدم تنازله عن شىء من بلاده الى حكومة أخرى .

ومن هذا الوقت أخذت يد الانكليز تمتد الى أطراف هذه المملكة واحدا بعد الآخر: فاستولت على جزائر كوريا موريا سنة ١٨٥٤ م، وعلى جزائر خشم الواقعة فى مضيق هرمز

سنة ١٨٧٦، وفى هذه السنة نفسها أعلنت حمايتها على جزيرة سوقطره . وكان سلطان زنجبار تنازل سنة ١٨٩٠ لالمانيا عن قسم من بلاده يبتدئ من مصب نهر روفوماجنوبا وينتهى الى وتغاشمالا فى مماثل ٤ ملايين مارك . فبادرت انكلترا ووضعت يدها على ما بقى لسلطنة زنجبار من السواحل، ثم أعلنت حمايتها على جزيرة زنجبار نفسها ، وبعدها عقدت معاهدة مع ايطاليا استولت هذه بموجبها على قسم مما يلى بلاد السومال .

— جزائر البحرين —

أهم هذه الجزائر جزيرة عوال ، وفيها نحو ستين قرية صغيرة وعاصمتها مدينة منامه وسكانها نحو ٢٥ ألف نفس، والى جوارها جزيرة اراد . وأصل سكان هذه الجزيرة من عمالقة طسم وجديس ، ثم استولى عليها الفرس ، وصارت تابعة لحكم المناذرة ملوك الحيره ، ثم دخلت فى سلطة المسلمين فى السنة السادسة للهجره مدة حكم العلاء الحضرمى على إقليم البحرين . ثم استولى عليهما البورتغاليون ثم الايرانيون ثم امام مسقط ثم الدولة العثمانية، وينازعها فيها الان الدوله الانكليزية ويصوّرها كل منهما بلون بلاده على الخرائط الجغرافية . ويحكمها الان الشيخ عيسى بن على تحت حمايه حكومة الهند . ومن أهم حاصلاتها اللؤلؤ، وقد بلغت صادراتها سنة ١٩١٠ مليونا ومائة وسبعين ألف ليرة انكليزيه . ويقدر عدد سكان جزائر البحرين بمائة ألف نسمة .

— نجد —

نجد هى القسم الواسع الواقع فى وسط جزيرة العرب، وفى منتصف المسافة بين المدينة وبغداد . ويقسمونه الى قسمين : الشمالى وهو الحائل وماوالاه ويسمونه نجد الحجاز ، والثانى العارض وما يليه ويسمونه نجد اليمن . ومعنى نجد الشئ المرتفع، فهو مرتفع عن تهامة وهى الارض التى تلى البحر . ويرتفع سهل نجد عن سطح البحر بنحو ١٢٠٠ متراً . وفى هذين القسمين جبال مشهورة بكثرة خيراتها، منها جبل سلمى، وجبل طويق، وجبل أجأ .

ويحيط بنجد من الشمال صحراء الشام ، ومن الغرب صحراء الحجاز، ومن الجنوب البادية الكبرى، ومن الشرق لسان من الدهناء، ولذلك كان الوصول اليها لا يخلو من المشقة .

— شمّر —

شمر واقعة فى منتصف المسافة بين مكة والبصرة وهى عبارة عن جبل شمر وجبل سلمى . والاودية التى بينهما صالحة للزراعة، وفيها كثير من البساتين، ويقدرون مسطحها بأربعين كيلو متراً مربعاً . وهذه الجهة ادارتها فى يد آل الرشيد ومركزهم مدينة الحائل، وسكانها نحو عشرين ألف نفس . وفى جنوبها قصبة تسمى كفار، ويقدرون سكانها بثمانية آلاف نفس .

وفى شمر نحو أربعين قرية كبيرة تحيط بها غابات النخيل، وأغلب سكان شمر من ذوى الخيام ويقدرون بنحو أربعمائة ألف نفس، كلهم من أهل السماحة والنخوة . وأشهر حيوانات هذه الجهة الخيل ، وهى أجمل أنواعها فى الدنيا بأسرها، ويوجد عندهم الحمير والابل والبقر، وتكثر عندهم الاغنام ، ويوجد فى جبالهم النعام والبقر الوحشى والفهد والثعلب والذئب والغزال والارنب وغير ذلك . والى شرق شمر يميل الى الجنوب بلاد القصيم . وأغلب أرضه وديان خصبة تزرع فيها الحبوب على اختلاف أنواعها ، وكثير من أصناف الفاكهة كالعنب والرمان والزيتون والمشمش والبطيخ والفاوون، وفيه كثير من النخيل . وفى وسط أرضه أكمات تكثر فيها الغابات . ويقدرون عدد أهله بثلاثمائة ألف نفس ، كلهم يسكنون الخيام الا القليل منهم فانه يسكن القرى التى لا تزيد عن ثلاثين قرية، وأشهرها بريدة وعنيزة . وبلاد القصيم نصفها الشمالى تابع لامير شمر، والنصف الجنوبى تابع لامير الرياض .

— العارض —

هى جبال نجد اليمن، وهى المشهورة بنجد الان، واذا أطلق هذا اللفظ فلا ينصرف الا عليها . وعيون هذا الجبل غزيرة وأوديته كثيرة وفى غاية الخصوبة، وتكثر فيها المزارع والبساتين .

وهذه البلاد الان وما والاها من بلاد القصيم فى حكم آل سعود، وعاصمتها الرياض، وهى من أهم مدن نجد . و يكثر فى هــذه البلاد النخيل والحيوانات الاهلية وأخصها الخيــل والابل والغنم . وأغلب أهلها أهل بادية، و يقدر عددهم بنصف مليون نفس ، وكلهم وهابيون .

وأمارتا الرياض والحائل تابعتان لمتصرفيــة نجد التى يدخل فى دائرتها الحسا ومركزها مدينة الحسا . وكلها داخل فى دائرة ولاية البصرة . و يشتغل أهل السواحل بالتجارة وصــيد اللؤلؤ والاسماك و يجففونها و يصــدرون منها الى الخارج كميات وافرة . وأعمر بلاد الحسا قضاء القطيف ، ثم البلاد التى جنوبها الى بحيث جزيرة القطر، و غالبها صحارى رملية وتكثر المزارع فيها الى جهة السواحل وفيها النخيل بكثرة . و بلاد الحسا مشهورة بالحُمُر الحساوية و يكثر فى فيافيها السباع والنعام وحمــر الوحش . ومن صناعة هــذه البلاد العبى المشهورة وغير ذلك من المنسوجات و بعض الاعمال النحاسية . وهواء البلاد حار كثير الجفاف وصحى، الا فى القطيف فانه رطب لــكثرة المستنقعات التى حولها . وتنقسم هذه البلاد الى أربعة أقضية قضاء الحسا ، وقضاء القطيف، وقضاء القطر، وقضاء الحفوف ، وهو أكبرها وأوسعها . وعدد سكان الحسا يقدر بخمسة وثلاثين ألف نفس نصفهم أهل حضر والباقى بدو . و يوجد فى الحسا مياه معدنيــة بكثرة ، وأرض هذه البلاد تُسقى من الاحساء (مفرده حسا) وهى الجداول الطبيعية . وقــد تجتمع جمــلة جداول وتصب فى بركة تُــكوّن خزانا مستديما لــ ى الاراضى .

اخلاق العرب

العرب أخلاقهم فى البادية واحــدة فى الغالب من قديم الزمان : فهم أهل صــدق و وفاء وشهامة وشجاعة وكرم . شديدو الغيرة على نسائهم ولا قيمة للحياة فى نظرهم الا مع العزة . يأنفون العار و يحفظون الجوار و يدافعون عمن دخل فى وجههم (حمايتهم) . واذا بغى بعضهم على شخص فقال لهم أنا فى وجه فلان يعنى رجلا من قبيلتهم ولو فى غيبته رجعوا عنه واحترموا حماية صاحبهم . يعرفون المعروف لصاحبه ولا تأخذهم فى الحق لومة لائم . وهم أبعد الناس عن

الربا والنفاق وكلامهم كله صراحة وليست فيه من ألفاظ التفخيم وجمل التعظيم ما تضيع معه الحقيقة : فهم ينادون أمير مكة وهو في منزلة الملك منهم بقولهم ياشريف كما كانوا ينادون الرسول بقولهم يامحمد . ضمائرهم تسيل على ألسنتهم وسلاحهم أقرب الاشياء الى يدهم . الربيع عندهم خير الايام واللحم سيد الطعام وهم أبعد الناس عن التأنق في المأكل والملبس . يعتبر قويهم على ضعيفهم ويكثرون من غزو بعضهم البعض ولا يترك الرجل منهم ثأره مهما كان ضعيفا . واذا لم يتيسر له أن يحصل على حقوقه من غريمه شخصيا كان له في عرفهم أن يعتبر على حماسه وهو أي شخص من قبيلته يتصل معه في نسبه الى الجد الخامس . واذا قتل شخص آخر ولم يتمكن صاحب الدم أن يقتص من القاتل قتل به اباه أو خاله أو عمه أو أحد منهم وبه يسقط القصاص وبعضهم يرضى بالدية في قبيلة وهي عندهم ثمانمائة ريال في البدو وألف في الحضر وعشرة آلاف في الرجل الشريف . واذا قتل أحدهم أو فقدوا فرسه حتى يأخذوا بثأره وعندها يمحون حديه ويلمونه في فراشه الاحمر تاجا على زعمهم مما صنعوا . ومن عوائدهم المهادة وهي أنه اذا قتل أحدهم يذهب أهل القاتل الى أهل المقتول ولا يشربون لهم قهوة ولا يأكلون طعاما . فاذا سئلوا عن حاجتهم سألوهم المهادة وهي تأجيل المطالبة بالقصاص شهرا أو شهرين فيقبلون منهم أحيانا في الغالب . وعليه يكون القاتل في أمن على نفسه طول هذه المدة التي يجتهدون أثناءها في الاتفاق مع أهل المقتول على الصلح أو الدية . فاذا انقضت دون ان يتفقوا طالبوهم بالقصاص والا ثأروا لانفسهم بأي طريقة .

واذا اتهم شخص منهم وأنكر أتوا به الى المُلَحِّس هو رجل مخصوص عندهم فيأتي بحديدة محماة في النار ويلحسه اياها . وهم يزعمون أنه اذا كان صادقا لا تضره والا فانها تحرق لسانه . وبعضهم يخط دائرة في الارض يوقف فيها المتهم ويحلفه ويعتقدون أنه اذا كان كاذبا لا يمكنه الخروج منها مطلقا . أما المتحضرون من العرب أو الذين لهم صلة بأهل الحضر كالجمالة والمطوفين مثلا فأخلاقهم أقرب الى أخلاق الحضر منها الى البداوة والطبقة السافلة منهم في الغالب من أشر ما يوجد من نوع الانسان على العرب . وربما كانت حاجتهم الى العيش هي التي ترمي بهم الى ارتكاب العيوب واقتراف الذنوب . وليست أخلاقهم مما يؤخذ على أخلاق العرب في مجموعها : وأمثالهم في جميع الامم كثيرون .

﴿ جدول بالقبائل الموجودة ببلاد العرب ومساكنها وعدد نفوسها ﴾

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	(قبائل الحجاز)		
عنزة	الحسنة . حلاس . (ومنهم الرُّوَلة والمحْلف) وبشير (ومنهم ماجد وسَلْقى) وأولاد على (ومنهم المشارفة . المُشْطا . الحَمامْدة . الجدَالْمة وطلاح) .	٣٥٠٠	شمال المدينة في شرق مدائن صالح الى خيبر .
الحويطات	الحازاى . الريضات . عمران . بنى عطية . دبور . بدول . السماكة . الرابين . والمطحة	٧٠٠٠٠	من محطة العلاء الى معان والعقبة وغيرها .
بلى	. . . .	٣٠٠٠٠	من العقبة الى جنوب الوجه
جُهينة	بنى مالك (وتتفرع منهم قبائل الصبحة . العيايشة . عروة . كومة . سَنْبان . الحصيمات . الاساورة . المسادى . الرفاعة . بنى كاب . الحمادلة . الحمدة . والموالد) . ثم بنى موسى (وتتفرع منهم البراهمة . الموال . المراديس . العلاوين . ريان . العوامرة . بنرة . والسمايحة) .	٥٠٠٠٠	شرق وشمال المدينة الى الوجه
عبس (١) (هيتم)	منهم نزان . ذوى الرشيد . ذوى براك . النواسة . الشراراب . والهيان .		وهي قبيلة صغيرة في شمال ينبع
حرب	بنى سالم (ومنهم ميمون وتتفرع الى محامدة . رلاوعة . رحلة . عَمْرو . حيدر . أحامدة . صبيح ثم المراوحة وهى الحوازم وتتفرع الى بوامنة . فراف . ظواهر . جبول . حنيطات درعات . حجلة . مزَينة . ردادِدَة . حماينة) ثم بنى مسروح (وتتفرع منها عطور . مناشك بشر . معبد . السلاّديّة . حمران . المدارس بنى جابر . عوف . زبيد	٨٠٠٠٠	وهم يسكنون من الحمرة شمالا وشرقا وغربا الى عسفان

(١) عبس هذه هى التى كان لها فى الجاهلية ذلك الجاه المنيع . وكانت الى القرن الثامن الهجرى قوية فاعتدت على جيرانها فتألب العرب عليها وأوقعوا بها وشتتوا شملها الى اليمن وغيره ومن ثم ضعف أمرها .

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	(قبائل الحجاز)		
النخاوله[1]	(١) قبيلة حقيرة في ضواحي المدينة يستعملهم أهلها في خدمهم وفي زراعة بساتينهم وحقولهم وهم رافضة ولا يسمون أبناءهم بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان وعائشه . ويسمون أولادهم المرون وهم يحللون نكاح المتعة . وأهل المدينة لا يصاهرونهم	١٢٠٠٠	
مطير	دو يش . مميون . بني عبدالله	٤٠٠٠٠	شرق المدينة شمالا الى نجد وجنوبا الى الصّفينة .
بني سليم	. . . . .	٢٠٠٠	شرق المدينة بجنوب الى حاذه
عتيبة	برقاوبريا (ويتفرع منهما قبائل روسان . الروقة . الشيابين . الدعاجين . العصمه . جذعان . والحنا تيس) .	٢٠٠٠٠	شرق الباديه الواقعة على طريق الشرق بين مكة والمدينه
قُريش	. . . . . .	٢٠٠٠	شمال عرفة والطائف .
هُذيل	العلويين . التدويين . بني خالد	١٠٠٠٠	الجبال التى بين مكة والطائف
ثقيف	بنوسفيان . بنوسعد . ناصره ربيعة . عيله .	٣٠٠٠٠	جنوب وشرق الطائف .
القوم الحوم	. . . . . .	٢٠٠٠	شرق الطائف .
عدوان	. . . . . .	٢٠٠٠	» »
بني الحارث	. . . . . .	٢٠٠٠	» »
بني سعيد	. . . . . .	٣٠٠٠	جنوب الطائف .
بني لحيان	. . . . . .	١٥٠٠	بين مكة وجده .
الجحادله	. . . . . .		وادى يلملم الى البحر .
قبائل	بني فهم . يزيد . بجاله . منعان . أشراف ذوى زيد . بني هلال . بني عفيف . أشراف ذوى حسن . بَلأسود . بَلأعوَر . بني سليم بني عمر . بني على . بني زيدان .	١٠٠٠٠	جنوب مكة وعلى طريقها الى الليث .
قبائل	رفاعة العبيدات . الهجاجه . بني كبير . أكلوب . العبادله . البيشة . بني سعد . بني سعدميمون . بني مالك . زهران . غامد . شمران . وبَلقَرْن . بني الاسمر . ناصر . بني الاحمر . وشهران .	٦٠٠٠٠	شرق الطائف الى الجنوب . في جنوب الطائف الى عسير .

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	﴿قبائل عسير﴾		
قبائل	بني علفم • رفيره • بني ربيعة • المقيد •	١٠٠٠٠	شمال وجنوب العسير
قحطان	رفيف • عبيدة • شريف • سحّان • وراعه	١٠٠٠٠	جنوب العسير شرق
يام	ذوي محمد • وذوي حسين •	٣٠٠٠٠	في وادي نجران
	﴿قبائل اليمن﴾		
بايَعْر	بني زيد • بني حرب • بني عبس • و بني سهيم	٦٠٠٠	شمال القنفذه
قبائل	بني بحير • و بني الروحه •	٥٠٠	في وادي ويبه قرب القنفذه
«	آل منتشر • آل عُريان • العوامر • آل كناني	٤٠٠٠	وادي حلي قرب وادي ويبه
«	بني سبيل • بني شُميل • وجيزان •	٦٠٠	قرب العرايش
«	بني مروان • حَرَضْ	١٥٠٠	بين جيزان ولحية شمال الحديدة
«	بني قُصير • بني جامع • بني شيبة • بني شايع	١٠٠٠	بجوار لحية
«	بني زين • بني راجح • الفراتة • بني طاهر • و بني هيجان •	٧٠٠٠	وادي الواعظات شرق لحية
«	بني حسن • بني عبس • أسلم •	٥٠٠	قرب وادي الواعظات
«	آل مره • الكرب • الصّيعر •	٣٠٠٠٠	بين جبل برط والجوف
«	نهمْ • أرحب •		بلاد حاسد شمال صنعاء
«	عمران •	١٠٠٠	شمال الحديدة
«	همدان •	١٠٠٠	شمال صنعاء
«	بني مطير •	٣٠٠٠	قرب صنعاء
«	البرَويه •	١٠٠٠٠	قرب صنعاء غربا
«	الحضور •	٤٠٠٠	جنوب صنعاء
«	بني شداد • خولان • بني جبير • عبس • فلاح ضبيان • مجاهد • قيس الاعماس •	٦٠٠٠	شرق صنعاء
	﴿قبائل حضرموت﴾		
قبائل	آل عموري • المراشده • القِشَنْ • الخامعه • ونوّح •	٢٥٠٠	في وادي دُعَنْ جنوب شبام
«	الحالكه • آل محفوظ • آل يزيد • آل بطاطي و آل كثير •		في وادي لسير أحد شعاب وادي دُعن
«	آل العوابسه •	٥٠٠	في وادي العين

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
قبائل	باصليب. بابيس. بنى ماضى. الجعده. الصَّمَره نهب. و بنى محاشن .	١٥٠٠	وادى عمد
»	بنى حيدره . بنى الليث . وشحا .	٥٠٠	وادى رفيه
»	آل بالعبيد . الصَّيغر . ونافع	٢٥٠٠	وادى دهر
»	آل كثير . العوامره . آل باجرى . آل جابر	٦٠٠٠	وادى بن راشد
»	وآل تميم .		
»	يافع .	٢٠٠٠٠	الجبال الواقعة شرق شمال عدن
»	العواليق . آل ديب . آل عبد الواحد . شيبان العكابره . و بنى حسن	٥٠٠٠	بين عدن والمكله
»	آل حموم .	١٠٠٠	بجوار الشحر
»	بنى هود . مناهل . ومهره	٢٠٠٠	بين قريتى هود وظفار
»	آل كثير .	٥٠٠	ظفار وما حولها
»	قرا . والشحره .	٣٠٠٠	الجبال المشرفة على ظفار
»	السادات العلويه .	٣٠٠	حضرموت
قبائل عمان	بنو شعاب . الغفاريون		
قبائل الحسا	قبيلة الحرة .	٣٠٠٠	فى أطراف القطيف
»	قبيلة بنى هاجر .	٤٥٠٠	غرب القطيف
»	بنو خالد (بن الوليد)	١٠٠٠٠	غرب الحسا
قبائل نجد	بنو سبيع .	٦٠٠٠	بين الرياض والحسا
»	قبائل عـنزه (بطن من التى بالحجاز) . الذيبى الفرم . بنى سالم و بنى بحيض .	١٤٠٠٠	بين المدينة المنوره والقصيم
»	العجمان وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية	٦٠٠٠	شمال الرياض
»	قبائل قحطان (وهم غير قحطان اليمن)	٣٠٠٠٠	ينقسمون الى قسمين الاول بين الرياض ورينه والثانى بالحوطة
»	. قبائل الضغيفات . الحعافره الرابعة . بنى صيعم	١٥٠٠٠	وادى الدواسر جنـوب الرياض بغرب
»	بنو ساجه . بنو لحم . بنو حيتم . عرب الاخايل (و يقال انهم بقية من بنى هلال المشهورة)		فى القصيم

سفر الجناب العالى

من مصر الى جدة

طالما كانت تتوق نفس مولانا الخديو ﴿عباس باشا حلمى الثانى﴾ الى حج بيت الله الحرام و زيارة نبيه الكريم . وكانت هذه الفكرة المقدسة تتردد فى خاطره من سنة الى أخرى، حتى تأكدت عزيمته على أداء هذه الفريضة فى شهر رمضان الماضى سنة ١٣٢٧ وأصدر أمره السامى بتجهيز ما يلزم لسفره الى الاقطار الحجازية . وفى شهر ذى القعدة أخذ حفظه الله فى تعيين من يلازمه فى هذا السفر الميمون من رجال معيته الفخام ومن غيرهم من العلماء الأعلام والذوات الكرام . وبالجملة فقد صدرت ارادته السنية بتشريفى بالسفر فى خدمة ركابه العالى ، وصدر الأمر الى بعض الحاشية الخديوية من ملكيين وعسكريين بالسفر بعضهم الى جدة و بعضهم الى مكة لانتظار تشريف جنابه السامى بهما ، نخص بالذكر منهم أصحاب السعادة أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى العربى والافرنكى (مدير الأوقاف العمومية حالا) وحسين محرم باشا السرياور الخديوى ومهمندار جنابه العالى فى هذه الرحلة المباركة (وكيل الحربية حالا) ومحمد عزت باشا رئيس الديوان الخديوى التركى واحمد خيرى باشا ناظر الاوقاف الخصوصية وأحمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية ومحمود بك محمد رئيس قلم عرضحالات المعية السنية وفضيلتلو الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الأزهر الشريف والسيد محمد الببلاوى من علماء الازهر ووكيل الكتبخانة الخديوية المصرية والشيخ محمد عاشور مفتى الأوقاف الخصوصية وغيرهم من حضرات ضباط الحرس الخديوى .

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ ذي القعدة ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٩ كانت تشريفات الوداع ، فامتلأت أرجاء سراي عابدين بصنوف المودعين ، وتواردت الوفود من جميع انحاء القطر للثم هذه اليد المباركة بحال لم يسبق لها مثيل ، وقلوبهم تبتهل الى الله تعالى بأن يحفظ مليك البلاد المحبوب ، وأن يرده اليهم قريباً بكل ما يرجون له من كمال الصحة والعافية . ولم تقتصر هذه العاطفة على المسلمين ، بل كنت ترى المصريين على اختلاف أديانهم مشتركين في السرور بهذا الاحساس الشريف والشعور الحي الذي تحرك في فؤاد مليك من أكبر أمراء الاسلام للقيام باداء هذا الواجب الديني الاجتماعي ، مؤملين من ورائه الخير والسعادة العظمى إن شاء الله للاسلام وأهليه عموماً ولمصر وسيما خصوصاً .

وفي ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٢٧ صدر الى عطوفة رئيس النظار الأمر العالي الآتي .

« قد شاءت الارادة الالٰهية بتحقيق رغبتنا في اداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، وعزمنا على السفر لهذا القصد الجليل في هذا العام .

ولوثوقنا في عطوفتكم رأينا أن تقوموا مقامنا مدة غيابنا في ادارة شؤون حكومتنا بما نعهده فيكم من الخبرة والدراية ، وقد أصدرنا هذا اليكم بذلك راجين من الحق عز شأنه أن يوفقكم مع حضرات النظار زملائكم لما فيه سعادة الامة وخير البلاد .

وانا لنرجو أن يكون توجهنا الى تلك الأقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم ، خصوصاً في هذا العهد عهد مولانا خليفة المسلمين السلطان « محمد الخامس » أعز الله وأيد ملكه بالعدل والتوفيق .

هذا وسنرفع أكف الضراعة الى مقام العزة الالٰهية في تلك البقاع الطاهرة بأن يوفقنا إلى خدمة الأمة العزيزة المصرية التي لا نعرف إلا وفقها ومعها وفكرنا مشتغل بما يؤدي الى خيرها ومجدها في الحال والاستقبال ، كما انا على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة لنا في الحل والترحال إن شاء الله » .

وفي الساعة السابعة والدقيقة الأربعين من صباح يوم ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٧ ، وهو اليوم الذي تقرر فيه رسمياً سفر الجناب السامي ، تحرك القطار الخصوصي من سراي

القبة مقلا للحضرة الفخيمة الخديويه و بعض الحاشية الكريمة . فوصل الى محطة مصر حيث كان فى انتظار جنابه العالى أصحاب السعادة النظار الكرام والعلماء الأعلام ووكلاء الدول وقناصلها وكل من فى مصر من الذوات وأصحاب الحيثيات و بعد ان صافحهم حفظه الله مودعا من الكل بالدعاء الصالح ، تشرف حضرات النظار بالركوب مع سموه ، وسافر القطار على بركة الله تعالى الى السويس . وكانت جميع محطات السكة الحديديه مزدانه بأفخر الزينات الباهرة ، وفيها مالا يحصى من جموع المودعين ، لاسيما فى محطتى بنها والزقازيق اللتين احتشد فيهما خلق كثير يضرعون الى الله تعالى بأن يرد عليهم أميرهم محمود العودة محروساً بالعناية الصمدانية . ومازال القطار سائرا تشيعه القلوب حتى وصل بسلامة الله الى السويس ثم الى محطة الحوض فى الساعة الأولى بعد الظهر . وهنالك كانت معالم الزينات فى أجمل مظاهرها ، وكان المستقبلون من علية المصريين لا يحصون عداً ، حيث قام الى السويس قطار مخصوص من جميع جهات القطر تقل وفود المودعين من عواصم الثغور والمديريات ، وفى مقدمة الجميع حضرات أعضاء الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين يتقدمهم صاحب الدوله والفخامه البرنس حسين كامل باشا (وكان رئيسا لهما) فلما وقف القطار نزل الجناب العالى وصافح دولته وكل من كان حاضراً من الامراء والعظماء شاكراً لهم تحملهم هذه المشقة ، وأثنى عليهم بلسان كله عطف وحنان ، ثم التفت الى دولة البرنس قائلاً له : إنى أشكرك من صميم فؤادى لا بصفتك رئيساً للشورى والجمعية العمومية فقط بل بصفتك كبير البيت الخديوى — فلم يتمالك دولة الأمير نفسه تلقاء هذه الكرامة الكبرى والعاطفة الشريفة أن ذرفت عيناه بالدموع وقال مجيباً عن هذه العبارة السامية الرحيمة : لستُ يامولاى مهما بلغ من أمرى غير عبد من عبيدكم الخاضعين المخلصين لعرشكم ، قد امتزت بشرف القرب من سموكم ، فحنى الجناب العالى رأسه لهذا الجواب الذى كان له أجمل وقع فى نفوس الحاضرين ، لأنه جمع الى محض الاخلاص جليل المحبة والولاء .

وهنالك صعد الجناب العالى الى وابور المحروسة ، و بعد أن استراح قليلا ابتدأت التشريفات بحال كنت تتخيل معها انك ترى عيانا عاطفة هذا الامير الجليل المحبوب تتعانق

مع عواطف رعيتــه الصادقة المخلصــة ، وكنت كأنك تشاهــد الدعاء الذى كان يخرج من أعماق القلوب صاعداً إلى السماء رجاءً الى الله تعالى أن يحفظ هذه الذات السامية وأن يعيدها الى ملكها بعد اداء هذه الفريضة المقدسة فى صحة تامة ومسرة عامة . وفى الساعة الثالثة بعــد الظهر تحرك اليخت قاصداً جدة ، وكان مقلا للجناب العالى وصاحبة الفخامة والدة سموه الرفيع وصاحبات الدولة الأميرات السنيات عطية هانم أفندى وفتحية هانم أفندى كريمتى الحضرة الخديويه الفخيمة والبرنسيس فاطمة هانم أفندى عمة جنابه السامى ، وكنّ قد حضرن مع دولة الوالدة على قطار خاص وصل الى السويس قبل تشريف الجناب العالى اليها .

ومازال اليخت سائراً حتى حاذى ثغر رابغ من الشاطئ الشرقى ، وهو على عرض ٢٢ درجة و ٢٨ دقيقة وطول ٢٨ درجة و ٥٨ دقيقة ، و بينه و بين جــدة مائة ميل وتسعة ، فأحرم الجناب العالى إحراما كاملا هو ومن كان فى معيته من الحجـاج ، واستمرت الباخرة فى سيرها حتى أدا صارت على بُعد ساعتين من جدة ، أخــذت مبانيها تظهر شيئاً فشيئاً حتى تجلت للعيان بيضاء ناصعة ، وظهرت فى جنوبها ضيعة صــغيرة يسمونها بالنزله وكلها أكواخ تسكنها الأعراب و بعض الاهالى وغالبهم من صيادى الاسماك . وفى قبالة هذه الضيعة من جهة البحر جزيرتان صغيرتان إحــداهمـا وهى الشمالية تسمى جزيرة ســعد والثانيــة تسمى جزيرة سعيد ، وفيهما المحجر الصحى لثغر الحجاز ، وفى الاولى محل للتبخير وآله لتكرير المياه الملحة و بعض أحذيه [1] مبنية لاقامة المحجور عليهم فيها . فاذا كانت جوازات المراكب القادمة الى هذا الثغر غير نظيفة أخذ الحجاج اليها فى سفن شراعيــة يسمونها سنابك (مفردها سنبوك) فتصل الى الجزيرة الاولى فى ثلاث ساعات أو أكثر ، والى الثانية فى ضعف هذا الزمن ، فيقضون فى هذه أو تلك مدة الحجر التى يقدرها حكيم الكورنتينات بجدة .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء غرة ذى الحجة ألقت المحروســة مراسيها على نحو ثلاثة أميال من الشاطئ ، لأن المراكب الكبيرة لا تستطيع الدخول الى مينائها لقــلة عمق

(١) مفرده حذاء وهو قسم من أقسام الكورنتينه يوضع فيه أناس على حــدتهم ليقضوا به أيام الحجر المقررة عليهم ولا يمكن أحدا منهم أن يغادر حدود هذا القسم بأى حال قبل انتهاء المدة .

المياه فيها: و بقى بها الجناب العالى الى صباح اليوم التالى . وكان يوجد خارج الميناء كثير من المراكب التى أتت الى هذا الثغر بالحجاج من الهند والروسيا وتركيا و بلاد المغرب ومصر و بورسودان وغيرها ، وكلها رافعة أعلامها ترحيبا بمقدم سموه ، كما كانت السنابك التى ظلت تغدو وتروح فى مياهها رافعة على سواريها العلم العثمانى إكراماً لتشريف جنابه العالى .



مدينة جدة

قال البكرى فى معجمه « جدة بضم أوله ساحل مكة سميت بذلك لانها حاصرة البحر والجدة من البحر والنهر ما يلى البر وأصل الجدة الطريق الممتد » وأهل البلاد يسمونها الآن جدة بكسر الجيم ، و يسميها المصريون جدة بفتحها ، وكلها على ما أرى تسمية صحيحة : لأن الجده بالكسر اليمن والسعادة ، وهذا الثغر بلا شك منه المادة التى تقوم بحياة هذه البلاد كلها وأى شئ أسعد مما يقوم بحياة الانسان و وجوده . كما أن الجدة بالفتح الطريق الواسعة ، وليس من طريق فى بلاد الحجاز أوسع من هذه . وهى واقعة على الساحل الشرقى للبحر الاحمر على ٣٩ درجة وعشر دقائق من الطول الشرقى وعلى ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة من العرض الشمالى . وقد كانت قرية صغيرة فى بادئ أمرها يسكنها وما حولها قضاعة قبل الاسلام فلما كانت سنة ٢٦ للهجرة فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه اشتكى الناس له الشدة التى يعانونها فى ميناء الشعيبية لكثرة ما فيها من الشعاب التى كانت تعوق سير السفن بها . وقالوا له ان فى شمالها مكانا خيرا منها . فذهب عثمان اليه فى جمع من قومه ليعاينه بنفسه فوجده حقيقة أحسن من الاولى فأمر بجعله ثغراً لمكة ، وسموه جدة . ومما يذكر عن عثمان رضى الله عنه عند قدومه الى هذا المكان ، أنه نزل الى البحر فاغتسل وأمر قومه بالاغتسال فيه كذلك وأن يتخذوا المئزر عليهم : وهو ما يزعم الافرنج أنه من مدنيتهم . والشعيبية الآن قرية صغيرة على مسافة عشرين كيلومتراً من جنوب جدة و بعضهم يذكرها بلفظ الشعيبة : قال كثير يصف إبلا تسير فى ملاتريم (مكان بحضرموت)

سألتك(١) وقد أجد بها البكور * غداة البين من أسماء عير
كأن حمولها بملاتريم * سفين بالشعيبة ما تسير

ومن ثم أخذت جدة تزيد في عمرانها وتعظم في أهميتها حتى أصبحت أكبر ثغر في بلاد العرب .

وساحل جدة كله شعاب صخرية يتخللها شعب مرجانية حمراء أو سوداء (اليسر) ، وترى على سطح مياهه في كثير من جهاته أوراق نباتات مائي شكله أشبه شيء بالبشنين في بحيرات مصر ، وهذا النبات لونه أحمر قاتم ويوجد بكثرة على شاطئ الخليج العربي . وربما كان له تأثير على ما يعيش في جوه من الأصداف الحمراء والأسماك المرجانية التي توجد فيه بكثرة لتغذيتها منه ، وربما أتت من ذلك تسميته بالبحر الأحمر . ويساعد على هذه التسمية ذلك اللون السنجابي الذي يشاهد قبل شروق الشمس فيما يلي الشاطئ من مياه البحر عند انحسار كتله المياه عنه وقت الجزر الذي يحصل فيه يومياً : حيث يتراءى لك الشعب على طول الشاطئ ضاربا في البحر بلونه الأحمر الذي يتشرب بالزرقة شيئا فشيئا حتى يتصل بكتلة الماء الكبرى .

ومما يذكر بهذه المناسبة أنا رأينا أهل جدة يميلون الى اللباس الأحمر لا فرق في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم ، وربما كان ذلك من تأثير الوسط الذي يعيشون فيه : فتراهم يشدون على وسطهم حزاما أحمر ويضعون على رأسهم شالا من لونه ، وكثيرا ما ترى صبيانهم يلبسون جلابيب بيضاء وعليها صديرية حمراء : حتى الطبقة العالية منهم يكثر في لباسهم اللون الوردي أو ما يقرب منه .

ويحيط بجدة سور له خمسة أضلع : فالغربي منها على البحر وطوله ٥٧٦ مترا ، والبحري ٦٧٥ مترا ، والشرقي ٥٠٤ مترا ، والشرقي الجنوبي ٣١٥ مترا ، والجنوبي ٨١٠ مترا .

وفي كل ضلع من أضلاع هذا السور باب ، والباب الشرقي يسمى باب مكة وعلى جداره من الخارج رنك منقوش في الحجر والى جانبه اسم السلطان الغوري ملك مصر ، وهو الذي بنى هذا السور سنة ٩١٥ لمنع الافرنج (الذين كانوا ابتدءوا في استعمار الشرق) من طلوعهم

(١) لعله وسألتك .

الى جدة . وقد أفاد فائدة تذكر في منع البرتغاليين من الدخول اليها سنة ٩٤٨ وأصلتهم قلعتها هذه الصغيرة ناراً حامية فرد وا منها الى مراكبهم تاركين ما كان معهم من الذخائر . كما نالت أيضاً من الوهابيين حين حصارهم لجده سنة ١٢١٨ ، الا أنها لم تكن تؤدي وظيفتها في ضرب المراكب الانجليزيه لها سنة ١٢٧٤ : وسبب ذلك ان أحد الرعايا الانجليز كان يملك مركباً شراعياً بجده ، وكان يرفع عليها العلم الانجليزي فبدّله بالعلم العثماني ، فحنق لذلك قنصل الانجليز ونزل الى المركب وأنزل العلم العثماني بالقوه وأهانه . فلما بلغ الناس هذا الأمر كبر عليهم وهاج له الرعاع فقصدوا منزله وقتلوه مع القنصل الفرنساوي وبعض الافرنج ونهبوا دورهم . فأتت مراكب الانجليز وضربت جدة . فحضر والى مكة واتفق مع الاميرال على عمل تحقيق كانت نتيجته شنق نحو ١٥ نفراً من الاهالي في سوق جدة ، ونفي كثيرين من كبرائها ، وغرامة الدوله نظير الاموال التي ادعت رعايا الدول الاجنبية انها فقدتها في هذه الفتنة . وفي سنة ١٣١١ ساق الانجليز مراكبهم مرة أخرى الى مياه هذا الثغر عندما قتل الأعراب وكيل القنصل الانجليزي وجرحوا وكيلي القنصل الفرنساوي والروسي ، وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد ، وكلهم مسلمون من الاهالي الذين لم يحسبوا سيرتهم مع اخوانهم من مواطنيهم ارتكانا على الحمايه الاجنبية . فحضر الشريف عون من مكة لهذا الأمر الذي انتهى بالصلح وسفر المراكب من غير ضرب .

وشوارع جده لا نظام فيها وهي تحتوي على نحو ٣٥٠٠ منزل مبنية بالحجر الجبلي الذي يأتون به من الجبال القريبة ، أو الحجر المائي الذي يقطعونه من شعاب البحر وهو خفيف جداً وفي غاية المتانه الا أن خطره جسيم وضرره عظيم لأنه قابل للالتهاب بسرعة لما يحتويه من المادة الفصفورية التي توجد فيه بكثرة . ومساكنها كمساكن مدن الحجاز (مكة والمدينة) وهي أشبه بمساكن مصر في عهد المماليك (وفي سوق السلاح كثير منها) ، أعني أن بها غرفاً كبيرة ولواوين واسعة ذات سقوف عالية ولها شبابيك طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الرواشن (مفردها روشن وهي كلمة فارسية معناها المنور) ، وشغلها الخشبي يشبه ما يسمونه بالمنفور أو المنجور وأكثرها من النوع المسمى بالشيش . وقد رأيت

فى بعض بيوت هذه المدينة منزلا وجهته نحو ١٥ مترا وفيها تسعة رواشن كبيرة . ولا شك أن هذه المناور الواسعة موافقة جداً للبلاد الحارة . ولذلك ترى النظام الجديد فى العمارات المصرية يرجع الى هذا النمط كما تراه فى أغلب المبانى الحديثة لا سيما فى الاحياء الافرنجية وعلى الاخص فى مصر الجديدة التى هى شكل مجمل مكمل من الاشكال المصرية القديمة .

ولمحمد على باشا فى هذه المدينة مبان كثيرة : منها دار الولايه ، ودار البلديه ، وثكنات العساكر ، وغيرها .

وماء الشرب فيها من الصهاريج القديمة التى تملأ من ماء المطر أو العيون الموجوده خارج المدينة ، وكلما قربت تلك العيون من البحر كانت مياهها مالحة غير صالحة للشرب . وفيها مواسير كان وضعها عثمان باشا نورى سنة ١٣٠٢ وسير الماء فيها من عين الزعامة التى تبعد عن المدينة شرقا بنحو عشرة كيلومترات . وهى الآن مهدمة . وقد اهتمت بلديه المدينة باصلاحها ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها الا بعونه الأهالى وهم لا يساعدون على ذلك لان لهم مصلحة فى بيع مياه صهاريجهم على الحجاج بأثمان باهظة . على أن سواد الحجاج لا يشربون أثناء وجودهم فى هذه المدينة الا من المياه التى يأتون بها اليهم من الخزن والآبار وفضلا عن وساختها فان طعمها يميل دائما الى الملوحه ولولا فضل الله عليهم لهلكوا منها جميعاً !!!

وفى هذه المدينة كنداسه لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر وبيعها للناس ولكنها تخربت نهائياً وبلغنا ونحن بجدة أنهم أرسلوا بعض عددها الى السويس لاصلاحها فيها .

وجدة مركز تجارى كبير ويمكنك أن تقول انها الثغر العمومى للحجاز فمنها صادراته واليها وارداته . وتجارتها تكاد تنحصر فى أصداف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والاقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والقرب والجلود والسجاجيد وجميع ما يهم الحاج . وتجارتها الرئيسية فى الحبوب خصوصاً القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة أهل البلاد العربية من أدناها الى أقصاها ، وهى تأتى اليها من الهند ومصر والشام والعجم والجاوه وغيرها . وسوق المدينة تمتد على طولها من الجهة الجنوبية الى الشمالية التى

تنتهي بمساكن قناصل الدول، وهي أحسن ما في المدينة من الابنية، وأخص منها بالذكر منزل الوكالة الروسية الذي هو على ألطف مثال وأجمل هندام لما فيه من المشربيات والطنف (البلكونات) التي تمثل أبهة الشكل العربي القديم بما يحيل للرائي أنه أمام قصر الرصافة في بغداد. وبجاه هذا المنزل نقطة بوليس وبجوارها مكان البوستة، وهو غرفة صغيرة يقطعها حاجز خشبي بسيط يفصل بين العمال وأرباب الأعمال، والى جوارها مكان التلغراف.

وتجار جدة من أهليين وحضارم وهنود وأعجام وبخاريين وأروام تراهم يعملون في هذا الوسط ولا تروج تجارتهم الا في موسم الحج. ولاحد الاروام في جنوب المدينة وابور (ماكينه) يدار بالبترول لطحن الغلال وأجرة الكيلة الجداويه (مقدارها ثلاث أقات) ثلاثه قروش محيدية ومع هذا فان صاحبه على الدوام تراه يصرح مستغيثاً من قلة المكسب وكثرة ما يصرفه في سبيل ادارته.

وتعداد أهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية، وهم يبلغون خمسين ألفاً على أضبط تقدير: منهم عشرة آلاف من الاجانب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخاريين، أما الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلا وأغلبهم من الأروام. وثروة البلاد تقريباً في أيدي هؤلاء الاغراب وتقدر ثروة بعضهم بنحو مليون من الجنيهات لانهم يجدّون ويكدّون ولهم نشاط غريب في بابه، حتى الشيالين والفلايكية في هذه المدينة تجدهم في الغالب من الحضارم أو العبيد.

وفي جدة مدرستان مدرسة الاصلاح وفيها نحو ثمانين تلميذا ويصرف عليها من تبرعات الاهالي، والمدرسة الرشديه وهي للحكومة وفيها نحو مائة وعشرين تلميذاً، ولا يدرس فيهما الا شيء بسيط من الحساب والكتابة والقراءة العربية والتركية، وعلى كل حال فانهما أقل في التعليم من مكاتب الاوقاف بمصر. وقد رأيت في سوق المدينة لوحة مكتوباً عليها (جريدة الاصلاح ومطبعتها) فسألت عنها فعلمت أنها ابتدأت عملها بعد اعلان الدستور العثماني ولكنها لم تجد رواجا فاضطر صاحبها الى اغلاقها، وقفل محررها (التركي) راجعاً الى الاستانه، أما المطبعة الآن فليس لها من عمل يذكر.



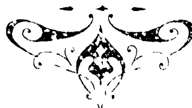
BOEHME & ANDERER, CAIRO

مرفأ جدّه

وسكان جدة خليط كما أسلفنا، وقد أثرت فيهم طبيعة هـذا الاقليم فغلبت عليهم حال البداوة فيما يختص بالتعليم الذي ليس لهم فيه حظ يذكر اللهم الا ما كان يوصل الى كتابة خطاب أومزاولة قليل من الحساب . وفي المدينة أربعة مساجد ـ المسجد الحنفي ـ والشافعي ـ والمالكي ـ ومسجد سيدي عكاشة وهو أكبرها، وفيها أجزخانه صغيرة، ويقال ان بها نزلا صغيرا (لوكاندة) في ميدان الحرك ولكني لم أره .

وحكومة المدينة محصورة في القائمقام ووكيل الشريف وهو الآن حضرة السرى الوجيه السيد محمد نصيف : والاول مختص بأعمال الحكومة المالية المنحصرة في ايراد الجمارك غالباً، وتقدر هذه الايرادات بنحو خمسين ألف جنيه عثماني في السنة على الاكثر، والثاني قائم بجميع الاشغال المختصة بالعرب كما أن أمر القوة العسكرية موكول الى قومندانها : وقد كان والى الحجاز يسكن أولا في جده ولكن نقل مركزه في نحو سنة ١٢٨٠ الى مكة لأهميتها .

وفي موسم الحج ترى في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلا ولا نهارا من الحجاج الذين اذا وصلوا اليها وجدوا على أبواب جمركها مطوفيهم أو وكلاءهم في انتظارهم وهم ينادون ياحاج فلان أو ياحجاج فلان (يعنون المطوف)، فيعرف الحاج اسم مطوفه فينادي عليه وهو في هذه الشدة، فيبادر الى مساعدته و بأخذ متاعه ورفقة جوازه (باسابورت) ليعلم عليها من قلم الجوازات ثم يسير معه الى منزل يقيم به يوماً أو يومين يصلح فيهما من شأنه في نظير أجر يدفعه لصاحبه ثم يؤجر حميره أو جماله و يسافر الى مكة بعد أن يشترى شنادفه ان كان لهـا ضرورة عنـده ومتوسط ثمن الشندف جنيه انكليزي وأجرة الهجين أو الحمار جنيه الى مكة وكذلك جمـل الحمل ، أما جمل الشندف فتصل أجرته في الغالب الى ضعف ذلك .



جبانة جدة وقبر أمنا حواء

ويوجد خارج هذه المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال وعليه خفير من الأعراب لا يدع أحداً يدخل فيه من غير ذويه . أما مدافن المسلمين فانها في جهتها الشرقية على مسافة نحو كيلومتر من بابها الشرقي الذي يسمونه باب مكة ، وعليها سور يفتح بابه للغرب ترى في مدخله زمن الحج كثيراً من الشحاذين صغاراً وكباراً من الاعراب والاغراب فاذا دخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب الى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً على ارتفاع متر وفي عرض نحو ثلاثة أمتار ، وهو ما يسمونه قبر أمنا حواء : وهو أشبه شيء بما دمسدوده من طرفها الجنوبي بثلاث حوائط من مربع يمنعه الحائط الشمالي الذي هو من جهة القبر ، وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها ، وفي كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذي هو مكان الرأس عندهم . وفي نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ، في وسطه من أعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين ، وعند نهاية القبر ترى أناسا منطوعين لارشادك عن مكان الرأس أو القدم وأيديهم ممدودة للسؤال ، وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها الى الغرب ، وفيها شباكان يشرفان على جهتي القبر ، وفي وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ فيها باب مقابل لباب القبة فتحه لنا خادم المقصورة قائلا « هذا مكان السرة الشريفة » . فنظرت فوجدت فيه حجرا من الصوان يبلغ طوله نحو متر ، محفورا من وسطه ، وهو أشبه شيء بناووس صغير ، ان لم نقل مذبح كان مستعملا في قديم الزمان لتقديم القربان . وهنالك مرّ بخاطري أن هذا المكان ربما كان لقضاعة فيه قبل الاسلام هيكل لحواء أم البشر يعبدونها فيه كما كانت هذيل تعبد سواع ابن شيث بن آدم : وهذيل كما لا يخفى في جنوب وشمال مكة ، وهم للآن يقولون هذيل الشام وهذيل اليمن ، وكانت مساكن قضاعة فيما بينهم : وكما كانت قبائل كلب ومراد وهمدان

الهائل: لأنه لا يلزم من طول القبر طول الجثة بهذا المقدار، وليس ادعاؤهم بأن هذا موضع الرأس وذاك موضع القدم برهاناً على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفي قبرها: إذ يصح أن يكون هذا المعين جهة الرأس وذاك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهاية. ولا عبرة بقولهم ان القبة على مكان السرة، لأنه بقطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عضو في الجسم وهو الرأس، فان المسافة بين الرأس والسرة في طول القبر ضعف المسافة بين السرة والقدمين، وهذا مخالف لطبيعة الانسان،

بأن المسافة التي بين آدم وبين الطوفان كانت أضعاف أضعاف أضعاف أضعاف المسافة التي بيننا وبين الزمن الذي وصلتنا منه هذه المومياء، ثم تدرج معه جسم الانسان الى هذا الحد بحكم الناموس الطبيعي الذي يسير به الى الضعف والفناء. ولا أدري اذا كان يصح أن يقيم على هذا برهاناً محسوساً من تلك الهياكل الضخمة التي اكتشفوها أخيراً بين طبقات الارض وثنايا الصخور، ووجدوا انها أضعاف أضعاف هياكل الحيوانات التي من نوعها الآن: نذكر من ذلك الحيوان الهائل الذي يسمونه ماستودونت (Mastodonte) ويقولون انه هو الفيل بعينه ومذكور في مادة فيل (éléphant) بدائرة المعارف الكبرى الفرنساوية، ثم ذلك الحيوان الذي يسمونه بليزيوزور (blesiosaure) ويقولون انه نوع من الورل (الورنه) وطوله عشرة أمتار، وهو مالا يكاد تربطه نسبة بطول أي نوع من أنواعه الآن. ولا يرد علينا أنهم وجدوا في الارض الثالثة جسم انسان لا يزيد كثيراً عن أطوال جسومنا. فقد ذهب بعض الجيولوجيين الى أن الصخور الثالوثية (أي التي وجدوا فيها بعض حيوانات مما كان يعيش في الارض الثالثة) انما هي مكونة من رواسب مائية سببها الطوفان. وعلى هذا فيكون هذا الانسان الذي عثروا عليه كان عائشاً في الخاتمة التي انتهت بها الارض الثالثة وابتدأت بها الارض الرابعة، وهي التي بعد الطوفان والتي نعيش فيها الآن. ولا مشاحة في أن الانسان الاول كان موجوداً قبله بنصف مليون سنة على الاقل كما يؤخذ من قول فلاماريون في كتابه (astronomie Populaire) من أن عمر الارض الثالثة كان ثلثمائة ألف سنة، وعمر الثانية مليون ومائتا ألف سنة. والارض الثانية هي التي تكونت فيها النباتات والحيوانات التي انتهت بتكون الحيوانات الثديية التي منها الانسان، الذي ما زال متدرجاً في كمالها وتطوره في مجموعها حتى ظهر استعداده وأخذ يعمل لما وجد من أجله، وبعمله هذا ابتدأ طور جديد هو طور الارض الثالثة. على أنه يجوز أن يكون عمر هذين الطورين أكثر مما قدره لهما فلاماريون، بدليل انهم كانوا يقدرون عمر الارض في جميع أدوارها بمائة مليون سنة، ولكنهم بعد اكتشاف الراديوم قدروه بألف مليون من السنين (انظر باب الاخبار العلمية في عدد ٦ من هلال مارث سنة ١٩١١). ولا يبعد أن يأتي زمن يرشدنا فيه العلم الى ان عمر

بالطبع هذا الهيكل ، بقى أثره فى نفوس القوم برأبحق الأمومة، وأقاموا له قبة (لا ندرى متى كان تشييدها) لتكون مزارا للناس ، كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدهم الصلاة والسلام .

ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة فى رحلته المشهورة فى القرن السابع للهجرة ولم يذكر شيئاً عن القبر . ومن أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ما ذكره ابن جبير فى رحلته التى عملها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله : « وبها (بجدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزلا لحواء أم البشر عند توجهها إلى مكة فبنى ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله والله أعلم »

وعلى كل حال فانا لو صرفنا النظر عما غيره الطوفان من معالم الارض وقلب أغلب معالمها بطناً لظهر خصوصاً فى الجهات البركانية التى منها هذه البلاد وجاريناما فى رحى العرب فى أن حواء هبطت مع آدم الى جزيرة سرنديب (سيلان) ، وقطعنا النظر عن الواسطة التى انتقلا بها من الجزيرة الى القارة ، وعن كيفية وصولهما الى جدة وموت حواء ودفنها بهذا المكان، ثم موت آدم ودفنه بجبل أبى قبيس أو بمسجد الخيف ، أو توجهه على ما يقول النصارى الى بيت المقدس وموته به ودفنه تحت صخرة هناك فى كنيسة القيامة يقدسونها الى الآن : فلا تهولنا دعوى القوم بان هذا قبر حواء على ماهو عليه من الطول[1]

---

١) أرجو أن يسمح لي القارئ بأن لا أترك هذا المقام دون أن أقول كلمة عما قالوه فى طول آدم وحواء :

قال المسيو هاريون العضو فى المجمع العلمي الفرنساوي والعالم المستشرق « ان طول آدم كان ١٢٣ قدم وتسع بوصات (٣٧ متراً تقريباً) وان طول حواء كان ١١٨ قدم وثلاثة أرباع البوصة» (أنظر مادة آدم فى معجم لاروس الكبير) .

أما العرب فانهم قالوا ان طول آدم كان ستين ذراعا (وكان طول حواء متناسباً معه طبعاً) ونحن لا ندري ما كانوا يقصدونه من طول الذراع . ولو فرضنا انه ذراع اليد الذى يبلغ متوسط طوله ٤٠ سنتمترا فان طوله يكون ٢٤ مترا وهو أقل مما قاله المسيو هاريون بكثير . ويقول بعضهم انا اذا نظرنا الى طول الموميات التي وصلت الينا من خمسين قرنا ورأينا أنها لا تختلف كثيراً عن طول جسومنا اليوم حكمنا بأن ماقاله العرب فى طول آدم مبالغ فيه . ولكن من لنا

الهائل: لانه لا يلزم من طول القبر طول الجثة بهذا المقدار، وليس ادعاؤهم بان هذا موضع الرأس وذاك موضع القدم برهانا على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفي قبرها: إذ يصح أن يكون هذا المعين جهة الرأس وذاك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهاية. ولا عبرة بقولهم ان القبة على مكان السرة، لانه بقطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عضو في الجسم وهو الرأس، فان المسافة بين الرأس والسرة في طول القبر ضعف المسافة بين السرة والقدمين، وهذا مخالف لطبيعة الانسان،

بأن المسافة التي بين آدم وبين الطوفان كانت أضعاف أضعاف أضعاف أضعاف المسافة التي بيننا وبين الزمن الذي وصلتنا فيه هذه المومياء، مما تدرج معه جسم الانسان الى هذا الحد بحكم الناموس الطبيعي الذي يسير به الى الضعف والفناء. ولا أدري اذا كان يصح أن نقيم على هذا برهانا محسوساً من تلك الهياكل الضخمة التي اكتشفوها أخيراً بين طبقات الارض وثنايا الصخور، ووجدوا انها أضعاف أضعاف هياكل الحيوانات التي من نوعها الآن: نذكر من ذلك الحيوان الهائل الذي يسمونه ماستودونت (Mastodonte) ويقولون انه هو الفيل بعينه ومذكور في مادة فيل (éléphant) بدائرة المعارف الكبرى الفرنساوية، ثم ذلك الحيوان الذي يسمونه بلزيوسور (blesiosaure) ويقولون انه نوع من الورل (الورنه) وطوله عشرة أمتار، وهو مالا يكاد تربطه نسبة بطول أي نوع من أنواعه الآن. ولا يرد علينا انهم وجدوا في الارض الثالثة جسم انسان لا يزيد كثيراً عن أطوال جسومنا. فقد ذهب بعض الجيولوجيين الى أن الصخور الثالوثية (أي التي وجدوا فيها بعض حيوانات مما كان يعيش في الارض الثالثة) انما هي مكونة من رواسب مائية سببها الطوفان. وعلى هذا فيكون هذا الانسان الذي عثروا عليه كان عائشاً في الخاتمة التي انتهت بها الارض الثالثة وابتدأت بها الارض الرابعة، وهي التي بعد الطوفان والتي نعيش فيها الآن. ولا مشاحة في أن الانسان الاول كان موجوداً قبله بنصف مليون سنة على الاقل كما يؤخذ من قول فلاماريون في كتابه (astronomie Populaire) من أن عمر الارض الثالثة كان ثلثمائة ألف سنة، وعمر الثانية مليون ومائتا ألف سنة. والارض الثانية هي التي تكونت فيها النباتات والحيوانات التي انتهت بتكون الحيوانات الثديية التي منها الانسان، الذي ما زال متدرجاً في كمالها وعارفاً في مجموعها حتى ظهر استعداده وأخذ يعمل لما وجد من أجله، وبعمله هذا ابتدأ طور جديد هو طور الارض الثالثة. على أنه يجوز أن يكون عمر هذين الطورين اكثر مما قدره لهما فلاماريون، بدليل انهم كانوا يقدرون عمر الارض في جميع أدوارها بمائة مليون سنة، ولكنهم بعد اكتشاف الراديوم قدروه بألف مليون من السنين (انظر باب الاخبار العلمية في عدد ٦ من هلال مارث سنة ١٩١١). ولا يبعد أن يأتي زمن يرشدنا فيه العلم الى ان عمر

مخالف لشكل بنى آدم أو بعبارة أخرى لشكل بنى حواء فى جميع أدوار حياتهم ٠

على اننا مع انكارنا لطول هذا القبر فاننا نحترم لحواء وجودها انى كانت وكيفما كانت لانها أم الكل و بكاملها من احترام الكل : لذلك لما قصد الشريف عون الرفيق هدم قبتها فيما هدم من قباب الصالحين بمكة وعبرها قام فى وجهه قناصل الدول وحالوا بينه و بينها بدعوى انها ليست أم المسلمين وحدهم ٠

الارض أضعاف أضعاف ذلك ولا شك ان قدم الانسان فيها متناسب مع قدمها بطبيعة الوجود ٠

على أنهم يقولون ان النباتات التى كانت تعيش فى الارض الثالثة كانت اكبر بكثير من التى تعيش الآن من نوعها : ومما جاء فى دائرة المعارف العربية من ذلك بمادة جيولوجيا ما نصه :

« ومما نستغرب له فى نبات الارض الفحميا نموه العجيب ٠ فمن أنواع السرخس التى لا يكون منها فى عصرنا هذا الا نباتات حشيشية خالدة فى البلاد الباردة وكان يكون منها أشجار أعظم ارتفاعا من أشجار التوت ٠ وأنواع الليكوبوديون لا ترتفع فى هذه الايام اكثر من متر ، مع انها كانت فى الزمن القديم ترتفع من ٢٥ الى ٣٠ مترا وكان قطرها مترا »٠

وينسبون هذا الخلاف الى اختلاف درجة الحرارة الهوائية لانهم يقولون انها كانت ٢٠٠ درجة فتنخفض بعدما تكونت قشرة الارض ، وصارت تقل شيئاً فشيئاً ببرودة هذه القشرة حتى وصلت الى هذه الدرجة التى هي عليها الآن ٠ وانى لا أدرى اذا كان هذا التعليل صحيحاً لم لا يؤثر على الانسان تأثيره على الحيوان وعلى النباتات والكل كالا نحو من المملكة العضوية ٠

على أنا لو فرضنا ان الانسان ينقص من طوله فى كل مائة سنة نصف سنتيمتر لكانت أطوال هذه المومياءات فى حياتها أعنى وهي فى نضارتها لا تزيد عن أطوالنا الا بنحو ٢٥ سنتيمتر فقط ، وهو ليس بالفرق المحسوس بين أطوال الجسوم فى المدن الحاضرة والغابرة ، خصوصاً اذا لاحظنا انكماش جسوم المومياءات بعد تحنيطها وتداخل ذراتها فى بعضها مما ينقص من أطوالها ٠ وعلى هذه النسبة يكون مقدار طول الانسان اذا اعتبرنا تقدير الداروينيون لا ينقص عن ٢٥ متراً ٠

وعلى كل حال فهذا مقام يصعب أن يوصل البحث فيه الى حقيقة ثابتة ، لانه مبنى على فروض يفرضها بعضهم من الحقيقة ويبعدها آخرون عنها على حسب الشكل الذى يقع من صورتها فى مخيلاتهم والله تعالى أعلم بما كان وما يكون ٠

وصول الجناب العالى الى جدة

وسفره منها الى بحرة

ومما يذكر فى تاريخ جدة تشريف الجناب العالى الخديو اليها يوم الثلاثاء غرة ذى الحجة سنة ١٣٢٧ قاصداً تأدية فريضة الحج الشريف . فما أشرقت شمس هذا النهار حتى أخذ الناس يردون الى الميناء زمراً زمراً و فى مقدمتهم علية القوم وأعناقهم متطاولة الى عرض البحر لرؤية وابور المحروسة المقل لهذه الذات العباسية المحبوبة . وفى نحو الساعة الثالثة العربية نهاراً حضر أصحاب السيادة والسعادة على بك وفيصل بك والشريف زيد أنجال سيادة شريف مكة ومعهم حضرات القائمقام وقومندان القوة العثمانية الموجودة بجدة وسعادة مكتوبجى الولاية الذى وفد للسلام على الحضرة الخديوية بالنيابة عن الدولة العلية والتشرف بمرافقة الجناب السامى بصفته مهمنداراً له مدة وجوده حفظه الله فى الأقطار الحجازية يتلوهم حضرات مدير البوستة والتلغرافات و وكيل شركة البواخر الخديويه وغيرهم من مستخدمى الحكومة العثمانية . وقبل أن تظهر أى اشارة تنبئ بقرب الركاب العالى ركبوا جميعاً الزوارق وبرنوا الى عرض البحر انتظاراً لمقدمه الشريف . وكانوا قبل شروق الشمس قد أرسلوا الوابور الحربى العثمانى المقيم فى مياه جدة لاستقبال المركب الخديويه المحروسة على بعد سبع ساعات أو أكثر من مياهها .

وفى نحو الساعة السابعة العربية نهاراً ظهر دخان المركب فى الافق، ومازالت تقرب شيئاً فشيئاً حتى ألقت مراسيها فى الساعة الثامنة . وهنالك فرت منها الزوارق وصعد الاشراف ورجال الحكومة للسلام على مولانا الخديو وتبليغه سلام مولانا أمير المؤمنين وتهانى الدولة العلية مع تحية سيادة الشريف ودولة الوالى . فقابلهم حفظه الله بما جبل عليه من البشر والايناس والحفاوة والاكرام، وبعد ساعة رجعوا والسنتهم كلها شكر وثناء على مكارم أخلاقه وكمال آدابه .

وماغربت شمس هذا اليوم حتى بدت دار البلديه تحتال فى حلل زينتها من جهة البر، وتألقت أنوار المراكب البخارية على اختلاف جنسياتها من جهة البحر ، وذهبت ساريات لسنابك فى السماء بمصابيحها التى كانت كأنها النجوم الزواهر . وبالجملة فقد كان يوما مشهودا وليلة فذّة فى بابها لم ير أهل جدة مثلهما بالمرة ، كما أنهم لم يشاهدوا اعتنايه الدوله العلية بمثل احتفائها بهذه الذات الكريمة واهتمام دولة الشريف بما فيه راحة جنابه الرفيع : وأى رجل اصطفاه مولاه الى حج بيته الكريم كالعباس حفظه الله ، دعادر به ولباه ، وقد كشف عن رأسه تاج ملكه ونزل الى صفوف بقية الخلق فى تقشفهم فى ملابسهم وغذائهم ، ينام على الغبراء و يلتحف السماء ، و يركب الصعب ، و يسير بين حراره الشمس و برودة الليل ، فى طريق تغزر وعثاؤه ، وتكثر حصباؤه ، ولا ينقطع اعصاره ، كما لا تتناهى أخطاره . ولا غرابة اذا كانت عين الله تكلؤه وعنايته تحرسه وقلوب الخلق ترمقه بكل تجلة واحترام .

وقبل فجر يوم الاربعاء ثانى ذى الحجة أخذت العساكر تغدو وتروح فى ميادين البلديه التى اكتظت بالجموع من عساكر الحرس الخديوى من جهة ، وعساكر الدوله وجند البيشة[1] من جهة أخرى .

وقبل الشروق ظهر من اليم الزورق البخارى المقل لمولانا الخديو حفظه الله فضرب النفير وأطلقت المدافع من طابية المدينة . وهنالك انتظمت العساكر على شبه دائرة مستطيلة نصفها الشرقى من رجال الحرس الخديوى ، والنصف الثانى نصفه من عساكر الدوله العلية ونصفه الآخر من عساكر البيشة ، وطرفا هذين القوسين من باب القورنتينة الى باب البلدية . وبعد نصف ساعة شرف الركاب العالى على سلم القورنتينة ، وكانت ساحتها مفروشة بالسجاجيد العجمية وقد اصطف على جانبيها رجال الدولة العلية من جهة ، ومن الأخرى أصحاب السعادة أنجال دوله الشريف ومن حضر معهم من الأشراف لأداء واجب التحية . فطلع حفظه الله على الاسكلة وهو فى لباس احرامه كالبدر فى تمامه ، وسار وهو يحيي هذه

---

١) بيشه قبيلة موجودة في شرق بلاد العرب وجنودها يركبون الهجن بلباسهم العربي وهم في نظامهم أشبه بالباشبوزوق وكل عساكر الشريف منهم وهم مشهورون بالشجاعة والامانة .

الجموع بيده الشريفة، يتلوه صاحب الدولة البرنس كمال الدين باشا، وفضيلة الشيخ بكرى الصدفى مفتى الديار المصريه، وحضرة عزتلو على بك لبيب طبيب سموه فى هذه الرحلة المباركة، وغيرهم من الياوران الكرام و بعض رجال حاشيته . وكان جواده على سلم الفورنتينة فركب حفظه الله بين عزف الموسيقات المصرية والتركية ودعاء الجنود وهتاف الجمهور، وركب من خلفه دولة البرنس وسعادة حسين محرم باشا مهمندار الخصوصى، ثم الياوران تتقدمهم ثلة من الحرس بهيئة باشدار (حرس أمامى)، يحيط بهم جميعاً فرقة من الجند . ثم ركب فى أثرهم أنجال الشريف ومعهم مندوب حكومة الحجاز وجم غفير من الأشراف، تتلوهم جنود الهيشة ثم قومندان نقطة جدة ومعه فرقة من عساكر الدوله . وسار حفظه الله بهذا الموكب الحافل إلى باب المعاريه ومنه إلى الباب الشامى وهنالك كان فى انتظاره مشايخ العربان من أشراف وغيرهم على هجنهم وساروا جميعا فى ركابه العالى إلى بحرة .

والطريق من جدة الى مكة يبلغ طولها نحو ثمانين كيلومتر، وهى تدخل بعد ساحل جدة فى واد بين جبلين أعلاهما يسمى القائم، ثم تمر فى طريق على جبل الرغامة، ثم على جبل أم السلم و به قهوة العبد(١)، ثم يأخذ الوادى فى الميل الى الجنوب الشرقى فيمر بقهوة جراده، ثم يصل الى بحره، وهنالك يتسع الوادى و يقطعه واد آخر من الشمال الشرقى الى الجنوب حتى يتصل بالبحر اسمه وادى مر (وادى فاطمه). وهو واد عظيم من أشهر أرض الحجاز خصوبه و يسكنه كثير من قبائل أشراف ذوى حسين وهم يملكون أغلب أراضيه، وفيه عيون ماء كثيرة ولذا يزرع به جميع أنواع الخضروات التى تأتى الى مكة . و يقطعه الطريق السلطانى بين مكة والمدينة فى نقطة يوجد فيها بساتين من نخيل وأعناب يتخللها مجرى ماء يأتى من جهة الشرق (يسمونه نهرا) وكمية الماء فيه أقل من متر مكعب وأكثروا كذلك البساتين من البرتقال والليمون: وأرى أنه لو عملت بهذه الجهات آبار ارتوازيه لكانت تأتى بفوائد جمة .

و بحره نزلة بها جملة أكواخ يسكنها بعض الاعراب، وفيها عشش عمومية واسعة

(١) هو ضابط سودانى عثمانى كان مقيما بهذا المكان من طرف الدولة وأظهر شجاعه وحسن تدبير فى تأمين الطريق فنسب اليه .

يسمونها قهاوى ، يستريح فيها من أراد من الحجاج وخصوصاً راكبي الحمير والهجن لوجود ما يلزمهم بها من خبز وجبن وملح وبعض الفاكهة والقهوة والتنباك ، وفى جوارها أفنية واسعة محاطة بأسوار من الحريد تربط فيها جمال الحجاج ودوابهم ، وأغلب القوافل تبيت فيها . ويأخذ الطريق من بحرة نحو الشرق بميل الى الشمال فيمر على حدّة ويبيت فيها بعض القوافل ، ثم على قهوة سالم ويقرب منها الى الشمال الغربى قريه الحديبية ، ثم يمر على جبل الشميسى ، ثم على المقتلة ، ثم الهجالية ، ثم البستان ، ثم قهوة المعلم ، ثم الشيخ محمود وهو باب مكة وفيه قبر جار الله الزمخشرى صاحب التفسير الشهير المسمى بالكشاف وكان قد أتى اليها حاجاً سنة ٥٣٨ فمات بها يوم التروية ودفن بهذا المكان . وكل هذه القهاوى شبه أكواخ يجد الحاج فيها بعض الراحة . أما الجبال على طول الطريق فتراها حمراء أو مائلة الى الخضرة أو الصفرة ، وهذا مما يدل على أنها غنية بالمعادن المختلفة كالحديد والنحاس وغيرهما . وعلى طول الطريق أربع عشرة قلعة يوجد فيها الجند العثمانى على الدوام ، وبعضها قديم من عمل الشريف غالب أو محمد على باشا والى مصر ، والبعض من بناء الدولة العلية من عهد ليس ببعيد خصوصاً بعد ما كثر مجىء الحاج بحراً .

أما ما كان من أمر صاحبة الدولة والعصمة والدة الجناب العالى فانها نزلت من المحروسة الى البر فى منتصف الساعة الثالثة العربية نهاراً ، وكان فى انتظار دولتها على الاسكلة بعض رجال الحاشية ، وكان بعض مأمورى الحكومة العثمانية على بعد من الباب العمومى ، وركبت حفظها الله مع صاحبتى الدولة الاميرتين كريمتى الحضرة الفخيمة الخديويه عربه من طراز (لاندو) يجرها أربعة بغال ، وركبت دولة الاميرة فاطمة هانم أفندى مع بعض الملفوات (كبيرات الحاشية) عربه أخرى من عربات دولة الشريف ، وباقى الملفوات ركبن فى هوادج يتلوها هودج سعادة ألماس أغا باش أغاى السراى الخديويه ، وعنايتلو كاظم أغا باش أغاى دولة الوالدة ، ويتلو ذلك شقادف بعض رجال المعية السنية ثم جمال الحملة . وسارت عربة دولة الوالدة يحيط بها فوارس الحرس الخديوى وفى مقدمتهم عسكر الشريف ومن خلفها حرس الدولة ، والناس على جانبى الطريق بحال لم يسبق لها مثيل ، ولسان الجميع

يلهج بالثناء والدعاء . ومازال هذا الموكب على نظامه الجميل حتى خرج من باب جدة الشرقى المسمى باب مكة ، و بعد ذلك سارت دولة الوالدة مع رجال الحرس الى بحرة حيث استقبلت أحسن استقبال ، ونزلت فى الدائرة المخصصة لاقامتها مع حاشيتها .

وهنالك كنت ترى معسكر الجناب العالى فى نظام لم يسبق له نظير بالمرة ، والى شرقيه سرادق حضرات أنجال الشريف التى مدت فيه ظهر ذلك اليوم مائدة على النظام الأفرنكى تسع نحو مائة مدعوٍّ لضيافة سمو الامير ومن فى معيته ، وعلى الخصوص فى العشاء الذى حضره مولانا الخديو ، وكان أناب عنه فى الغداء دولة الرئيس أحمد كمال الدين باشا . أما النظام والزينة فى هذه المائدة فقد كانا مدهشين جداً لعدم انطباقهما بالمرة على حال هذه البداوة التى رأيناها بها ساعة ونحن بين فيافيها كأننا بين جدران الهوال الكبير فى نزل الكونتيننتال بالقاهرة أثناء مأدبة من المآدب الكبرى : نعم كنت تجد الطعام على كثرة صنوفه جمع الى نظافته لذة طعمه ، وكانت ثريات النور الأبيض تتلألأ منتشرة فى أرجاء الصيوان مما كان ينير جو بحره بأجمعه حتى لكأننا فى رابعة النهار . وكان يزيد فى رواء هذه الحفلة تلك الآداب العالية التى كنت تراها فى أنجال سيادة الشريف . و بعد العشاء بارح الجناب العالى صيوان الأشراف بين صنوف التبجيل والتكريم ، فاصطفت مشايخ العربان من أشراف وغيرهم فسلم حفظه الله عليهم شاكراً لهم ضيافتهم وهم له شاكرون تفضله بقبولها .



دخول الجناب العالى الى مكة

— وأيامه بها قبل عرفة —

بعد تناول العشاء فى صيوان أنجال الشريف فى بحرة استراح الجناب العالى قليلاً فى سرادقه ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أفرنكى مساء ، امتطى حفظه الله جواداً كريماً قاصداً مكة ، يتبعه دولة البرنس كمال الدين باشا وحضرة السرياور و بعض الحاشية . وسار الكل فى ركابه حتى اذا وافى جبل الشميسى وجد فى انتظار سموه سعادة خيرى باشا مدير الأوقاف الخصوصية ، وقدم لحضرته العلية عطوفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ثم سعادة قومندان القوة الشاهانية بها . و بعد تبادل التحية ساروا مع سموه حتى وصلوا الى قهوة البستان وهى على بُعد ثلاث ساعات من مكة . وهنالك كان دولة الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة فى جمع من علية بيته وأكابر قومه استقبالا لجنابه الفخيم ، وأراد الشريف أن يترجل عن جواده احتراما لجنابه العالى ، فاقسم عليه سموه بان لا يفعل ، و بعد تبادل التحيات وعبارات التهانى ساروا جميعاً حتى وصلوا الى الصواوين التى أعدتها الحكومة خارج مكة احتفالا بقدمه الشريف ، وكان العلماء والوجهاء والأعيان والتجار فى انتظار قدومه السعيد بها . ونزل حفظه الله فى سرادق مخصص لتشريفه ، و بعد شرب القهوة قدم له دولة الشريف حضرات أعضاء بلدية البلد الحرام : وفى مقدمتهم الشيخ الشيبى ، ثم حضرات قاضى مكة ، ومفتيها ، ونائب الحرم ، والسيد عبدالله الزواوى رئيس قومسيون عين زبيدة وقومسيون المعارف وغيرهم من العلماء والاشراف والأعيان ، فابدى سموه لهم شكرانه وعظيم امتنانه ، ثم امتطى جواده قاصداً مكة ، وسار بمن كان معه من وسط جنود القوة الشاهانية المقيمة بها ، وكانت قد اصطفت على جانبى الطريق الى ثكنة (قشلاق) الحميدية لأداء واجب التعظيم وأمامها حضرات قومندانها وضباطها بالتشريفة الكبرى ، وفى هذه الفترة كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديوى .

ودخل مكة حفظه الله من باب جرول حيث كان حرس المحمل واقفا لاداء واجب السلام، وسار فى طريق الشبيكة والناس على جانبيه كأنهم البنيان المرصوص والكل يبتهل الى الله بحفظ هذه الذات السنية ، ثم مرّ امام التكية المصرية ودار الحكومة الحجازية ودار البلديه وكانت كلها مزينة بأحسن زينة ، ووصل الى باب الحرم الشريف فجر يوم الخميس ثالث ذى الحجة وصلى الصبح مع الامام المالكى ، ثم طاف طواف القدوم ، وخرج الى السعى بين الصفا والمروة حيث اصطفت الحجاج على اختلاف أجناسهم وفى مقدمتهم الحجاج المصريون على طول المسعى ، وكان كلما مرّ عليهم ساعياً لله ارتفعت أصواتهم مكبرين مبتهلين وأفئدتهم ترفع الدعاء الى رب الارض والسماء بحفظ هذه الذات العباسية المحروسة ، وأعينهم تذرف دموع الفرح لمشاهدة أنوار مليكهم المحبوب ، الذى استولى بعدله وفضله ورحمته ونعمته على القلوب ، فيالها من ساعة كنت ترى فيها هذا المليك الفخيم ولا عرش يقله ، ولا تاج يظله ، وقد تجرد عن فخامة الملك بل عن مظاهر الدنيا بأجمعها وسعى بين يدى الله سبعة أشواط كانت قلوب الناس فى أثنائها تسعى بين يديه الكريمتين ' يالها من ساعة ما كنت تسمع فيها الا زغردة النساء وآى الدعاء ومظاهرة الرعية الصادقة بالاخلاص والولاء ، حتى كأنما الكل أهل بيت واحد خرجوا لاستقبال والدهم وسيدهم وعائلهم وولى نعمتهم بعد غياب طويل . وأحسن مايذكر فى هذا المقام أن سيادة الشريف أشار عليه بالسعى راكباً لعدم المحظور شرعا خصوصاً وهو فى تعبه الشديد بعد هذا السفر الطويل ، فامتنع سموه قائلا « ماعلىّ لو غبرت قدمى ساعة فى سبيل الله » .

وبعد السعى قصد حفظه الله دار الامارة فى سوق الليل ، وكانت قد أعدت لاقامته مدة وجوده بمكة . وكان دولة الشريف قد استأذن جنابه العالى عند دخوله الحرم الشريف وسبق اليها استعداداً لمقدمه السعيد . ولما وصل الركاب العالى كان دولته فى انتظاره على باب السراى العامرة ، فرحب به ترحيباً يليق بمقام الزائر وكرم المزور ، وصعد مع سموه الى قاعة الاستقبال الكبرى وبعد تكرار آيات التهانى انصرف دولته مودعا بكل شكر واحترام .

وهذه السراى كان قد بناها الحاج محمد على باشا والى مصر سنة ١٢٢٨ لتكون داراً للحكومة بالحجاز ، ولما ترك ولايتها جعلت مقراً لامارة مكة الى الآن لذلك لم ير دولته الشريف أجمل مناسبة يجدد بها الذكرى الطيبة لجد هذه العائلة الكريمة الفخيمة الا تقديم أثر من آثار نابغة القرن الثالث عشر الهجرى الى هذا الحفيد الجليل ، ليمر أفى عظمة أروقته بعض آيات آبائه الأكرمين : وفى هذا اشارة لطيفة الى عدم نسيان دولته الشريف ما كان لمحمد على باشا على عائلته الكريمة من اليد البيضاء ، لانه هو الذى عين فى امارة مكة جدهم محمد ابن عون سنة ١٢٢٩ ، ومن ثم وهى فى أيدى بنيه الى اليوم .

وما طلعت شمس هذا النهار المبارك حتى اطلقت المدافع من قلاع مكة ترحيباً بمقدم الجناب الخديوى ، و بعد الظهر تبادل سموه الزيارة مع سيادة الشريف ، ثم تشرف عطوفة القائم بأعمال الولاية بزيارة جنابه العالى ، وفى الساعة الرابعة بعد الغروب نزل حفظه الله للطواف ببيت الله المعظم .

أما دولة الوالدة فانها حفظها الله ركبت من بحرة بمعيتها فى فجر اليوم المذكور و وصلت الى مكة قبيل الغروب ، ودخلتها فى موكب من أفخر ما رأى الراءون وسمع السامعون بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقات وهتاف الجموع المحتشدة على الطريق ، ومازال موكبها الجليل سائراً حتى وقف أمام باب الصفا حيث نزلت دولتها الى دار باناجا (١) باشا التى كانت أعدت لاقامتها فيها مدة وجودها بهذا البلد الامين . و بعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ، ثم سعت فى عز تهامع صاحبات الدوله والعصمة الاميرات الفخيمات .

وما بزغت شمس يوم الجمعة رابع ذى الحجة حتى أخذ الالاف من الناس يفدون على باب الدار الخديويه : هذا رافع يده للدعاء ، وذلك باسط كفه للعطاء ، وتسابق كبار المصريين للكتابة أسمائهم فى سجل التشريفات قياما بواجب تحية القدوم . وفى ضحوة النهار ركب سموه قاصداً دار الولايه لرد الزيارة الى عطوفة القائم بأعمالها ، فاستقبل سموه بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاحترام . وكانت

(١) وهذه الدار أيضاً من آثار محمد على باشا كان قد ابتناها والده على الحجار المرحوم أحمد باشا يكن ثم ابتاعها باناجا باشا من ورثته سنة ١٣٠١ هـ

فرقة من الجنود الشاهانية مصطفة على جانبي الطريق الى بابها ، ولما وصل ركابه العالى عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ، وأسرع عطوفة القائمقام الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بمقدم سموه ، ثم استصحب جنابه العالى الى قاعة الاستقبال شاكراً له تفضله بهذه الزيارة ، وبعد شرب القهوة قدم لسموه حضرات العلماء والمأمورين الملكيين والعسكريين وحضرات أعضاء المجلس البلدى والاعيان والتجار الذين حضروا استعداداً للتشرف باستقبال جنابه الفخيم ، وكانت الموسيقى الشاهانية طول هذه المدة تطرب الحاضرين بنغماتها الشجية . ثم انصرف برعاية الله مودعاً بكل حفاوة واعظام لزيارة التكية المصرية ، فاستقبل بما يليق بمقامه الرفيع ، وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها ومنازل حفظه الله فأكل من خبزها ، وبعد أن أعطى التعليمات اللازمة بزيادة العناية بأمر الفقراء وشدة الاهتمام بهم ، رجع الى دار الامارة وزار دوله الشريف .

ولما قرب وقت الظهر قصد حفظه الله الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، وكانت أعدت له النبة التى فى أعلى بئر زمزم ففرشت بأصناف السجاجيد العجمية والبسط الفاخرة . وكنت فيمن سبق اليها الشرف القيام بخدمة استقباله بها : فدخل سموه من باب الصفا يحف به عدد عظيم من الأشراف و بعض ضباط الحرس الخديوى ، فزغردت النساء اللاتى كن فى محلهن من المسجد على يمين الباب فرحاً بمقدمه السعيد ، وهنالك علت الأصوات من ارجاء المسجد بالتكبير والتهليل بما لم يسبق له مثيل : نعم علت الاصوات الى رب السموات الذى عظم شأنه وتجلى سلطانه وظهرت ربوبيته بأكمل مظاهرها . فاذا قلنا ان العالم كله ملكه فلنا ولكن مكة عاصمته ومظهر سلطانه وجبروته ، والكعبة بيته ومكان عظموته ورحموته . وأى مكان فى أطراف المسكونه لا يبلغ مسطحه ثمانية عشر الف متر مربع مع أنه يحتشد اليه زمن الحج فى وقت واحد نحو نصف مليون من النفوس ، والكل يدعون الله بقلب واحد ولسان واحد ، وهم وان اختلفت جنسياتهم وتباينت لغاتهم يتوجهون الى قبلة واحدة ، ويتحركون فى صلاتهم بحركة واحدة ، وهم لا يرجون غير رحمة الله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ولما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الاغوات وجلس على الدرجة التى تلى قدميه : وهذا بلاشك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب أثناء اشتغاله بالقاء الخطبة حتى لا تتسرب اليه يد أثيمة ، وأظن أنهم استغنوا عن ذلك فيما بعد بعمل ابواب للمنابر خصوصاً وقد صارت الخطبة لغير الامراء والرؤساء . وعقب هذه الخطبة التى لم تخرج عن مثيلاتها فى دواوين الخطب البسيطة ، أنعم الجناب العالى على الخطيب بخلعة سنية ألبسه اياها سعادة حسين محرم باشا ، ثم صلى الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة بين المعجن وبابها الشريف . وكانت السماء فى أثناء الخطبة قد تلبدت بالغيوم ثم فاضت بغيثها المدرار أثناء الصلاة فلم يتزحزح الناس عن مراكزهم واستبشر جميع الخلق بهذه الرحمة التى كانت قد انقطعت عن بلاد الحجاز من ست سنوات ، وكان هذا أحسن فأل لحج الجناب العالى الخديوى . وبعد الصلاة خرج حفظه الله من باب الصفا بين صفوف الحرس الخديوى الذى حال بين سموه وبين أولئك الألوف المتزاحمة لمشاهدة محياه الشريف ، وألسنتهم تلهج بالدعاء له ، وخصوصاً أهل جزيرة العرب الذين فرحوا بهذا الغيث الذى أكرم الله به وفادة ضيفه الكبير .

وفى صباح يوم السبت خامس ذى الحجة قصد حفظه الله زيارة الاماكن المباركة فى ركب من حاشيته ملكيين وعسكريين ، فذهب الى المعلاة (المعلى) ،

وبعد زيارة ما فيها من الاماكن المباركة أمر فوزعت الصدقات على من كان هناك من جيوش الفقراء والمعوزين ، ثم امتطى جواده وصعد بحاشيته الى طريق الحَجُون فمر على السلخانة وقصد جرول لزيارة المحمل المصرى ، فاستقبل استقبالا فخيما ، وقدم لسموه أمير الحاج جميع ضباط ومستخدمى المحمل فتشرفوا بلثم راحته الكريمة ، وبعد أن أوصاهم حفظه الله بزيادة العناية بواجباتهم فى هذه البلاد المقدسة اعتلى صهوة جواده وسار تحيطه المهابة وتلازمه الكرامة الى زيارة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم مولد سيدنا على كرم الله وجهه ، وبعد ذلك قصد حفظه الله دار الارقم المخزومى فزارها وعاد الى السراى العامرة .

و بعد ظهر هذا اليوم استقبل الجناب العالى كثيرا من الزائرين من علماء وأعيان مكة ومن بينهم أعضاء قومسيون عين زبيدة وفى مقدمتهم حضرة رئيسه السيد عبد الله الزواوى . وفى الساعة الخامسة العربية بعد غروب اليوم المذكور قصد زيارة بيت الله الحرام ، ففتح بابه ووضع اليه المدرج المصرى ، وأوقد ما فيه من الشموع حتى صار كأنه قطعة من نور على نور . فصعد حفظه الله على المدرج ، يتبعه دولة الامير كمال الدين باشا ورجال حاشيته عسكريين وملكيين ، وهنالك صلى ركعتين لله تعالى فى القبلة التى فى مقابلة الباب (وكانت مصلى النبى صلى الله عليه وسلم) ثم اتجه الى الجدار الشمالى فصلى ركعتين أيضاً ، ثم الى الجدار الشرقى فصلى مثلهما ، وكان الجميع يصلى كذلك ، والكل فى غاية ما يمكن من الخشوع لقاء هذا الملكوت الاعظم والرهبوت الأفخم الذين تصغر أمامهما النفوس الكبيرة حتى يكاد يتصل وجودها بالعدم : ولولا ما كنا نشاهده من تحرك الجسوم فى هيئة الصلاة ، ورفع الايدى بالدعوات ، واضطراب الشفاه بالتضرعات ، وما كنا نسمعه من دقات القلوب أمام هذه العظمة اللامتناهية ، لحسبنا أنفسنا فى حياة غير هذه الحياة : وفى الحقيقة فقد كنا فى هذه الساعة فى عالم آخر . نعم كنا فى بيت الله ، وفى حضرة الله من غير ما واسطة ، وليس فيها الا رأس يخضع ، ولسان يضرع ، ودعوات ترفع ، وعيون تدمع ، وقلب يهلع ، واخلاص يشفع . وبعد أن أقمنا على هذه الحال ساعة خرجنا وقلوبنا تقبض أقدامنا عن السعى لخطاب تزيد فى تمتع النفس بهذه التجليات العظمى ، وعاطفة الادب تدفعها بموجبات الاحترام والاحتشام . وبعد نزولنا من البيت المعظم طاف حفظه الله حول الكعبة ، ثم زار مقام الخليل ابراهيم ، ثم عاد الى مقامه شاكراً الله على توفيقه لزيارة بيته الكريم .

وقضى جنابه العالى يوم الأحد فى استقبال كثير من الناس على اختلاف أجناسهم ، وفى المساء أولم وليمة فاخرة لسيادة الشريف وأصحاب السعادة أنجاله الكرام ووكيل الولاية ونحو عشرين من علية القوم والأشراف وكبار المأمورين وحضرات القاضى والمفتى وشيخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية السنية ، وبعد العشاء انتقلوا الى البهو الكبير وكان حفظه الله يؤانسهم بلطفه ومكارم أخلاقه . . وبعد شرب القهوة قام عطوفة أمين بك

أفندى وكيل الولاية والقائم بأعمالها، وارتجل خطابه غاية فى البلاغة جمعت الى جزالة اللفظ رفعة المعنى . ومما جاء فيها بعد ترحيبه بقدوم الجناب العالى الى هذه الديار المقدسة : أنه منذ وجوده فى مركز الولايه وهو يدرس بكل اعجاب وافتخار أعمال المرحوم محمد على باشا فى ولايه الحجاز ، وما عمله فيها من ترتيب ونظام ، وما حبس على أهلها من الأوقاف الواسعة ، وما ربط لهم من المرتبات الجسيمة التى لا تزال ترسل اليهم من حكومة مصر سنويا فينال منها الكبير والصغير ، وتساعد على حياة كل بائس فقير . وبعد ما انتهى ذلك الخطيب من خطابه البليغ شكر له الجناب العالى فصاحته ولطفه وأدبه . ثم أخذوا فى السمر الى منتصف الليل ، وانفض عقد الجمع وكلهم ألسنة شكر للجناب العالى على عظيم كرمه ، وحسن لقائه ، وجميل ملاطفته ، وواسع معرفته ، وكبير آدابه . وقضى حفظه الله يوم الاثنين سابع ذى الحجة فى استقبال كثير من الزائرين ، ثم تزاور سموه مع دولة الشريف ، وفى المساء طاف بالكعبة المعظمة ، ثم رجع الى دار الامارة ، وأمر حفظه الله بالاستعداد الى الخروج لعرفة .

الطريق القديم والحديث

من مصر الى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين الى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فى نصف الكرة الارضية الغربية باعتبار أن مكة المكرمة هى قلب (١) العالم ، أو النقطة المركزية التى تنبعث منها أنصاف أقطار الى محيط جميع دائرة الأقطار : فالاندلسى الذى كان يسكن فى غرب أوربا ، والمغربى الذى فى غرب أفريقيا ، وما دونه من مسلمى البربر ، فالسنغال ، فبلاد التكرور ، والسودان الغربى والشرقى كانوا اذا قصدوا الحج الى بيت الله الحرام

(١) واليهود يقولون ان قلب العالم فى المكان الذى به تابوت العهد بالقدس ، والنصارى يقولون انما هو فى كنيسة القيامة ببيت المقدس وفيها كرة من الرخام يبلغ قطرها نحو ثلاثين أو أربعين سنتيمتر مرفوعة على قاعدة من الرخام أيضاً ، ويزعمون ان هذه الكرة موضوعة فى المركز الحقيقى للكرة الارضية .

سافروا من بلادهم الى مصر بحرا أو برا، ولهذه الغاية كان يقصدها كذلك كثير من أهالى الشام والترك والقوقاز والقريم وبخارى وقازان وغيرهم من مسلمى شمال الروسيا وسيبريا وجزائر البحر الابيض المتوسط . ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسيرون منها الى قوص ومسافتها ٦٤٠ كيلو متر كانوا يقطعونها برا أو فى النيل فى نحو عشرين يوما ، ثم تسافر قوافلهم منها فى الصحراء الشرقية مدة ١٥ يوماً يقطعون فيها نحو ١٦٠ كيلومتر الى عيذاب أو الى القصير على البحر الاحمر . وكان كل من هاتين الفرضتين ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان، أى أنهما كانتا من مصر بالامس مكان ميناء السويس الآن . وكانت الاولى منهما أهم من الثانية، وكلتاهما كانت فى أيدى عرب البجاه[1] الذين كانوا يتولون نقل الحجاج

(١) قبائل البجاه أو البجه يقال انهم من البربر، وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن الى قرية يقال لها الخربة في صحراء قوص وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغاير وآثار قديمة لاستخراجها وهي طبعاً من عهد قدماء المصريين وبعضها من عمل محمد علي باشا والى مصر وكان العرب يستخرجون منها المعادن (وخصوصاً التبر) في القرن الاول والثاني للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجه الذي كان مقره اسوان . وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كثير فأرسل المأمون اليه عبدالله بن الجهم فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم كتابا نذكر لك طرفاً منه لتعرف مقدار التسامح الاسلامي مع أهل الذمة وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين في المعاملة :

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله، في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومائتين، لكنون بن عبدالعزيز عظيم البجه بأسوان، انك سألتني وطلبت الى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لك ولهم أماناً علي وعلى جميع المسلمين، فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أماناً ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين، الا أنك تكون في بلدك ملكاً على ما أنت عليه في البجه، وعلى أن تؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة، وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة في بيت المال، والخيار في ذلك لامير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحداً من المسلمين حراً أو عبداً فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم، وعلى أن أحداً منكم ان أعان المحاربين على أهل الاسلام بمال أو دل على عورة

على أهلهم فى هذه الصحراء، وكانت أخلاقهم على غاية من الفظاعة، لا شفقة فيهم ولا رحمة، وربما بلغ بهم الأمر الى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع وهو أن ركابها يموتون عطشاً فيستولون على متاعهم .

وفى هذه الصحراء قبر العارف بالله أبى الحسن الشاذلى قرب مكان يقال له (أمتان) توفى فيه سنة ٦٥٦ فى طريقه من المغرب الأقصى الى الحجاز ودفن به . وأهل هذه الجهة يعملون له مولدا سنويا من أول ذى الحجة الى التاسع منه ويقصد زيارته فى هذا المولد كثير من أهل الصعيد والعربان والمغاربة .

وكان الحجاج يقيمون فى عيذاب أو القصير نحو شهر من الزمان فى انتظار الفلايك التى تحملهم الى جدة ويسمونها جلابا (واحدتها جلبة)، وهى سفن صغيرة غير محكمة الصنع وشراعها فى الغالب من الحصير . وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج فيشحنونها بأكثر من حمولتها : وكثيرا ما كانت تغرق فى وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك الاشرار ، ومن وصل به طول عمره الى جده وصلها فى نحو أسبوعين يتقلب فى أثنائها بين تحكم الملاح ، وتبرم الرياح ، وانزعاج الماء ، واضطراب الهواء .

ولقد حج من هذا الطريق ابن جبير الأندلسى سنة ٥٧٩ فقطع المسافة بين القاهرة وجدة فى نحو شهرين ونصف ، قضاها فى أسوأ حال ، بين مشقات وأهوال ، مما هو مبين فى

من عورات المسلمين أو أثر لعورتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحداً منكم ان قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لاحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد النوبة أو ببلاد الاسلام أو ببلاد النوبة أو فى شئ من البلدان براً أو بحراً ، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات وفى قتل العبد المسلم عشرة وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم ، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه ، وان دخل أحد من المسلمين بلاد النوبة تاجراً أو مقيما أو مجتازاً أو حاجا فهو آمن فيكم كاحدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا تؤووا أحداً من آبق المسلمين فان أتاكم آبق فعليكم أن تردوه الى المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين اذا صارت فى بلادكم بلا مؤونة تلزمهم فى ذلك ، وعلى أنكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهروا سلاحا ولا تدخلوا المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً ولا تخيفوا السبل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمى مالا ، وعلى ان لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضاً فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخ وباقي الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى .

رحلته . وفى سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر الى عيذاب ولكنه لم يجد فيها مركباً تحمله الى جدة مع من قصدها من الحجاج لان السفن التى كانت فيها أحرقت فى واقعة حصلت هناك بين الترك وعرب البجاة، فعاد منها الى مصر، ومنها الى بلاد الشام، ثم الى بغداد وسافر منها مع المحمل العراقى فى السنة التالية .

وكان يسكن فى هذه القرية (عيذاب) حاكمان : حاكم بدوى من طرف شيخ قبائل البجاة وآخر تابع لحاكم مصر، وكانا يأخذان عوائد مرور عشرة جنيهات عن كل حاج مغربى وسبعة على الحجاج الآخرين، ويقتسمان مايتحصل بينهما وبين أمير مكة ! ! واستمرت هذه المكوس حتى أبطلها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٩٠ زمن الشريف مكثر بن عيسى ورتب له شيئاً عوضاً عن نصيبه، ثم أعادها الأشراف من بعده على الداخلين من الحجاج إلى مكة، حتى ألزم الملك الناصر محمد بن قلاوون الشريف عطيفة بن أبى نمى سنة ٧٢١ بابطالها فى نظير مارتبه اليه من القمح الذى كان يحمل اليه فى مكة كل سنة .

والطريق بين قفط والقصير قديم جداً ، فتحه رمسيس الثالث فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد لتداول التجارة بين مصر وبلاد اليمن والهند وبلاد العرب الذين كانوا كثيراً مايهاجرون منها إلى مصر طلباً للتجارة أو للعيش فيها . وفى سنة ٣٢٠ قبل المسيح أخذت هذه الطريق أهمية عظمى زمن بطليموس فيلادلفوس ، وصارت القصير هى الميناء الوحيدة التى تصل تجارة البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندى وبالعكس ، وهو الذى حفر أغلب الآبار التى فى هذا الطريق وبنى على طولها مخازن للتجاره وأقام بجوارها قلاعاً ورتب لها الحفر اللازم لحراستها ، وهو الذى بنى مدينة برنيس وقامت على أنقاضها فيما بعد قرية عيذاب (أنظر عيذاب فى الخطط التوفيقية) . وفى هذه الجهة إلى الآن أطلال مدينة قديمة ذهب بعضهم إلى أنها أطلال مدينة اوفير التى كان سليمان بن داود يرسل سفنه إلى إسرائيل إليها فى القرن العاشر قبل المسيح لاستخراج الذهب من ضواحيها وورد ذكرها فى التوراه فى الإصحاح التاسع من أخبار الملوك الاول .

ومازال هذا الطريق هو الطريق الوحيد للحاج المصرى من القرن الاول الى سنة ٦٤٥ التى سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج الى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة .

وفى سنة ٦٦٠ أخذ هذا الطريق الأخير أهميته حيث سير الظاهر بيبرس البندقدارى قافلة الحاج منه وأرسل معها الكسوة التى عملها للكعبة ، والمفتاح الذى أمر بصنعه لبابها الشريف ، ومن ثم أخذ يقل ذهاب الحجاج عن طريق عيذاب ، ولكنها استمرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب .

ويظهر أن عيذاب ابتدأت تسقط أهميتها شيئاً فشيئاً بسبب زيادة أهمية القصير ، نظراً لأن لها خليجا طبيعيا يجعل مياهها على الدوام فى أمن من التغيرات البحرية حتى تلاشى أمرها بالمرة ، ولا تزال أنقاضها فى جنوب القصير بمسافة عشرة كيلومتر .

ولقد اهتم العزيز محمد على باشا بطريق القصير عند سوق العساكر المصرية الى بلاد الحجاز لحرب الوهابية ، فمهد سبله وأصلح آباره ، واستمرت عنايته به بعد ذلك لاشتغاله باستخراج ما فيه من معادن الذهب والنحاس .

وهذا الطريق مطروق الى الآن وبه دروب كثيرة تسمى مطارق : وأوّل محطة له بئر عنبر ، ويسير اليها المسافرون ثلاثين دقيقة ، وهذه البئر كانت ساقية قديمة أصلحها المرحوم إبراهيم باشا نجل محمد على باشا ، وبنى بجوارها سبيلا لسقيا المواشى ، والى جانبها مكانا له قباب معقودة لاستراحة المسافرين . وقرر فى الرزنامجة الى خادم هذه البئر ستة جنيهات سنويا لا تزال تصرفها المالية الى من يقوم بأمرها . ومن هناك يسير الطريق الى الشمال الشرقى فى درب يسمى مطرق جيف الكلاب (لأن هناك مغاير مصرية قديمة كان بها جثث كلاب كثيرة محنطة) حتى يصل الى محطة اللقيطة ، ويقيم بها أناس من قبيلة العشابات من عرب العبابدة وهم فخذ من البجاه ، وفى هذه المحطة نخيل وحملة آبار بعضها من عهد البطالسة . ولا يزال الطريق حتى يصل الى محطة الوكاله وبها آثار قديمة . ومنها يسير فى مطرق يسمى مطرق جيف العجول (وهناك مغاير كانت بها عجول كثيرة محنطة من التى كان يقدّسها قدماء المصريين) ، ثم فى مطرق الحمامات وفيه خزانات مياه طبيعية ، ثم فى

مطرق الكافر (وفيه آثار فرعونية و بئر حلزونية من الرخام ينزل اليها بمائة وثلاثة وأربعين درجة). ومن هناك يستمر الطريق الى بئر الانكليز (التى حفروها عندما وصلت جنودهم بحراً الى القصير، ومنها ساروا الى تلك الجهة متعقبين عساكر الفرنساويين وقت احتلالهم لمصر)، وماء هذه البئر يبعد عن سطح الارض بنحو أربعة أمتار. ومنها يسير الطريق الى العنبجة، وبها نبع معدنى مياهه كبريتية، ويقصده بعض الناس للاستشفاء به، وهناك مستنقعات كثيرة ينبت فيها السمار، والحكومة تبيعه سنوياً للمصريين. ومنها يستمر الطريق الى القصير. ولقد كانت هذه المدينة فى القرن الماضى عامرة آهلة بالسكان الذين كانوا يزيدون عن عشرين ألف نفس، وكانت من ضمن محافظات القطر المهمة.

ومازالت طريق القصير مستعملة للتجارة حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة الى السويس فى مدة سعيد باشا عوضاً عن العربات التى كان سيرها محمد على باشا سنة ١٨٤٥ م بواسطة الخيل فى طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة اليها، وكان لها ديوان مخصوص يسمى ديوان المرور على يسار الداخل الى الموسكى، وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم. ومع كل هذا استمرت القصير ميناء مهمة بين مصر العليا والحجاز تنقل منها الحبوب الى جدة، وينقل من هذه اليها السجاد والفلفل والبن والسنا المكى وخلاف ذلك من واردات الهند وغيرها. وكانت لها سوق كبيرة فى قنا، حتى إذا حفر قنال السويس وصارت ترسل كل هذه المحاصيل الى أوروبا رأساً، فلّت أهميتها وأصبحت من نحو عشرين سنة مأمورية صغيرة تابعة لمديرية قنا وإن كانت إدارتها فى يد مصلحة خفر السواحل.

وكان بعض الحجاج يسافرون من السويس الى جدة بواسطة المراكب الشراعية، فيقطعون مسافتها فى نحو عشرين يوماً. ولكن غالبهم كان يسير براً عن طريق العقبة مع المحمل أو مع غيره من القوافل التى كانت تقوم بها عربان مصر من أولاد على وغيرهم، فيصل الى مكة فى نحو خمسين يوماً. وأوّل من رتب ركب الحاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من البركة الامير جمال الدين الاستادار عندما سافر ولده شهاب الدين أميراً للمحمل سنة ٨٠٩ فكان إذا وصل الركب الى عجرود (وهى محطة قبيل السويس) يأمر الامير بكتابة أكابر

الحاج و يرتب كلا فى مكان معين من القافلة بجماله وذويه وخدمه ، ثم يجمع الركب من الطليعة الى الساقة ، و يضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر بعد أن يسيّر أصحاب الحمول والاموال فى وسط الركب .

وطريق البر شاق جدا وخصوصاً فى المنطقة التى بين السويس والعقبة ، وهى لا تقل عن ثلثمائة كيلومتر ، كلها أرض رملية ناعمة تسوخ فيها اخفاف الجمال قبل اقدام الرجال ، ولا يهتدون فيها الى الطريق الا بواسطة نواطير أشبه شىء بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية . وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير ، وقد كان فى بعض القرى التى عليه مخازن للميرة والذخيرة ومؤن الجمال وامتعة الحجاج الذين كانوا يرسلونها اليها قبل سفرهم على سبيل الامانة فى نظير اجرة مخصوصة تتوفر بها عليهم مشقة حملها فى الطريق ، وكان فى هذه القرى فرق من الجند لحراستها . و بالجملة فانا نورد لك اسماء المحطات التى كان يقطعها الحاج فى طريق البر من القاهرة الى مكة ، ومسافة الركوب بين كل محطة والتى تليها بقافلة المحمل التى هى اسرع من القوافل الأخرى لانتظام سيرها واحكام أمرها وجودة جمالها :

من القاهرة .

ساعه	
٠٦	الى بركة الحاج .
١٤	« الدار البيضاء ، و بها قصر عباس باشا الاول و يليها الدار الحضراء .
١٢	« عجرود ، وتوجد فى الجنوب الغربى من السويس على مسافة عشرين كيلومترمنها ، ومن هناك كان يرجع المرضى والمنقطعون والمشيعون .
٠٨	« الناطور الاول ، والثانى ، والثالث ، والارض فى هذه المسافة رملية ناعمة متنقلة من جهة الى أخرى عند هبوب الرياح بشدة .
٠٦	« العلوه .
١١	« جنادل حسن ، وأرضها رملية .
١٢	« قرية نِخِل ، وفيها نَخْل وشجر وقلعة وخان من عمل الغورى ، وساقية من عمل الملك الناصر حسن والى جانبها ثلاثة احواض تسع ٣٠٠٠ قربة

ساعه	الي	
		تملأ في زمن الحج . وكان يرسل اليها أربعة من الثيران من طرف الحكومة فلا تزال تدور في الساقية لملء الحيضان حتى ترجع مع قوافل الحاج الى مصر .
١٢	«	بئر فريص ، وسميت أخيرا بئر أم عباس لان والدة عباس باشا الاول اصلحتها وماؤها عطن .
٠٧	«	العقبة ، و يصعد اليها المسافر بتحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل الى قمتها ، فاذا أراد أن ينزل الى الجهة الشرقية صار نازلاً صاعدا وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة ، وأخرى خشنة أو زلطية ، الى أن يمر في مضيق لا يسع الا جملا جملا و يسمى قطع لاز . وطريق هذا القطع حلزوني تقريبا أصلحه ابن طولون في القرن الثالث الهجري ثم محمد بن قلاوون في القرن الثامن ثم عباس باشا الأول في القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فان المسافر فيه لابد أن ينزل عن دابته و يسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولا وضعفها صعودا . ومن دون هذه العقبة قرية العقبة و يسمونها أيْلة (١) وفيها

(١) هي بلدة قديمة جداً وكانت عامرة من زمن مدين وكانت في مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناء كبيرة للمراكب التي كانت تفد الي الشام من اليمن والهند وفرس وانقطع بها طريق البر من اليمن الى بطره . ولما مات سليمان رجعت الطريق الاولي التي ما كانت عليه في نقل التجارة براً ، وكان فيها أسواق كثيرة بل كانت مركزاً للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق . ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم الي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن رؤبة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية فكتب له عليه الصلاة والسلام عهداً هذه صورته « بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لايحول ماله دون نفسه وانه لطيبة لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر . هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وفي سنة ٥٦٦ استولى الافرنج عليها في الحروب الصليبية فسار اليها من مصر صلاح الدين الايوبي وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال حتى وافى مياهها فأصلح مراكبه وأنزلها في

ساعه	الى	
		يفصل أمير الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم أو لفقرهم ، و يعطيهم المؤنة اللازمة من البقسماط ثم يستأجر لهم سنبوكا يسيره بهم إما الى مصر أو إلى جدة ، وكثيراً ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفة . ومن العقبة يتجه الحاج الى جهة الجنوب .
٠٩	«	ظهر حمار ، وفى طريقها مضيق بين جبلين على البحر لا يسع إلا جملاً جملا .
١٤	«	الشرفا ، و يسمونها أم العظام .
١٢	«	مغاير شعيب ، و بها نخل و بساتين ومياه عذبة .
١٤	«	عيون القصب ، و بها ماء ونخل وشجر سنط وعبل .
١٢	«	المويلح ، وفيها قلعة أنشأها السلطان سليم العثمانى بها بعض الجند لحراستها ، ومناخها رطب غير جيد للصحة ، وسكانها يتجرون فى الفحم الذى يصنعونه من شجر الطرفا الذى ينبت بكثرة فى الوديان المجاورة لها . ومنها طريق الى تبوك مسافته مائة كيلو متر .
١٢	«	سلمى (كفافه) ، و فى طريقها مضيق شق العجوز تسير فيه الجمال جملا جملا ، و بهذا الوادى شجر الدوم والسنط والطرفا .
١٢	«	اصطبل عنتر ، وهو مكان متسع محاط بالجبال وفيه ثلاثة آبار .
١٢	«	الوجه ، سيأتى الكلام عليه فى طريق المدينة ، ومنه ينشعب الطريق الى العلا شرقا ، والى ينبع جنوباً ، والى المدينة المنوّرة جنوباً بشرق .

البحر وحاصر المدينة براً وبحراً حتى أخذها عنوة وطرد الافرنج منها . وهي الآن قرية صغيرة فى أيدي عرب الحويطات وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع بها بعض الجنود لحراستها ، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس ، وفيها نخيل وأشجار وماؤها حلو ويزرع بها الخضروات . وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلو متر شرقا ، والطريق ضيقة وتخترق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء . وبينها وبين بيت المقدس شمالا بغرب نحو ٣٠٠ كلو متر فى صحراء قليلة المياه وطريقها وعر . وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متر .

ساعة		الي
١٦	«	عكرة ، ولا ماء فيها .
١٢	«	الحنك ، ولا ماء فيها .
١٢	«	الحوراء ، وفيها مضيق تسير فيه الجمال جملا جملا ، وأرضها ذات رمل ناعم .
١٥	«	الخضيرة ، وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة .
١٠	«	ينبع ، ويدخلها المحمل واكباً باحتفال عظيم ، وهي ثغر المدينة المنورة على البحر الاحمر ، وسنتكلم عليها في طريق المدينة .
١٨	«	السميفة ، وماؤها ملح .
١٠	«	مستورة ، وماؤها حلو .
١٤	«	رابغ ، وهي قرية بينها وبين البحر نصف ساعة ، وفيها قلعة بها بعض الجند لحراستها ، وفيها مخازن تحفظ بها مؤن ركب المحمل وذخائره وفيها صهاريج عذبة وهي الميقات لمكة ، ومنها تتفرع الطريق الى المدينة ثلاثة أفرع : الطريق السلطاني ، والطريق الفرعي ، وطريق الغاير .
١٢	«	بئر الهندي أو القضيمة (وبعضهم يكتبها القديمة) ، وهي قرية على البحر ماؤها ملح ومنها يتجه الطريق الى الجنوب الشرقي .
٠٦	«	خليص ، وبالقرب منها عيون ماء كثيرة يحيط بها مزارع وبساتين .
٨	«	عسفان ، وهناك بئر ماؤها حلو يسمونها بئر التفلة ، ويقولون إن ماءها كان مراً فتفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم فصار عذباً ، وفي طريقها ممران على طول نحو كيلو متر لا يسعان الا جملاً جملا .
١٥	«	وادي فاطمة (وادي مر) أو مر الظهران ، ومنه الى قبر السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الى العمرة الجديدة (التنعيم) وهي حد الحرم من هذه الجهة وأقرب حدوده اليه ، ومنه الى الزاهر ثم الى

ساعة	
٤	مكة المكرمة .
٣٣٧	المجموع

وعلى حساب ان الجمل يقطع فى الساعة الواحدة أربعة كيلومترات ، تكون المسافة من مصر الى مكة من طريق البر ألفاً وأربعمائة كيلومتر تقريباً ، كانوا يقطعونها فى نحو أربعين يوماً على الاقل .

أما الآن فالحاج المصرى يركب السكة الحديدية الى السويس ويبحر منها الى جدة بغاية الراحة ومنها الى مكة فيصل اليها فى أقل من أسبوع . ومن الناس من يسافر الى المدينة أوّلا بطريق السكة الحديد الحجازية ، وبعد الزيارة يسافر مع القافلة الى مكة أو يرجع الى مصر ومنها الى جدة . ومنهم من يسافر بعد الحج الى المدينة بطريق البر ، ومنها يعود الى ينبع فالطور ، أو يركب السكة الحديد الحجازية الى الشام ولكنه فى هذه الحالة يصادف كثيراً من المشقة فى صيرورة عودته الى الطور لقضاء الحجر الصحى هناك : لذلك يرى الكثيرون أن أحسن حل للصعوبة التى فى طريق الزيارة أنهم يعودون بعد الحج الى مصر ، وبعد انقضاء مدة الحج التى يلازمها الحجر الصحى عادة يسافرون الى المدينة بالطريق الحديدى ويعودون منها الى مصر مباشرة .

مكة المكرمة

مكة وتسمى بكة وأم القرى ، مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متروهى على عرض ٢١ درجة و ٣٨ دقيقة وفى طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق ، وتصعد عمارتها الى عهد ابراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام . وكان يعيش بنوه فى الخيام والمضارب حتى عاد قصى بن كلاب من الشام فى القرن الثانى قبل الهجرة ، فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة ، ومن ثم أخذت تزيد فى عمرانها الى الان . وهى عاصمة (قصبة) بلاد الحجاز وفيها محل حكومته التى تنقسم الى قسمين : الادارى وهو فى يد الشريف أمير مكة ويسمونه سيد الجميع ، والمالى والعسكرى وهو فى يد الوالى الذى يكون تركياً فى الغالب : وعليه فالشريف ينظر فى القضايا

خريطة مكة المكرمة

الحرم الشريف

طريق كدا

الطريق الى وادي فاطمه

الطريق الى جدة

الطريق الى اليمن

شمال

جنوب

شرق

غرب

BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الجسمية ويحكم فيها على حسب نظامات أربابها ان كانوا من الاهالى أو من الأعراب ، أما القضايا الصغيرة فيحكم فيها القاضى الذى يعين من قبل السلطان .

وهذه المدينة تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات طولا ، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً ، فى واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، أعنى على أبواب مكة الثلاث . ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها الا وهو على أبوابها . والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج (الفلق) غرباً ، ثم جبل قيقعان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كَداء (بفتح أوّله ومد فى آخره) وهو فى أعلى مكة ، ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح . أما الجنوبية فانها تتركب من جبل أبى حديدة غرباً يتلوه جبلا كُدَى (بضم أوّله وألف لينة فى آخره) وكُدَىّ (بالتصغير) بانحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرقيهما ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم تراها عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها الى قاب الوادى ، ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف بيت منها الكبير والصغير يحتشد فيها زمن الحج ٢٠٠٠٠٠ ألف نفس على الاقل ، واذا كان الحج بالجمعة كان الناس أضعاف ذلك . ومساكنها على شبه مساكن جدة ، ويكثر فيها ما يسمونه بالادوار المسروقة ولا حوش لها فى الغالب الا ما كان لعظمائها وكبرائها ، وأعظم مساكنها بالقرارة . وأحسن موقع فى مكة شعب جياد لارتفاعه وسعة طرقه ومساكنه وفيه بيوت كثيرة جميلة على الطراز التركى يسكنها موظفو الولاية من الاتراك وفيه دار عظيمة للشريف عبد المطلب وداران عظيمتان للسيد محمد السقاف الذى له أملاك واسعة فى مكة والمدينة . ومع ذلك فليس بمكة على قدم عهدها بالحضارة وعظم مكانتها فى نفوس الناس من زمن بعيد جداً شىء يذكر من آثار العمارة القديمة مما هو موجود بكثرة بمصر والشام اللهم إلا بيت الشريف ناصر[1] باشا الذى هو فى فخامة المنظر وجمال الصناعة العربية بمكان عظيم ، ويصح أن يكون أحسن بيت فى مكة .

(١) الشريف ناصر باشا ولي عهد أمارة مكة وهو الآن بالاستانة وهذا البيت بناه الشريف عبد المطلب .

وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة، فترى دار ابن عباس فى المسعى على يمين السالك الى المروة ، و فى الشرق الشمالى للحرم آثار دار أبى سفيان المشهورة فى الجاهلية والاسلام، وهى مهدمة لاعناية للقوم بها ، ولو لاحظوا أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل لها يوم الفتح شأناً كبيراً حيث جعلها حرماً محترماً كل من دخلها من المشركين كان آمناً لكان المجلس البلدى بمكة أعارها شيئاً من عنايته .

والحرم الشريف بين هـذه البيوت مائلا الى الجهة الجنوبية مما يلى جبـل أبى قبيس . و فى هذه الجهة دار الخيزران ، يتلوها شرقا شعب بنى هاشم و يسمونه شعب على ، ثم شعب المولد، ثم شعب بنى عامر ، و فى هذه الجهة كانت مساكن بنى عبد المطلب فى الجاهلية وفيها الآن كثير من الأشراف . أما باقى قريش فكانوا فى الجهة الاخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ، ومن دونهم باقى أهالى مكة .

و يتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب الى الشرق وهو أكبر شوارعها ، و يختلف اسمه باختـلاف الجهات التى يمر عليها : فاذا ابتدأ غربا من جرول يسمى حارة الباب ، ثم الشبيكة ، حتى اذا وصل الى الحرم من جهة الشمال سمى الشامية ، فاذا انعطف الى الجنوب على يمين الحرم سمى السوق الصغير ، ثم جياد وفيه البوستة والتلغراف والتكية المصريه ودار الحكومة العثمانيـة و يسمونها بالحميـديه، والى جوارها إدارة الصحة وقشـلاق الطوبجية والمطبعة الاميرية . فاذا وصل الى الصفا سمى المسعى ، ثم القشيشية ، ثم سوق الليل ثم الغزة ومنها الى باب مكة الشرقى أو باب المعلى . اما الشوارع التى فى شمال الحرم فهى الشاميـة وفيها سوق المدينـة ، والمرارة ، والنقا ، والسليمانية ، والجدريه ، والبرّ اضية . وليس بمكة على كبرها ميادين عمومية ، اللهم الا صحن المسجد الحرام الذى بسعته يؤدى وظيفة الميادين الكبرى . وهـذه الطرق تختلف سعتها من مترين الى خمسة عشر متراً وتراها فى زمن الحج غاية فى الوساخة والقذارة ممـا يوجب على المجلس البلدى فى مكة أن يعتنى بنظافتها خصوصاً فى مدة الموسم، مع عدم إهماله أمر النور ليلا خدمة للدين والانسانية . و فى مـدة الموسم يرى أهل البلاد لا سيما الأعراب يضعون دائماً سـدادتين من القطن فى فتحتى مناخرهم بعد أن يغمروهما بدهن المر و يسمونهما الصمايم ، و يربطونهما بخيط يعلقونه فى رقبتهم ، حتى اذا

آ سواء دم وجود قذارة رفعوهما وأرسلوهما على صدرهم . وهم لو علموا أن هذه السدادة ضررها أكبر من نفعها لا بطلوا استعمالها : لأن وظيفة الخياشيم إنما هي لتنقية الهواء من الادران وتسوقه الى الرئتين نقياً . ولو دخل الهواء الفاسد الى الرئتين من طريق الفم فانه يدخل اليهما بما فيه من المواد الغريبة فيتصل معها بالدم وهنالك يكون تأثيره الضار والعياذ بالله . أما الطبقة الراقية وخصوصاً من الأعراب فانهم يضعون طرف عمادتهم (كوفيتهم) على فمهم وأنفهم ، و يثبتونها فى عمامتهم أو عقالهم اتقاء البرد والروائح الكريهة .

و يقصد مكة زمن الحج أنواع العالم الاسلامى من جميع أطراف المسكونة : فترى بها الأزياء المتباينة والسحن المختلفة ، حتى ليجدر بها أن تسمى بالمعرض الاسلامى . ولقد رأيت فيها رجلا يابانياً من كبار قواد اليابان[1] قد أسلم وقدم اليها لتأدية فريضة الحج .

وقد اعتاد الشوام والمغاربة سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم ، والافغان والسليمانية[2] (أهالى قندهار) فى الجهة الشمالية الشرقية ، والهنود والجاوة فى الجهة الشمالية الغربية ، واليمن والتركستان والضاغستان فى المسفلة ، والعجم فى شعب على ، وما سوى ذلك فى وسط المدينة . وأهالى مكة يبلغ عددهم[3] نحو ١٥٠ ألف شخص منهم خمسون ألفاً من الاهالى والباقون من الاعراب كما تراه فى الجدول الآتى :

ألف
٥٠ أهالى
٢٥ أعراب وغالبهم بخاريون و يمنيون وحضارم (من سكان حضرموت)
٢٠ بخاريون
١٢ هنود
١٥ جاوه

(١) وأهل مكة يسمونها العاطا والنسبة اليها العاطانى ومنها الشال العاطانى المشهور .
(٢) نسبة الى رجل اسمه سليمان صاحب طريقة شائعة فى بلادهم .
(٣) التعداد فى بلاد العرب لم يحصل لحد الآن بصفة رسمية وكل ما يعلم عنه انما هو على وجه التقريب وما ذكرناه هنا أخذناه من مأمورى الدولة وغيرهم ممن يوثق بأقوالهم .

١٠ سليمانية وأفغان

٥ شوام

٥ مغاربة

٨ أجناس مختلفة

١٥٠ المجموع

وأغلب هؤلاء الاغراب يشتغلون بالامور المالية وخصوصاً التجارية : لذلك تبوأ أمرهم وأصبحت مالية البلاد فى أيديهم . و إنا نذكر لك بعض البيوت القديمة التى توطنت منهم فى مكة من زمن بعيد وفيها كثير ممن اشتهر بالوجاهة والثروة :

فمن الهنود — بيت خوقير . فتا . الدهلوى . الساب . حكيم . الرذة . الداقرو . ميره . المفتى . عبدالشكور . عبدالحق . بشاره . المرزا . أحمدود . كمال . جان . شلهوب . نور . الطيب . دستابيه . خوج . الوشكلى . سنبل . خوجه بكر . المسكى . الياس . الزرعه . الفرع . الحجيى . الخ .

ومن الجاوه — بيت البتاوى . المنكابو . الزينى . أرشد . الفنتيانا . الفلمباب . قدس . دوم . الخ .

ومن البخاريين — بيت كشك . القاشقلى . الانديجان . الخ .

ومن الحضارم — بيت باحارس . باجنيد . باباجا . باحكيم . بادرعه . باعيسى . باعشن . الخ .

ومن الشوام — بيت هاشم . الحبرى . الخشيفاتى . الخ .

ومن الترك — بيت الدرابزيلى . الفرملى . الخ .

ومن المصريين — بيت القطان . الزقزوق . الرشيدى . الرواس . القزاز . الاباصى . الخ .

وقد اختلف بعضهم فى أصل هذه البيوت ولكننا ذكرناها على ماهو مشهور من نسبتها، على أن الغرض من ذكرها هنا إنما هى لكونها غير عربية ليس الا .

ومن اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطاً فى خلقهم، خليطاً فى خلقهم : فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الاناضولى، وعظمة التركى، واستكانة الجاوى، وكبرياء الفارسى، ولين المصرى، وصلابة الشركسى، وسكون الصينى، وحدة المغربى، وبساطة الهندى، ومكر اليمنى، وحركة السورى، وكسل الزنجبى، ولون الحبشى. بل تراهم جمعوا بين رفه الحضارة وقشف البداوة : فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك، وضعته بين يديك، اذ هو قد استوحش منك وأغلظ فى كلامه، حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه فى حضرتك.

وقد وصل هذا الخلط الى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية، وقفطان مصرى، وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص فى حزام الاشراف مفضضاً أو مذهباً بشكل جميل جداً وكثيراً ما يكون مرصعاً بالاحجار الكريمة. ومع هذا، قد ترى الرجل الصابغ القميص يلبس القميص وعلى ياقته الظرافة المشغولة بالحرير، وعلى رجل سراويله شىء يشبه الركامه وهو حافى الرجل (مثلا). غير أنك لا تلاحظ ذلك فى طبقة الأشراف التى ترفعت عن هذا الخليط، فلم يدخل فى مادتهم غريب، ولم يتغلب عليهم خلق جديد، بل خلقهم هو هو بعينه العربى البحت الذى ورثوه عن أجدادهم وآباءهم بما فطروا عليه من كريم العنصر وكاء المحتد. وعلى العموم فأخلاق أهل مكة غاية فى الكمال وخصوصاً فى الطبقة العالية منهم رضى الله عنهم ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقة فيهم.

والذى يؤسف له أن هذا الخلط وصل الى لغتهم : فتراهم يتكلمون فى الغالب بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة، أو فارسية، أو تركية، أو غيرها. وهم ينوّنون المضاف فيقولون فى هذا حق فلان مثلا « هذا حقٌ فلان » مع إبدال القاف جيما مصرية، ومنهم من يمد الحرف المنوّن فيقول « هذا حقون فلان »، أو يؤنث لفظه فيقول « حقة فلان »، ولا يحذفون النون من الفعل فى صيغة الامر للجمع فيقولون « هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا. و يستعملون الترخيم فى غير المنادى فيقولون « قم لِعنا » أى قم لعندنا، و يقولون فى الإبل الِبِل بكسر الباء، وفى الحبل البَل بفتحها، و يقولون « كـمّنا » أى كملنا

(خلصنا)، و يقولون «وصابتى» فى وامصيبتى، «واللّمن» فى اليمن. و مما يكثر سماعه منهم قولهم «دَحِين» فى هذا الحين، و «ازهم فلان» فى ادع فلانا. و يعبرون عن الرجل بلفظ (ز لَمه) و يجمعون الرجل على أوادم[1]. و يقولون «زكّنه» أى اضربه. «وقل كذا» أى اعمل كذا. و يقولون «أبيض» للاستحسان. «وسنّع» فى صنّع أو أتقن. و «اتجمعص»[2] يعنى اجلس. و «فصخ[3] حِداك» أى اخلع نعالك. و يقولون «مشلح» للعباءة. و «شايه» للقفطان. و «امرح» اجر. و «الوَدَنْ» للفدان من الارض. و «الصُّماده» للكوفية و «زكّن عليه» أى أكد عليه. و «زِلْ» بمعنى مر، «واندر» بمعنى أخرج، «والا» بمعنى نعم، و «اغد» فى رح. و يستعملون قولهم «أشكل» لا فعل التفضيل من الحسن فيقولون هذا الشيء أشكل من هذا، يعنى أحسن منه و يستعملونها أحيانا للكثرة فيقولون هذا أشكل من هذا يعنى أكثر. و يسمون «الاولاد» بالبزوره، فيقولون بزوره فلان أو بزران فلان أى أولاده. و يستعملون لفظ «هرّج» فى معنى كلم فيقولون ماهرجته أى ما كلمته. و يستعملون لفظ «صاقن» التركية للاحتراس والتنبيه، و «قربوز» للبطيخ. و يستعملون غير ذلك كثيراً من الكلمات التركية والفارسية مثل «روشن» للشباك. و يقولون عن حياض مجرى عين زبيدة باران: وهو اسم لرجل أعجمى قام بعمارة هذه الحياض وان كان تبادر لذهنى لاول وهلة أنه لفظ فرنساوى (Bassin) ظننته أنه من وضع بعض المهندسين الاتراك الذين كانوا يعملون فى اصلاح هذه العين، كما استعملوا بعد ذلك من هذه اللغة ألفاظاً كثيرة فى المدينة المنوره بعد وصول السكة الحديديه اليها: فيقولون «البيليت» لتذكرة السكة الحديد (Billet) و «استاسيون» للمحطة (station) و «شماندفير» للسكة الحديد (chemin de fer) و «الفاجون» للعربة (Wagon) و «البرسونيل» للمستخدمين (personnel) وهكذا من الالفاظ التى لم يسمح الوقت لاستقصائها

(١) مفرده آدم ومعناه بالعبريه انسان.
(٢) لعلها محرفة عن قعمز.
(٣) محرفة عن فسخ.

وهذا كله مع كثرة أغلاطهم النحوية وعدم مراعاة القواعد الصحيحة التي لا يهتمون بها في تقويم ألسنتهم أو أقلامهم . وإني بينما كنت محزونا لتأخر اللغة العربية في مشرق أنوارها ومظهر اعجازها إذ عثرت على ترجمة فرنساوية لكتاب [1] عمرو بن العاص الذي أرسله الى عمر بن الخطاب لما استولى على مصر يصفها له فيه ويشرح له السياسة التي سيتخذها فيها وقد نشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوي الشهير المسيو أوكتاف أوزان (Octave Uzanne) في جريدة الفيجارو الفرنساوية الشهيرة ، ونقلته عنها برمته جريدة البروجريه الفرنساوية المصرية ، مع التعليقات التي علقها عليه المسيو أوزان ، والتي وصف فيها هذا الكتاب بانه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم ، وقال عنه انه من الفرائد في ايجازه واعجازه ، واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المسكونه ، حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الاشياء ، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار . وانا اذا أسفنا شديد الاسف على ضياع هذه اللغة من الوسط الذي لا تزال فيه هذه العترة الشريفة القرشية ، التي نزل بلغتها القرآن ، وصار معجزة الاسلام بفصاحته وبلاغته ؛

.....

(١) وتتميما للفائدة نذكر لك هنا نص هذا الكتاب البليغ وهو (اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الارض وينابيعها فيدر حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فيفيض على الجانبين ، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الي بعض الا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن المخايل ، (قطع السحاب) ورق الاصايل . فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه ، كاول ما بدا في جريته وطمى في درته . فعند ذلك تخرج مله محقورة ، وذمة محفورة ، يحرثون بطون الارض ، ويبذرون بها الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، ليقيهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ؟ فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه من فوق الندى وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اذ هي عنبرة سوداء ، فاذ هي زمردة خضراء ، فاذا هي ديباجة زرقاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . والذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها : والا تستأدى خراج الثمرة الا في أوانها ، وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فاذا تقرر الحال مع العمال على هذه الاحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى موفق الملك والمال .

وكتب بها ابن العاص هذا الكتاب وهو فى بداوته ، وعلى نشأته الاولى . هذا الكتاب الذى بعثته من ادراجه مدنية العصر العشرين ، من دفاتر الغابرين ، وأعطته ما يليق به من التجلة والاحترام ، فقد يجب علينا أن نفتخر بان كتاب ابن العاص بقى فى مصر ملازما لذلك الوصف الطبيعى الذى وصفها به عمرو من ثلاثه عشر قرناً ولا يزال قائماً بها الى الآن بل والى آخر الزمان ، وقد أثرت بلاغته فى المصريين الذين هم والحمد لله الآن فى مقدمة الناطقين بالضاد حتى لكأنى بعصرهم فى أيامنا هذه وقد اشتملت اليها فصاحة الخطباء ومتانة الكتّاب وبلاغة الشعراء فى عصر الحضارة الاسلامية . وعسى أن يكون هذا خير فأل أو فأل خير لبنيها يكون لهم من ورائه إن شاء الله شأن كبير ومقام خطير .

وغالب أهل مكة يتكلمون بالتركية ، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والجاوية والفارسية والصينية . أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة لا نكاد نفهمها اذا سمعناهم يتكلمون بها . ولكل قوم منهم لغة مخصوصة تختلف فى لفظها باختلاف القبائل فمنهم من يقلب القاف زايا فيقول (زربة) فى قربة . وعتيبة تقلب الكاف سيناً فيقولون (سواسب) فى كواكب و (سليب)فى كليب و (سبد)فى كبد . أما بنو شيبان فينطقون بالكاف جيما فارسية (معطشة) فيقولون (چواچب وچليب) وهم كذلك يقلبون القاف جيما فارسية فيقولون فى قربة (چرنه) وهكذا . والعرب لا ينطقون بالقاف بل يلفظونها جيما مصرية ومنهم من يقلب الميم باء كقولهم بكة فى مكة ومنهم من يقلب الثاء فاء فيقولون فُمَّ فى ثم ومنهم من يغير الحركات فى الكلمة كقول الحجاز بين الحَج وفول نجد الحِج وهكذا .

وعلى كل حال فلا يزال فى عرب اليوم أثر ما كان فى لغاتهم القديمة من الكشكشة (١) والكسكسة (٢) . . .

. . .

١) الكشكشة هي اضافة شين على كاف المخاطب فيقولون فى عليك (عليكش) وفى بك (بكش) وكان فى قبائل ربيعة وحمير . ومنهم من يقلب الكاف شيناً فيقول علش فى عليك و(لبيش اللهم لبيش) فى لبيك اللهم لبيك .

٢) والكسكسة وهي قلب كاف المذكر سيناً فيقولون (مس وعلس)في منك وعليك .

والعنعنة (١) والعجعجة (٢) والجمجمة (٣) والاستنطاء(٤) والطمطمانية (٥) والوتم(٦) مما هو مشروح بكتاب مميزات لغات العرب لحفنى بك ناصف المصرى .

وأهل مكة كلهم مسلمون ، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الشريفة (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) . وكان على ينادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الشريفة بقوله : (ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك) . وكان المراد بذلك منع المشركين من الحج ، وعدم دخولهم البلد الحرام التى بها تتم مناسكه ، لأنهم مع ما كانوا عليه من سوء الضمير وخبث الطوية ، كانوا يلقون بذر الشقاق والغل بين قبائل العرب المسلمين ، و يوغرون صدورهم ، بقصد التفرقة التى يكون من ورائها الضعف . فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فى أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة أبى بكر ، وذلك بتأثير المشركين منهم ، حتى بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى النبوة منهم طليحة فى الشمال ، ولهيعة فى اليمن ، ومسيلمة الكذاب مع سجاح فى اليمامة (شرق بلاد العرب) وقام غيرهم بالدعوة لنفسه فى وسط البلاد . هنالك استنفر أبو بكر المسلمين الى قتال أهل الردة ، و بعث اليهم أحد عشر لواء ، وأمرهم

(١) العنعنة هى قلب الهمزة اذا وقعت فى أول الكلام عيناً فكانوا يقولون (عنك) فى أنك ، (وعسلم) فى أسلم (وعسلم فى أسلم)وكان فى قيس وتميم .

(٢) العجعجة أو (العجعجة) هي قلب الجاء عينا مثل قولهم (عى حى) فى حى حى (واللعم الاعمر خير من اللعم الابيض) فى اللحم الاحمر خير من اللحم الابيض ، وكان فى هذيل .

(٣) الجمجمة هى قلب الياء جيما وكان فى قضاعة ومنهم القائل :

يارب ان كنت قبلت حجتج (حجتي) ✿ فلا يزال شاحج يأتيك بج (بي)

(٤) الاستنطاء هو قلب العين نونا كقولهم أنطى فى أعطى وكان فى سعد .

(٥) الطمطمانية وكان في حمير هى قلب لام التعريف ميما كقولهم (طاب امهواء) فى طاب الهواء (وليس من امبر امصيام فى امسفر) فى ليس من البر الصيام فى السفر ، وهذا موجود فى فلاحي مصر فيقولون (امبارح) فى البارح .

(٦) الوتم هو قلب السين تاء نحو قولهم (النات بالنات) فى الناس بالناس . ومنهم من كان تقلب الميم باء والباء ميما فيقولون (بات المعير) فى مات البعير .

أن يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الاسلام . فساروا وأبلوا فى قتالهم بلاء حسناً ، وخصوصاً جيش خالد بن الوليد الذى كان له الفضل الاكبر فى رجوع الناس الى الاسلام .

وبعد وفاة أبى بكر سار عمر على طريقه فى تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الاسلام ، لانهم أهل البلاد الذين بهم عزها وبهم يكون خيرها أو شرها وبهم تكون سعادتها أو شقاوتها . وسار على سنته من أتى بعده من الخلفاء الى اليوم . لذلك ترى الآن أهل الحرمين أنفسهم يبالغون فى مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوباً ومحطة العلا شمالاً أحد من الاجانب بالمرة وان فعل فما هو الا مورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد ! ولذلك فان الاجانب من عمال السكة الحديدية الحجازية ما كانوا يغادرون هذه المحطة ، لجهة الجنوب ولو لضرورة .

أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة فى أزمنة مختلفة ، وكتبوا عنهما ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية ، انما كانوا يتزيون بزى المسلمين بعد أن يعرفوا اللغة العربية ، ويدعون أنهم على الدين (١) الاسلامى ونخص بالذكر منهم

(١) ولا أرى اثباتاً لهذا الامر غير أن أذكر لك صورة الاعلام الشرعى الذي استخرجه برتامون لنفسه من مكة (وكان سمى نفسه عبد الله بن بالسمر) أوهم فيه محرره أنه على دين الاسلام وقد أخذت صورة هذا الاعلام بالفوطوغرافيا ووضعت فى صفحة ١٥٢ من كتابه الذي عنوانه (سياحتى الى مكة) وهاك هي نصها .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على النبى المظلل . القائل علماء أمتى كانبياء بنى اسرائيل . عليه وعلى آله أجمعين . قدوة العلماء الاعلام . وعمدة الفضلاء الفخام . حلال المشكلات ومزيل المعضلات سيدنا وأخينا فى الله الشيخ ابن داكور حفظه الله آمين .

وبعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد ورد الينا من أراد الله له بالسعادة الدنيويه والاخرويه عبد الله بن بالسمير بدخوله فى الاسلام فأمعنا النظر فى حاله فوجدناه مؤمناً حقاً راغباً غاية الرغبة فى الاسلام . هذا مما يلزمه الاعتناء بشأنه من عرض أحكام الاسلام عليه وتعليمها له ولو كانت مدة جلوسه بمع ذلك لعلمنا معه ما يكون سبباً لكل خير ولكنه أسرع بالمسير فيلزم كل من له رغبة فى الاسلام ان يقوم بشأنه من تعليم ما يحتاج اليه وقد أشار لي بأن الرغبة اليكم أكثر فأرجو على سيادتكم أن تقوموا بشأنه لاحرمنا الله واياكم من الاجر ودمتم فى خير وسرور .

	الداعي لكم بالخير
٧ ربيع الثاني	محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسن
سنة ١٣١٢	مفتى المالكية

بوركارت السويسرى ، وبورتون الانكليزى ، وهو رجرنج الهولاندى ، وكورتلمون الفرنساوى ، وأولهم هو أسبقهم الى التورط بنفسه فى بلاد العرب . وبوركارت سويسرى الجنس لوزانى المولد (Lausane) وفد الى مصر ودخل الازهر بعد أن ادعى الاسلامية وسمى نفسه ابراهيم المهدى ، وتعلم فيه العربية ثم سافر الى بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين ، وكتب عنها كتابه الذى هو أحسن ما كتبه الفرنجة فيها خصوصا فى صفة بلاد العرب وقبائلها ، ومات فى مصر على زيه الاسلامى ، ودفن فى قرافة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس ، ولا يزال قبره موجوداً بها ومكتوب على شاهد تربته هذه العبارة :

هو الباقى

« هذا قبر المرحوم الى رحمه الله تعالى الشيخ حاج »
« ابراهيم المهدى بن عبدالله بوركهرت اللوزانى تاريخ »
« ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩ وتاريخ وفاته الي رحمة »
« الله بمصر المحروسة في ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٣٢ هـ . »

ومن عوائد اشراف مكة ان كبراءهم يرسلون أولادهم وهم فى نعومة أظفارهم الى البادية وخصوصا الى قبيلة عدوان التى توجد فى شرق الطائف وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فينشئون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى اذا ترعرعوا عادوا الى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من اشعارهم وأخذوا من عوائدهم وطبائعهم ، وأحسن ما تراه فيهم الفروسية والحرية فى القول والفعل وهذه العادة قديمة جدا فى القوم ، ومما يذكر عن الرشيد انه رأى ولده المعتصم وهو صبى يتأفف من الذهاب الى الكتّاب فمنعه منه وأرسل به الى البادية فما زال بها حتى عاد منها عارفا بلغتها عالما باخبارها حافظا لكثير من اشعارها وقد ولى الخلافة وهو على أميته .

ومن عادة شريف مكة أن يجلس للحكم فى دار الامارة كل يوم من الساعة الخامسة نهارا الى قبيل العصر ، فتعرض عليه المسائل الهامة وهنالك يستعد الى التوجه الى الحرم فى ركبة

بسيطة فيصلي العصر، وكثيرا ما يجلس بالحرم حتى يصلي المغرب ثم يعود الى قصره فيتناول العشاء مع من يريد من بنيه وخاصته وضيوفه .

ومن عادته أنه يجلس صباح يوم الجمعة في دار الامارة للمقابلات، فيفد عليه الوالي وكبار الموظفين ثم أعيان مكة ووجوهها، وبعد السلام عليه يذهبون الى السلام على الوالي .

ومن عادته أن يصلي الجمعة في الحرم حتى اذا كان في الطائف ينزل منها في موكبه فيصليها فيه وبعد العصر يعود الى مصيفه .

ومن عادة أهل مكة التأنق في المأكل والمشرب واللباس، وتكثر في لباسهم الالوان الزاهية الباهية وخصوصا الاحمر والأخضر والأزرق والوردي . وترى في مساكنهم كثيرا من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة وخصوصا البسط العجمية النادرة المثال .

ومن عاداتهم تقديم الشاي في أي وقت تحية للقادم عليهم، واقامة المآدب في حفلة يسمونها قَيْلَة (لعلها آتية من القيلوله) ويتفاخرون بكثرة صنوف الطعام المتغايرة في شكلها وطعمها وليس لأطعمتهم نظام مخصوص فمنها الهندي والعربي والشامي والمصري والتركي . ويقعد المدعوون في هذه الولائم على سماط يمد على الأرض وتخدم عليهم الالوان لونا بعد آخر، وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغاني وآلات الطرب كالعود أو القانون أو الرباب ثم ينصرفون . وغالبا تكون هذه الحفلات في ضواحي مكة كالزاهر والشهداء وهنالك يبكرون اليها ويقضون يومهم في سرور وحبور وألعاب رياضية كالمسابقة بالجري أو لعب الكره أو النرد أو الشطرنج مثلا .

ولأهل كل حارة من حارات مكة عادة مع أميرها: ذلك أن يجتمعوا ويدعوا الشريف الى وليمة يقيمونها له كل سنة في أحد متنزهاتهم خارج مكة ، فاذا قبل منهم ذلك عيّن يوم الوليمة وفيه يذهب مع خاصته الذين يدعوهم للتوجه معه في موكب فخيم تجري أمامه خيالة الأعراب والبيشة، والناس يهتفون له بقولهم دائما (يعيش) حتى اذا وصل مكان الدعوة جلس مع من أراد . وفي وقت الغداء تمد الموائد على النظام الافرنكي والتركي والعربي ويجلس الشريف ويدعو خاصته للاكل معه، وبعد الطعام تلعب الأعراب بألعاب الفروسية : تارة

بالخناجر وأخرى بالسيوف الى آخر النهار . وبعد فترة من الليل يعود الشريف فى موكبه الى مكة .

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين فى اليوم: واحدة فى نحو الساعة التاسعة صباحا، والأخرى بعد صلاة العصر . وهم يميلون الى الأبهة والفخفخة كثيرا ، ويقلد صغيرهم كبيرهم فى التظاهر بالكرم والشجاعة ، خصوصاً فى شهر رمضان . وقد كانوا يفطرون فى الحرم بعد صلاة المغرب ، فيمدون فيه الموائد هنا وهناك ، لا سيما فى زمن الحر ، ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة (وحبراً فعل) : لان فضلات الأكل كانت توسخ المسجد فتكثر فيه الحشرات والقطط وغيرها . ومن عوائد كثير منهم أنهم يشرطون وجنات صبيانهم ثلاث شرط فى كل جهة . ونساؤهم يدخنّ بالنرجيلة ، والزار يفشو بينهن كثيرا ، وبعضهن يخرجن الى الاسواق بملاءة واسعة سوداء فى الغالب ، وبرقع كثيف فيه ثقبان صغيران فيما يلى العينين ، وفى أرجلهن أخفاف ضخمة لونها أصفر غالبا .

وأفراحهم ومآتمهم غاية فى البساطة : ومن عوائدهم فى زواجهم أنهم يدعون الاهل والمحبين نساء ورجالا ، فيأتى الرجال ويجلسون فى الاماكن المعدة لهم خارج البيت، ووقت العشاء يمد لهم سماط مستطيل يجلسون عليه جميعاً مرة واحدة فيأكلون ثم ينصرفون . أما النساء فيدخلن البيت فيجدن على باب قاعة الجلوس قصعة كبيرة مملوءة بعجين الحناء ، فتحنى المرأة يداً من يديها ثم تدخل الى المكان وبعد السلام تجلس على هذه الحال مع باقى النسوة ، ولا يزلن يتجاذبن أطراف الحديث الى منتصف الليل ، وهناك يزففن العروس الى بعلها ، ثم يعدن الى بيوتهن بعد أن يضعن فى عنقها عقودا كثيرة من زهر الفل أو ثمر التفاح وهو فى قدر البندق .

أما مآتمهم : فعند موت الميت تصرخ امرأة من أقرب الناس اليه صرخة واحدة أو صرختين اعلانا بالمصيبة فتتوافد عليها النساء ، فيجدن قصعة الحناء بجوار قاعة الجلوس فتحنى كل واحدة منهن يداً من يديها ثم يدخلن القاعة ، وبعد أن يعزين صاحبة الفقيد بكلمات قليلة يجلسن ويأخذن فى الحديث فى شؤون مختلفة ثم ينصرفن . اما الميت

فيأخذه بعض أقاربه ويدفنونه بغير احتفال كبير، وبعد دفنه يتوارد الرجال على أهله فيعزونهم وينصرفون لوقتهم . ومن عوائدهم انهم يحتفلون احتفالا كبيرا بختم أولادهم للقرآن الكريم ويسيرون بهم بموكب عظيم في طرق مكة . ويحتفلون في منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند مدفنها بالزاهر على مسافة نحو سبعة كيلومتر من مكة على طريق المدينة، فينصبون خيامهم في تلك الصحراء ويتفاخرون بكثرة الطعام والشراب . ويحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الاول . ويعبرون عن المولد بالحول: فيقولون حول ميمونة، وحول النبي . وفي شهر رجب يحتفلون بزيارتهم للمدينة المنورة .

ومن عادتهم الاصطياف في الطائف ويرتفع عن سطح البحر بمسافة ١٥٥٠ مترا، والهدى فوق جبال كرا ويرتفع عن سطح البحر بمسافة ١٧٦٠ متر وفيه جنات كثيرة تجرى من تحتها الانهار فيها مايشتهون من أثمار وأزهار . وأشهر مصيف في الطائف يسمى شبرا وهو لاشراف ذوى عون أنشأه الشريف عبدالله باشا وسماه باسم شبرا مصر، ثم حدائق المثناه وهي لذوي غالب: وهى أحسن حدائق الطائف ومشهورة بخوخها وعنبها، وماؤها أعذب مياه تلك الجهة . وللطائف طريقان : طريق القافلة [1] ويبعد عن مكة بنحو ٣٦ ساعة، وطريق [2] البغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة . ومدينة الطائف [3] مشهورة بطيب هوائها وليس أحسن منها الا جبل الهدى الذي يبعد

(١) مكة . بئر البارود (شمالي منى) . وادى اليمامة . السوله (وهي مبدأ سوق عكاظ في الجاهليه) . السيه دير . أم حمص . الحيم (القيم) . الطائف .

(٢) مكة . منى . عرفه . وادي سمار . وادى النعمان (ومنه يبتدئ مجرى عين زبيدة) . تهوة شداد . وادى خريف الرأس . أبو حراحل . السكر . مجمع الدروب . عين المغسل الهدي (وفي جبل الهدى كثير من القردة الصغيرة والوحوش الضارية من سباع وغيرها) . وادي محرم (وهو ميقات احرام أهل الشرق واليمن وحضرموت وعمان) . بئر العسكر . الطائف .

(٣) ويحيط بالطائف سور عليه عدة أبراج أشهرها القلعة التي بناها عثمان المضايفي عامل الوهابيين على الطائف، وفيها يسجن المنفيون الى الطائف من رجال الدولة العلية: وأشهر من سجن فيها ومات بها زمن السلطان عبدالحميد شيخ الاسلام خيرالله أفندي (الذي أفتى بخلع السلطان عبد العزيز)، ومحمود باشا الداماد(صهر السلطان عبد العزيز)، وأحمد مدحت باشا الشهير باني الدستور .

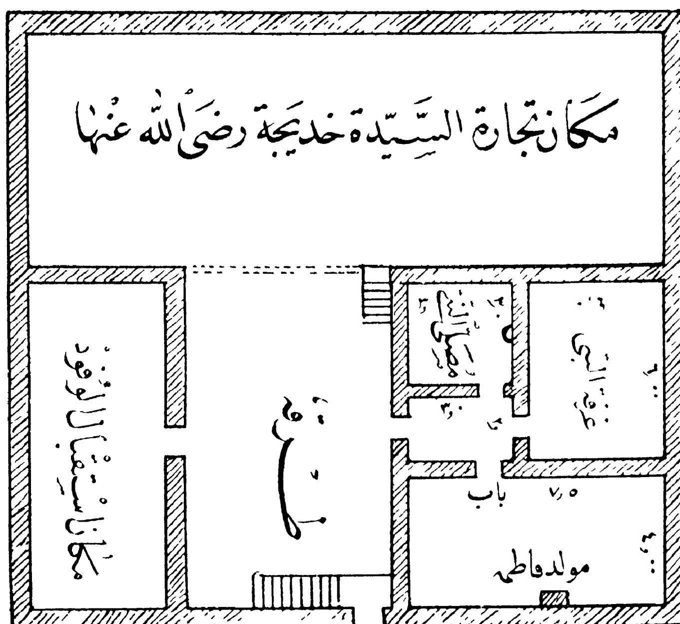
عنها بنحو ثلاث ساعات الى مكة ، وأهله مشهورون بجمال خلقتهم ونعومة بشرتهم وينسبون ذلك الى شربهم من نهر هنالك يسمونه المعسل يبالغون فى حلاوة طعمه . وفى الطائف قبر السيدين : الطاهر ، والطيب ، ولدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر سيدنا عبد الله بن العباس ، ويقصده اليمانيون لزيارته قبل الموسم وله على الخصوص عندهم احترام كبير . وكان بها زمن الجاهلية معبد اللات والعزى ، وكانت تدين بهما ثقيف وغيرها من القبائل المجاورة للطائف . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم فى أول نبوته وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك .

ويتخلف عن الحج كثير من أهل مكة ويقيمون فيها للمحافظة على دورهم من اللصوص الذين يكثرون فى هذه الآونة فيقطعون ليلهم سهراً بين اطلاق بنادقهم من كل الجهات اعلاناً بأنهم يقظون لكل من قصدهم بسوء .

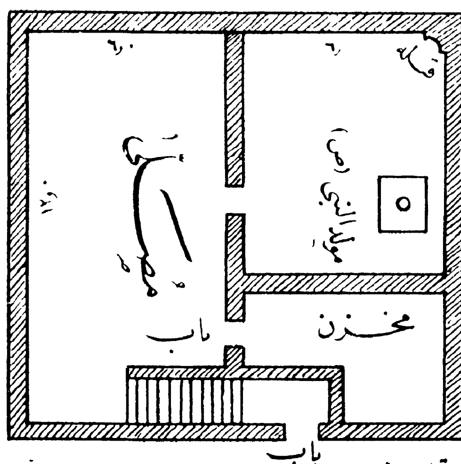
ويوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد على ، ومولد فاطمة ، ودار الخيزران .

أما مولد النبي صلى الله عليه وسلم فهو فى شعب بنى عامر أو شعب المولد : وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف ، وينزل اليه بواسطة درجات من الحجر توصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الايمن (الغربى) باب يدخل منه الى قبة فى وسطها (يميل الى الحائط الغربى) مقصورة من الخشب ، داخلها رخامة قد نقر جوفها لتعيين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام . وهذه القبة والفناء الذى خارجها لا يزيد مسطحهما عن ثمانين متراً مربعاً ، وهما يكونان الدار التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان السيد الرسول وهب هذه الدار لعقيل بن أبى طالب ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى (أخى الحجاج) ، فلما بنى داره

والداماد ومدحت مدفونان جانب بعضهما بمكان يقال له الجزرة خارج السور على مسافة من باب سيدنا عبدالله بن العباس . وقد أقيم على قبرهما أخيراً قبة فخيمة سنة ١٣٢٧ وفرشت بالرياش الثمينة بمعرفة شعبة جمعية الاتحاد والترقي بمكة .



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) او دار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

BOEHME & ANDERER, CAIRO

المشهورة بدار ابن يوسف وكانت بجوارها أدخلها فيها ، حتى اشترتها الخيزران أم الرشيد وفصلتها وبنتها على ما كانت عليه وجعلتها مسجداً ، وهي باقية كذلك الى يومنا هذا .

ويقرب من مولد النبي صلى الله عليه وسلم مولد سيدنا علي رضي الله عنه وهو على شكل سابقه الا أنه أصغر منه .

أما مولد السيدة فاطمة ففي درب الحجر : وهو دار خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه . وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان يعمل في تجارتها الى الشام ثم اختارته لنفسها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الصفات وصفات الكمال ، فتزوجها في سنة ٢٨ قبل الهجرة أعني قبل بعثته بخمس عشرة سنة . وماتت خديجة بمكة رضي الله عنها قبل الهجرة بأربع سنين وهي في الرابعة والستين من عمرها .

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضاً ، فينزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة ، على يسارها شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو ثلاثين سنتيمتر ومسطحها نحو عشرة أمتار طولا في أربعة عرضا وفيها كتّاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف ، وعلى يمينها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين وفيها ثلاثة أبواب : الذي على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولا في أقل منها عرضاً ، وهذا المكان كان معداً لعبادته صلى الله عليه وسلم ، وفيه كان ينزل الوحي عليه ، وعلى يمين الداخل اليه مكان منخفض عن الأرض يقولون انه كان محل وضوئه عليه الصلاة والسلام . والباب الذي في قباله الداخل الى الطرقة يفتح على مكان واسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة ، وهو المكان الذي كان يسكنه صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضي الله عنها . أما الباب الذي على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف ، وفي وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وفي جدار هذه الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون انها من رحى السيدة فاطمة التي كانت تستعملها في حياتها . وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه نحو سبعة أمتار ، وأظن أنه المكان الذي كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها .

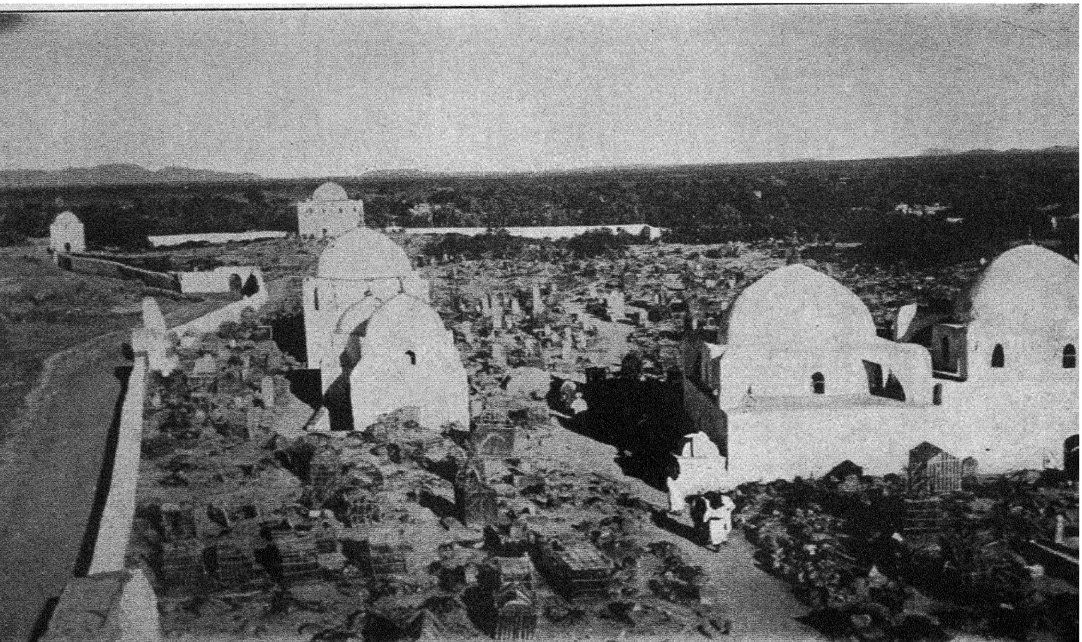
وهذه الدار التي كانت مقراً له صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته في مكة ومبعثه الى الخلق كافة اذا أنعمت بها نظرك وأمعنت فيها فكرك لا تراها الا البساطة بنفسها : دار تحتوي على أربع غرف، ثلاث داخلية: منها واحدة لبناته، والثانية له ولزوجه، والثالثة له ولربه، والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس . يالله ما هذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع ؟ بل ما هذه الآداب الكبرى والكمالات الحيويه العظمى التي صيغت في شكل هذه البساطة المتناهيه ؟ تأمل قليلا ترأن هذا النظام هو بذاته ما قضت به المدنية العصرية لولا أنه يعمل فيها بشكل تعددت صفاته وكثرت حاجياته ! هذه هي دار السيد الرسول الذي أرسل للناس كافة ! نعم هذا هو منزل هذا النبي الامي وذلك هو نظامه في بيته : ذلك النظام الذي وان كان مجرداً عن مظاهر العظمة والفخامة فقد اكتسى بحلى الجلال والكمال ! اللهم انى آمنت بك و برسولك هذا الذي لم يتخذ دينك وسيلة الى عيش الأغنياء وحياة العظماء ، بل كان حسبه من عيشه ما كان يقوم بحياته التي إنما كانت كلها خيراً وبركة وغنماً وسعادة للناس أجمعين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة استولى على هذه الدار عقيل بن أبي طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان فجعلها مسجداً ، وعمرت في زمن الناصر العباسي . وقد وضع في حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل لوح من الرخام مكتوب عليه بالحروف البارزة : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الامام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين، الناصر لدين الله أمير المؤمنين، أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره، وجعل منافعه ومشتغلاته وأجره عائدا على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوي ، على ما يرى الناظر المتولى له في ذلك من الحظ الوافر ، والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى، وطلبا لثواب الدار الآخرة . تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين . وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى علي بن أبي البركات الذوراني الأنباري في سنة أربع وستمائة ومن غيَّر ذلك أو بدَّله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين آمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين » .

ثم عمرها بعد ذلك الأشرف شعبان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان فى سنة ٩٣٥ .

أما دار الأرقم المخزومى المشهورة بدار الخيزران فهى فى زقاق على يسار الصاعد الى الصفا : وهى الدار التى كان يختبئ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر بعثته هو ومن آمن معه ، وكانوا يصلون بها سراً حتى أسلم عمر رضى الله عنه فقويت به عصبيتهم وجهروا بالاسلام والصلاة . وباب هذه الدار يفتح الى الشرق ويدخل منه الى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار فى عرض أربعة ، وعلى يسارها ليوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار ، وفى وسط الحائط التى على يمينها باب يدخل منه الى غرفة طولها ثمانية أمتار فى عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير وفى زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب فى أعلاهما بالحرف البارز « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين » . ومكتوب فى الثانى : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وانشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الاصفهانى وزير الشام والموصل الطالب الوصول الى الله تعالى الراجى لرحمته أطال الله فى الطاعة بقاه وأناله فى الدارين مناه فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة » .

ومن الأماكن المقدسة غار حراء : وهو الغار الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار فى مترين ، ويوجد فى قمة جبل النور الذى على يسار السالك الى عرفة ، وفيه نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم لأول مرة . ثم جبل ثور وهو الى الجنوب من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها ، وفيه الغار الذى اختفى فيه رسول الله مع صاحبه أبى بكر حين قصد الهجرة الى المدينة ، ومساحته نحو مترين مربعين . ثم المَعْلى . وهى مقبرة مكة وتوجد خارج بابها الشرقى ، وفيها ضريح السيدة خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهو داخل قبة تجددت سنة ١٢٩٨ ، وفى القبة مقصورة من خشب الجوز



جبانة المعلى بمكة المكرمة وفيها قبتا السيدة آمنة والسيدة خديجة
وعلى يسارهما قباب عبد المطلب وابي طالب وغيرهما من بني هاشم

أقيمت على قبرها الشريف ، والى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر شخصاً من الاشراف . وخارج هذه القبة الى الغرب قبر السيدة الكبيرة حرم ساكن الجنان محمد على باشا ، وكانت قد أتت الى الحج سنة ١٢٦٦ فماتت ودفنت بهذا المكان . وقبالة قبة السيدة خديجة الى الجنوب قبة السيدة آمنة (١) بنت وهب والدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبجوارها مقصورة دفن فيها الشريف محمد بن عون . وفى شمالها قبة أبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبجوارها قبة جده عبد المطلب ، وكلتاهما تجددتا فى سنة ١٣٢٥ . وفى هذه القرافة قبر سيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وكانت له قبة هدمها الشريف عون الرفيق فيما هدم ولم تشيد بعد ، وفيها قبر أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين وكان قد حضر الى مكة حاجا فى سنة ١٥٨ فمات ودفن بالمعلى ولا يعرف مكانه . وفيها غير ذلك كثير من قبور الصحابة والتابعين والصالحين رضوان الله عليهم .

ومن المزارات بمكة أيضاً مسجد الجن ، ومسجد الرايه ، ومسجد الاجابة ، ومسجد البيعة ، ومسجد أبى بكر ، ومسجد عمر ، ثم جبل أبى قبيس وفيه مسجد بلال ، ومسجد انشقاق القمر ، وزاوية السنوسى (٢) الذى له فى الحجاز شأن كبير ومقام خطير ومعظم الأعراب على شيعته .

(١) ذكر ياقوت فى معجمه أن آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم دفنت بالابواء وهي قرية من أعمال الفرع من المدينة ، بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا . والسبب فى دفنها هناك أن عبد الله والد الرسول كان خرج الى المدينة فمات ودفن بها . وكانت فى كل عام تخرج الى المدينة لزيارة قبره ، ولما أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين خرجت زائرة له ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صارت بالابواء منصرفة الى مكة ماتت ودفنت بها .

(٢) أهالي مكة أغلبهم على طريقة السنوسية ، وكثير منهم على طريقة يسمونها الرشدية وهم أتباع الشيخ ابراهيم الرشيدي ، والادريسيه وهم اتباع الشيخ أحمد بن ادريس ، والمرغنية وهي شائعة فى السودان ومصر .

و فى مكة مكان للتلغراف والبوستة بناه المرحوم عثمان باشا نورى عند بنائه لدار الحكومة (الحميدية) وغيرها منذ كان واليا عليها الاول مرة سنة ١٨٨٢ ميلادية . والتلغراف فى هذه المدينة لا نظام فيه بالمرة لعدم وصول غالب الاشارات التى ترسل من و إلى أربابها! ولعل ذلك ناشيء من كثرة الاعمال فى زمن الحج: أما البوستة فشيء لا نظير له بالمرة فى بوسطات العالم: فان المكاتيب تحضر فى زمن الموسم من جدة الى مكة على الجمال فى عدة زكايب ، فتلقى فى طرقة مكتب البوستة الضيقة ، و يأتى المطوفون أو صبيانهم أو الحجاج أنفسهم فيفرزونها و يأخذ كل ما يعثر عليه صدفة باسمه أو باسم معارفه ، وعليه فاغلب الخطابات لا تصل الى أربابها . وأظن أن هذا النظام أو اللا نظام لا مبرر له بالمرة ، لأن الحكومة العثمانية فى استطاعتها أن تكثر من عمال البوستة فى موسم الحج واذا فرضنا أنها عينت بصفة ظهورات عشرين عاملا لفرز هذه المكاتيب مدة الموسم وتوزيعها على أربابها فلا يكلفها ذلك شيئا يذكر . ولو قلنا ان الزمن الماضى كان زمن فوضى لا نظام له فانا لا يمكنا أن نقول هذه الكلمة فى الحكومة الحاضرة ، وان أمكننا فلا نحب أن نقولها . وليست هذه الحال خاصة بمكة ، بل تراها بالمدينة و ينبع وجدة ، وعليه فنرجو من حكومة الحجاز العناية بتنظيم البوستة قياماً بواجب رد الامانات الى أهلها حتى لا تضيع الفائدة المقصودة منها .

و فى شوارع مكة كثير من القهاوى البلدية التى ترى فى دوائرها دككا وكراسى من الخشب مقاعدها مصنوعة من شبكة من الليف أو الخوص المجدول وأحسنها فى جهة جياد ، فيجلس عليها الحجاج وخصوصاً فيما كان منها خارج البلد مدة الصيف ، و يشربون بها الشاى (و يسمونه الشاهى)(١) والقهوة (٢) والنرجيلة التى يجهزونها بالتمباك العجمى عادة لكثرة استعماله هناك . ولقد رأيت بعض الهنود يمر على هذه القهاوى وهو ينادى قائلا « كابوس

(١) وأظن ان هذه الكلمة نسبة الى شاه الفرس لاستعماله هذا الشراب كقولهم شراب ملوكى مثلا و ربما أتى من هذه النسبة اسم ذلك القماش الحريري المشهور « شاهي » .

(٢) القهوة عندهم من البن اليمنى ، وكبراؤهم يضيفون عليها كثيراً من المنبهات مثل الحبهان والقرنفل وبعض العطريات مما تحمل لها نكهة لطيفة جداً ويسمونها دوش ومن أغاني البدو: يادوش ما اسمك دوش اسمك دواء لكل كبد عليله .

كابوس» (مكبساتى)، فاذا استدعاه أحد ممن فيها فرشه على دكة وأخذ يكبسه بمهارة فائقة نحو نصف ساعة على الاقل فى نظير قرش أو قرشين . و يقرب من هذه القهاوى عادة سوامر يقوم فيها بعض أناس فى الغالب من اليمانيين يتغنون بأغنية جميلة تطرب منها النفوس وكلها فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم . وفى بعض الاحيان ترى هؤلاء المغنين متنقلين فى طرق مكة .

و فى مكة ثلاث تكايا وأكبرها وأفخرها وأنظمها وأكثرها موارداً التكية المصرية: وهى بناء فخيم شيده المرحوم محمد على باشا جد العائلة الكريمة الخديوية فى مكان دار السعادة التى كانت محل حكومة بنى زيد من الأشراف، كما كانت دار الهناء محل حكومة بنى بركات وكانت توجد مكان دار الشريف أبى نمى تجاه باب الوداع . و فى هذه التكية مخازن وطاحونة ومخبز ومطبخ ومكان لطيف منظم لحضرة مديرها وأمكنة لمستخدميها، و يطبخ بها يوميا الشوربة للفقراء والمعوزين الذين يفدون الى بابها صباحا لاخذها مع ما هو مرتب لهم من الخبز الذى تقوم به حياتهم و يبلغ عددهم يومياً نحو خمسمائة شخص أو يزيدون (١) .

و فى مكة قلعتان تحكمان على المدينة و يسكن بهما عساكر الدولة، وهما قلعة جياد التى بناها الشريف سرور سنة ١١٩٦ هجرية فى الجهة الجنوبية، وقلعة الهندى التى بناها الشريف غالب سنة ١٢٢١ فى الجهة الشمالية . وفيها حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر: واحد بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠، والثانى بالقشاشية و يسمونه حمام النبى . و بها مطبعة للولاية و يسمى باسمها . و يصدر فيها جريدة بالتركية والعربية اسمها (حجاز) وهى شبيهة بالرسمية وكل ما فيها تقريباً يتعلق باخبار الحكومة واعلاناتها .

وليس فى مكة كتبخانات تذكر اللهم الا كتبخانة بسيطة فى باب أم هانئ تسمى كتبخانه شروانى زاده محمد رشدى باشا والى الحجاز سابقا، وأخرى فى باب الدُّرَيْبَة قرب

(١) وهذا العدد يزاد حسب شرط الواقف فى مدة الحج الى ثلاثة أضعافه، على انه ربما يقصد التكية من الفقراء فى الموسم ما يزيد عن ذلك كثيراً لأنها أعظم ملجأ للبائسين فى مكة ولو كانت ادارة أوقاف الحرمين تزيد فى ميزانية هذه التكية ولو فى مدة الحج كان ذلك من خير أعمالها .

باب السلام تسمى بالكتبخانه السلمانية ، أسسها السلطان عبد المجيد وكوّنها من شتات كتب الحرم وغيرها مما أرسله اليها من الاستانه . ولكل كتبخانة من هاتين فهرست بخط اليد ومُغَيّر يقوم بشؤونها . والكتب التي بهما تحويه وفقهية وأدبية وتاريخية وعالمها باللغة العربية وفيها شيء بالفارسية والاوردية (الهنديه) والتركية والجاويه (لغة الملايو) . وقد كان بمكة كتب كثيرة مهمة وكانت موضوعة في دواليب في دائر حائط الحرم ، سرق بعضها والسيول التي أغرقت المسجد وخصوصاً في سنة ٤١٧ صعدت الى هذه الخزائن وأتلفت منها شيئاً كثيراً ، وكان في ذلك أكبر مصيبة على العلم والعلماء لانهم فقدوا بها ما لا يصلحه الزمان ولا يعوضه الانسان .

وفيها مدرستان المدرسة الصولية ، بناها المرحوم الشيخ رحمة الله الهندى الشهير (صاحب كتاب اظهار الحق)، ويدرس فيها القرآن الشريف وعلم التجويد وشيء من اللغة العربية والاعمال الحسابية والهندسية ، ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند ، وهو أمر لاثبات له ولا تدوم معه حياة مدرسة نافعة مثلها : لذلك أخذت في الانحطاط ، والامل في حكومة الحجاز النهوض بها وبأمثالها . ثم المدرسة التي يقوم بها حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ يوسف محمد الخياط ، وهو من علماء مكة الاماثل ، ويدرس فيها ما يدرس في الاولى بتوسعة ، وعنايه مولانا الامير بها كبيرة ولذلك فالامل في نجاحها عظيم . ولقد قرأت بعدد ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ من جريدة المفيد الغراء نقلا عن جريدة صباح أن الحكومة العثمانية افتتحت مدرسة بمكة المكرمة بحضور الوالى والشريف وجمهور من الوجهاء والاعيان فعسى أن يكون فيها الخير المرجو لأم القرى بل لأم العواصم الاسلامية .

ولو كان مولانا الامير يقضى بان يتخرج المطوفون من مدرسة مخصوصة يدرسون فيها ما هو خاص بوظيفتهم لكان فى ذلك أكبر خدمة دينية ، لان جل الموجود منهم الآن يجهل مأموريته الكبرى . وليت بعضهم يقف عند هذا الحد بل يلقى فى ذهن الحاج ما ليس من الدين فى شيء كمسألة الكنفانى والزلبانى مثلا : وهما حجران فى طريق جدة الى بحرة يزعمون أن واحدا منهما كان كنفانيا والآخر كان زلبانيا وكانا يغشان الحجاج فمسخهما الله حجرين !!

ومسألة الناقة والحجام والحجامة بجبل عمر : ذلك أن هناك صخرة تشبه ناقة باركة والى جوارها حجران يزعمون أن النبي كان بهذا المكان بناقته فأبى رجل حجام مع امرأته وامسكا بالناقة التي لم تنهض برسول الله صلى الله عليه وسلم فمسخها الله معهما على هذه الصورة ! ! ومسألة سارق الصندوق وهو صخرة الى جهة جبل النور تقرب من صورة رجل يحمل صندوقاً يزعمون أنه كان سارقاً له فمسخه الله عليها ! ! وأمثال هذا كثير مما تجب العناية بازالته خدمة للدين المتين . والادهى من ذلك أنهم يحرفون ألفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف ، بتفخيمهم مالا يجوز تفخيمه أو ترقيقهم مالا يصح ترقيقه ، بل منهم من يقلب الحرف بآخر لتقريبه الى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً ، فيقولون مثلا « وكنا عذاب النار » في قوله تعالى « وقنا عذاب النار » و « مهمد رسول الله » في محمد رسول الله و « ياأرهم الراهمين » في ياأرحم الراحمين و « اللوهم » في اللهم ونحو ذلك مما لا يجوز شرعاً ولا اجتماعا .

ويدرس في الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة العقيمة ، ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلهم من الجاوه الذين يفرون الى هذه البلاد من المظالم التي تتساقط على رؤوسهم من حكومة بلادهم ، وتراهم يشتغلون وقت الدرس في الدراسة ووقت الفضاء منها يعملون فيه عملا يقوم بحياتهم .

ويبلغ عدد المدرسين العاملين نحو الثلاثين ، وعنايتهم بالتعليم قليلة جداً ، وذلك لقلة موارد الارتزاق ولان مرتباتهم التي تصرف لهم من طرف الدولة لا تقوم بأودهم ، لأنها تختلف من مائة الى خمسمائة قرش عثماني سنوياً . ولنا في الحكومة الجديدة ، حكومة الدستور ، حكومة العلم ، حكومة العمل ، وفي كبير همة دولة الشريف عظيم الامل في اصلاح حال العلم بهذه البلاد في زمن قريب الى حال يفيد القوم في دينهم ودنياهم .

وتجارة هذا البلد كلها أو جلها في يد الاعراب خصوصاً الهنود ، وغالبها من صنف العطريات والسبح والسجاجيد والاقمشة الحريرية الهندية والشامية . والصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية أو فضية وخصوصاً في عمل الدبل التي يدعون

منفعتها للبواسير شفاهم الله ! ! والحدادة عندهم بسيطة جداً ولكنها دقيقة فى عمل الاسلحة وفيها من المصانع فاخورة لعمل الدوارق والقلل وكل ذلك فى يد الأجانب أيضاً . أما الاهالى فأغلبهم يعيش من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الدينى ، ولا تروج تجارتهم الا زمن الحج ، وما يأتيهم فيه من رزق يعيشون منه طول عامهم . غير أن كثيراً منهم يبرحون مكة بعد الموسم الى الجهات التى بها أناس ممن سبقت معرفتهم بهم فى الحج ، فيفدون عليهم ببعض الهدايا ثم يعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم .

والنقود التى تستعمل فى مكة هى النقود التركية والمصرية فضية أو ذهبية ، والروبيَّة والقروش الهندية والريال الشينكو وأبوطيره والريال البُرْم[١] (الحاوى) وهو على أشكال مختلفة ، والجنيه الانجليزى والفرنساوى والروسى . وليس لهذه النقود قيمة ثابتة هناك ، بل تراهم يستعملونها على الدوام فى مصلحتهم ، فيأخذونها منك بأقل من قيمتها ويعطونها لك بأكثر مما تساوى ، وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات ! ! ولعل أرباب الأمر والنهى يجتهدون فى إزالته قريباً . والريال أبوطيره هو أكثر النقود استعمالا عند الأعراب وقيمته عندهم كالريال الشينكو والمصرى . ومما يناسب ذكره هنا أنى أعطيت مرة قطعة من النقود ممسوحة قليلا الى طفل صغير أعرابى فردها الىّ قائلا هذه رلطاء : وهى كلمة بدوية صرفة كان لها وقع عظيم على سمعى ! والأعراب لا يعرفون قيمة هذه النقود ، واذا وجد معهم شىء منها يتوجهون به الى التاجر ويقولون له « سوّ بهذه من الصنف الفلانى على أمانتك » ، ولا تهمهم جودة الصنف بل تهمهم الكثرة منه .

وأسواق مكة كثيرة : منها سوق الشامية فى شمال الحرم وهى أشبه شىء بالاسواق التركية ولها سقف من الخشب على مثال الخان الخليلى بمصر لولا أن شوارعها أضيق ، وهذه السوق تضيق بالمارين خصوصاً عند مرور الجمال بها . وفيها يبيعون السبح والأقمشة الهندية والتركية وغيرها ، وفيها كثير من الفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذى يبيعه

(١) هذا الريال ضرب باسم شركة هولاندية ومع عدم استعماله فلا يزال ذكره يرد فى أقوال بعض الدين يشحدون بنشيدهم (أدناتية) « شرم برم حالي غلبان » .

على الخصوص حجاج اليمن فى شوارع المدينة بأثمان رخيصة جداً .

ثم السوق الصغير وهو تجاه باب ابراهيم وأغلب ما فيه للغذاء ، كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التى يؤتى بها من الاودية المحيطة بمكة كوادى فاطمة شمالا ، ووادى الليمون شرقا ، ووادى العبيدية (العبّادية) والحسينية جنوبا . وكثير من هذه الخضر يأتى مع الفاكهة من جهة الطائف وجبال كراء وفى هذه السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الأسماك المملحة التى يؤتى بها من جدة ، وهى فى الغالب مضرة جداً بالصحة لتعفنها من الحراره وطول زمن الملح . وفى شرق المسجد سوق الليل وهى سوق كبيرة مختلطة فيها جميع احتياجات الحاج . وفى كل هذه الاسواق ترى مدة الموسم حركة لا تنقطع يأتى منه ورائها ربح عظيم لأهل البلد . ومدار حركة الأشغال الشاقة فى مكة على العبيد فمنهم الحمالون والحطابون والحمارون والجمالون والسقاءون والخدامون . ولقد كان للرقيق بمكة سوق كبيرة أخذ أمرها يمحى شيئاً فشيئاً حتى كاد لا يكون له أثر بالمرة . وكانوا يسمون المكان الذى يبيعونه فيه بالدكة لأنه كان فى حوشه دكة يجلسون عليها ما يراد بيعه منه .

وبهذه المناسبة أقول ان ما يصرفه الحجاج بمكة ليس بالشيء الذى يستهان به ، لأنا اذا فرضنا أن متوسط عددهم يبلغ سنويا مائتى ألف نفس ، وأن متوسط ما يصرفه الواحد منهم مدة اقامته بمكة خمس جنيهات ، فيكون مجموع ما يصرفه الحجاج فى مكة على أقل تقدير مليوناً من الجنيهات فى نحو شهر من الزمان : فى أجرة مسكن وبعض المأكل وأجرة مطوف وزمزمى وبعض هدايا يشتريها لذويه وأهله . ومع هذا كله فان بعض أهالى مكة لا ينظرون الى الحاج (بقطع النظر عن كونه ضيف الله وفى بلده الحرام) بالعين التى يجب عليهم أن ينظروه بها ، وعلى الأقل من الجهة الاقتصادية التى هى مصدر حياتهم . لأنهم مع احتقارهم له يسيئون معاملته ويرون فى ماله كلأ مباحا لهم ، ويتقوّلون فى ذلك الاحاديث التى لا يخرج معناها عن قولهم « الحاج رزق لأهل الحرمين ورزق الحاج على الله » ! ولعل هذه المعاملة السيئة كانت فى ذلك الزمن السيء زمن الاستبداد الذى كان المطوّفون فيه يوقفون أغنياء الحجاج فى سوق المزايدة ، حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم ، كما حصل لبعض سراة

المصريين فى سنة ١٣٢٦ ولا حول ولا قوة الا بالله ! !

وجو مكة كثير الحرارة قليل الامطار ، ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التى تنزل بكثرة فى الجبال العالية المحيطة بالطائف . وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمل فى شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن هذه المدينة ، وانصرافها من الجهة الشرقية نحو المسفلة الى خزان كبير فى الجهة الجنوبية يسمونه بركة الماجن ، وهناك تستعمل للأعمال الزراعية . ولا تزال لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

وأهواء مكة تختلف فى هبوبها جملة مرات فى الساعة الواحده . ولهذا يقول المكيون « إن الله خلق سبعين هواء جعل منها فى مكة تسعاً وستين وفى العالم كله هواء واحدا » : ذلك لأن الهواء يدور فى جو المدينة بين جبالها المحدقة بها كما تدور الدوامة على سطح الماء . فبينما تراه يدخل الى المساكن من المنافذ الغربية اذا به انقطع عنها ودخل من الشرقيه أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا ، ولذلك تجد مساكنهم كثيرة النوافذ وعالبها الى الجهات الاربع حتى لا تحرم من الهواء من أى جهة كان . والهواء البحرى عندهم وهو الغربى أحسنها وألطفها لانه يأتى من جهة البحر ، ثم هواء الشام ويسمونه الشمأل والشمال ، أما الجنوبى والشرقى فهما حاران .

ويفسد هواء مكة فى أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العنايه بنظافتها ، وتكثر فيها زمن الشتاء أمراض الصدر ويندر فيها التدرن الرئوى ، وفى زمن الصيف تكثر الاحتقانات الدماغية وضربات الشمس وأمراض العين والكبد والجهاز الهضمى والدوسنتاريا خصوصاً بين الاطفال ويسببها عندهم أكل السمك العفن والفواكه الغير ناضجة ، وفى زمن الحر تكثر فيهم الحميات لا سيما عند فساد مياه الشرب ، ويكثر فيهم مرض الجدرى ويموت بسببه سنويا أكثر من اثنين فى الالف . ومما يجدر بنا ذكره ان الكوليرا لم تظهر فى مكة الا سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرية أى فى نحو سنة ١٨٢٥ ميلادية ، وفدت اليها مع حجاج الهند ولا تزال تفد اليها معهم . ولو كانت الحكومة تعتنى

لشدة الحجر على حجاج الهنود والجاوه فى جزيرة قمران[1] قبل دخولهم الى جدة بزمن لا مكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام و هـذا الداء الوبيـل . والاوبئة الكبيرة التى حصلت بمكة فى زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكا ذريعاً كانت فى سنة ١٨٩٠ ميلاديه وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٢ . وفى مكة مستشفى معروف الآن باسم شفخانه الخاصكية وهو من خيرات خاصكى سلطان زوجة السلطان سليمان القانونى . وفيها أربع أجزاخانات : اثنتان فى طريق المسعى و واحدة فى مصلحة الصحة بجياد والرابعة أشبه شىء بدكان عطارة بسيطة فيها من الادويه ما فسد غالبه وأصبح ضرره أكثر من نفعه وعلى كل حال فالعنايه بالمسائل الصحية بمكة قليلة جداً . لأن ثقتهم بالطب القديم الذى مداره على الكى والفصد والحمية الشديدة و بعض أصناف العطارة الشرقية كالمر والصبر أكثر من ثقتهم بالطب الحديث .

وقد كان الجناب العالى الخديوى حفظه الله فكر فى ايجاد مستشفى بمكة ورتب له طبيباً وأجزاجياً فلم يتيسر لهما القيام بأمور يتهما واكتفى الحال مؤقتاً بالخدم التى تقوم بها مأموريه الأوقاف الصحية زمن الحج ومقرها فيها يكون فى التكية المصريه والحق يقال ان لها أثراً يذكر فيشكر . ومصاريف هذه المأموريه تبلغ سنوياً فوق السبعمائة جنيه مصرى ومع هذا فلا ننسى الخدم التى تقوم بها مأموريه المحمل المصرى الصحيه لعامه الحجاج لا فرق بين مصرى وغيره .

وأهـل مكة يشربون من ماء الآبار التى فيها مثـل زمزم أو التى فى ضواحيها كالزاهر والعسفلانى والجعرانه وغيرها ، أو من الصهاريج التى تملأ من مياه المطر أو ماء اليمانيه ، أو من عين زبيده التى يجرى ماؤها الى المدينة فى قنوات تحت الارض لها خزانات فى شوارعها

---

١) جزيرة قمران واقعة فى البحر الاحمر شمال الحديدة بمسافة أربعين ميلا وعلى مسافة ٤٨٠ ميلا من جدة . وفيها أبنية كثيرة بنتها الدولة العلية بحيث أصبحت وافية بالغرض المقصود منها . ولو كانت الدولة لا تدع الهنود والجاوة يدخلون الى ميناء جدة الا اذا كان معهم جواز نظيف من قمران لكان ذلك أنفع للبلاد هاتيك للبلاد العالم بأسره ولا كفى المسلمون ما تلصقه الافرنج بمكة من انها بؤرة الاوبئة التى تنفشى فى بلاد العالم سامحهم الله .

يملأ منها السماءون وربهم . وهذه العين لها أهمية عظيمة جداً وهي من أجل الآثار التي تنسب الى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد رضي الله عنهما . وكان السبب في إنشائها أن هذه السيدة البارة رأت في حجها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والاهوال الكثيرة لقلة الماء في تلك الانحاء ، فأمرت رحمها الله باجراء الماء الى أم القرى من عين حُنين التي توجد فيما وراء عرفة الى جهة الشمال الشرقي، على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة . وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير في وادي حنين الذي حصلت فيه (سنة ٨ للهجرة بعد فتح مكة) تلك الواقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من هوازن وثقيف ، وثبت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثباتاً عظيما ، كما أبلى المسلمون فيها بلاءً حسناً . وفيها قتل دريد بن الصمة وهو من أكبر رجال الجاهلية المشهورين، قتله رجل من المسلمين يسمى ربيعة بن رفيع السلمي .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيراً وأرسلت اليه العمال من جميع الاطراف ، فسووا لهذا الماء مجرى عظيما وأوصلوا به مجرى آخر من وادي النعمان من الماء الذي ينزل اليه من جبال كرا التي تبعد عن عرفات شرقا الى الجنوب نحوا من عشر كيلومترا ، وسيروا اليه سبع قنوات أخرى من الجهات التي تسقط اليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الأصلي الذي عندما وصل الى جنوب منى نزل في الصخر خزان كبير يصب فيه يسمى بئر زبيدة، ومنه سيرت قناة الى مكة . ومن هذا المجرى امتد فرعان: واحد الى عرفات، والآخر الى مسجد نمرة يسير الماء فيهما زمن الحج .

وفي نهاية القرن السابع الهجري طم مجرى هذه العين وتهدمت قناتها وانقطع ماؤها عن المدينة ونال الناس من جراء ذلك جهد عظيم . وذكر الفاكهي في تاريخ مكة أن الامير جوبان « نائب السلطنة بالعراق عن السلطان أبي سعيد بن خربنده (لعله خدابنده) ملك التتار » أراد أن يعمل عملا نافعاً في أم القرى فطلب اليه أن يعمر عين زبيدة، فأرسل رجلا من خاصته اسمه نازان لتعميرها فأتمها في سنة ٧٢٦ وفيها اجرت مياه العين الى سقايته التي بناها في المسعى وسماها باسمه ويظهر أن هذا الاسم تغلب على باقي السقايات التي بمكة حتى صار يطلق على كل واحدة منها

اسم نازان الى الآن .

وما زالت هذه العين حياة لاهل البلد الحرام وحجاج بيت الله المعظم حتى أهمل شأنها وتهدم بنيانها وانقطعت مياهها مرة أخرى فيما بين سنتى ٩٣٠ و ٩٧٠ ، ونال الناس من ذلك أهوال ما كانت تخطر على البال ، حتى بلغ ثمن زق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترات تقريباً) بعرفة فى غضون هذه المدة ليرة ذهبية : وسبب إهمال هذه العين فى المدة المذكورة أن ملوك مصرهم الذين كانوا يعتنون بها ويقومون بعمارتها فى الغالب . فلما تغيرت الأحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة ٩٢٣ ضمن أملاك الدولة العلية التى كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية ، أهملت الدولة ترتيبها الداخلية حكومتها ، خصوصاً ما كان بعيداً عنها . ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا فى سنة ٩٦٩ والتمسوا من السلطان سليمان اصلاح هذه العين . وهنالك رجته كريمته صاحبة السمو الملوكانى مهرماه سلطان أن يشرفها باجراء هذا العمل المبرور من مالها الخاص ، وعينت مديراً للقيام بهذه المهمة ، وسلمته الأموال اللازمة لها ، فسافر من وقته الى مكة وشكل مجلساً من أهل الرأى فيها ، وأمر بحفر القناة وتنظيف فروعها وبناء ما تهدم من مجراها ، ولما وصل الاصلاح الى بئر زبيدة بمنى أراد رحمه الله أن يغير مجراها الى مكة ، فاضطر الى النزول فى هذا الجبل الصخرى على مسافة نحو خمسة وعشرين متراً من سطح الارض ، فى مسافة طولها أكثر من كيلومتر ، ثم سيرها فى حضن الجبل القبلى حتى أوصلها الى مكة سنة ٩٧٩ .

وينقسم هذا المجرى من البياضية شرقى باب المعلى الى أربع شعب تتخلل المدينة من جهة الى أخرى . ويبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع فى ارتفاع نحو متر ونصف ، وتقرب من سطح الارض وتبعد عنه على حسب ارتفاعها وانخفاضها ، ولها حزانات تملأ منها السقاءون .

وفضل ماء زبيدة يسير الى المسفلة حتى يصب جنوب مكة فى بركة الماجن وهناك يستعمل فى سقى بعض البساتين والمزروعات التى لبعض الأشراف .

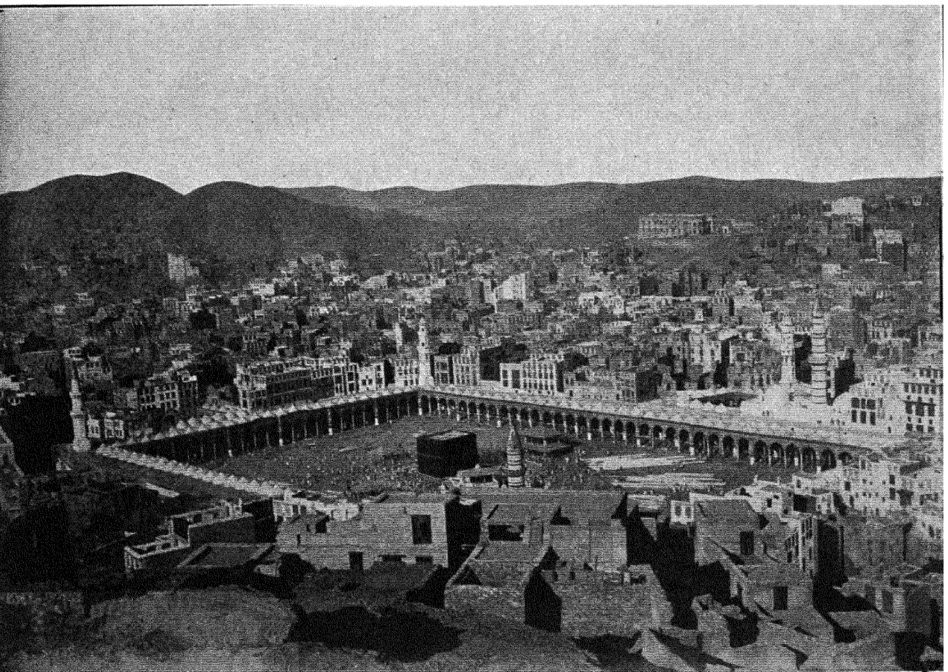
وكثيراً ما تعبث السيول بهذه القناة فتصلحها أمراء مكة بالاموال التى ترد اليها من الدولة أو من أصحاب الهمم والخيرات من المسلمين . وآخر ما حصل لها من ذلك على أثر السيول التى

وقعت فى سنتى ١٣٢٧ و ١٣٢٨ فهدمت نقطا كثيرة منها، وطم مجراها بما تحلف اليه من الرمال والاحجار ، ففام حضرة صاحب الدولة الشريف حسين باشا أمير مكة وجمع الناس وطهره وأصلح مااعتل منه . وكان للجناب العالى الخديوى العباسى أكبر فضل فى دلك لانه بمجرد ما بلغ مسامعه الكريمة خبر هذه الفاجعة التى أصيبت بها أم القرى، أرسل بألفى جنيه مصرى لهذا العمل الجليل ووعد بغيره كلما اقتضت الحال لمساعدته جزاه الله خيراً .

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ على بلدية مكة أن الفتحات التى فى أعلى هذه العين من جهاتها المكشوفة فى مكة و فى أعلاها يستعملها الناس فى غسيل ملابسهم وخلافها ، مما لا ينطبق على القوانين الصحية ولا تسمح به الشريعة الغراء الاسلامية !! وهل يسمحون لى أن أقول لهم ان ذلك ولا شك العلة الوحيدة لكثير من الأمراض التى تنفشى فى مدينتهم : وعليه فيجب أن تكون العنايه بأمر هذه الفتحات كبيرة ، وأن يضرب على أيدى من يعبث بها أو يسدها فى وجوههم بالمرة، وهل فاتهم قول صاحب الشريعة السمحاء (النظافة من الايمان).

و ياحبذا لو يأمر دولة مولانا الشريف بوضع طلمبات على فوهات مياه مجرى عين زبيدة فى مكة ومنى وعرفة ، وعلى بئر زمزم ، وتكون هذه الطلمبات كبيرة بحيث تكفى لحاجة الحجاج من جهة ، ومن أخرى تجعل ماءها بعيداً عن التلوث بانواع البكتريا التى تكثر منها الحميات فى الحجيج وتودى فى الغالب بحياة الكثيرين منهم .

وعندى نصيحة للذين من عادتهم العناية بأمر ماء الشرب : ذلك أنهم اذا أرادوا الحج أخذوا معهم ما يكفيهم من المياه المعدنية أثناء الطريق ، أما مدة وجودهم فى مكة والمدينة فحسبهم غلى الماء المخصص لشربهم ، ولو أضافوا على كل لتر منه عشر نقط من محلول مركب من واحد فى الألف من برمنجانات البوتاسا لكان أحفظ لصحتهم . وهنالك طريقة أخرى لتنقية الماء تنقية تامة ، وهى أن يؤخذ أقراص مجهزة تسمى أقراص (فيا روچورچ) ذات ثلاثة ألوان : الاول أزرق والثانى أحمر والثالث أبيض . فيذاب أولا قرص أزرق ثم آخر أحمر فى لتر من الماء المراد تنقيته ، وهنالك يتم اتحادهما بهذا الماء فتموت جميع الجراثيم التى فيه فى مسافة عشر دقائق ، ثم يوضع فيه القرص الأبيض فيتحد مع اليود الذى به و يعمل معه



BOEHME & ANDERER, CAIRO

رسم مكة والحرم بالفطوغرافيا من جهة ابى قبيس

تركيباً عديم الطعم ، و بهذه الطريقة يكون الماء صالحاً للشرب . واذا لم يكن لا هذا ولا ذاك فعليهم بفلتر سفرى يمتصون به الماء ولو فى الصحراء .

هذا وأرجو قبل قفل باب الكلام على مكة أن يسمح لى حضرة القارئ بكلمة أسوقها اليه : ذلك أنى زرت القدس الشريف فرأيت به لكل نوع من النصارى واليهود على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم من الاديرة والتكايا ومنازل الضيافة شيئاً كثيراً جداً ، مهدت فيها سبل الراحة والحياة للناس أجمعين : فالفقير يجد فيها مكاناً مجاناً لمدة أسبوع على الأقل ، يرى نفسه فيه آكلا شارباً نائماً لابساً كما مخدوماً مشكوراً من غير ما يتكلف لذلك قرشاً واحداً ، والغنى يجد فيها راحته فى نظير أجر يدفعه يومياً لا يزيد عن الأجر الذى يدفعه فى لوكاندة بسيطة ، ومن الاغنياء من يتخذ هامسكنا فقط و يتدارك أكله بنفسه . وهذه الأماكن التى قامت بها شركات البر والاحسان من الممالك المختلفة على اختلاف جنسياتها ومذاهبها كثيرة جداً ، وأكثرها لليهود ثم للروس ثم للأروام ثم للأرمن ثم للانكليز والفرنساويين والألمان . وقد أقام الألمان هناك أخيراً داراً للضيافة وللصحة على جبل الزيتون صرفوا عليها أكثر من سبعين ألف جنيه : وهى دار رحيبة فسيحة شامخة البنيان ، وطيدة الاركان، وضع فى مدخل سلمها تمثال امبراطور وامبراطورة الألمان، وافتتحت هذه الدار رسمياً بحضور ولى عهد المملكة الألمانية البرنس أيتل فى شهر ابريل سنة ١٩١٠ م . وعدا هذه الدور والأديرة والملاجىء ترى هناك لكل جنس من النصارى واليهود المستشفيات العظيمة المشيدة والمدارس الفاخرة، بحيث تكاد ترى بجوار كل بيت من بيوت المدينة مدرسة: هذه للألمان وتلك للانكليز وغيرها للروس وخلافها للفرنساويين وسواها لليهود ، بل تجد لكل فرقة من هذه الامم مدارس مخصوصة للبنات والبنين على أحسن طراز جديد ، والتعليم فيها على أحسن بر وجرام كافل لحياة المتعلمين . اللهم إن هذه هى الحياة الصحيحة وهذا هو الوجود بكامل معانيه ! وهل لاخواننا المسلمين فى جميع أقطار المسكونه أن يقوموا بعمل مثل هذا بمكة ينتفع به الفقراء من حجاج المسلمين، ولهم من مساعدة الحكومة العثمانية ما يوصلهم الى هذه الغاية الجليلة التى تكون من ورائها راحة حجاج بيت الله الكريم ؟ ؟

وبهذه المناسبة نقول ان الجناب العالى حفظه الله بعد عودته من حجه المبرور ربط فى تكيتى مكة والمدينة كثيراً من المرتبات الشهرية والسنوية الى عدد عظيم من أشراف وعلماء وأهالى الحرمين الشريفين ، لا زالت تتوالى عليهم فيوضاته وإحساناته لأنهم أولى الناس بمثل هذه العناية السامية . ولعله حفظه الله يأمر فيكون له بهما أثر فخيم دائم يشكره عليه الله والناس على توالى الايام . ويا حبذا اذا كان المبلغ الذى جمع من السادة المصريين على دمة اقامة تذكار لحج الجناب العالى الخديوى يقام به دار للضيافة بمكة لفقراء حجاج بيت الله الحرام عموماً والمصريين منهم خصوصاً ، وتقوم مصلحة الاوقاف بما يمصر عنه هذا الاكتتاب والله الموفق للصواب .

تاريخ مكة

يصعد تاريخ مكة الى سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله عليه . ففى سنة ١٨٩٢ قبل المسيح أمره الله بالهجرة بولده اسماعيل وأمه هاجر (كما ورد فى التوراة)، فذهب بهما الى هذا الوادى الذى لم يسكنه أحد لعدم توفر الماء فيه ، اللهم الا أولئك العماليق الذين كانوا يسكنون غالباً فى الوادى الواقع شماله ويقال له الحَجُون : وهم قوم نزحوا الى هذا المكان من جهة البحرين وكان مُلْكهم فيما يمتد الى شبه جزيرة سيناء . والبابليون يسمونهم « ماليق » فأضاف عليهم العبرانيون لفظ عم (يعنى أمّة) فصارت « عم ماليق » فحرفها العرب الى عماليق ، والمصريون يسمونهم الهكسوس أى الرعاة .

فلما عثرت هاجر على بئر زمزم التى أصبحت حياة جديدة لهذا الوادى نزلوا اليها وسألوها الاقامة معها على أن يكون الأمر لها ولولدها ، فقبلت ذلك وكانت قد ابتنت لها

بيتاً تأوى اليه مع اسماعيل . وكان ابراهيم يتردد لزيارتهما من فلسطين فأمره الله تعالى بتطهير هذا البيت وجعله مصلى للناس: قال تعالى « و إذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم و إسماعيل أن طهرا بيتىَ للطائفين والعاكفين والركع السجود » . ثم أمرهما الله برفع قواعد هذا البيت ، وهنالك هدمه ابراهيم ، و رفع مع إسماعيل على قواعده الكعبة المكرمة : قال تعالى « و إذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت و إسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم » . ثم أمره الله بأن يؤذن فى الناس بالحج فقال « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . ومن ثم ابتدأت شهرة ذلك البيت المعظم تذاع فى القبائل المجاورة ومنه أتى لفظ مكة أو مكا وهى كلمة بابلية سمته بها العماليق ومعناها (البيت) .

و رجع ابراهيم الى قومه ، و بقى اسماعيل فى خدمة البيت حتى مات ، فتولى خدمته من بعده بنوه الى أن داخلهم الضعف فتغلب العماليق عليهم ، وصار أمر البيت اليهم . وما زالت السلطة فى يدهم حتى وفدت جرهم على مكة من طريق اليمن بعد قطع سد مأرب ، فى نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد وعليهم مضاض بن الحارث ، فزاحموهم وغلبوهم على أمرهم ، وصارت لهم الكلمة والسلطان فى مكة بل و فى الحجاز بأكمله . فلما كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم عثوا فى الارض فسادا فوقع فيهم وباء نال منهم ، فضعف أمرهم وتغلب عليهم بنو إسماعيل واستردوا أمر البيت منهم وطردوهم من مكة . فساروا الى أرض جهينة (شمالى ينبع) ، و فى ذلك يقول شيخهم عمرو بن الحارث .

وكنا ولاة البيت من عهد نابت[1] * نطوف بذاك البيت والامر ظاهر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وما كادت تنحصر السلطة فى بنى إسماعيل حتى أتت خزاعة وتغلبت عليهم ، و وليت

(١) نابت من ولد اسماعيل .

أمر البيت من سدانة (خِدْمة البيت) وسقاية (سقيا الحجيج) زمناً طويلا بما كان لها من العصبية، رغماً عما كان في بني اسماعيل من الرقي الادبي والسمو النفساني: لانه كثيراً ما كان ينبغ فيهم رجال يبرهنون بحسن معرفتهم وكمال فضلهم على ذكاء أصلهم وكريم محتدهم، مثل كعب بن لؤي الذي اشتهر ببلاغته وفصاحته. وهو أوَّل من جمع الناس في يوم العَروبة⁽١⁾ (يوم الجمعة) وكان يخطبهم فيه بما يرشدهم الى طريق الفضائل ويبعدهم عن ارتكاب الرذائل، وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره فيهم حتى كانوا يؤرّخون بعام موته الى عام الفيل، وهو زمن لا يقل عن أربعمائة سنة.

ومازال أمر البيت في يد خُزاعة حتى رجع قصيّ بن كلاب من الشام، وكان ذهب اليها مع أمه صغيراً: وهو من أحفاد كعب والبطن الرابع والعشرون من اسماعيل. فجمع قبائل قريش بما كان فيه من حسن السياسة والذكاء وقوّة العارضة بعد أن كانت تفرقت وأخذت الشحناء تدب فيما بينهم، وسعى أصاله رأيه حتى اشترى من خزاعة حجابة البيت (الاستئثار بمفاتيح الكعبة) ثم أجلاهم بما وجد له من العصبية عن مكة الى بطن مر (وادي فاطمة)، ومن ثم كبر شأنه ونبه أمره وعظم سلطانه واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء (رايه الحرب)، ولم تجتمع في رجل قبله. وقصي أوَّل من أطعم الحاج وسقاه لانه ضيف الله وجاره، وبذلك سارت الركبان بسيرته وتحدَّث الناس بنباهته. وكان له رأي سديد وفكر رشيد. وهو الذي بنى دار الندوة قرب البيت وجعل بابها اليه ليجتمع فيها مع قومه للبحث في شؤونهم والاقرار على ما يتم من أمرهم فاصبح به ملك قريش عظيما وشأنهم جسيما، حتى كان لهم بعد ذلك خراج على القبائل والعشائر يؤدونه اليهم ويتقربون به منهم. وكان لقصي ولدان: عبد الدار وعبد مناف، وقد شَرُف الاخير على صغره وزاد فضله عن أخيه الاكبر. فأوصى أبوه لعبد الدار بما كان في يده من السقاية والحجابه والرفادة واللواء والندوة، حتى يتكافأ مع عبد مناف في شرفه الذي وصل اليه بعقله وفضله.

---

(١) كانت أيام الاسبوع عند العرب في عصر الجاهلية الاولى كما يأتي: أول (الاحد) أهون، جبار، دبار، مؤنس، عروبه، شبار.

ولما مات قصي استولى عبد الدار على ما أوصى له به أبوه . وانتقل ذلك الى بنيه من بعده حتى ظهر بنو عبد مناف عليهم ونازعوهم ما في أيديهم ، وكادت تدور رحى الحرب بينهم ، وانتهى الامر بتحكيم بعض القبائل فقسموا بينهم شرف هذه الامتيازات : فكان لبني عبد مناف السقاية والرفادة ، ولبني عبد الدار الحجابة واللواء اللذان ما زالا ينتقلان فيهم الى فتح مكة . وكانت مفاتيح الكعبة مع عثمان بن طلحة فأخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما دخل البيت أراد أن يحجزها عنه ، فنزل قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه قائلا « هاكم خذوها خالدة تالدة » ، وبعد موت طلحة سلمها رسول الله الى أخيه شيبة فبقيت في بنيه الى الان .

ووصلت قريش في الجاهلية الى مجد كبير وشرف عظيم ، وانتهى شرفها الى عشرة أبطن منها كانوا يقتسمون امتيازاتهم القومية من دينية وسياسية واجتماعية وتشريعية . وكانت هذه الامتيازات يتوارثها الابناء عن الآباء وانتهى أمرها قبل الاسلام الى من سنذكرهم : كان العباس بن عبد المطلب (من هاشم) يسقي الحجيج واستمر ذلك في الاسلام . وكان أبو سفيان ابن حرب (من بني أمية) عنده العقاب ، وهي راية حربهم لا يخرجها الا اذا حمي وطيسها فيسلمها الى من يجمعون عليه الرأي لحملها . وكان للحرث بن عامر (من بني نوفل) الرفادة ، وهي ما كانوا يخرجونه من أموالهم لاعانة المنقطع من الحاج . وكان لعثمان بن طلحة (من بني عبد الدار) السدانة والحجابة واللواء والندوة . وكان ليزيد بن زمعة بن الاسود (من بني أسد) المشورة في الأمور الهامة . وكان لأبي بكر الصديق (من تيم) الديات والمغرم ويقال لها الأشناق وكانوا يمضون على حكمه فيها . وكان خالد بن الوليد (من بني مخزوم) على خيل قريش وكانت له القبة : وهي ما كانوا يجمعون فيه سلاحهم وذخيرة حربهم ، وكان لعمر بن الخطاب (من بني عدي) السفارة فيما كان يقع بينهم وبين غيرهم من العرب ، فيمضي عنهم ما يراه من مصلحتهم . وكان لصفوان بن أمية (من جُمح) الايسار وهي الازلام (١) .

---

(١) واحدها زلم وهي أقداح ثلاثة كانت للعرب بالكعبة مكتوب على الاول أمرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي والثالث ليس عليه شيء . وكانت العرب اذا أرادت أن تمضي في أي أمر من أمورهم ذهبوا الي الكعبة واستقسموا بالازلام فيقترع لهم صاحبها فيمضون على ما قسم لهم منها .

وكان للحرث بن قيس (من بني سهم) الحكومة والاموال التي يقدمونها الأصنامهم .

أما بنو هاشم فقد علا أمرهم وعظم شأنهم خصوصاً في مدة عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كبر سلطانه بعد واقعة الفيل ، وذاعت شهرته وهابته القبائل وقصدته العرب من جميع جهات الجزيرة . ولما ظهرت نبوة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وتجلى الاسلام بمظهره المنيع ، وبعدم تقدمه السريع ، كمل لبني عبد مناف فضلهم وتم بهذا الشرف سعودهم .

حكم الاشراف بمكة

من أكبر الحوادث التاريخية بمكة هجرته صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة ، وفتحه لها بعد ثمان سنين من الهجرة . ومن ثم صارت مكة تابعة له ولخلفائه من بعده .

وكانت حكومة الاسلام في مدته عليه الصلاة والسلام ديموقراطية «شورية» على حسب الشريعة الغراء ، وكذلك في عهد خلفائه الراشدين ، حتى انهضت الخلافة الى مظاهر الملك فشابها شيء من الاستبداد .

وكانت حكومة الحرمين تتبع في جميع أدوار حياتها مركز الخلافة الاسلامية . وأول من تولى إمارة مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضي الله عنه ، ولاه عليها رسول الله بعد الفتح ، عند خروجه لواقعة حنين في الثلث الاول من سنة ٨ للهجرة . وانتقلت الخلافة بعد الخلفاء الراشدين الى الامويين في سنة ٤٠ ﻫ و في اثنائها استولى عبد الله بن الزبير على مكة بضع سنين حتى استردها منه الحجاج بن يوسف الثقفي الى الامويين سنة ٧٣ . وفي سنة ١٣٢ انتقلت الخلافة للعباسيين ومازالت في أيديهم الى سنة ٣٥٨ . وتولى أمر مكة في هذه المدة نحو مائة أمير من أشراف وغير أشراف . و في هذه السنة انتقل حكمها الى الفاطميين وفيها دخلها جوهر القائد ، ثم دخلها مولاه المعز لدين الله العبيدي ومن ثم كانت البلاد الاسلامية من بغداد الى حلب الى البصرة يخطب فيها للخليفة العباسي ، ومن حلب الى الحرمين وسائر بلاد العرب

يخطب فيها للعبيديين : والسبب في ذلك أن جعفر بن محمد بن الحسن الثائر بن موسى الثاني ابن عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن على أمير المؤمنين كرّم الله وجهه تغلب على مكة في السنة المذكورة ، وخاف من العباسيين فدعا للمعز لدين الله العبيدى صاحب مصر ، فكتب له المعز بولاية مكة وبها ابتدأت حكومة الأشراف عليها .

واستمرت في بنيه من بعده الى سنة ٤٥٥ حيث وليها حفيد أخيه هاشم : وهو محمد بن جعفر بن عبدالله بن هاشم ، وتولى أمرها بنوه من بعده الى سنة ٥٩٧ . ويقال لهم الهواشم ، وكان حكمهم جورا وظلما حتى أن آخرهم الشريف مكثر بن عيسى ضرب ضريبة على حجاج بيت الله الحرام مقدارها سبعة دنانير ، كان يتقاضاها في عيذاب أو في جده على كل شخص يفد الى مكة عن طريق مصر . فاستغاث الناس بصلاح الدين الأيوبى ، فاتفق مع مكثر على الغائها ، ورتب له بدلها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحا . ومن هذا الوقت ابتدأ الخطباء في مكة يدعون لصلاح الدين عقب دعائهم للخليفة العباسى ولأمير مكة .

واستولى على مكة بعد مكثر الشريف قتادة سنة ٥٩٧ وهو الحلقة السابعة من أحفاد الشريف عبدالله أخى الشريف جعفر بن محمد بن الحسن الثائر وكان قتادة من أهل النخوة والشجاعة والهمة العالية ، واتسع ملكه من اليمن الى المدينة . الا أن أهل اليمن تغلبوا على مكة في مدة ولده حسن لسوء سلوكه ، وما زالت في أيديهم الى سنة ٦٣٠ ، وبعدها تغلب الشريف راجح بن قتادة عليها وصارت الامارة بعده فيها كالكرة يتلقفها القوى من بنيه أو بنى اخوته . وكانت حكومتها تتبع ملوك مصر تارة وملوك اليمن أخرى لاشتغال ملوك مصر عنها بالحروب الصليبية ، خصوصاً بعد موت الملك الكامل الذى كان يدعى له في خطبة الحرمين هكذا :

« صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين المحترمين : الملك الكامل خليل أمير المؤمنين » . وأول من استقل من ملوك اليمن لذلك العهد نور الدين بن عمر بن على بن رسول ، وكان عاملا عليها للملك الكامل صاحب مصر ، ولقب

نفسه الملك المنصور . ومازالت حكومة مكة فى هذا الارتباك والاختباط حتى آل أمرها الى الشريف أبى نمى بن حسن بن على بن قتادة سنة ٦٦٧ ، فخطب لبيبرس ملك مصر فاقره عليها وحج من سنته . ومازال أبونمى حتى وقعت له مع العسكر المصرى حروب ألجأته الى التنازل عن الامارة سنة ٧٠١ الى ولديه حميضة و رميثة ، فغلبهما عليها أخوهما أبوالغيث بن أبى نمى . و فى مدته حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢ ، واستمر بها حتى غلبه على الامارة أخوه حميضة سنة ٧١٤ وقتله ودعى اخوته الى وليمة عنده وقدمه اليهم مصلوقا ، وعلى رأس كل واحد منهم عبد شاهر اسيفه . ومازال حتى تغلب عليه أخوه رميثة سنة ٧١٨ فهرب ومات فى هربه . و فى سنة ٧١٩ حضر الى مكة جيش مصرى وقبض على رميثة وأتى به الى ملك مصر الملك الناصر بعد أن ولى مكانه الشريف عطيفة بن أبى نمى . و فى سنة ٧٢٢ أطلق الملك الناصر رميثة وأشركه مع أخيه فى ولايه مكة ، وذهب عطيفة الى مصر ومات بها سنة ٧٤٣ ، وانفرد رميثة بالامارة حتى جعلها الملك الكامل شعبان ملك مصر لولده الشريف عجلان بن رميثة سنة ٧٤٦ ، وعزله عنها السلطان حسن بن محمد الناصر سنة ٧٦٠ ، الا أنه رجع اليها بأمر من الملك المنصور محمد ومازال بها حتى مات سنة ٧٦٦ . وتولى بعده الشريف أحمد بن عجلان ، و فى مدته صدر أمر الملك المنصور بلغو المكس الذى كان يؤخذ على الاشياء التى كانت تدخل الى مكة ، وعوض أميرها عنه مائة وستين ألف درهم وألف أردب قمحا ، وأمر فنقش ذلك على باب الصفا . واستمرت الامارة فى بنيه حتى صدر أمر سلطان مصر بأن يكون الشريف حسن بن عجلان نائباً عنه فى ولاية الحجاز وابنه الشريف بركات أميراً على مكة : وكان بركات عالما فاضلا محدِّثا ، وقد استدعاه الملك بارسباى الى مصر فوفد اليها معظماً مكرما وأخذ عنه كثير من علمائها ، ثم رجع الى مكة ومات بها سنة ٨٥٩ وتولى مكانه الشريف محمد بن بركات : وكان رضى الله عنه على أحسن ما يكون من العدالة والانصاف وحسن السيرة والرفق بالناس ، وقد سافر الى مصر سنة ٨٧٧ مدة السلطان قايتباى فاستقبل بما يليق به من صنوف الاعظام والاجلال ، ثم رجع اليها معززاً مكرما . و فى مدته حج السلطان قايتباى سنة ٨٨٤ وشيد فيها لصق الحرم من الجهة الشرقية مدرسته التى

تغلب عليها ذوو غالب ولا تزال فى أيديهم الى اليوم .

ومازال محمد بن بركات على أمارة مكة و ولايه الحجاز حتى مات سنة ٩٠٣ وتولى بعده ابنه الشريف بركات ، ومازالت الامارة تتنقل من يده الى يد اخوته حتى استقل بها فى سنة ٩١٠ . وفى سنة ٩١٨ أرسل اليه السلطان الغورى يدعوه الى مصر ، فاعتذر وأرسل بالنيابة عنه ابنه الشريف أبانمى وعمره ثمان سنين ، فاكرمه السلطان كل الاكرام و رده الى أبيه معززا وأشركه معه فى أمر مكة والأقطار الحجازية .

ولما استولى السلطان سليم على مصر سنة ٩٢٢ أقرهما على مكة ، وسار للقياه الشريف أبونمى بمصر ، فاكرم مثواه ، وأرسل معه أمرا بقتل حسين أغا الكردى الذى كان على جدة من قبل الغورى . فلما وصل الى جدة قبض على الاغا وأغرقه و ولّى غيره مكانه ، ومن هذا الوقت صارت بلاد الحجاز واليمن تابعة للدولة العلية .

وكان الشريف أبونمى من خيرة الاشراف عقلا وحلماً وعلما وفضلا وادارة ودرايه ، واليه ينتهى نسب أشراف بنى حسن (الذين يحكمون الان) و بنى زيد ، و بنى بركات (الذين كان لهم الحكم قبل محمد بن عون) ، و بنى نمة (وهم متفرقون فى بلاد العرب) . وفى سنة ٩٩٢ مات أبونمى وتولى بعده ابنه الشريف حسن : وكان عالما فاضلا كاملا أديباً سار فى اداره بلاده على نهج أبيه فى العداله والكرم ومكارم الاخلاق ومحامد الصفات ، وهو رأس سلسلة الاشراف الحسنيين الذين منهم محمد بن عون جد العائلة الحاكمة الآن .

وهو الذى بنى دار السعاده بمكة فى سنة ٩٦٧ وكانت محل إمارته و إمارة خلفائه زمنا طويلا ، ومما جاء فى وصفها وتاريخ بنائها قول بعضهم :

انّ بيتا بناه خير مليك * أسس الملك كفّه وأشاده
فاق فى وصفه وحسن بناه * كل قصر لاهل العلا والسياده
جاء تاريخ وصفه فى نصيف * أبابيت الملوك دار السعاده

ومازال الشريف حسن قائما بأمر ولايه الحجاز حتى مات سنة ١٠١٠ وأخذت

الشرافة تنتقل فى بنيه و بنى اخوته حتى تولاها الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن ابن أبى نمى سنة ١٠٤٣ : وكان ذا همة عالية وشجاعة تامة وادارة حسنة ، ومازال قائما بولايتها خير قيام حتى مات سنة ١٠٧٧ . وتولى بعده ولده الشريف سعد ولكنه خرج من مكة مقهوراً ومكث بعيداً عنها احدى وعشرين سنة ، تولى أمرها فيها الشريف بركات ابن محمد بن ابراهيم بن أبى نمى ، ومات سنة ١٠٩٤ ، وأعقبه عليها ولده الشريف سعيد بن بركات ، فغلبه عليها الشريف سعيد بن سعد بن زيد . ثم عزل عنها ، وأعقبه الشريف عبد الله ابن هاشم ، ثم أحمد بن غالب الذى مات سنة ١١١٣ ، فرجع الى الامارة الشريف سعد بن زيد ، وأخذ يتناوب الولاية هو و ولده الشريف سعيد جملة مرات . ومات الشريف سعد بعيداً عن مكة بالعابدية سنة ١١١٦ ، و بقيت الولاية فى يد ابنه الشريف سعيد حتى مات سنة ١١٢٩ : وكان جليل القدر عظيم الفضل بعيد الآمال شجاعا مهيبا . وأخذت الامارة بعده يتداولها بنوه و بنوا اخوته حتى غلبهم عليها الشريف يحيي بن بركات ، ثم ابنه الشريف بركات بن يحيي فيما بين سنتى ١١٣٤ و ١١٣٦ . ثم رجعت الى بنى سعيد ، ومازالت فيهم حتى تولاها حفيده الشريف سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد فى سنة ١١٨٦ . وهو مشهور بعلو الهمة وجلائل الصفات والشجاعة الفائقة : حارب عرب الشروق وقبائل حرب وانتصر عليهم جملة مرات وانقادت اليه جميع بلاد الحجاز ، وامتد سلطانه على جهات كثيرة من بلاد العرب . ومازال فى الامارة حتى مات سنة ١٢٠٢ وتولى بعده الشريف عبد المعين بن مساعد ، الا أنه تنازل عنها بعد أيام قليلة الى أخيه الشريف غالب . و فى مدته استفحل أمر الوهابية ، و وقعت بينه و بينهم حروب كثيرة كادت الغلبة تكون فيها لهم ، لولا أن الدولة العلية كلفت محمد على باشا والى مصر بكبح جماحهم ، فارسل اليهم جيوشا مصرية على رأسها ولده طوسون ، ثم ولده ابراهيم الذى فرق جموعهم واستولى على بلادهم بعد أن أخذ رئيسهم عبد الله بن سعود أسيرا وأرسله الى والده بمصر . وفى سنة ١٢٢٨ جاء محمد على الى بلاد الحجاز فاستقبله الشريف غالب من جدة ، وسار فى خدمته الى مكة . وكان كل منهما على خوف من صاحبه ، وانتهى الأمر بأن قبض محمد على على الشريف غالب و بنيه

وأرسلهم الى مصر عن طريق القصير ، فوصل القاهرة فى ١٧ محرم سنة ١٢٢٩ وقوبل فيها بالاحترام اللائق ، وبقى بها الى ١٩ شعبان حيث سافر مع أولاده حسب الارادة السلطانية الى سلانيك وأقام بها الى أن توفاه الله سنة ١٢٣١ ، وفيها عادت أولاده الى مكة بمقتضى أمر سلطانى .

وكانت مدة أمارة الشريف غالب على مكة ٢٧ سنة قضاها كلها فى حروب الوهابية . وكان رحمه الله عالى الهمة ، كبير الشهامة ، كثير الدهاء . ولما نفى الى مصر ولّى محمد على مكانه الشريف يحيي بن سرور فى أواخر ذى القعدة سنة ١٢٢٨ ، ومن هذا الحين صارت بلاد الحجاز تابعة لمصر .

وكان على أعمال العرب الشريف شنبر من جهة محمد على ، فنمت بينهما الضغائن ، فقتل يحيي شنبرا أمام باب الصفا وهرب الى بدر . وتولى على مكة الشريف عبد المطلب ابن غالب ، بامر من أحمد باشا يكن ، ولكن محمد على باشا أصدر أمره بتعيين الشريف محمد بن عون ، وكان اذ ذاك نزيلا عليه بمصر ، وكان سبق له أن تولى إمارة تربة وعسير من قبله . فسار الشريف عبد المطلب الى الطائف وجمع جموعا من العرب وحارب بها أحمد باشا ، ولكنه انهزم وطلب الأمان من الشريف محمد بن عون ، فأمنه هو والشريف يحيي وأرسلهما الى مصر بناء عن أمر محمد على ومعهما عبدالله بن فهيد وآخرون . ولما وصلوا اليها أكرمهم محمد على كل الاكرام ، وبعد سنة أعادهم الى مكة الا الشريف يحيي فانه استبقاه ومات بمصر سنة ١٢٥٤ . وبعد ذلك وقع نفور بين أحمد باشا يكن والشريف محمد فاستحضرهما محمد على ثم أعاد أحمد باشا الى مكة وحجز الشريف محمد بن عون بمصر ، وبقى فيها حتى خرجت ولاية الحجاز من قبضة محمد على سنة ١٢٥٦ زمن السلطان عبد المجيد ، وصدرت الاوامر السلطانية بتولية ابن عون أمارة مكة . وكان رحمه الله عاقلا ذا دهاء وهيبة وذكاء ، ميمون الطالع عالما يحب العلم والعلماء ، ومكث زمنا طويلا وهو يدير أمر الحجاز بحسن درايته وادارته . وفى سنة ١٢٦٣ سار الى نجد لاخماد فتنة فيصل بن تركى أمير الرياض ، وتم أمرهما بالصلح بعد أن قرر على فيصل خراجا للدولة قدره عشرة آلاف ريال

كل سنة، واستمر فى ولاية مكة الى أن توفى فى ١٣ شعبان سنة ١٢٧٤ . وتعين بعده ولده الشريف عبد الله باشا كامل : وهو أول شريف منح رتبة الوزارة ولقب باشا وكان تربى فى الاستانة وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون الادب . فوصل جدة بعد أن انجلى عنها مراكب الانكليز سنة ١٢٧٥، وهنالك قابله المندوبون البريطانيون وطلبوا منه أن يساعدهم فى وصولهم الى مكة، فاعتذر عن احتمال هذه المسئولية، ثم قال لهم : وماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء وربما نالكم منه مرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه، فى حين أنكم فى غنى عنه؟ فاقتنعوا بجوابه وعادوا الى بلادهم وسار هو الى مكة . وفى سنة ١٢٧٧ ذهب الى المدينة لاستقبال سعيد باشا والى مصر، ورجع معه الى القاهرة، ثم عاد الى مكة بعد أن صادف من الاجلال وكمال الاعظام ما يليق بمقامه، واستمر فى الامارة الى أن توفى فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ . وتعين أخوه الشريف حسين باشا مكانه، فقدم اليها من الاستانة، وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والورع ووداعة الأخلاق، واستمر حكمه الى سنة ١٢٩٧، حيث قتل أثناء دخوله جدة وكان ذهب اليها فى موكب حافل : فتقدم اليه رجل افغانى كأنه يريد تقبيل يده وطعنه فى خاصرته، فتوفى بعد يومين مأسوفا عليه من عموم أهل الحجاز، ونقل الى مكة رضى الله عنه وأهلها يلقبونه بالشهيد . وتولى بعده الشريف عبد المطلب للمرة الثالثة ولكنه عزل عنها سنة ١٢٩٩ لكثرة الشقاق الذى كان بينه وبين الاشراف، وتعين بدله الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون، فاخذ فى تمكين قدمه فى مركز الشرافة وعمم نفوذه على العرب والمأمورين من الأتراك حتى كانت الولاة كأنهم من المأمورين عنده، الا فى زمن ولاية عثمان نورى باشا الأولى فانه ضرب فيها على يديه، ولكنه نقل من ولاية الحجاز بسعى عون الرفيق ومؤازريه فى الاستانة . ومن وقتها خلاله الجو : فكان يعطى ويحرم، ويسعد ويشقى . ويمنع وينعم . وقد كان ينزع الى مذهب الوهابية أو ما يقرب منه : فهدم كثيراً من قباب المزارات، وخصوصاً فى المعلاة ومن ذلك قبة سيدنا عبد الله بن الزبير، بل وصل بها الحال الى أن أمر بهدم قبتى السيدة آمنة والسيدة خديجة الا أنه ما عتم أن استرجع أمره .

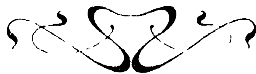
وكذلك أمر فاز يلت تلك الرحى التى كانت فى مولد السيدة فاطمة (دار خديجة) رضى الله عنهما، وكانوا يزعمون أنهاهى التى كانت تطحن عليها فى حياتها، وأمر أيضاً بتوسيع باب غار حراء فى جبل ثور وهو الذى خيم على بابه العنكبوت بعدما آوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رفيقه أبى بكر عند هجرتهما من مكة الى المدينة: وكان بابه لا يسع الا نفرا واحدا يدخل منه زاحفا على بطنه: وكان الناس يزعمون أن لا يدخله الا السعيد وأما الشقى فلا. فاراد بتوسيع هذا الباب ازالة هذا الوهم الفاسد. الا أنه لم يكن له على كل حال أن يغير شكل أثر طبيعى مثل هذا من أجل الآثار ومن الاشياء التى كان الانسان يقدر بها تلك المعجزة التى خدمت الطبيعة فيها أشرف مخلوق حتى حيل بينه و بين أعدائه.

وقد كان يميل سامحه الله الى الرفه بكل أنواعه فكان عنده على الدوام المطربون بالالات والعرايحية (الطبالون) والضاربون بالنوبة وجملة ما يقال فى معاملته للناس انه كان نهابا وهابا. واستقدم أتوموبيلا من أوروبا كان يركبه فى طريق الطائف ولكنه مات بموته. وأنشأ بستانا جميلا شمال جرول (بمكة) وهو المكان الذى يخيم عنده المحمل المصرى، وجلب اليه أشجارا كثيرة من مصر والهند والشام وغيرها وساق اليه الماء من عين زبيدة، ويقال انه كان فى مدته جنة من الجنان لم يسبق له نظير فى مكة. أما الآن وقد انصرفت عنه المياه وقد جفت أشجاره وذبلت أزهاره وأصبح كقطعة من غابة فى الصحراء تنعق فيها الغربان، وترعق فيها العقبان، سبحان مغير الأحوال بيده الملك وهو على كل شىء قدير.

ومات الشريف عون بالطائف يوم الاثنين ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ واختلف الناس فى أسباب موته؟؟ وكانت الشرافة بعده لأخيه الشريف عبد الاله باشا الذى كان يقيم فى الاستانه، ولكن صدرت الاراده السلطانية بسعى راتب باشا والى الحجاز بتوجيه الامارة الى الشريف على باشا ابن عبد الله بن محمد بن عون الذى كان قائمقاما للشريف فى مكة، ومازال على غاية الوئام والاتحاد مع راتب باشا حتى حصلت حركة الاستانه وقام الدستور مقام الاستبداد وعزل راتب باشا لجوره وظلمه وخرج مدحورا الى الاستانة ومنها منفيا الى رودس بعد أن صودر فى جميع أمواله. أما الشريف على باشا فانه ظل بالطائف

متظاهراً بمشايعة الحكومة الدستورية الجديدة، وفى يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٣٢٧ . حدثت فتنة بين بعض أهالى مكة والعساكر الشاهانية قتل فيها من الطرفين نحو عشرين رجلا ، وقيل انها كانت بايعاز الشريف على باشا . وفى اليوم الثانى شاع فى مكة عزل الشريف على وتعيين الشريف عبد الاله باشا الذى كان مقيما بالاستانة، ثم جاء الخبر بوفاته وتولية الشريف حسين باشا ابن على بن محمد بن عون وكان مقيما فى الاستانه منذ سبع وعشرين سنة . فلما حضر الى مكة قام الشريف على منها بعائلته قاصداً الاستانة ولما وصل الى السويس نزل الى مصر ولا زال بها الى الآن .

أما الشريف حسين فانه قام بالأمر حق قيام بهمة لا تعرف الملل، وضرب على أيدى قبائل العرب الذين كانوا يتحفزون للخروج على الدوله : فكان حفظه الله يرسل بعسكره مع نجله هذا الى جهة فى حين ما يرسل بنجل آخر مع فرقة أخرى الى غيرها وهكذا حتى هدأت البلاد وضرب الأمن بجرانه فى جميع أطراف الحجاز . ومما يذكر له بالثناء الجميل انه أمر بجعل أجرة الجمل من مكة الى المدينة الى ينبع أربعة وعشرين ريالا مجيديا بعد أن كانت أكثر من سبعين ريالا فى مدة سلفه . وبالجملة فحكمه عدل وقوله فصل وسيره فضل نفع الله به الدوله والملة وجعله ممثلا لشرف بيت النبوة بجاه جده الامين . ولقد تشرفت بمعرفته مدة وجودنا بمعية الجناب العالى بمكة فوجدته أنيساً وديعاً كريم الأخلاق، حسن السجايا، قد جمل الوقار رؤياه، وكمل الادب جلال محياه . وفى أوائل عام ١٣٢٩ زحف الشريف حسين بخيله ورجله الى عسير لمساعدة الدوله العلية فى محاربة الادريسى وعسى أن يجعل الله على يديه اصلاح ذات البين وحقن دماء المسلمين فيكون له بذلك أكبر فضل فى العالمين .



﴿ جدول بأسماء من تولى مكة من زمن الفتح الى اليوم ﴾

﴿ مأخوذ من السالنامة الحجازية المطبوعة بمكة سنة ١٣٠٦ بتصرف قليل ﴾

سنة هـ	
٠٨	عتاب بن اسيد •
١٣	المحرز بن حارثه •
	قنفذ بن عمير بن جدعان •
	نافع بن الحارث الخزاعى •
	خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة •
	أحمد بن خالد •
	طارق بن المرتفع •
	الحارث بن نوفل القرشي •
٢٤	على بن عدىّ بن ربيعة •
	الحارث بن نوفل القرشي •
	عبد الله بن خالد بن أسيد •
	خالد بن العاص بن هشام •
	عبد الله بن عامر الحضرمى •
	نافع بن الحارث الخزاعى •
٣٦	أبو قتادة الأنصارى •
	القثم بن العباس •
٣٩	عتبة بن أبى سفيان •
	مروان بن الحكم •
	سعيد بن العاص •
	عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق •
	خالد بن العاص المخزومى •
	عبد الله بن خالد بن أسيد •
٦١	عمرو بن سعيد الاشدق •

سنة هـ	
	الوليد بن عتبة بن أبى سفيان •
	عثمان بن محمد بن أبى سفيان •
	الحارث بن خالد المخزومى •
	عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب •
٦٤	يحيي بن حكيم •
٦٤	عبد الله بن الزبير بن العوام «تولى الخلافه فى مكه من سنة ٦٤ الي سنة ٧٣»
٧٣	الحجاج بن يوسف الثقفى •
٧٥	مسلمة بن عبد الملك بن مروان •
	الحارث بن خالد المخزومى •
	خالد بن عبد الله القسرى •
	نافع بن علقمة الكنانى •
	يحيي بن الحكم بن أبى العاص •
٨٧	عمر بن عبد العزيز بن مروان •
	خالد بن عبد الله القسرى •
٩٧	طلحة بن داود •
	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد •
	محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن •
	عروة بن عياض •
	عبد الله بن قيس بن مخرمة •
	عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن سراقة •
١٠١	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد •

تاريخ التولية سنه هـ	
١٠١	عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس •
	عبد الواحد بن عبد الله •
	ابراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى
	محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومى •
	نافع بن عبد الله الكنانى •
١٢٥	يوسف بن محمد الثقفى •
١٢٦	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز •
	عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك •
	أبو حمزة الخارجى •
	عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى •
	مروان بن محمد بن الوليد •
	الوليد بن عروة السعدى •
	محمد بن عبد الملك بن مروان •
١٣٢	داود بن على بن عبد الله بن عباس •
	عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن •
١٣٦	العباس بن عبد الله بن معبد •
	زياد بن عبد الله الحارثى •
	الهيثم بن معاوية العتكى الخراسانى •
١٤٣	السرى بن عبد الله بن الحرث •
١٤٥	محمد الحسن بن معاوية •
	السرى بن عبد الله •
١٤٦	عبد الصمد بن على بن عبد الله •
١٤٧	محمد بن ابراهيم الامام •
١٥٨	ابراهيم بن يحيى بن محمد بن على •
	جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله •
١٦٦	عبيد الله بن القثم بن العباس •

تاريخ التولية سنه هـ	
	الحسين بن على •
١٦٩	أحمد بن اسماعيل •
	حماد البربرى •
	سليمان بن جعفر •
١٨٧	الفضل بن العباس بن محمد بن على •
	محمد بن عبد الله بن سعيد بن المغيرة •
	عباس بن موسى •
	عباس بن محمد الامام •
	عبد الله بن القثم •
	على بن موسى •
	موسى بن عيسى بن محمد بن على •
١٩١	داود بن عيسى بن موسى بن على •
	الحسين بن الحسن بن على الاصغر •
	على بن محمد بن جعفر الصادق •
	عيسى بن يزيد الجلودى •
٢٠٢	هارون بن المسيب •
	حمدون بن على •
	يزيد بن حنظلة •
٢٠٣	ابراهيم بن موسى الكاظم •
	عبيد الله بن الحسن بن عبد الله •
	صالح بن العباس بن محمد •
	سليمان بن عبد الله بن سليمان بن على •
	محمد بن سليمان المذكور •
	الحسن بن سهل •
	عبيد الله بن عبد الله بن الحسن •
٢١٨	صالح بن العباس بن محمد •

تاريخ التولية سنة ه	
	اشاس الجركسى •
	محمد بن داود بن عيسى •
٢٣٢	على بن عيسى بن جعفر •
٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود •
	محمد بن سليمان بن عبد الله •
	محمد بن المنتصر •
	ايتاخ التركى •
٢٤٧	عبد الصمد بن موسى •
	جعفر بن الفضل •
	اسماعيل بن يوسف •
٢٥٢	عباس بن المستعين •
	محمد بن طاهر بن الحسين •
٢٥٢	عيسى بن أحمد بن المنصور •
	محمد بن أحمد بن عيسى •
	على بن الحسن الهاشمى •
٢٥٦	الموفق طلحة بن المتوكل •
	ابراهيم بن محمد بن اسماعيل العباسى •
	ابو المغيرة محمد بن احمد بن عيسى •
	أبو عيسى بن محمد •
	الفضل بن العباس بن الحسين •
	هارون بن محمد بن اسحق •
	أحمد بن طولون •
	محمد بن أبى الساج •
٢٧٩	عج بن محلب •
	ابن المهلب •
	مؤنس الخادم •

تاريخ التولية سنة ه		
٣٠١		ابن محارب •
٣١٧		حافظ أبو الفضل •
		أبو طاهر القرمطى •
		القاضى الشريف أبو جعفر محمد •
		عيسى بن أبى جعفر •
		أبو الفتوح الحسين بن جعفر •
٣٨٥		حسن بن جعفر •
		أبو الطيب بن داود •
٤٣٠		الشريف محمد بن حسن بن جعفر
٤٥٥	»	محمد بن جعفر بن محمد .
٤٨٤	»	القاسم بن محمد •
٥١٨	»	فليته بن القاسم •
٥٢٧	»	هاشم بن فليته •
٥٤٩	»	القاسم الملقب بعمدة الدين
٥٥٧	»	عيسى الملقب بقطب الدين
٥٧٠	»	مالك بن فليتة •
	»	القاسم •
	»	قطب الدين عيسى •
٥٧٠	»	داود بن عيسى •
٥٧١	»	مكثر بن عيسى •
	»	القاسم بن مهنا •
٥٨٧	»	مكثر بن عيسى •
	»	القاسم بن مهنا •
	»	بكر بن عيسى •
	»	محمد بن مكثر •
٥٩٧	»	قتادة بن ادريس •

تاريخ التولية سنه هـ	
	عبد الله بن محمد الثائر بن موسى •
	المثنى بن الحسن •
٦١٧	الشريف الحسن بن قتادة •
٦١٩	نور الدين على بن عمر بن رسول •
٦٢٦	صارم الدين ياقوت بن مسعود •
٦٣٠	طغتكين التركى • «تداولا الامارة حملة
٦٥٢	راجح بن قتادة مرات مكان بعضهما»
	الشريف الحسن بن على بن قتادة •
٦٥٢	« جماز بن حسن بن قتادة •
٦٥٢	« راجح بن قتادة •
٦٥٢	« غانم بن راجح بن قتادة •
	« أبو نمى على بن قتادة •
٦٨٨	« جماز بن شيحة الحسينى •
	« أبو نمى على بن قتادة •
٧٠١	حميضة ورميثة • «تداولوا الولايه
	عطيفة وأبو الغيث • حملة مرات بالاتحاد والانفراد
٧٤٠	ثقبة وعجلان ابنا رميثة «تداولا الامارة حملة مرات»
٧٦٤	الشريف سند بن رميثة ومحمد بن عطيفة •
٧٦٥	« أحمد بن عجلان •
	« عنان بن مغامس •
	« عنان وأحمد وعقيل •
٧٨٩	« على بن عجلان
٧٩٧	« محمد بن عجلان
٨٠٩	« الحسن بن عجلان
٨١٨	« رميثة بن محمد بن عجلان

تاريخ التولية سنه هـ	
٨٢١	الشريف الحسن بن عجلان •
٨٢١	« بركات بن حسن •
٨٢٧	« على بن عنان بن مغامس •
٨٢٨	« الحسن بن عجلان •
٨٤٥	« على بن الحسن بن عجلان
٨٤٧	« أبو القاسم بن الحسن •
٨٥١	« بركات بن الحسن بن عجلان •
٨٥٩	« محمد بن بركات •
	« بركات بن محمد وأخوه •
	« هزاع بن محمد بن بركات •
	« أحمد بن محمد بن بركات •
	« بركات بن محمد •
	« حميضة بن محمد •
٩١٠	« بركات بن محمد وأخوه •
	« بركات ومعه ابنه محمد •
	« بركات بن محمد وولداه •
٩٣١	« أبو نمى بن محمد بن بركات •
١٠٠٣	« حسن بن أبى نمى •
١٠١٠	« أبو طالب بن حسن •
١٠١٢	« إدريس بن حسن •
١٠٣٤	« محسن بن أخى إدريس •
١٠٣٧	« أحمد بن عبد المطلب •
١٠٣٩	« مسعود بن ادريس •
١٠٤٠	« عبد الله بن حسن •
١٠٤١	« محمد بن عبد الله مع زيد •
١٠٤١	« نامى بن عبد المطلب •

بيان التاريخ سنة هـ	
١٠٤٢	الشريف زيد بن محسن •
١٠٧٧	« سعد بن زيد •
١٠٨٣	« بركات بن محمد •
١٠٩٤	« سعيد بن بركات •
١٠٩٥	« أحمد بن زيد •
١٠٩٩	« سعيد بن سعد بن زيد •
١٠٩٩	« أحمد بن غالب •
١١٠١	« محسن بن حسين •
١١٠٣	« سعيد بن سعد •
١١١٣	« عبد المحسن بن أحمد •
١١١٣	« عبد الكريم بن محمد •
١١١٣	« سعد بن زيد •
١١١٣	« عبد الكريم بن محمد •
١١١٦	« سعيد بن سعد •
١١١٧	« عبد الكريم بن محمد •
١١٢٣	« سعيد بن سعد •
١١٢٩	« عبد الله بن سعيد •
١١٣٠	« يحيي بن بركات •
١١٣٢	« مبارك بن أحمد •
١١٣٦	« عبد الله بن سعيد •
١١٤٣	« محمد بن عبد الله •
١١٤٥	« مسعود بن سعيد •
١١٤٥	« محمد بن عبد الله •
١١٤٦	الشريف مسعود بن سعيد •
١١٦٥	« مساعد بن سعيد •
١١٧٢	« جعفر بن سعيد •
١١٧٣	« مساعد بن سعيد •
١١٨٤	« عبد الله بن سعيد •
١١٨٤	« أحمد بن سعيد •
١١٨٤	« عبد الله بن حسن •
١١٨٤	« أحمد بن سعيد •
١١٨٦	« سرور بن مساعد •
١٢٠٢	« عبد المعين بن مساعد •
١٢٠٢	« غالب بن مساعد •
١٢٢٨	« يحيي بن سرور •
١٢٤٢	« محمد بن عبد المعين •
١٢٦٧	« عبد المطلب بن غالب •
١٢٧٢	« محمد بن عبد المعين •
١٢٧٤	« عبد الله باشا ابن محمد بن عون
١٢٩٤	« حسين باشا •
١٢٩٧	« عبد المطلب بن غالب •
١٢٩٩	« عون الرفيق بن محمد بن عون
١٣٢٣	« على باشا ابن عبد الله •
١٣٢٧	« عبد الاله باشا ابن محمد بن عون
١٣٢٧	« حسين باشا ابن على « « « «



﴿ انتهى الجدول وبعض ما فيه يخالف لما جاء بكتاب مرآة الحرمين وغيره من التواريخ ﴾

الوهابيه ومحمد على في الحجاز

فى سنة ١١٤٢ ظهر رجل من عرب بادية نجد اسمه محمد بن عبد الوهاب ، تلقى العلم فى مكة على بعض شيوخها وأخذ يذيع عقيدة جديدة فى الدين الاسلامى ، تجاوز فيها الحد الذى ذهب اليه الامام أحمد بن حنبل ، بل تغالى فى بعض الامور غلواً كبيراً ، وأخذ يمر على أحياء العرب حياً بعد حى يذيع فيهم عقيدته حتى اتبعه كثير من الناس ، ومازال يزداد مريدوه ويكثر تابعوه حتى قوى أمره وخافته البادية . ولما قربت أشهر الحج أرسل الى شريف مكة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد عشرين رجلا من قومه ليعرضوا عليه مذهبه ، وليستأذنوا له فى حج بيت الله الكريم . فأمر بالقبض عليهم وسجنهم وحكم بكفرهم ففر منهم نفر الى الدرعية مقر الوهابى وأخبروه بما حصل ، فاستمر مع قومه ممنوعين عن الحج الى سنة ١٢٠٥ . وكان فى امارة مكة الشريف غالب فاستأذنوه فى الحج فأبى فقامت لذلك الحرب بينهم . ورغماً عن موت محمد بن عبد الوهاب فى سنة ١٢٠٧ فان الحرب مازالت رحاها دائرة بينهم الى سنة ١٢١٣ ، وحصل فى أثنائها خمس عشرة واقعة كانت الحرب فيها سجالا الا فى الاخيرة التى تسمى غزوة الحرمة فقد كان فيها للوهابيين النصر المبين . وفى هذه السنة تم الصلح بين الشريف غالب وعبد العزيز بن محمد بن سعود أمير الدرعية «الذى كان يقوم بنصرة الوهابى رغبة فى اتساع ملكه حتى ضخم وكاد يستولى على أطراف جزيرة العرب تمامها» وتحددت فى هذا الصلح منطقة نفوذ كل من الطرفين ، وسمح الشريف للوهابيين بالحج فى سنة ١٢١٤ . فحج سعود بن عبد العزيز ومعه خلق كثير . ثم حج أيضاً فى عدد عظيم من قومه سنة ١٢١٥ . وفيها حدثت منافرة بين عربان الشريف وقوم سعود أدّت الى استئناف الحرب بينهما ، وحصل من جرائها بين الطرفين ثلاث عشرة موقعة استولى ابن سعود فى الأخيرة على الطائف سنة ١٢١٧ . وبعد أن تفرق الحجيج فى تلك السنة خافه الشريف غالب ففر الى جدة مع واليها شريف باشا . وصار الناس

فى مكة لا يقر لهم قرار من الخوف . فعند ذلك قام الشريف عبد المعين بن مساعد وأرسل كتابا الى سعود يطلب منه أمانا لجيران بيت الله الحرام ، على أن يطيعوه ويكون هو عاملا له على مكة . وأرسله مع وفد من أفاضل أشراف البلد الحرام وعلمائها ، فاجتمعوا بسعود فى وادى السيل (على مرحلتين من مكة) وعاهدوه على الطاعة . فكتب لهم أمانا فى ورقة صغيرة هذه صورته : « بسم الله الرحمن الرحيم من سعود بن عبد العزيز الى كافة أهل مكة والعلماء والاغوات وقاضى السلطان ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه ، انما ندعوكم لدين الله ورسوله . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . فأنتم فى وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز ، وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله ورسوله والسلام » . وأرسل هذا الامان اليهم فى يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٢١٨ . فصعد مفتى المالكية على المنبر وتلاه على رؤوس الاشهاد وقال للناس بالطاعة .

وفى اليوم الثانى دخل سعود مكة مُحرِماً ، فطاف وسعى ونحر نحو مائة من الابل ، ثم صعد الى بستان الشريف الذى فى المحصب ، وفى ثانى يوم نزل وصعد الى أعلى الصفا وخطب فى الناس وتجددت له البيعة . وفى اليوم التالى أمر بهدم القباب التى فى المعلى بما فيها قبة السيدة خديجة ، ثم هدم قبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد أبى بكر وعلى رضوان الله عليهما ، ثم أمر بمنع المؤذنين من الدعاء بعد الأذان وبعدم تكرار صلاة الجماعة فى المسجد الحرام : فكان يصلى الصبح الشافعى ، والظهر المالكى ، والعصر الحنبلى ، والمغرب الحنفى ، وكانت العشاء لجميعهم . وارتحل سعود عن مكة بعد أن أقام بها أربعة عشر يوماً ، وسار بجنوده الى جدة طالباً الشريف غالباً وحاصرها أياماً فلم يتيسر له أخذها لحصانة سورها وقوة مدافعها التى نالت من رجاله كثيراً . ثم ارتحل الى الشرق ، فعاد الشريف غالب الى مكة فى أواخر شهر ربيع الاول ودخلها ظافراً ولم يعارضه الشريف عبد المعين . وأخذت تفد اليه رؤساء القبائل لمحالفته ، واستأنف الحرب مع الوهابيين الى شهر ذى القعدة سنة ١٢٢٠ .

وفيها انعقد الصلح بينه وبينهم على دخولهم مكة لاداء مناسك الحج ثم يعودون الى بلادهم . ومع ذلك فقد كان الشريف غالب يمالئ الوهابيين اتقاء لشرهم ، ويتظاهر لهم بما يوافق مذهبهم : فكان أحيانا يأمر بهدم ما بقى من قباب الصالحين بمكة وجدة ، وأخرى ينبه باختصار المؤذنين على الاذان دون السلام ، وغير ذلك من الامور التى توافق مذهب الوهابية . وفى سنة ١٢٢١ أحرق سعود المحمل المصرى بمكة واشترط شروطا على المحمل الشامى وهو فى هديّة فلم يقبلها ورجع من غير حج ، ومن ثم انقطع المحملان عن الذهاب الى مكة . وفى هذه السنة أخذ سعود جميع الجوهرات التى فى الحجرة الشريفة النبوية بالمدينة المنورة وكانت لا تقدر بثمن ، وطرد قاضى مكة والمدينة وكانا من طرف الدولة العلية ، واستبد بأمر الحرمين الشريفين استبدادا مطلقا . فلما بلغ السلطان محمود كل هذا أرسل الى محمد على باشا بان يسير جيوشه لقتال الوهابى ، فلم يتيسر له تلبية هذا الامر فى وقته ، لانه منذ تولى على مصر فى سنة ١٢٢٠ وهو يصل الليل بالنهار فى ترتيب داخليتها وتنظيم ماليتها وتقوية حربيتها . فلما توالت عليه الأوامر السلطانية بذلك جهز أول حملة وأرسلها الى ينبع تحت امرة ولده طوسون باشا فى رمضان سنة ١٢٢٦ ، فملكوها وما بعدها الى الصفراء بلا صعوبة ، وهنالك حصلت موقعة بينهم وبين عثمان المضايفى حاكم الطائف من قبل سعود وكان معه من الوهابيين عدد لا يحصى ، فانهزم الجيش المصرى وتشتت شمله فى هذه الفعار ، وسار طوسون الى القصير وبقى فيها منتظراً أوامر والده .

وفى محرم سنة ١٢٢٧ جهز محمد على جيشا وأرسله بحرا الى ينبع وأمر طوسون باشا بالذهاب اليها للمحافظة عليها . وجهز فى شهر صفر جيشا آخر وأرسله من طريق البر تحت قيادة صالح أغا السلحدار ، ثم أخذ يوالى ارسال الجنود والذخائر برا وبحرا حتى اجتمع له فى ينبع قوة كبيرة . وكان طوسون يكاتب الشريف غالبا ويسترشد برأيه ويعمل بتدبيره ، وأرسل الى مشايخ حرب فجاءوا فأحسن استقبالهم وأهال عليهم الخلع والاموال ، فساروا فى خدمته حتى دخل المدينة المنورة فى شهر ذى القعدة وأخرج من كان فيها من الوهابيين ،

وسارت فرقة من الجنود التى فى ينبع الى جدة من طريق البحر فدخلوها من غير ممانعة . فلما علم بذلك عسكر الوهابى الذين بمكة خرجوا منها وتركوا قلاعها خاوية . ثم سارت فرقة من الجنود المصرية من جدة الى مكة ، فقابلهم الشريف غالب بالاكرام التام ، ودخلوها واحتلوا قلاعها . و بلغ ذلك عسكر الوهابى الذين بالطائف فتركوه وساروا الى الدرعية . ولما وصلت البشائر الى مصر باستيلاء العساكر المصرية على المدينة المنورة وجدة ومكة ، أمر محمد على باشا بتزيين القاهرة خمسة أيام وأرسل مبشرا الى الحضرة السلطانية بهذا الفتح المبين ، فكان لذلك يوم مشهود فى الاستانة .

وفى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٢٨ مات سعود بالدرعية وتولى مكانه ابنه عبد الله . وفى ١٤ شوال منها سار محمد على باشا من مصر قاصدا الحجاز ، فوصل الى جدة فى أواخره وكان الشريف غالب حضر لاستقباله فيها . وما استقر بها محمد على حتى أتته رسل من عند ابن سعود تطلب الصلح ، فاشترط أن يدفع له الوهابى جميع المصاريف التى صرفت على العساكر من أول الحرب الى ذلك اليوم ، وأن يأتى هولاء مضاء هذا الصلح بنفسه . وفى اليوم التالى استعرض عسكره أمام هؤلاء الرسل فأدهشتهم حركاته ونظامه . ثم سار محمد على الى مكة وفى خدمته الشريف غالب ونزل فى بيت القرطسى ، ونزل طوسون باشا فى بيت السقاف بالشامية . وكان كل من محمد على والشريف غالب على حذر من بعضهما ، فاراد محمد على أن يخلو له الجو فأمر ولده طوسون باشا بالقبض على الشريف غالب وأولاده وكان ذلك فى أواخر ذى القعدة سنة ١٢٢٨ ، ثم أرسله مع أولاده الى مصر ومنها الى سلانيك . وولّى مكانه الشريف يحيى بن سرور .

ومكث محمد على بمكة يرتب أمورها ويغزو بجنوده كل قبيلة نبذت طاعته أو نقضت عهده ، و بعد أن حج سنة ١٢٢٩ توجه بعسكره الى الطائف ، ووقع بينه و بين الوهابيين فى افتتاح سنة ١٢٣٠ جملة وقائع ملك بعدها تربة ورنية وبيشة وعسير . وكان كل جهة يملكها ينظم شؤونها و يعين عليها أميرا من عنده . ومازال ينتقل من امارة الى أخرى فى جزيرة

العرب حتى عاد الى مكة فى شهر جمادى الاولى ، فرتب بها مرتبات الى كثير من الاشراف وغيرهم على حسب ما تقضى به المصلحة العامة ، وهى باقية لاولادهم الى الآن . ثم رجع الى مصر بعد أن عين حسين باشا الارناءوطى والياً على مكة ، وأقام ابنه طوسون باشا قومندانا عاما على القوة العسكرية التى بالحجاز .

وفى شهر شعبان من هذه السنة عقد طوسون باشا صلحاً بينه و بين عبد الله بن سعود على أن يتركا الحرب و يحقنا الدماء وأن يذعن الوهابى لحكومة الحجاز . وأرسل ابن سعود وفدا من علية قومه الى طوسون ليؤكد والده هذا العهد ، فبعث بهم الى والده بمصر فلم يرق فى عينه هذا الصلح . واستمر طوسون باشا فى الحجاز الى ذى القعدة ، ثم رجع الى مصر بأمر من أبيه فوصلها فى شهر ذى الحجة ، وعملت له فيها زينة كبيرة . وكان ولد له فى غيبته ولده عباس باشا الاول . ومازال بمصر حتى توفى سنة ١٢٣١ بالطاعون وعمره نحو عشرين سنة .

وفى محرم سنة ١٢٣٢ أرسل محمد على ولده ابراهيم باشا الى الحجاز لمحو أثر الوهابيين . فسار فى عسكر كثيف الى مكة ومنها قصد الدرعية . ولما وصل الى مكان يقال له مرنان وقع بينه و بين الوهابيين قتال شديد انتصر فيه عليهم ، واستولى بعد ذلك على مدينة الشمراء ، ثم سار الى الدرعية فحاصر فيها عبد الله بن سعود واستولى عليها فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣ بعد قتال شديد ، وقبض على عبد الله بن سعود أمير الوهابيين وعلى كثير من بنيه وأهليه وذويه ، و بعد ان جعل عالى مدينتهم سافلها سيرهم الى مصر . فلما أتت البشائر الى محمد على زين القاهرة زينة كبرى وأمر باطلاق ألف مدفع . ووصل ابن سعود ومن معه الى القاهرة فى أوائل شهر المحرم سنة ١٢٣٤ ، فدخلوها فى موكب عظيم ، وقابل محمد على ابن سعود ثانى يوم فى سرايه بشبرا بصدر رحب ، وقدم اليه الوهابى صندوقا صغيرا فيه ما تبقى عنده من الجواهر التى أخذها أبوه من الحجرة الشريفة النبوية : ومن ذلك ثلاثة مصاحف مكللة بالجواهر الثمينة ، و ثلثمائة حبة كبيرة من اللؤلؤ ، وقطعة كبيرة من الزمرد . ثم أرسل عبد الله بن سعود الى الاستانة فصلبوه على باب همايون . وفى هذه السنة حج ابراهيم باشا وعاد الى مصر فعملت له فيها زينة كبيرة مدة سبعة أيام ، ومن ثم صارت بلاد الحجاز من أدناها الى أقصاها خاضعة لحكم محمد على .

اما ما كان من أمر آل سعود فانهم اجمعوا أمرهم لاسترجاع نجد الى حكمهم بعد ان هدم ابراهيم باشا دار ملكهم فتم لهم ذلك . وكان الأمير عليهم فيصل بن تركي ابن عم عبد الله بن سعود ، فلما استفحل ملكه خافه محمد علي وسير اليه خورشيد باشا سنة ١٢٥٣ ، فاستولى على الدرعية بعد جملة وقائع بينه و بين الوهابيين ، وقبض على فيصل في سنة ١٢٥٤ وأرسله الى مصر ومعه كثير من آل سعود . وولّى الامارة بعده خالد بن سعود ، فثار عليه عبد الله ابن ثنيان وانتزعها من يده . فبلغ ذلك فيصلا بمصر وهو سجين بالقلعة : وكانت له صلة بعباس باشا الاول ، فشكا اليه ما يلقاه من تغلب ابن ثنيان على بلاده و وعده ان هو خلصه من سجنه وصار له الحكم في قومه يصير من رجاله ومن رجال محمد علي . فساعده عباس باشا على الهرب . فسار فيصل حتى نزل على ابن الرشيد أمير شمّر ، فاكرم وفادته وسير معه بعض رجاله الى ابن ثنيان . وبلغ ذلك قومه فبادر اليه كثير منهم وساروا معه الى القصيم فحاصرها وأخذ ابن ثنيان أسيرا ومازال في سجنه حتى مات ، وتم لفيصل استيلاؤه على نجد سنة ١٢٥٨ واستقامت له الامور فيها الى أن توفي سنة ١٢٨٢ ، وله من البنين (عبد الله . وسعود . ومحمد . وعبد الرحمن) . فاستولى عبد الله بن فيصل على الامارة ، فوقع خلاف بينه و بين أخيه سعود الذي فر الى البحرين فساعده أميرها وخرج في قبائل العجمان وسار الى نجد ، والتقى برجال أخيه عبد الله وعليهم أخوه محمد بن فيصل ، فحصلت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الفريقين ، وكانت الغلبة لسعود بن فيصل ففر عبد الله أخوه الى العربان وجمع له جموعا والتقى بجيش أخيه سعود الذي كانت له الغلبة عليه أيضا . فقصد عبد الله أطراف نجد يستنجد قبائلها فلم يحصل على طائل ، ومن ثم توطدت قدم سعود في الامارة وأخذ يرتكب كثيراً من المظالم ، ولكن مدته لم تطل أكثر من سنة حتى عصت عليه قبائل نجد ، وتكدرت عليه أيامه ومات حتف أنفه . وتولى الامارة بعده ولداه محمد وعبد العزيز ، فاستجمع عبد الله ابن فيصل قوة واستولى على الرياض عاصمة الامارة . وفر محمد وعبد العزيز الى مدينة الخرج القريبة من الرياض ، وحصلت بينهما و بين عمهما امنا وشاتا انتهت بهدنة بين الطرفين . ثم حصلت بينهما وقائع كانت الغلبة فيها لعمهما عبد الله . وفي هذه الاثناء كانت امارة الرشيد

تتقوى بانقسام الكلمة بين آل سعود ، حتى علا أمره . فطمع فى امارة نجد وتحرك لغزوة ابن فيصل من الحائل وحصره فى الرياض مدة انتهت باستيلائه عليها وأسر عبد الله بن فيصل وأتى به الى الحائل معززا مكرما فاقام فيها نحو سنة ثم طلب الرجوع الى الرياض ، وبعد وصوله اليها توفى فيها . وكان ولدا أخيه سعود (محمد وعبد العزيز) فى الخرج . وكان ابن الرشيد غير مستريح منهما فترقب الفرص فيهما حتى قتلهما واستولى على نجد . اما الرياض فكان فيها ولدا فيصل محمد وعبد الرحمن وكان لهما الأمر فى بلدهم خاصة وتوفى محمد واستقل بالامر عبد الرحمن . وكانت بلاد القصيم بعد زوال حكم آل سعود مستقلة بيد أميريها حسن بن مهنا و رامل بن سليم فحصل بينهما و بين ابن الرشيد خلاف وقع بسببه حرب كانت الغلبة فيه لابن الرشيد وكان عبد الرحمن بن فيصل قد سار لمساعدة أهل القصيم فلما حصل الظفر لابن الرشيد واستولى على القصيم التجأ عبد الرحمن بن فيصل الى الكويت وهى فى امارة ابن صباح واستجمع له قوة التقى بها ابن الرشيد ، فظهر عليه ابن الرشيد وبذلك صار له الحكم فى كل نجد . وأقام عبد الرحمن فى الكويت ورتبت له الدولة العثمانية مرتبا يصله من البصرة حتى مات ، وله من البنين عبد العزيز ومحمد وسعد .

وكانت حصلت فتنة بين مبارك بن صباح وأخوته فقتلهم ففرت أولادهم مع خالهم يوسف ابن ابراهيم الى البصرة . واستغاثوا بالدولة العثمانية فلم تلتفت اليهم . فاستنجدوا بأمير نجد عبد العزيز بن الرشيد فكتب عبد العزيز الى الحكومة العثمانية بان ترخص له بالزحف على الكويت والاستيلاء عليها مدعيا ان ابن صباح قصد الاستنجاد بالانكليز وتسليم الكويت اليهم . وقصد بذلك اغراء الحكومة العثمانية به وابدائها عليه . فقبلت الحكومة كلامه وامدته برجالها وحصل بينه و بين ابن صباح واقعة كبيرة كان النصر فيها لابن الرشيد . فابلغ انتصاره الى الحكومة العثمانية وأخبرها انه قتل ابن صباح « وكان خبره غير صحيح » وطلب منها أن يستولى على الكويت . فجهزت العسكر لذلك من البصرة ، وعندها طلب ابن صباح ان تكف الحكومة عداءها عنه وتدع الطرفين لبعضهما . فلم تلتفت الدولة الى ذلك فقام عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل من الكويت بجيشه ، وهجم على عامل ابن الرشيد

فى الرياض ففتله واستولى عليها وحصنها بسور متين، ثم حصلت بينه وبين ابن الرشيد وقائع كثيرة كانت تارة له وأخرى عليه، واستولى بعدها على أغلب بلاد نجد الا الحائل وجبال شمر فانها بقيت فى يد ابن الرشيد الى الان .

وهنا يحمل بنا أن نذكر كلمة عن اسرة الرشيد لتتم بها الفائدة فنقول :

كان عبد الله بن الرشيد أميرا على شمر وكان له ثلاثة بنين وهم طلال ، ومتعب ، ومحمد . فلما مات تولى بعده ولده متعب، فقتله بندر وبدر ولدا أخيه طلال واستوليا على الامارة، فقتلهما عمهما محمد واستولى عليها : وكان رجلا عاقلا كريما سارت الركبان بسيرته وتحدثت الناس بنباهته خصوصا بعد ان انتهى حرب الوهابية وأسر عبد الله بن سعود وتشتت آله وذووه . لذلك أخذت سلطة محمد بن الرشيد تمتد فى اطراف نجد خصوصا بعد ان اشتعلت نار الشحناء بين بنى فيصل بن تركى . ومات محمد بن الرشيد ولم يعقب ولدا فتولى الامارة عبد العزيز ابن أخيه متعب، فقتله سلطان وسعود ولدا حمود بن الرشيد واستوليا على الامارة معا، ثم وقع بعد ذلك خلاف بينهما فقتل سعود أخاه سلطانا وانفرد بالولاية .

وكان لعبد العزيز بن متعب ولد صغير اسمه سعود هرب به خاله السبهان بعد قتل أبيه الى المدينة، وأقاما بها مدة طويلة ثم سارا منها بجيش كبير بتواطؤ مع قبائل شمر، وهجموا على سعود بن حمود فى الحائل وقتلوه واستولى سعود بن عبد العزيز بن متعب على امارة شمر ولا يزال فيها الى الآن .

الحرم المكى

كان الحرم المكى فى مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن ، وهى حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام . فلما كثر سواد المسلمين زاد فيه عمر وعثمان شيئاً مما اشترياه من الدور التى كانت حوله، وزاد فيه عبد الله بن الزبير عندما بنى الكعبة وأقام ما كان تهدم منه . وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمره عمارة تذكر فتشكر ، وهو

أوّل من نقل اليه أساطين الرخام: واهتمام الوليد بالعمارات لا ينكر، يعرفه من شاهد قبة الصخرة بالقدس الشريف ورأى ما بقي فيهما من آثار الموزاييك الذهبية وغيرها من أعمال القيشانى التى تدهش العقل ويحار فيها الفكر . ويوجد فى المسجد الاموى بدمشق الى الآن شئ من أثر عمارته لم تصل اليه يد الحريق، وبه أعمال موزاييك ذهبية بديعة جداً على حائطى الصحن الجنوبى والغربى .

ولما حج الخليفة محمد المهدى سنة مائة وستين رأى أن البيت ليس فى وسط المسجد فاشترى كثيراً من البيوت خصوصاً فى الجهة الشرقية القبلية وزادها فى المسجد، وأدخل اليه كثيراً من الارورارات التى كانت فيه وكانت فى ملكية الغير، ثم أتى من بعده ابنه الهادى فأكمل ما نقص فى مدة والده .

وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية، وكان ينزل بها الخلفاء والامراء فى حجهم فى صدر الاسلام، ولكنها أهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث الهجرى فأخذ يتهدم بناؤها، فكتب فى ذلك الى الخليفة المعتضد العباسى فأمر بها فهدمت فى سنة إحدى وثمانين ومائتين وجعلت مسجداً وفيها قبلة الى الكعبة، ثم جعلوا لها قبة عالية، ثم غير شكلها فيما بعد الى شكل آخر، واستمر مقاما يصلى فيه الامام الحنفى الى أن أتى الامير كلدى أمير جدة فى سنة ٩٤٧ فهدمها، وبنى المقام مربعاً ذا طبقتين: الاولى للامام والمصلين، والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على هذا الشكل الى الآن .

وفى سنة ٨٠٢ احترق الرواق الشرقى، فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه، ووضع بدل الاعمدة الرخام التى احترقت أعمدة من الحجر الشميسى . ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر، وحسبك العمارة التى قام بها السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٦ .

وفى سنة ٩٧٩، مال الرواق الشرقى من الحرم ميلاً محسوساً فأمر السلطان سليم الثانى بأن يرسل المعماريون والمهندسون والصناع من جميع الاصقاع لعمارته، فأزالوا سقفه

جميعه وأساطينه كلها وهدموا محيطه وبنوه على التربيع الحالى، وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع ، و بنوا عليها قبابا بدل السقوف التى كانت تطحنها يد الرطوبة المتخلفة من الامطار، مع ما كان يكثر فيها من الحيوانات التى اشتهرت بعداوتها للأخشاب كالارضة والسوس وغيرهما من الحشرات المضرة . وفى أثناء هذه العمارة مات السلطان، وكان الذى انتهى منها الجانب الشرقى والشمالى فقط ، أعنى من باب علىّ الى باب العمرة . ولما تولى السلطان مرادخان أمر بتتميم العمارة على الوجه الذى كان قد أمر به والده ، فتمت على أحسن حال بالشكل الذى تراه الآن . وليس لمن بعده من السلاطين بهذا الحرم الا عمارات ترميمية أو تكميلية .

و فى هذه العماره نزل العمال بأرضية الشارع الموصل الى المسفلة، بحيث صار يصرف ما عساه يدخل الى الحرم من مياه السيول التى كثيراً ما كانت سبباً فى بعض أركانه وهدم بنيانه . وكانت الزيادات التى تتخلف من الدور التى دخلت فى توسيع الحرم الشريف فى كل عماراته يبنى بعضها مدارس و بعضها أروقة يسكن فيها فقراء طلبة العلم فى المسجد ، وكان لها أوقاف جمة ، ولكن كثيراً ما تغيرت أوقافها واستبدلت بغيرها أو خرجت من يد واقف الى يد غيره أقوى منه، ومن ذلك مدرسة قايتباى التى لا تزال للآن على يسار الداخل من باب السلام ، فانها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها ، ضعفت أوقافها شيئاً فشيئاً ، فجعلوها من دار علم الى دار ضيافة كان ينزل اليها أمراء الحاج المصرى ، ثم صار يسكنها بعض أشراف ذوى غالب وهى فى أيديهم الى الآن . ولا يزال المحملان المصرى والشامى يوضعان أيام وجودهما بمكة لصق حائطها الذى من داخل الحرم ، و بجوارهما من الخدم ما يقوم بحراستهما . وعلى يمين باب السلام مدرسة يقال لها المدرسة السليمانية بها كتبخانه تقدم الكلام عليها فى مكة .

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) و فى وسطه (يميل الى الزاوية الجنوبية) الكعبة المكرمة . وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم وهو الذى فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون متراً، وطول الذى يقابله وهو الذى فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا ،

وضلعه الذي فيه باب السلام مائة متر وثمانية ، والذي يقابله وهو الذي فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار : فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفاً وتسعمائة واثنين من الامتار المربعة ، وهو مايزيد عن أربعة افدنة وربع . أما من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون متراً ، وعرضه مائة واثنان وثلاثون متراً (وهذا حسب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أميرا الحاج المصري) . ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمائة وأحد عشر عموداً ، يتخللها مائتان وأربع وأربعون اسطوانة من الحجر الشميسي الاحمر ، تقوم عليها قباب على محيط المسجد . وعلى بعض هذه العمد كتابة محفورة فيها ، تدل على ما كان لبعض الملوك من العمارة في المسجد أو من الاعمال التي فيها نفع للمسلمين كإبطال المكوس ونحو ذلك : ومن هذه الاعمدة عمود بقرب باب الحزْوَرة لا يزال منقوشاً عليه عهد كتبه الاشرف شعبان سلطان مصر بابطال المكوس التي كانت تأخذها أشراف مكة على الحجيج . وأغلب هذه العمد مطليّ بالجبس : لأن بعض أمراء مكة سامحهم الله كانوا اذا أرادوا محض العهود المحفورة عليها ، عمدوا الى تلك النقوش وكسوها بعجينة من الجبس فلا يظهر لها أثر .

وأبواب الحرم ثمانية في الجهة الشمالية : وهي باب الدريبة ، وباب المدرسة ، وباب المحكمة وباب الزيادة[١] ، وبجواره الى الغرب باب القطبي[٢] ، وباب الباسطية[٣] ، وباب الزمامية ، ثم باب عمرو بن العاص[٤] . ويليه من الجانب الغربي ثلاثة أولها باب العمرة[٥] وباب ابراهيم[٦] ، ثم باب الحزورة[٧] . ويليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب : أولها باب أم هانئ[٨] ، وباب العجلة[٩] ، (ويسمونه باب التكية) ، وباب الرحمة (أو المجاهدية) ،

(١) لان هذه الجهة زادت في المسجد في عمارته الاخيرة . (٢) نسبة الى القطبي صاحب تاريخ مكة وكانت له به مدرسة يقيم فيها . (٣) لانه مجاور لمدرسة عبد الباسط . (٤) وكان يسمى الباب العتيق وباب السدة . (٥) لانهم يخرجون منه الى العمرة ويقال له باب بني سهم . (٦) وهو نسبة الى رجل خياط كان يسكن بجواره . (٧) وكان يسمى باب بني الحكم ، والحزورة اسم لسوق في الجاهلية كانت في هذا المكان ودخلت في الحرم عند توسعته . ويسمونه باب الوداع لان الناس يخرجون منه عند سفرهم .
(٨) وهي زوجة هبيرة بن عمرو المخزومي ولانها كان لها بيت هناك أدخل في الحرم .
(٩) وكان يقال له باب بني تيم .

وباب أجياد أو (السنبلة)، وباب الصفا، وباب بني مخزوم، ثم باب بازان[١]. ويلي ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب: وهي باب بني هاشم (أو باب علي)، وباب العباس[٢] (أو باب الجنائز)، وباب النبي[٣]، ثم باب السلام[٤] وهو الذي يدخل الحاج منه الى الحرم عند طواف القدوم. ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون باباً، ولكن منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثين مدخلا.

وفي رحبة باب ابراهيم تجد آلافا من فقراء حجاج الدكارنة والهنود والمغاربة وفيهم كثير من المقعدين[٥] الذين لا يقدرون على الحركة، فيمضون هناك أيامهم عائشين من حسنة أرباب الخير، وربما كان منهم بالمسجد ما تلجئهم الضرورة اليه مما لا يصح التوسع في شرحه!! وهذا أمر لا يليق بكرامة حرم الله! فهل لحكومة الحجاز أن تفكر في أمر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دارضيافة يأوون اليها ولو في مدة الموسم، وعسى أن ديوان الاوقاف بمصر أو الاستانة يتدارك ما أهملته حكومة الحجاز فيكون له الثواب الجزيل.

وفي المسجد ست منارات: الاولى منارة باب العمرة وهي من أعمال الخليفة المنصور العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين، ومنارة باب السلام، ومنارة باب علي، ومنارة الحزورة وهي من أعمال المهدي العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثمانية وستين،

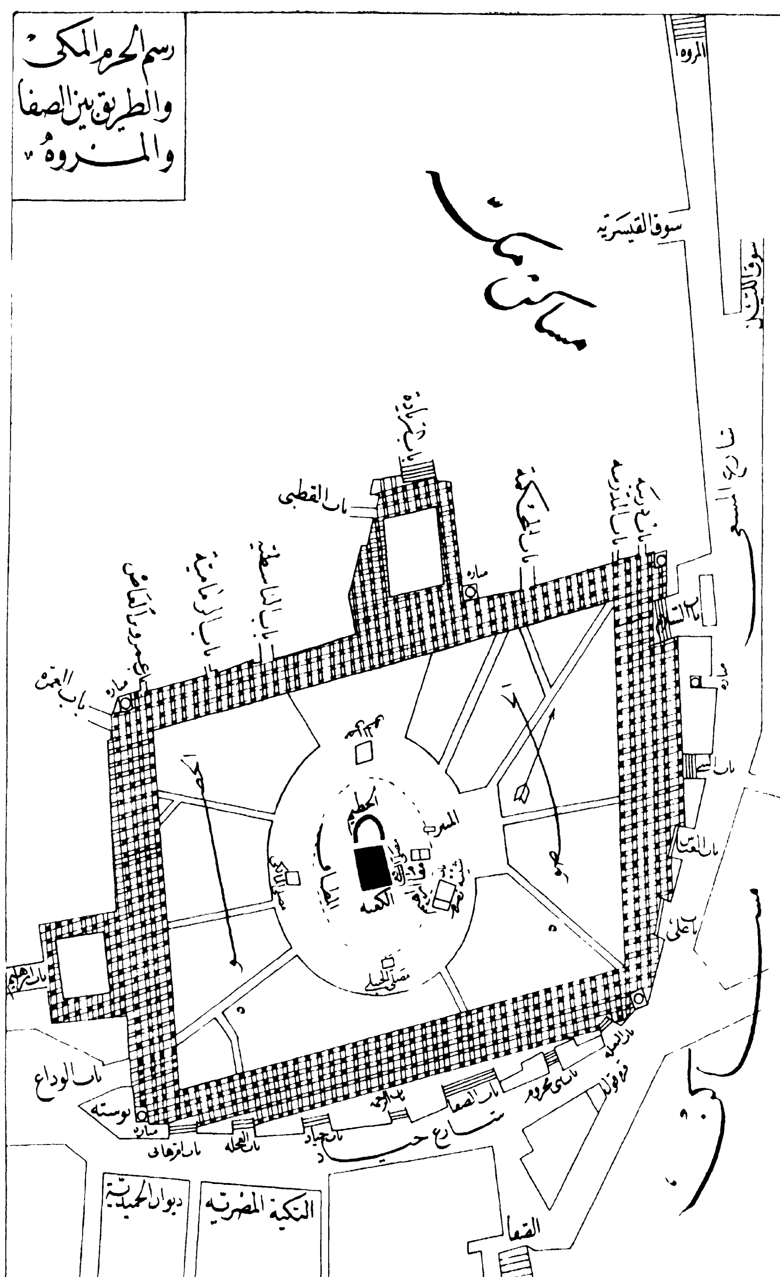
(١) لقربه من سقاية بازان ويسمونه باب العلة.

(٢) لانه مقابل لدار العباس وسمي باب الجنائز لانها تخرج منه الى المعلى.

(٣) لانه كان صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد منه لقربه من دار خديجة.

(٤) وكان يسمى في الجاهلية باب بني عبد شمس ويعرف الآن بباب بني شيبة. وسمي باب السلام لدخول الناس منه عند طواف القدوم الذي هو تحية المسجد الحرام.

(٥) أغلب هؤلاء المقعدين من عبيد أهل مكة الذين اذا وصلوا الى الشيخوخة أو اعترتهم عاهة تقعد بهم عن العمل طردهم سادتهم تخلصاً منهم، فيلجئون الى بيت الله الحرام ويعيشون من لقيمات أهل الخير حتى يتولاهم الله باحدى الحسنيين: فمن كانت القاضية فقد أراحهم الله من دنياهم، وان كانت العافية استردهم سادتهم الى خدمتهم!! ولابد لحكومة الحجاز من ان ترى رأيها في هؤلاء التعساء فتجعل لهم ملجأ يأوون اليه خدمة للانسانية. وبهذه المناسبة نقول لك ان أهل مكة يعملون مثل ذلك في حمرهم أو خيلهم التي يقعد بها كبر السن أو المرض: فيتركونها في شوارع مكة تلتمس القمامة من طرقها وما يصح منها أخذه أصحابه لاستعماله في خدمتهم مرة أخرى!!

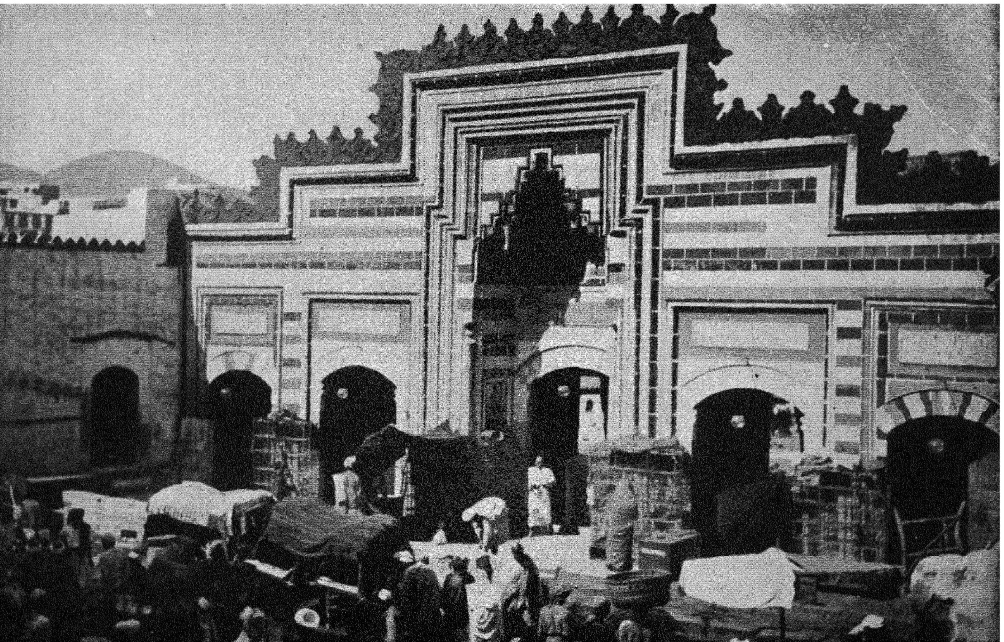


BOEHME & ANDERER CAIRO

ومنارة باب الزيادة وهى من أعمال المعتضد العباسى سنة مائتين وأربع وثمانين، ومنارة السلطان قايتباى . وقد حصلت فى جميعها ترميمات وزيادات فى مدة العمارة التى قام بها السلطان سليم الثانى فى المسجد ، وكلها باقية للآن يؤذن عليها فى الاوقات الخمس . وشيخ المؤذنين أو الميقاتى يؤذن على قبة زمزم، وفيها مزولة مثبتة فى حائطها الجنوبى، من عمل رجل من مراكش أهداها الى الحرم، وهى غاية فى الضبط والاحكام وعليها ميقاتهم فى النهار . فاذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالاذان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يحركها الهواء على طبلة الاذن فتحدث لها اهتزازات فى القلب يمتلئ منها خشية ورهبة وخشوعا وخضوعا .

وعلى حدود المطاف تلقاء كل ضلع من أضلاع البيت، سقيفة قائمة على أعمدة من الرخام: فالشمالية منها مصلى الامام الحنفى ، والغربية للامام المالكى، والجنوبية للامام الحنبلى ، أما الامام الشافعى فيصلى فى مقام ابراهيم أو فى المطاف مما يلى الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره . والحنفى يبتدئ بالصلاه فى جميع الاوقات ويتلوه المالكى ثم الشافعى ثم الحنبلى، الا صلاه الصبح فيبدأ بها الشافعى ويتأخر بها عنهم الحنفى . ومما يلاحظ فى الحرم ان أهل كل جهة من العالم الاسلامى يجلسون عادة فى الجهة التى يستقبلون فيها الكعبة فى بلادهم: فالاعجام تجدهم عند باب السلام ، والشوام والاتراك بينه وبين باب الزيادة، والمصريون وراء المقام المالكى، واليمانيون والجاوه والهنود وراء المقام الحنبلى . ومن أغرب ما شاهدت ان بعض المصريين يستعمل هناك البوصلة التى عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهه مخصوصة ، ولا يمكن أن تؤدى وظيفتها الا فى البلاد التى على اتجاه مصر من الكعبة ، أما اذا وضعت مثلا فى طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فانها لا تؤدى وظيفتها بالمرة ، فليفهم ذلك من يجهله .

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه ممشات محجوره، وما بينها أرض بها زلط دون القوله يسمونها الحصباء، وأول من حصب أرضية الحرم عمر رضى الله عنه . والكعبة فى وسط صحن المسجد بميل الى الجنوب ويليها من الشرق مقام ابراهيم . وفى جنوبه الشرقى قبة زمزم التى بناها



باب الصفا بالحرم المكي

أبو جعفر المنصور فى سنة مائة وخمسة وأربعين وفرش أرضها بالرخام، وعمقها المأمون ، أما الشبكة التى على فوهتها فقد أمر بعملها السلطان أحمد العثمانى . وشرقى زمزم الى الشمال باب شيبة، وهو باكية كبيرة قامت وسط الحرم فى حدود المطاف، على عمودين من البناء المكسو بالرخام، فى المكان الذى كان به باب المسجد فى مدته صلى الله عليه وسلم . وفى شمال المقام المنبر، وهو من الرخام غاية فى حسن الصناعة اهداه الى الحرم السلطان سليمان القانونى ، ومكتوب على بابه بالخط الذهبي الجميل (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) . وأول من وضع المنبر فى المسجد الحرام معاوية بن أبى سفيان حين قدومه الى مكة حاجا . وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو فى الحِجْر ، ثم أُهدى اليه سنة مائة وسبعين منبر من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج الرشيد الذى خطب الناس عليه فى حجه فى السنة المذكورة . وفى خلافة الواثق أمر فعمل له ثلاثة منابر: واحد وضع فى الحرم، والثانى فى عرفة، والثالث فى منى ، وخطب فى حجه عليها جميعها . وقد كان الخطباء اذا أرادوا الخطبة فى الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الركن الاسود والركن اليمانى، فاذا أراد الخطيب ان يخطب استلم الحَجَر أولا ثم دعا وصعد المنبر . وبعد الخطبة كان ينقل المنبر الى مكانه بجوار زمزم ، فلما أهدى السلطان سليمان اليه منبره الرخامى بقى مكانه واستمرت فيه الخطبة الى اليوم . وفى حوائط المسجد الحرام من الداخل أبواب بعضها منافذ لبعض المدارس على الحرم، وبعضها مخازن فى يد خدمة المسجد أو الزمازمة، وهؤلاء يستعملونها أحيانا للاستحمام كبراء الحجاج فيها بماء زمزم أو وضوئهم منها .

وبالجملة فشكل (١) الحرم المكى على بساطته فى بنائه فخم جدا ، ووضعه صحي ،

(١) ومما نراه على شكله تقريباً جامع عمرو بمصر القديمة ، ومسجد أحمد بن طولون بالقاهرة وان كان فى مساحته أكبر من الحرم: ويقال أن هذا المسجد بني تماما على شكل مسجد فى مدينة سر من رأى ، وهي بلدة كانت تمتد عن بغداد بنحو ثلاثين ميلا، وكان اسمها أولا سامرا فكبرها المعتصم بالعمارة وبنى له فيها قصراً جميلا وسماها سر من رأي . وفى وسط صحن مسجد ابن طولون قبة عالية تحتها ميضاة وضعت على شكل مربع تقريب وضع بيت الله المعظم من المسجد الحرام وتسميها العامة بالكعبة ، وبجوار هذه القبة من جهة القبلة ميدة (بفتح الأول وسكون الثاني) من الخشب يزعمون أنها من سفينة نوح ولكنهم سامحهم الله اذا كانوا وضعوا ذلك اكباراً لشأن هذه الكعبة المزورة فهل يمكنهم أن يرشدونا عن الزمان والمكان اللذين عثروا فيهما على آثار أول سفينة فى العالم ؟

وصحنه الكبير يؤدي بلا شك للمدينة وظيفة الميادين الكبرى ، كما سبق لك بيانه في الكلام على مكة .

وشيخ الحرم هو الوالي عادة . وللحرم الشريف نائب ، وقائمقام للنائب ، ومدير يقوم بشؤونه . وعدد خدمة الحرم الشريف ٧٠٠ نفس : منهم ١٢٢ خطباء وأئمة للمذاهب الاربعة . و ١٠٧ مدرسون . و ٤٥ مؤذنون . و ١٠٠ مشدون . و ١٢ فراشون . و ٨ وقادون و ٢٠ كناسون . و ٣٠ بوابون . و ١١ جبادون (ملاءون) من بئر زمزم . و ١٠٨ غسالون لقناديل الحرم . وهناك وظائف أخرى أخصها وظائف الاغوات وعددهم ٥١ وهم يقومون بخدامات مختلفة في الحرم ، وأول من رتب الاغاوات في الحرم المكي للخدمة فيه هو الخليفة أبو جعفر المنصور . أما الذين يقومون بخدمة الكعبة المكرمة فهم سدنتها من بني شيبة . والخدمة في الحرم وراثية غالباً ما عدا شيخه ومديره فانهما يعينان من طرف السلطنة العظمى ، ووظيفة الاول تكاد تكون سياسية أكثر منها ادارية . والخدمة في الحرمين الشريفين محترمة جداً ويتشرف بالنسبة اليها الخلفاء والسلاطين من زمن بعيد الى الآن . ويوجد ضمن رتب الدولة العلية العالية رتبة مخصوصة اسمها «خادم الحرمين» .

الكعبة المعظمة

كان الله تعالى يرسل رسله الى خلقه في ظروف مخصوصة ليعلموهم واجباتهم في دينهم ودنياهم ويرشدوهم الى طريق الخير الذي به تتم السعادة الحقيقية . فاذا مضت على ذلك فترة من الزمن خبط الناس في سيرهم وخلطوا بين عمل صالح وآخر سيء ، حتى اذا تغلب عليهم عامل الفساد بطبيعة الحال ساء أمرهم ونسوا رسالة ربهم اليهم وضلوا ضلالاً مبيناً . ولما كان من طبيعة الوجود ضرورة وجود خالق قوي قادر ، صار كل انسان يتخذ له معبوداً على ما يتجسم في ضميره ويتعاظم في وجدانه : فكان هذا يعبد النار لزعمه انها القادرة على كل شيء . وذلك يعبد الشمس لان بها نظام العالم ، وآخر يعبد الاحجار لانها هيولى هذا الوجود : وهؤلاء الاخيرون

هم الوثنيون الذين كان منهم سواد العالم خصوصاً فى الفترة التى بين نوح وابراهيم ، بعد ان تفرقت الناس وتبلبلت الالسن وتغايرت طبائعهم باختلاف مواطنهم . وهذه الفترة على ماورد فى الطبرى ألف وتسع وتسعون سنة .

وكان الكلدانيون فى جنوب بابل فى نقطة متوسطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فأرسل الله تعالى منهم ابراهيم فوجدهم يعبدون النجوم والاوثان وكان أبوه يصنعها لهم فعاتبه على ذلك : قال الله تعالى مخبراً عنه « واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين »

وترك ابراهيم قومه وهاجر الى مدين ، وهناك أمره الله تعالى بالهجرة بولده اسماعيل وأمه هاجر الى بلاد العرب . فاقاموا بمكة حتى اذا كثر عمرانها أمره الله أن يبنى له بيتاً . وكان أول بيت وضع للناس يعبدون فيه ربهم عبادة صحيحة : قال تعالى « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . وهذا البيت هو الكعبة المكرمة التى بناها ابراهيم على شكل مربع ، زواياه الى الجهات الاربع ، حتى تتكسر عليها تيارات الهواء لكيلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها ، وهذه هى بعينها القاعدة التى بنيت عليها أهرام مصر وصارت محل اعجاب علماء العمارة الى الآن .

ومازالت الكعبة على بناء ابراهيم حتى بنتها العماليق ثم جرهم [1] كما ذكر الازرقى بالسند عن على أمير المؤمنين وعبد الله بن العباس رضى الله عنهما .

ولما آل أمر البيت الى قصى بن كلاب فى القرن الثانى قبل الهجرة هدمها و بناها فاحكم بناءها وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل . و بنى الى جانبها دار الندوة وهى أول بناء بعد الكعبة فى مكة : وكان بها حكومته ومحل الشورى مع صحابته ، وكان لا يتم لهم أمر من الامور السياسية والاجتماعية الا فيها . ثم قسم جهات البيت المعظم بين طوائف قريش ، فبنوا دورهم على المطاف حول الكعبة وفتحوا عليه أبوابها . وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنين هدم السيل الكعبة ، فاجمعت قريش أمرها واقتسمت القبائل بناءها ، وكان الذى يبنيها لهم باقوم الرومى بمساعدة نجار مصرى . فلما انتهوا الى وضع الحجر الاسود اختلفوا

(١) وهذا خلاف لمن قال بأن جرهم بنتها قبل العمالقة .

فى أى القبائل تختص بشرف وضعه فى محله ، وكاد يفضى الامر الى اشهار السلاح فيما بينهم . وكان صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وعمره اذ ذاك خمس وثلاثون سنة ، وكان له فيهم شأن عظيم لحسن سيرته وكمال اخلاقه ، وكانوا يسمونه بالامين ، فارتضوه حكماً . فطلب رداء ووضع فيه الحَجَر وأمر القبائل فامسكت بأطرافه ، و رفعوه بالحجر حتى اذا وصل الى مكانه من البناء فى الركن الشرقى وضعه فيه بيده الشريفة : و بهذه الفكرة السامية والسياسة الرشيدة انتهت الشحناء من بين القبائل ، وهم له شاكرون و بشدة ذكائه متحدثون . وكانت النفقة قد قصرت بهم فبنوا الكعبة على ما هى عليه الآن . وكان الحِجْر أولا داخلا فيها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضى الله عنها : « لولا ان قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ، ولجعلت لها بابا شرقياً و بابا غربياً ، و زدت فيها ستة أذرع من الحِجْر فان قريشا استقصرتها حينما بنت الكعبة » . فلما ولىَ عبد الله بن الزبير أمر مكة ، سيّر يزيد بن معاوية اليه الحصين بن نمير فى عسكر كثيف . فالتجأ ابن الزبير الى المسجد الحرام ، فضربه الحصين بالمنجنيقات فاصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها واحرقت كسوتها مع بعض اخشابها ، حتى اذا بلغه هلاك يزيد رجع بمن معه عن مكة . ثم رأى ابن الزبير ان يهدم الكعبة و يبنيها على قواعد ابراهيم مستندا على حديث عائشة السابق ذكره . فهدم الكعبة وأتى لها من اليمن بالجص النقى فبناها به ، وادخل الحِجْر فى البيت ، والصق الباب بالارض وجعل قبالته الى الغرب بابا آخر ليخرج الناس منه ، وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعا . ولما فرغ من بنائها طيبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا من أعلاها الى أسفلها وكساها بالديباج . وكان انتهاؤه من عملية هذا البناء فى ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان سيّر الحجاج بن يوسف الثقفى الى ابن الزبير فحاصره فى مكة ، و رماه بالمنجنيق حتى استشهد رضى الله عنه فى سنة ٧٣ . ودخل الحجاج مكة وكتب الى عبد الملك بما جدده ابن الزبير فى الكعبة ، فولاه عليها وأمره أن يعيدها كما كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهدم الحجاج من جانبها الشامى (الشمالى) قدر ستة أذرع وشبر ، و بنى ذلك الجدار على أساس قريش ، و رفع الباب الشرقى وسد الغربى ولم يغير من

باقيها شيأ ، ثم كبس أرضها بالحجارة التي فصلت عنها .

وعليه فالكعبة الآن على بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقى والجنوبى والغربى ، وبناء الحجاج من جانبها الشمالى . ولم يطرأ عليها بعد ذلك الا العمارة التي تغير فيها سقفها فى زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ ، ثم العمارة الترميمية التي حصلت فى زمن السلطان أحمد سنة ١٠٢١ وتاريخها محفور فى قطعة من الرخام مثبتة فى الشاذروان على يمين المعجن وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر بعمارة سقف البيت الشريف وتجديد ميزاب الرحمة وتقوية جدار بيت الله الحرام السلطان أحمد فى شهر محرم سنة ١٠٢١ » . ثم اعقبتها العمارة التي قام بها السلطان مراد الرابع على اثر السيل الهائل الذى حصل فى سنة ١٠٣٩ ووصل ارتفاعه الى مترين فوق أرضيتها ، فهدم من حوائطها الشمالى والغربى والشرقى ، أما ما عمر فيها بعد ذلك فشىء لا يذكر .

شكل الكعبة

الكعبة الآن من الخارج على التعديل الذى رجع اليه الحجاج ، وهو ما كانت عليه مدة النبى صلى الله عليه وسلم ، ذات شكل مربع تقريباً ، مبنى بالحجارة الزرقاء الصلبة . ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترا . وطول ضلعها الذى فيه الميزاب والذى قبالته عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات ، . وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنا عشر مترا . وبابها على ارتفاع مترين من الارض ، ويصعد اليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر . والمدرج الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه الى الكعبة أحد أمراء الهند ، ولا يوضع فى مكانه منها الا اذا افتتح بابها للزائرين فى الاحتفالات الكبرى : وهى غالباً لا تزيد عن خمس عشرة مرة فى السنة . وفيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار قبة زمزم من جهة باب شيبة ، ويصعدون اليها

بسلم صغير من الخشب . و في الركن الذى على يسار باب الكعبة الحَجَر الاسود على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرضية المطاف .

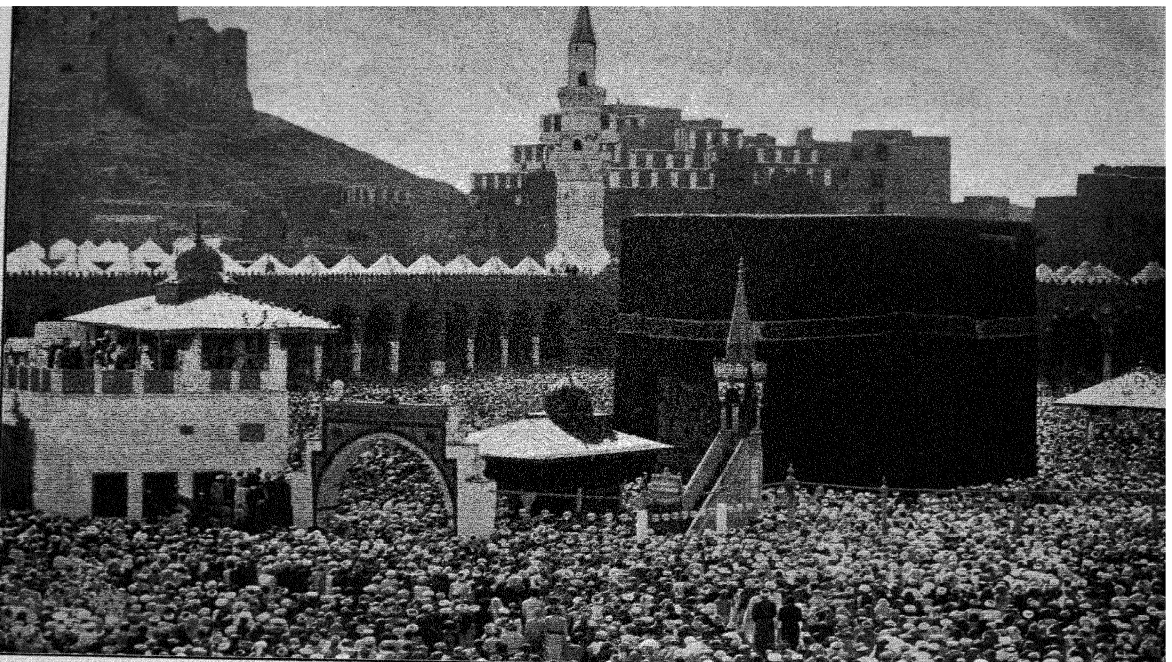
و يحيط بالكعبة من خارجها قصة من البناء فى أسفلها، متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتي متراً، ومتوسط عرضها ثلاثون سنتي متراً، وتسمى بالشاذروان، وهى من أصل البيت تركت خارجة عنه فى بناء قريش لها قبل الاسلام لاختصارهم فى بنائها .

والشاذروان معناه ما يحيط بالسلسبيل، وكانوا يطلمونه فى العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التى كانت فى وسط القاعات الكبرى .

وعلى ظني انه هنا من أثر عمارة الحجاج ، أقامه ليقى جدار البيت المعظم من تأثير الامطار والسيول التى كانت ولا تزال تنزل بكثرة الى المطاف : ودليلنا على ذلك انما هو لفظه الفارسى الذى لابد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحضرهم الحجاج بن يوسف لعمارتها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير ، يؤيده ما ورد فى الاغانى من أن ابن سريج سئل عن من تعلم الغناء على القاعدة التى كان يغنى عليها مع انها ما كانت معروفة عند العرب ، فقال إنه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة ، وكانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها . وعلى كل حال فالشاذروان والميزاب لفظان أعجميان، ولم يرد ذكرهما على مدنه صلى الله عليه وسلم .

و يسمون زوايا البيت الخارجة بالاركان : فالشمالى منها يسمونه بالركن العراقى لانه الى جهة العراق ، والغربى يسمونه الشامى لانه متجه الى جهة الشام ، والقبلى يسمونه اليمانى لاتجاهه الى اليمن وفيه حجر يسمونه الحجر الاسعد، والشرقى يسمونه بالركن الاسود لان فيه الحجر الاسود : وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه، وقطره نحو ثلاثين سنتيمتراً ، و يحيط به اطار من الفضة عرضه عشرة سنتي مترات ، والمسافة التى بين ركن الحجر و باب الكعبة يسمونها الملتزم ، وهو ما يلتزمه الطائف فى دعائه واستغاثته .

و يخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب (المزراب) و يقال له



BOEHME & ANDERER, CAIRO

الكعبة المعظمة ومنظر الحرم المكي في أوقات الصلاة زمن الحج

ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الامطار : وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة ، وتجدد فى سنة ١٠٢١ مدة السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية ، وقد رأيته محفوظا فى دار الآثار السلطانية الخصوصية بالاستانه . وفى سنة ١٢٧٣ أرسل اليها السلطان عبد المجيد ميزابا من الذهب وهو الموجود بها للآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم : وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتى البيت الشمالية والغربية ، ويبعدان عنهما بمسافة مترين وثلاثة سنتيمترات ؛ ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصفاً ، وهو مغلف بالرخام المنقوش وفى محيطه من أعلاه كتابة محفورة بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته . ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربع وأربعون سنتياً ، والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحِجْر اسماعيل (بكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان يدخل منه ثلاثه أمتار تقريباً فى الكعبة فى بناء ابراهيم ، والباقى كان زريبة لغنم هاجر وولدها ، ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان به .

أما الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهى التى على يمين الداخل ، وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبه ، يوصل الى سلم صغير يصعد به إلى سطحها .

وبوسطها من الداخل ثلاثه أعمدة من العود القاقلى ، عليها مماصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من اخرى . وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتى متراً . وهذه الاعمدة من زمن عبد الله بن الزبير ، وقيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن ، ويقال ان عليها كتابه محفورة فيها ولكنى لم أرها . وقد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الاسلام ستة اعمدة ولا أدرى ان كانت من البناء أو من الخشب . ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها « الله جل جلاله » ، قد أهداها اليها السلطان عبد العزيز رحمه الله ، وفى قباله الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبى عليه الصلاة والسلام .

و يحيط ببناء البيت من الداخل إزار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين ، وقد وضع فى الحائط الغربى ألواح محفور فى الاول منها : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير الى رحمة ربه يوسف بن عمر بن على رسول ، اللهم أيد ديا كريم بعز يز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم » . ومكتوب حول هذه اللوحة : « رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه على تاريخ سنة ثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . والى جواره لوحة مكتوب فيها : « أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين وألف » . ثم لوحة أخرى فيها « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، تقرب الى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير الى الله تعالى السلطان الملك الاشرف أبو النصر برسباى خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله و زين بالصالحات أعماله بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانمائة » . وفى لوحة أخرى « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة البيت المعظم الامام الاعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله فى شهور سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . ثم لوحة أخرى منقوش فيها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمّن الحجاج فى البرين والبحرين السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته فى آخر شهر رمضان المبارك المسطر فى سلك شهور سنة أربعين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية » . وفى الجدار الشرقى لوح مكتوب فيه « أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه يارب العالمين ، عام أربع وثمانمائة من الهجرة » . وفى الجدار الشمالى مكتوب على باب التوبة هذه الابيات .

قد بدا التعمير فى بيت الاله(١) * قبلة الاسلام والبيت الحرام

(١) من هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية ببلاد العرب وخصوصاً فى القرنين منها حوالى القرن الحادى عشر للهجرة .

أم خاقان الورى مصطفى خان * دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقا الى التعمير ذا * انما كان بالهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه * أن يجازيها به يوم القيام
قال تاريخاً له قاضى البلد * عمرته أم سلطان الانام

بمباشرة أحمد بك فى سنة تسع ومائة وألف » . وبلغنى ان فى البيت حجراً مكتوباً بالكوفى ويقال انه قديم جداً وانه من القرن الاوّل للهجرة ، وان صح ذلك كان من عمل الحجاج ابن يوسف . وبجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الاخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهو من الاطلس الاخضر المزركش بالقصب ، يأتى اليها سنويا من مصر مع الكسوة الشريفة . ومعلق بسقف البيت كثير مما بقى من الذخائر التى أهديت اليه ، ومن ذلك عدة مصابيح ذهبية وفضية لا تقل عن مائة ، ومنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجوهر أهداهما للكعبة السلطان سليمان القانونى سنة ٩٨٤ .

وتفتح الكعبة فى العاشر من المحرم للرجال ، وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء ، وفى ليلة الثانى عشر من ربيع الاول للدعاء للسلطان من غير ان يدخلها أحد من الزائرين ، وفى صبيحته للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف والوالى ، وفى أول جمعة من رجب للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى صباح تاليه للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى ليلة النصف من شعبان للدعاء للسلطان ، وفى صباح تاليه للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى السابع عشر منه للدعاء للسلطان ، وفى آخر جمعة منه كذلك ، وفى نصف ذى القعدة للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى عشرين منه لغسيل الكعبة ، وفى الثامن والعشرين منه لاحرامها (أعنى احاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف) . وتفتح فى موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدنتها . وتفتح الكعبة

أيضاً بعد الحج فى نحو العشرين من ذى الحجة لغسيلها .

ولغسيلها احتفال كبير يحضره الشريف والوالى وأعيان مكة وعظماء الحجيج : وكيفية ذلك أن يدخل دولة الشريف فى مقدمة الداخلين اليها ، و بعد أن يصلى ركعتين يؤتى اليه بجرادل الماء من عين زمزم ، فيغسل أرضها بمقشات صغيرة من الخوص و يسيل الماء من ثقب فى عتبتها ، ثم يغسلها بماء الورد ، و بعد ذلك يضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاع الايدى بالخَلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك ، وفى أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعداً من جميع جهاتها . ثم يقف الشريف على الباب و يلقى على الحجاج الذين يكونون قد وقفوا آلافاً مؤلفة فى المطاف الى باب شيبة تلك المقشات التى كانت تُغسل بها الكعبة وهى مقشات صغيرة من الخوص طولها نحو ٣٠ سنتيمتراً ، فيتزاحمون عليها و يتلقفونها بحال غريبة جداً ، ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أثمن شىء فى العالم ، بل تكون عنده خيراً من الدنيا وما فيها ، و يحفظها على سبيل البركة أثراً شريفاً من بيت الله المعظم . وقد يأبى بعض القوم وخصوصاً المطوّفين والزمازمة بمقشات كثيرة يغمرونها بالماء ، و يدعون أنها من التى غسلت بها الكعبة و يبيعون منها على الحجاج كل واحدة بنصف ريال على الاقل ! !

الكعبة قبل الاسلام و بعده

كانت الكعبة قبل الاسلام بنحو ٢٧ قرنا ذات منزلة سامية عند العرب بأجمعهم ، لا فرق بين وثنيهم و يهودهم ونصاراهم . وقد تجاوزت مكانتها جزيرة العرب الى بلاد الهنود وكانوا يعتقدون ان روح شبوه أحد آلهتهم (وهو الاقنوم الثالث من تمثال بوذا) قد تقمصت فى الحجر الاسود ، حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز ؟ (انظر سياحة بريتون فى بلاد الحجاز) . و يسمون مكة (مكشيشا) أو (موكشيشانا) يعنى بيت شيشا أو شيشانا وهما على ما أظن من أسماء آلهتهم .

وقد ورد فى مروج الذهب فى الكلام على البيوت المعظمة « ان الصابئة كانوا يعتقدون ان الكعبة كانت من البيوت السبعة المعظمة عندهم ، وكانوا يعتقدون انها بيت لزحل وانها باقية ببقائه على مرور الدهور وكرور العصور » . وكانت أغلب بلاد الشرق تدين بدين الصابئة وعلى الخصوص بلاد العجم والهند والكلدان التى منها ابراهيم ، ولا يزال مذهب الصابئة فيها الى الآن . وقد قال الله تعالى فى القرآن الكريم حكاية عن ابراهيم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » . وقد ذكر المقريزى فى باب فرق الخليفة ان من الصابئة فرقة كانت تسمى الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح ، وان منهم من كان يزعم أن الشمس اله كل اله ، وان السيارات السبع آلهة وكانوا يسمونها المدبرات . وكانوا يقيمون لها الهياكل يعبدونها فيها . وذكر بعض المؤرخين انهم كانوا يحيطون معابدهم بحرم لا يطؤه الغرباء . وعلى ظنى انهم أخذوا هذا الحرم من الدائرة التى تحيط بفلك كل كوكب من هذه الكواكب لئلا يتعداها اليه نجم آخر : وبهذا كان نظام[1] جميع العوالم . ولا يبعد انهم كانوا يطوفون حول هياكلهم : وربما أخذوا ذلك من دوران هذه الكواكب حول الشمس بما يفيد تبعية الدائر للشىء الذى يدور حوله . كما لا يبعد انهم كانوا يطوفون بهياكلهم أسابيع لعلاقة ذلك بالكواكب السبعة ، يعنى انهم كانوا يطوفون حول كل هيكل من هياكلهم سبعة أشواط لكل كوكب شوطاً : فاقرها ابراهيم فى دينه وجعلها كلها لله وحده . ولا يخفى ان

(١) لا يخفى أن نظام العالم انما هو تجاذب أجرامه مع بعضها سواء كانت ثابتة أو متحركة بنسب مخصوصة تحفظ نظامه ، ثم تحفظ هذا النظام الغريب الذى هو من أكبر الادلة على واجب الوجود وقدرته . ولكل سيار من هذه الاجرام دورة مخصوصة لا يتعداها اليه نجم آخر الا ذوات الاذناب فان دوائرها غير منتظمة . لذلك ترى الناس ادارأ واشتاتاً منها تطلعوا فيه الظنون وتقولوا فيه الاقوال وتوقعوا منه الاهوال : لانهم يخشون مصادمته فى سيره بأحد النجوم التى ربما تصادفها فى طريقه فتختل الموازنة فى هذه العوالم ويكون من ذلك الاضطراب الذى يعقبه الفناء .

ولما كانت هذه الاجرام مدهشة في نظامها وكانت مصدراً لحياة العالم الارضي بما ترسله اليه من الحرارة والنور، كان الناس يعتقدون أنها مؤثرة بنفسها، واتخذوها من قديم الزمان آلهة لهم. وحتى الاحجار التي كانت تنفصل منها الى الارض أخذوها فعبدوها وكان منها الوثنية. ولذلك اشتغل الناس من زمن بعيد في استخدام تأثير الكواكب في تبيين حقائق الماضي والمستقبل، فكان منه علم التنجيم. واشتغل آخرون في استخدامه في تمهيد مطالبهم فكان منه علم الاوفاق والارياح والسحر، الذي أخذوا منه أخيراً تأثير النفوس القوية على الضعيفة بما وصلوا به الى علوم أخرى جديدة يسمونها ميوتزم وهسوتزم وما في معناها مما يعبرون عنه بالتنويم المغناطيسي. ومن الناس من جعل مباحثه قاصرة على حركات هذه النجوم وابعادها وأضوائها وحرارتها وجميع ما يتعلق بها نظريا وماديا، فكان من ذلك علم الفلك الذي يدلنا على قدرة واجب الوجود وعظمة هذا الواحد المعبود.

وتخصيص عبادة الناس لهذه الكواكب السبعة، لانها هي التي تكون النظام الشمسي الذي منه أرضنا التي نعيش فيها. وكانوا يعبرون عن أفلاكها بالسموات السبع ويرتبونها على حسب ابعادها من الارض كما تراه في قول الشاعر:

زحل شرى مريخه من شمسه ✽ فتزاهرت لعطارد الاقمار

والعلم الحديث يعد سيارات هذا النظام سبعة أيضاً ولكنه يخرج منها الشمس والقمر: لان الاولى مركز هذا النظام، والثاني تابع لها. ويضيفون عليها نبتون وأورانوس. ولعل هذه السموات المعبودة هي المقصودة بقوله تعالى لنبيه الكريم في سورة المؤمنين «قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم» وقال تعالى في سورة الطلاق «الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن» وقد تكرر ذكر خلق السموات السبع في القرآن الكريم لتبين انها انما هي خلق من خلق الله الذي يجب أن يكون متفرداً بعبادة الناس له.

ولقد كان بمصر لعبادة الكواكب الشأن الاول، وخصوصاً للشمس التي كانوا يعتبرونها الههم الاكبر ويسمونها أمون وبعضهم كان يسميها أو روريس، ثم للقمر ويسمونه ايريس. وكانوا يقيمون لهما الهياكل الضخمة في كل جهة، وأضخمها وأكبرها هيكل الكرنك، وهو باق الى أيامنا هذه يقرأ الناس في صفحات جلاله وعظمته آيات الرقي المصري القديم في العلم والصناعة. والبابليون كانوا يعبدون الشمس ويسمونها بعلوس، والقمر ويسمونه عشطوره. وقد ذكر رولنسون العالم الأثري الانكليزي انه كان يوجد في بابل هيكل يسمونه برس نمرود وكان مبنياً من سبع طبقات ارتفاعها ١٥٦ قدما وكل واحدة منها ملونة بلون مخصوص: فالاولى كانت ملونة باللون الاسود رمزاً لزحل والثانية باللون البرتقالي رمزاً للمشتري والثالثة بالاحمر رمزاً للمريخ والرابعة بالذهبي رمزاً للشمس والخامسة بالاصفر رمزاً للزهرة والسادسة بالازرق رمزاً لعطارد والسابعة باللون الفضي رمزاً للقمر.

ولقد أخذ السوريون ديانتهم عن الكلدانيين لانهم أقرب الناس اليهم كما أخذوا عن المصريين تشييد العمارات الهائلة لمعبوداتهم مما ترى أثره للآن في بعلبك (هذه الكلمة مركبة من بعل بمعنى شمس وبك بمعنى هيكل) ثم هيكل بعل في تدمر وهيكل الشمس في حيران وهيكل ابزيس في بطرة وغيرها.

والذي أراه أن الفنيقيين هم الذين أدخلوا الى بلاد اليونان ديانتهم في عبادة النجوم عند

فتحهم هذه البلاد لتجارتهم في نحو القرن العشرين قبل المسيح . وهؤلاء أخذوا دياناتهم من الامم التى كانت تصلها بهم الرابطة التجارية كمصر وخصوصاً آشور وبلاد الكلدان التى طهرت في علم الفلك على جميع الامم التي كانت تعيش فى زمنها حتى كانت روما بعد بناء الرومان لها في القرن الثامن قبل المسيح تعول على ارصادها وتستمد من علومها وعلمائها مدة طويلة من الزمن .

وكان لكل أمة من هذه الامم أقوال في معبوداتهم وحكايات ناشئة عن أوهام وخيالات مما يسمونه خرافات، وكلها تدور حول اثبات القوة والتأثير لمعبوداتهم . واشتهر اليونانيون بكثرة هذه الحكايات لكثرة معبوداتهم منها وألفوا فيها المؤلفات ويسمونها متلوجيا : ويسمون لكل من هذه الآلهة قوة مخصوصة يتصف بها : فيقولون مثلا ان أورانوس هو السماء مجسمة وزحل بن السماء والمشتري بن زحل وهو اله الآلهة لقوته وقدرته ولكثرة ماأنتجه منها ويقولون ان نبتون اله البحر والمريخ اله الحرب وعطارد اله الفصاحة والزهرة الهة الجمال الخ . وكان اليونانيون يقيمون لهذه المعبودات هياكل مربعة يسمونها سيكوس ويجعلون لهاباباً من الشرق وليس فيها فتحات غيره ويحيطون هذا الهيكل بفضاء يسمونه الحوش المقدس ، وحول هذا الحوش كانوا يقيمون معابدهم التى يدعو الناس فى محيطها قربانهم من غير أن يجسروا أن يخطوا خطوة واحدة نحو الهيكل بل ولا نحو الحوش الذي يحيط به . وكانوا يحيطون هذه المعابد ببساتين يسمونها البساتين المقدسة كانوا يزرعون فيها أشجار الفاكهة للكهنة وشجر الزيتون ليأخذوا منه الزيت الذي كانوا يضيئون به معابدهم وهياكلهم . وكانت المصريون تحيط معابدها بمثل هذه الغابات المغروسة من الزيتون ومن ذلك ما نراه للآن من اسم عزبة الزيتون التي بجوار المطرية والتى كان حرما لهيكل عين شمس الذي كانوا يسمونه هليوبوليس .

وكان اليونانيون يحيطون هذه البساتين المقدسة بغابات مقدسة أيضاً تطلق فيها الحيوانات التي كانوا يقدمونها الي آلهتهم على حريتها . ولهذه الغابات حدود لا يتعداها أحد من الناس بل ولا تجسر يد أن تمتد الي مافي داخلها . ولو دخل اليها أحد الجناة كان في حمايتها ووقفت الحكومة نفسها منه فى حدودها حتى اذا خرج منها أمسك به وأجرت عليه القصاص . واستمرت هذه العادة فى كنائس النصرانية الي القرون الوسطى : فكان اذا التجأ اليها أي انسان صار فى حمايتها ولا تقوى أيدي أولئك الملوك الجبابرة على أخذه منها .

وأكبر هذه الهياكل اليونانية هيكل المشترى (Jupiter) فى أولمبيه لانه أكبر الكواكب التى تتركب منها هذه المجموعة الشمسية حجماً وأكثرها نوراً . وكانوا يحجون اليه فى كل اربع سنين مرة وكانت لهم هناك ألعاب يقومون بها لمعبودهم هذا مشهورة بالالعاب الاولمبية ومجموعها ٢٩٣ مرة تبتدي من سنة ٧٧٧ قبل المسيح وتنتهي فى سنة ٣٩٤ بعده وهى السنة التى اعتنق فيها الامبراطور تيودوس الديانة المسيحية وأحلها محل دياناتهم الاولى . وكان القوم في مدة هذه الالعاب المقدسة يوقفون الحروب التي تكون قائمة بينهم حتى اذا انتهوا من حجهم عادوا اليها .

وعليه فلابدان الكلدانيين الذين أخذ عنهم اليونانيون دياناتهم مباشرة أو بواسطة الفنيقيين كانوا هم أيضاً يحيطون معابدهم بمثل هذا الحرم المحترم الذي استعمله ابراهيم حول الكعبة لما بناها بيتاً لله تعالى يعبده الناس فيها عبادة صحيحة فى حجهم اليه ، وسار فيه العرب على ملته زمناً ثم تطرق اليها شيء من الوثنية تختلف قلته أو كثرته باختلاف معتقدات القبائل . وما زالوا كذلك حتي أتى

الاسلام فأزال معالم الوثنية بالمرة ورجع بالناس في حجهم الى ملة ابراهيم ٠
ولما بنى سليمان عليه السلام هيكل بيت المقدس أحاطه بحرم وقضى بأن لا يدخله أحد غير الكهنة فلما تغلبت المسيحية عليه هدمته حتى اذا فتح المسلمون ايلياء بناه عمر مسجداً ولا يزال المسلمون والنصاري يدخلون اليه : هؤلاء زائرون وأولئك متعمدون وأما اليهود فلا يزالون يحترمونه ولا يدخلون من بابه مطلقاً ٠ ولكنهم نسوا أو تناسوا سبب ذلك المنع لانهم يحملون علته الآن حتى لا تطأ أقدامهم بالصدفة حجراً من حجارة هيكلهم الذي هدمه بختنصر ثم أتي من بعده طيطوس فأحرقه ، وما هو على طي الا ذلك المنع الاول : وللآن يسمونه بالحرم القدسى ٠
وكانت قبائل العرب تضرب الحمى لمراعيها وتجعل له حدوداً لا تتعداها القبائل الاخري ٠ وكان الرجل منهم اذا أصبح عزيزاً اتخذ له متسعاً من الارض وجعله حمى له يمتنع بعزته فلا يدخل اليه أحد بل ولا يجسر أحد أن يتعدى على ما يقرب منه من الاراضى لا يرعي ولا يصيد لانها في جواره ٠ وكان كليب ملك ربيعة يحمى أرضاً واسعة اسمها العالية وجعلها حمى له فلما دخلت تحت رايته قبائل معد كلها وصار أعز العرب حمى منازل السحاب فلا يرعاها غير ابله وماشيته ٠ واتفق أنه رأي ذات يوم ناقة ترعى في حرمه وكانت لامرأة نزيلة على جساس صهره ومن بنى عمه فقتلها ٠ فقتله جساس بها دوداً عن جواره هو أيضاً ، وكان من ذلك ما كان من حرب البسوس الى وقعت بين بكر وتغلب مدة أربعين سنة ٠
ومن ذلك ما ورد من أن عامر بن الطفيل سيد بني عامر بن صعصعة والذي كان من أشهر فرسان العرب وأبعدهم صيتاً لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في سنة عشرة للهجرة طلب منه أن يجعل له الامر من بعده ان هو أسلم ٠ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لك من هذا الامر شئ فغضب عامر وقال والله لاملأنها عليك خيلا و رجلا وذهب فرض فى طريقه بالطاعون فمال الى بيت امرأة من سلول ومات فيه فدفنه قومه هناك وجعلوا على قبره أنصابا ميلا فى ميل وجعلوا دائرتها حرما يحتمي فيها الضعيف والمظلوم فلا يجترئها عليه من يقصده ، وان فعل قام أصحابها في وجهه وكانوا عليه ٠ ولقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحرم وقال «لا حمى إلا لله ولرسوله» ٠ وحمى عليه الصلاة والسلام بالمدينة ما يسمونه بالنقيع المحمي وجعله لخيل المسلمين وقد كان مبديا للناس ومصيداً لهم وعرضه ميل وطوله أربعة فراسخ ٠ وقد حمى عليه الصلاة والسلام المدينة فقال حرام ما بين لابتيها: وهما حرتان واحدة الي شمالها والاخرى الي جنوبها ٠ ولما دخل عليه الصلاة والسلام مكة عام الفتح حمى دار أبي سفيان وجعلها حرماً وأمن كل من دخل فيه من أعدائه ٠ وبعد فتح مكة أرسل صلى الله عليه وسلم تميم بن أسيد الخزاعى لجدد أنصاب حرمها ومشاعرها على ما وضعها عليه ابراهيم ٠
ومن ذلك العهد اقتصر العرب على حمي بيوتهم فتري الرجل منهم للآن مهما كان ضعيفاً يدفع عمن دخل فى بيته مهما كلفه ذلك لانه أصبح فى حمايته ولو كان طالبه من أقرب الناس اليه ٠ وحسب الرجل منهم أن يقول له آخر أنا فى وجهك حتى يدخل في هذه الحماية ، بل حسب عدوه منه أن يقول له أنا فى وجه فلان ولو كان غائباً حتي يكون على بينة من أنه صار فى حمايته يطالبه بها ان هو أخفر حقاً من حقوقها ٠ وهذه الحماية بهذا المعنى لا توجد في أية أمة أخرى وما نسمعه في مثل بلادنا من حماية الامم الاجنبية لبعض المستضعفين من غير رعاياهم هو غير ذلك بالمرة ٠ ومن هذا توسع الناس فى استعمال الحرم فأطلقوه على البيت الذي لا يتعدى حدوده أحد بغير اذن صاحبه احتراماً له ٠ ثم أطلقوه علي امرأة الرجل نفسها

لحرمتها على غيره . وأخذ الاتراك لفظ حرم فأضافوا عليه كلمة لك بمعنى مكان فقالوا حرملك يعني مكان الحرم وقصروه على مكان النساء من البيت حتى لا يكون لمن يخترق دائرته أي عذر في الدخول فيها وانتهاك حرمتها .

وقد كان قدماء اليونان والرومان يفردون في بيوتهم دائرة مخصوصة للحرم بمعزل عن الرجال يسمونها جناسي (Gynécée) ولا أدري اذا كان أصل هذه العادة عندهم دينياً أخذوه عن المنطقة التي تحيط بمعبوداتهم من الكواكب فتفصلها عن غيرها وتجعلها في عزلة تامة عنها . ثم جعلوها حول هياكلها في الارض كما هي حول منازلها في السماء . ومن هذا تلك الهالة التي لا يزالون يرسمونها من النور حول رؤوس النبيين والقديسيين للدلالة على أنهم في حماية الله الواجبة الاحترام . ثم مالبثوا أن ضربوا هذه المناطق (١) حول معبوداتهم الصغرى مدفوعين اليه بعامل الحب أو الاحترام أو الغيرة .

ومن هذا اتخذ الملوك من قديم الزمان وهم آلهة الارض على ما كانوا يزعمون احاطة قصورهم بحرم واسع لا يجوز انتهاكه لغير ذويهم أو من يباشر خدمتهم . واستعمل هذا الحرم في الاسلام وكانوا يسمونه حريماً ومنه حريم دار الخلافة ببغداد : وهو الذي جعله المنصور العباسي حول قصره بها في منتصف القرن الثاني للهجرة وكان اسمه قصر الخلد وكان عبارة عن ثلث المدينة على سعتها وعظمتها وكان له سور يعين حدوده كان دور الناس من ورائه . وكان لهذا السور عدة أبواب بعضها خاص بالخليفة وبعضها لحاشيته وأخرى لدخول الناس : منها باب سوق التمر وباب عموريه وباب العتبة التي كان يقبلها الملوك أو رسلهم عند قدومهم الي دار الخلافة . وهذا الحرم لم يكن لاحد أن يتعداه الا بأمر الخليفة أو أستاددداره . ولما أرسل المأمون طاهر بن الحسين من خراسان لمحاربة اخيه الامين ببغداد أوقع بجيوشه ثم حاصر هذه المدينة سنة ١٩٧ ونزل بأعلاها من الغرب وجعل منزله بها حرما كل من لجأ اليه صار آمناً وسماه بالحريم الطاهري . وما زال هذا الحرم محترما في مدة ولديه عبدالله وعبيدالله .

وللآن نري قصور الملوك محاطة جميعها بحرم واسع يفصل بينها وبين ما يحيط بها من الدور والمباني وقد تلطفوا في تسميته فسموه ميداناً : وبقدر ماتكون هؤلاء الملوك دستوريين تكون هذه الميادين مباحة لرعاياهم : أنظر للميادين التى حول قصر بكنجهام بلوندره وشونبرون بفينا واللوفر بباريس وغيرها تراها كلها مع ما يحيط بها من الرياض والغياض متنزهات عامة للناس على اختلاف طبقاتهم وقد كانت قبل معرفتهم للدستور أمنع من مرابض الآساد وأحمي من منازل الاستبداد . بل انظر الي سراي يلدز وقد كان نجم السماء أقرب منها للمتناول زمن السلطان عبدالحميد الثاني كيف أصبحت بعد الدستور روضة الامة بل نزهة العامة . ولم يكن قرب الملوك الدستوريين من رعاياهم باباحة هذه الاحماء من زمن ليس ببعيد الا لابتعادهم عن المظالم التى تمتعض منها الامم . والاسلام هو الذي منع هذه الاحماء حتى لا يكون فاصل بين الرعية وراعيها . واليك برهان صغير على ذلك : أتى رجل من عظماء الفرس بعد فتح المسلمين لبلادهم الى المدينة ليشاهد عمر الذي فتح ملك الرومان والفرس في أيام قليلة . وكان يتصور انه من أكبر الملوك فخامة وعظمة . فسأل عن ابن الخطاب فقالوا له انظره تحت تلك الشجرة وأشاروا الي سدرة في الخلاء . فلما بلغها رأى رجلا في مرقعه قد توسد نعاله وهو مستغرق في نومه . فعجب الرجل من أن يكون هذا هو الذي ملك هذه البلاد وقهر ملوكها ينام هكذا من غير سياج يحوطه أو حرس يحرسه ثم مالبث أن فكر وقال « حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر »

. . . . . .

(١) وعليه فليعذرنا الاوربيون اذا أخذنا عنهم هذا الحجاب وضربناه على نسائنا حباً واحتراماً لهن أو بعبارة أخري غيرة عليهن .

العبادات كلها انما هي مستمدة من شيء واحد: هو الاحترام الحقيقي والاخلاص الصادق ، وانما المدار في صحتها على جهة توجيهها . وكل مشرّع في العالم لا بد له أن يراعي الزمان والمكان في تشريعه ويراعي تلك العوائد المتأصلة في النفوس لعدم قدرته على ازالتها مرة واحدة ، ولنا في تدرج الاسلام في تحريم الخمر أكبر برهان على ذلك وحسبنا صراحة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لعائشة عن بنيان الكعبة : لولا أن قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد ابراهيم .

وليس ذلك بغريب فشريعة كل قوم مستمدة من الشرائع التي قبلها باختلاف يسير أو كثير في بعض موادها . وشريعة ابراهيم انما كانت مستمدة من شرائع عمالقة الشمال الذين كانت لهم في العراق دولة زاهية راقية في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح . وقد عثر المنقبون لهم أخيرا في اطلال بابل وآشور على آثار كثيرة تدل على مدنيتهم وحضارتهم وفيها شيء كثير من شرائعهم . وتوجد الان مجموعة كبيرة من هذه الآثار في متاحف برلين ولوندره . ومما ينسب الى هؤلاء العمالقة انهم أول من عرف علم الفلك وحركات النجوم والافلاك لانه كان عندهم علما دينيا محضاً ، ولذلك فقد فشا هذا العلم في الصابئة على اختلاف أجناسهم .

ومن الصابئة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به كثيرا حتى ان ابن قتيبة ذهب الى تفضيلهم فيه عن العجم . ومن علم الفلك عرفوا علم الانواء (جمع نوء) ، وهو ما يسمونه الآن بعلم الظواهر الجوية ، وكانوا يعرفون منه تغير الزمن ووقت نزول المطر واختلاف هبوب الهواء . وللعرب في النجوم خرافات كثيرة : منها قولهم ان سبب دوران بنات نعش (الدب الاكبر) ان الجدى قتل والدهن نعشا فهن يدرن حوله حتى اذا امكنهن اقتصصن منه . وهذا على ما أظن أخذوه من خرافات اليونانيين التي تفوق غيرها في هذا القبيل ، وكانت سبباً في رقي الخيال عند كتاب الفرنجة وشعرائهم الذين لا يزالون يرمزون بها في أقوالهم ، وللقوم فيها كتب خاصة يسمونها (مثولوجيا) . ولما فشت في العرب عبادة الاوثان عبدوا النجوم في أشخاص هذه الاصنام : فعبدوا اللات ويرمزون به الى الزهرة ، والعزى ولعلهم كانوا يرمزون به الى الشعرى ، وهبل وكانوا يرمزون به الى زحل .

و يصح أن لا تكون لاشواط الطواف السبعة علاقة بذلك وانها انما كانت بهذا العدد لان عدد سبعة عند الرياضيين هو العدد الكامل . وعلة ذلك كما ورد فى كتاب (عين النبع على طرد السبع للامام الصفدى) ، ان السبعة جمعت العدد كله . لان العدد أزواج وافراد: والازواج فيها أول وثان . والاثنان أول الازواج والاربعة زوج ثان: والثلاثة أول الافراد، والخمسة فرد ثان ، فاذا اجتمع الزوج الاول مع الفرد الثانى، أو الفرد الاول مع الزوج الثانى ، كان سبعة . وكذلك اذا أخذ الواحد الذى هو أصل العدد مع الستة التى هى عند الحكماء عدد تام ، يكون منها سبعة التى هى عدد كامل ، لان الكمال درجة فوق التمام . وهذه الخاصة لا توجد فى غير السبعة: ولذلك يفصلون بينها و بين الثمانية بالواو فيقولون واحد اثنان ثلاثه أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية وتسعة وعشرة الخ: ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الكهف « و يقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب و يقولون سبعة وثامنهم كلبهم » . ومن هذا استعمل الناس السبعة اذا أرادوا المبالغة فى العدد فيقولون اذكر الله سبع مرات، وصل على النبى سبع مرات ، وصم سبعة أيام ، واغسل نجاسة الكلب سبع مرات، وارجم سبع جمرات ، مما هو مستعمل كثيرا فى العادات : وكان من ذلك السموات السبع، والسيارات السبع ، والارضون السبع والسبع المثانى . ولما بنى جوهر القاهرة جعل لها سبعة أبواب تيمنا ، ومن ذلك تيمنهم وقت الاحتفال بالمحمل بدورته سبع مرات . ومما هو مشهور عند العامة السبع حبوب و يعملون منها تمائم لبنيهم، والسبعة معادن و يستعملونها فى عقاقيرهم ، ومما يذكر فى مبالغاتهم قولهم : فلان يعرف السبعة ألسن وقطع السبعة بحور، ولف السبعة أقاليم . و يقولون لا أعطيك ذلك ولو عملت السبعة، ولغة الاطفال فيها شئ من ذلك : فيقولون الذئب فات وديله سبع لفات . الخ الخ . وكان استعمال السبعة فى المبالغة لم يقتصر على العرب بل تعداهم الى الفرنجة الذين أخبرونا بأدوار العمر السبعة ولا يزالون يحدثونا بعجائب العالم السبعة .

على ان هذا كله لا معول عليه عند السادة الفقهاء: لانهم لا يبحثون فى أصل الاعداد التى وردت فى عباداتهم كعدد ركعات الصلاة وأشواط الطواف وغيرها . ولكنهم يأخذون

أمر الله بها قضية مسلمة محترمة و يصدعون بما أمروا به من غير بحث عن علة أو سبب .

ولقد ذكر المسعودى ما يفهم منه أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء ابراهيم لها : فانه قال عند الكلام على قوم عاد لما أصابهم القحط «وهم من العرب البائدة وكانت مساكنهم من بلاد اليمن الى حضرموت بجنوب بلاد العرب» ما ملخصه : انهم كانوا يعظمون موضع الكعبة وكان ربوة حمراء ، فوفدوا الى مكة يستسقون ، ولكنهم عكفوا فيها على شرب الخمر ، فقالت لهم جرادة جارية معاوية سيد العماليق مخاطبة رجلا منهم اسمه قيل ولعله كان رئيس الوفد :

ألا يا قيل و يحك قم فهينم (١) * لعل الله يمطرنا غماما

فيسقى أرض عاد إنَّ عادا * قدَ امسوا لا يبينون الكلاما

الى آخر ما قالت : ومن هذا يفهم أن مكان الكعبة كان محترما فى القوم قبل بناء ابراهيم لها .
و ربما كان هناك معبد قديم للعماليق تلاشى أمره قبل وصول ابراهيم الى تلك الجهة ، و بنى المؤرخون على أساسه أقوالهم فى بنيان الكعبة قبل ابراهيم : فقال بعضهم ان آدم بناها قبله ، وقال آخرون غير ذلك ! !

و يظهر أن هذه الجهة كلها كانت مقدسة عند العرب : يؤيد ذلك تسمية قدماء المصريين بلاد الحجاز بالبلاد المقدسة .

والفرس كانوا يحترمون الكعبة و يعتقدون أن روح هرمز حلت فيها وكانوا يحجون اليها من زمن بعيد جدا وفى ذلك يقول شاعرهم بعد الاسلام :

ومازلنا نحج البيت قدما * ونلقى بالاباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتى * أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به و زمزم عند بئر * لاسماعيل تروى الشاربينا

وقال غيره :

زمزمت (٢) الفرس على زمزم * وذاك من سالفها الاقدم

(١) الهينمة الصوت الخفي . (٢) اجتمع وتكاثر .

واليهود كانوا يحـترمون الـكعبة وكانوا يتعبـدون فيها على دين ابراهيم . والنصارى من العرب لم يكن احترامهم لها بأقل من احترام اليهود إياها . وكان لهم بها صور و تماثيـل : منها تمثال ابراهيم واسماعيل و فى أيديهما الأزلام ، وصورة العذراء والمسيح . وقد وضعت العرب أصنامها عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر حـتى اجتمع على سطحها من الاصـنام ٣٦٠ صنما . وأول من أدخل عبادة الاوثان الى مكة و وضع الاصنام على الـكعبة عمرو بن لُحَيٍّ كبير خزاعة حينما ولى أمر البيت ، وكان سافر الى الشام فاخذ عنها عبادة الاوثان ، وأخذ عن الثموديين عبادة هبل واللات ومناه وكانت من آلهتهم كما تدل عليـه النقوش الموجودة على آثارهم . وتبعته فى ذلك قبائل العرب فـكانت كل قبيلة تأتى بصنمها وتضعه عليها . ومع شيوع الوثنيـة فى العرب فانها كانت فيهـم أقل منها فى سواهم ، لانهم لم يكونوا يعبـدون الاوثان لذاتها ولا لصفاتها كما كان الشأن فى وثنيى الهند والصين والرومان والمصريين وغيرهم ، بل كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى .

ومازالت الـكعبة على هذا الشأن حتى دخل مكة رسول الله صلى الله عليه وسـلم عام الفتح فى السنة الثامنة للهجرة فامر بازالة ما عليها من الاصنام . و فى حديث أسامة انه صلى الله عليه وسلم دخل الـكعبة فرأى صورا فدعا بماء فجعـل يمحوها . وقد ذكر الازرقى عن ابن عائذ عن سـعيد بن عبـد العزيز أن صورة عيسى وأمه بقيتا فى الـكعبـة حتى رآهما بعض من أسلم من نصارى غسان . وقال عمر بن شيبة : حدثنا أبو عاصم عن جريرقال سأل سليمان بن موسى عطاء : أ أدركت فى الـكعبة تماثيل ؟ قال نعم أدركت تمثال مريم فى حجرها ابنها عيسى مزوّقا (انظر صفحة ٦٠ من كتاب بلوغ الأرب فى مآثر العرب) .

هذا كان شأن الـكعبة فى الجاهلية فقد أجمعت الناس مع اختلاف دياناتهم على احترامها واتخذها كل منهم معبدا يعبد الله فيه على حسب دينه أو مذهبه ، وهذا فى بابه لم يقع له نظير فى الوجود بالمرة ، اللهم الا بيت المقدس الذى يحترمه المسلمون والنصارى واليهود ، وان كان لـكلٍّ مكانٌ يتعبد فيه على حدته . وهل تريد برهانا على شرفها واحترامها غير هذا الاجماع من قوم كانوا بقطع النظر عن اختلاف دياناتهم اذا جمعتهم كلمة فرقتهم أخرى ؟

ولقد بلغ من سمو مكانة الكعبة فى النفوس أن جعلوا لها حرما من جميع جوانبها واسع الأطراف بعيد الاكناف، لا يدخله الانسان الا وهو مُحْرِم، وكل من دخله صار آمناً: قال تعالى محتجاً على أهل مكة «أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً و يُتَخَطّف الناس من حولهم».

ولم يقف احترام هذا الحرم على تأمين الانسان، بل تناول الحيوان، بل تناول النبات، بل لم يقف احترام الناس لها فى حدود حرمها. وقد كان بمكة قبل الاسلام حزب يقال له حلف الفضول، اجتمع اليه بنو هاشم و بنو المطلب و بنو أسد و بنو عبد العزى و بنو زهرة و بنو تيم، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته. وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال فيه: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعى به فى الاسلام لاجبت».

ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم و نقطتها المركزية التى هى الكعبة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ تقريباً خمسة عشر كيلومتراً، أما من جهة الغرب فتبلغ ثلث هذه المسافة. وعلى حدّ الحرم من الجنوب مكان يقال له أضاه (على وزن نواه)، ومن الغرب بميل قليل الى الشمال قرية الحديبية (وهى التى تمت بها بيعة الرضوان)، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجِعرّانه، اعتمر من كليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن وراء هذه الدائرة دائرة أخرى يُحرِم منها كل من تجاوزها قاصداً الدخول الى مكة، وهى وان كانت حلالا إلا أنها تعتبر فناء للحرم: ولا شك أنه لوحظ فى أبعاد الحرم عمران الجهات الثلاث الاولى، حتى اذا قصد مكة منها من أرادها بِشَرٍّ، فانه لا يصل الى حدود حرمها حتى يكون أهله قد استعدوا لحربه ودفعه عن حوزتهم. أما الجهة الغربية وهى جهة البحر فليس فيها من القبائل ما يخشى من عدوانه: لذلك جعلوا حدّ الحرم فيها من التنعيم، وهو مكان على مسافة نحو خمسة كيلو مترات من مكة. وعليه فميقات الاحرام أشبه شىء بالجهة التى يصلح المرء فيها من شأنه عند ما يريد مقابلة ملك من الملوك. وحد الحرم هو فناء بيت الملك، حتى اذا دخل اليه أكمل استعداده للتشرف بلقائه: فتراه وقد أخذ منه الاحتشام كل مأخذ، يسير الى قاعة

الاستقبال بغاية ما يمكن من الادب ، حتى لكأنه على مرأى منه ومسمع . وقد شاهدت ما يماثل ذلك فى طوب سراى بالاستانة العلية : رأيت حجارة منصوبة الى اليوم على أبعاد مختلفة فى الحوش الداخلى لهذه السراى ، وفى الفناء الذى كان مخصصاً لجلوس السلطان من بنى عثمان فى الزمن الخالى ، وكان القادم على السلطان من الامراء والسفراء اذا حاذى كل حجر من الاحجار المذكورة يسلم سلام مخصوص ، حتى اذا وصل اليه قبّل الارض بين يديه .

ولقد بلغ من شأن الكعبة فى الجاهلية أن الناس كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها . وكانت أشهر الحج عندهم شوّال وذا القعدة وذا الحجة . وكانوا يحرّمون الشهر الذى يكون فيه الحج وهو ذو الحجة ، والذى قبله لانه وسيلة اليه ، والذى بعده لانه تابع له : لان الحاج كان يسافر فيه الى بلاده فوجب أن يكون فيه آمناً على نفسه وماله . وترى ذلك فى أسماء هذه الشهور نفسها ، فذو القعدة يعنى الشهر الذى يقعدون فيه عن الحرب ، وذو الحجة هو شهر الحج ، والمحرم هو ما حرموا فيه القتال . وكانوا يحرمون أيضاً شهر رجب ويسمونه شهر الله الاصم ، أى الذى لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث ، على خلاف فى أنه هو الشهر الذى بمكانه من السنة القمرية الحالية كما كان عند مُضَر أو هو شهر رمضان كما كان فى عرف ربيعة . وذلك لان ربيعة كانت تسكن فى شمال بلاد العرب الى العراق ، وأظن ان هذا كان من الاسباب التى حملتهم على تأخير شهر رجب الى رمضان ، حتى يمكنهم السفر فيه الى مكة ومنها الى اليمن ، فيمضون بها شوّال يبتاعون فيه ما يريدون من تجارتهم ثم يعودون الى أداء حجهم ، ويرجعون الى بلادهم وهم فى أمن على أنفسهم وأموالهم ، لان حركتهم كلها كانت فى الاشهر الحُرُم : لذلك تراهم يقولون رجب مضر ورجب ربيعة لتعيين وقت كل منهما . وربما وقع تحريم رجب فى شهر شعبان فى سنى النسىء ، فينادى الناسئ بذلك فى الموسم بقوله « اللهم انى أحللت رجب القادم وحرمت شعبان » . فتمضى العرب على ذلك فى سنتها » . ولذلك فانهم يعبرون عن شهرى رجب وشعبان بالرجبين كما كانوا يعبرون عن المحرم وصفر بالصفرين .

والعرب كانت تنسئ الشهور حتى توفق بين السنين القمرية والشمسية فكانوا يؤخرون

سنتهم كل ثلاث سنين شهراً (هو تقريباً الفرق بين السنين القمرية والشمسية فى هذه المدة).
وكان السبب فى ذلك جعل زمن الحج ثابتاً فى فصل من فصول السنة كأحد الربيعين، حتى يتيسر لهم القيام به فى غير وقت الحر أو البرد الشديدين، وخصوصاً فى الزمن الذى تتوفر فيه مادتهم التى يتجرون بها من أصواف وأوبار وسمن ودهن وماشية ومافى معنى ذلك. وهذا كله لا يتوفر على الدوام فى شهر مخصوص من السنة القمرية كما لا يخفى.

وكان يتولى ذلك منهم النساءون وهم من بنى كنانة وكانوا يسمونهم القلامس. وقد ابتدأت مضر فى نسء الشهور فى القرن الثانى أو الثالث قبل الهجرة. وكانوا يعملون ذلك فقط فى آخر شهرى المحرم ورجب: فكانوا يؤخرون المحرم الى صفر أو رجباً الى شعبان فيكون شعبان رجباً، والذى بعده شعبانا، والشهر الذى بعده رمضانا وهكذا حتى يستوفوا كل أشهر السنة. وفى ذلك يقول شاعرهم:

ألسنا الناسئين على معد * شهور الحل نجعلها حراما

وبهذه العملية كانت السنة القمرية تدور معهم مرة فى كل ثلاثين سنة تقريبا. وفى سنة عشر للهجرة كانت شهور السنة القمرية دارت ورجعت الى أصلها فى مكانها الطبيعى من فصول السنة. وأشار الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فى خطبة الوداع بعرفة فى السنة المذكورة «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض».
وحرّم الله النسىء فى هذه السنة. فقال تعالى: «إنما النسىءُ زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاما».

والعرب كانوا يسمون شهر رجب بالفرد لعزلته عن الاشهر الحرم الاخرى. وربما كانوا يستعملون رجباً لحجهم الاصغر[1] يعنى العمرة، وهم يقولون للآن الحج الرجبى، ولا يزال هكذا يستعمل فى الموالد بمصر، فيقال المولد الرجبى أى الاصغر. على أن عدة الاشهر الحرم كانت عند غطفان ثمانية أشهر فى السنة، وكانوا يسمون ذلك البَسْل (بفتح الباء وسكون

(١) جاء فى تفسير الآلوسى فى الكلام عن قوله تعالى «الحج أشهر معلومات» انه الحج الاكبر وان الحج الاصغر هو العمرة.

السين) يعنى التحريم ، و فى ذلك يقول لهم اعشى بنى قيس :

أجارتكم تَبْسل علينا مُحرّم * وجارتنا حِلٌّ لكم وحليلها

ومعنى تحريمهم لهذه الشهور انهم كانوا يحترمونها، و يلقون فيها السلاح، و يتركون الغزو الذى كان عليه مدار حياتهم ، وهو لا يزال كذلك الى الآن فى كثير من أطراف جزيرة العرب . وكانت هذه الشهور كلها هدنة بين القبائل بأجمعها حتى لا يقف العداء حجر عثرة فى طريق الحاج منهم . ولذلك كانت العرب تستفضح من الحروب الاربعة التى وقعت لها فى هذه الاشهر، و يسمونها بالفِجار أى التى فجروا فيها، و فى ذلك يقول خداش بن زهير العامرى

فلا توعدينى بالفجار فانه * أحل ببطحاء الحَجون المخازيا

وقد أقر الاسلام الحرمة فى الاشهر الحُرُم : قال تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتالٌ فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله » . وسبب نزول هذه الاية أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش الى نخلة ، وأعطاه كتابا وأمره أن لا يفتحه الا بعد مسيرة يومين . فلما فتحه وجد فيه : « امض حتى تنزل بنخلة فأتنا من أخبار قريش بما اتصل اليك منهم » . فقال لاصحابه من كان منكم له رغبة فى الشهادة فلينطلق معى فانى ماض لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كره ذلك فليرجع فان رسول الله قد نهانى أن أستكره منكم أحداً . فمضى معه القوم وكانوا ثمانية حتى نزلوا نخلة ، فمر بهم عمرو بن الحضرمى فى نفر من قريش ومعهم تجارة ، وكان ذلك آخر يوم من رجب، فقتلوا ابن الحضرمى وأسروا رجلا من قومه وهرب بعضهم الى مكة ، ثم ساقوا العير فقدموا بها على المدينة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . ولما بلغ ذلك قريشاً قدم منهم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أيحل القتال فى الشهر الحرام ؟ فنزلت هذه الايه الشريفة بتحريم القتال فى الاشهر الحرم . ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وكانت قبائل العرب تجتمع قبل الحج : أهل الشمال فى بدر ومجنة بمرّ الظهران : الذى هو على بعد نحو مرحلة من مكة الى الشمال الغربى . وأهل الجنوب فى ذى المجاز : وهو على مرحلة

من عرفة شرقا الى الجنوب . وأهـل الشرق فى عكاظ : وهى واقعـة فيما بين قرن المنازل والطائف ، وتبعد بمرحلتين كبيرتين عن مكة (مائة كيلومتر تقريباً) ، وقد اتخذها العرب سوقا بعد الفيل بخمسة عشر سـنة واستمرت الى سنة ١٢٩ هـ ، ثم أبطلت اكتفاء بسوق عرفة ومكة . وعليه فقد كانت هذه الاسواق(١) بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الاخـلاق . وأظنك تحكم معى بأن العرب من أسبق الناس اليها ، بل سـبقوا بها الحكومات المتمدنة بقرون عديدة .

نعم سبقهم اليونانيون الى مثل هـذا الاجتماع فى الجمنازيونات (Gymnasumes) التى كانوا يقيمونها لالعابهم ، وأخصها تلك التى كانت فى أُولَـمْبِـيَة فى القرن الثامن قبل المسيح

(١) وأشهر هذه الاسواق بعد عكاظ سوق دومة الجندل فى صحراء نجد ، ثم مجنة وذو المجاز . وقد كان للقوم غير ذلك مجالس خصوصية للمناظرة والمـذاكرة والمحاضرة في كل حى من أحياء العرب . وكان فى مكة قبل الاسلام دار الندوة ونادي قريش بجوار الـكعبة . فلما جاء الاسلام كان أغلب اجتماعهم فى المساجد : فـكانوا يخطبون فيها وينشدون أشعارهم وكلها كانت حثاً على الفضيلة ومكارم الاخلاق . وكان القوم في المدينة يجتمعون في سقيفة بنى ساعدة لانها كانت لسعد ابن عبادة سيد الانصار ، وخطب أبى بكر وعمر بها يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تذكر ، لما كان لها من التأثير الذى حفظ للاسلام كيانه ووطد بنيانه . ولاشتغال مركز الخلافة مـدة الراشدين بالفتوحات ، كثرت بالـكوفة والبصرة دور العلم بطبيعة الحال لقربها من مدنية الفرس وحضارتهم . وظهر الخط الـكوفي بهما خصوصاً بعد أن وضع أبو الاسود الدؤلي الحركات ووضع لهم نصر بن عاصم الاعجام (النقط) فى ولاية الحجاج بن يوسف . وقد كانت الحروف العربية قبل ذلك منقوطة ، ولا حاجة لابداء الصعوبة التي كانت تعترى القراء في تعيين مثـل الباء من التاء من الياء ، فـكان ذلك أول خطوة في رقي الـكتابة العربية فنشأ عن ذلك كثير من المشتغلين بها مما كان داعية لاهتمام الناس بالعلوم العربية من لغة ونحو ونثر ونظم والشرعية كالحديث والفقه وغير ذلك ، فظهر فيها كثير من العلماء والشعراء والخطباء . وكان لهم فيها أندية للمناقشة والمفاخرة . وأكبرها كان في البصرة وهو المربد وكانوا يسمونها بعكاظ البصرة ، وفيه حصلت حملة مفاخرات بين الشعراء وعلى الخصوص بين جرير والفرزدق والراعي في مهاجاتهم بعضهم البعض . وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات تحصل فى مجالس الخلفاء لاسيما فى زمن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد وهشام بن عبد الملك . وكانت مجالس المنصور والمهدى والرشيد والمأمون ومجالس الخلافة في قرطبة بالاندلس حافلة بمفاخرات الشعراء ومجادلات العلماء مما كان سبباً لشحـذ القرائح ونمو المدارك وكثرة المباحث التي نضجت بها العلوم على اختلاف أنواعها وكانت سبباً لترقي الدولة الاسلاميـة في القرون الثلاثة الاولى الى أوج عرفانها وحضارتها وعمرانها .

وكان لهم تاج يسمونه بالتاج الأولمبي يلبسونه لمن برّز في هذه الالعاب ، التي كان الغرض منها تربية الجسوم وإعداد الامة لان تكون أمة حربية . ثم انتهى بهم الامر بعد ضخامة ملكهم أن استعملوا هذه المنتديات لعرض معلوماتهم وبنات أفكارهم . ومازالت حتى صارت تطلق الآن على دور التعليم في أوروبا وخصوصاً في ألمانيا . ومن هذا ترى أن أسواق العرب كانت أعم من أمثالها عند غيرهم .

وكانت سوق عكاظ تقوم في صبح هلال ذي القعدة ، وقد قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة بعد البعثة ليبشر في القبائل دين الاسلام . وفيه تقابل صلى الله عليه وسلم . بقس بن ساعدة واحترمه كثيرا . وكانت عكاظ أكبر أسواق الجاهلية لانها تلي أكثر جهاتها سكانا وأعظمها قوّة ومنعة ، وكانوا يبيعون فيها ويشترون ويتناشدون أشعارهم ويتفاخرون بمعاليهم من نسب عظيم وعمل خطير، خصوصاً في القرن الاوّل قبل الهجرة . وكان لهم مجلس تحكيم يعرف للناس مكانتهم وشجاعتهم وفصاحتهم وآدابهم ، وربما كان فيه العدوّ يشهد لعدوّه بالسبق من طريق الحق . وكثيراً ما كان هذا الاحتكاك السلمي يؤدي الى المصالحة بعد المكافحة فتنال الانسانية من وراء هذا الاجتماع خيراً كثيرا . وكانت كلمات السابقين من هؤلاء الشعراء تؤخذ وتعلق داخل الكعبة تكريماً لهم واشهاداً من الناس بأنهم من المفوقين . وأشهر هذه المعلقات وأكبرها بلاغة سبع [1] كان معظمها ولا يزال مدرسة لسموّ النفوس ومعالي الهمم وقد ترجمت الى كثير من اللغات الاجنبية ليتعرفوا منها كثيراً من عوائد العرب وأخلاقهم قبل الاسلام : وكانوا يسمونها بالمذهبات [2] .

(أنظر صفحة ١١٦ من الجزء الثالث من العقد الفريد لابن عبد ربه طبع بولاق)

(١) وأصحاب السبع المعلقات على ترتيب بلاغتهم هم : امرؤ القيس بن حجر ومات سنة ٩٤ قبل الهجرة . وزهير بن أبي سلمى ومات سنة ٥٢ ق ه . والنابغة الذبياني ومات سنة ١٩ ق ه . وعمرو بن كلثوم ومات سنة ٢٣ ق ه . والحارث بن حلزة ومات سنة ٣٤ ق ه . وطرفة بن العبد ومات سنه ٨٤ ق ه . وعنترة العبسي ومات سنة ٨ ق ه . وبعضهم يلحق بأصحاب المعلقات أعشى قيس، ولبيد الذي مات سنة ٥٤ هجرية وبشعره ضرب الامثال في الاسلام .

(٢) ذكر صاحب جمهرة أشعار العرب ان أصحاب المذهبات هم : حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة ومالك بن عجلان . وقيس بن الحطيم . واحيحة بن الجلاح . وأبو قيس بن الاسلت . وعمرو ابن امرئ القيس . وكلهم من الاوس والخزرج .

فيقرؤن مذهبة امرئ القيس ومـذهبة زهـير مثلا لانهم كتبوها بماء الذهب وعلقوها فى البيت الحرام، وبقى بعضها فيه الى يوم الفتح وحرق أغلبها فيما حرق من الـكعبة قبل الاسلام.
ولم تقتصر هذه السُّنة على الجاهلية بل وجدت فى الاسلام : فقد كتب هارون الرشيد عهدا بالخلافة الى ولده الامين من بعده ثم الى ولده المأمون ، وأرسـل به فعلق فى الـكعبة الى زمن الامين فاستدعى به ومزقه . ثم صار بعد ذلك كل من قام بشرف الخدمـة فى البيت الحرام من الملوك والسلاطين يتيمن بكتابة اسمه داخلها بجوار ذكر الأثر الذى له فيها .

ومازالت الـكعبة محترمة فى الجاهلية حتى أتى الاسلام وجعلها الله فى السنة الثانية للهجرة قبلة للمسلمين حيثما كانوا (وكانوا يصلون الى بيت المقدس) ، قال الله تعالى لنبيـه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينّك قبـلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . فـكان كذلك ، ومن ثم صارت الـكعبة قبلتهم فى صلاتهم تتوجه اليها وجوههم ، وتعنو لله فى قبالتها جباههم ، فى أى نقطة كانوا من هذه الـكرة الارضية ، لا فرق بين شمالى وجنوبى وشرقى وغربى بعيد أو قريب ، وبذلك أصبحت الـكعبة عندهم مركز الدائرة التى يرتبطون بها جميعا بحبل دينهم المتين : دين التوحيد ، دين المساواة ، دين الاخاء ، دين الحرية الصحيحة ، ولها فى نفوسهم من الاجلال والاعظام مالا يقوى على تعبيره لسان ، أو يتخيله جنان ، لا فرق فى ذلك بين أهـل مذهب ومذهب آخر . بل ترى المسلمين على اختلاف مذاهبهم يصلون حولها وراء أى امام كان : وهذا لا يدل فقـط على التسامح الموجود بين المسـلمين ، بل فيـه أكبر برهان على توحيـد الغاية التى يرمون اليها فى عباداتهم ، والتضامن الذى يجب أن يـكون بينهم ، وهذا التسامح لا نراه موجوداً بالمرة بين مذاهب الديانات الأخرى .

وقد جعل الله تعالى الطواف بالـكعبة من فرائض الحج الذى هو فرض عـين على كل مسلم يسـتطيع اليـه السبيل فى أى زمان ومكان ، وفرض كفاية كل سـنة على عموم المسلمين يسقط بقيام البعض به فان أهملوه أثموا جميعاً .

ومن الغريب ان كل من يقع بصره لاول وهلة على الـكعبة تراه فى دهشة كبيرة ، لا لـكون بصره وقع على شئ لم يتعود النظر اليه ، ولـكن لما يعتريه من الخشية والرهبة ! فترى هؤلاء

المشاهدين تأخذهم هزة كبيرة من هـذا المنظر المهيب ، ومنهـم من يقف لحظة فى مكان المتأدب المستكين المتصاغر امام هـذه العظمة الـكبرى ، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهث بكلمات منفصلة عن بعضها ، ومنهم من يجهش بالبكاء فلا تسمع له غـير نحيب يختنق معه صوته وتتقطع منـه أنفاسه . وعلى كل حال فنسـبة خوف الانسان من ربه على نسبة مع قوة دينه ومتانة يقينه .

— الطواف —

الطواف هو قطعك ما يحيط بالـكعبة من دائرة المطاف سبع مرات وتسمى أسبوعا (١) و يقال لها أشواط و يشترط فى الطواف الطهارة التامة ، و ينبغى أن لا يكون فى يدك مثل نعال أو غيرها من الاشياء الوسخة . وتبتدئ كل شوط من الحجر الاسود ، فاذا حاذيته تقرب منه وقبلته ان أمكنك والا توجهت اليه قائلا : « اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط فيسرها لى وتقبلها منى » ثم تسير مسلماً بيـدك قائلا « بسم الله الله أكبر » . وتطوف جاعلا البيت على يسارك من وراء الحِجْر و بعيدا عن الشاذروان .

والمطاف على شـكل دائرة بيضاوية من الشمال الى الجنوب ، وقد فرشت أرضه بالرخام من مدة بعيدة ، وأصلحت مدة السلطان سليمان القانونى . وهو على حدود الحرم فى عهده عليه الصـلاة والسلام . ومسافة ما بين آخره والـكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ مترا ، ومن جهة الشمال والشرق نحو ١٢ مترا ، وفيه لصق البيت مما يلى باب الـكعبة الى الشمال جزء

(١) بحثت فى كتب اللغة عن لفظ أسبوع فلم أجده ينصرف الا الى سبعة أيام الاسبوع أو الى سبعة أشواط . الطواف مع ان سبعات القوم كثيرة وقد مر بك شيء منها : فتبادر لذهنى أن لهذه التسمية علاقة بين المسميين وأن القوم ربما كانوا يطوفون في أحد أيام الاسبوع سبعة أشواط لكل يوم شوطا وربما كان يدعوهم الى ذلك ضيق زمنهم الذى كانوا يستعملونه وهم بعيدون عن مكة فى الحصول على عيشهم فى هذه البلاد التي تضيق بطبيعتها عن القيام بحياة أهلها . فلما جاء الاسلام لم يفرق بينها ، وجعلها كلها واحدة ، ولم يجعل لها زمنا معينا يؤدونها فيه .

وأشواط الطواف سبعة من زمن بعيد يؤيده قول تبع حسان ملك حمير .

ثم طفنا بالبيت سبعاً وسبعاً * وسجدنا عند المقام سجودا

انظر ذاليه فيما يأتي من هذا الـكتاب وهي التي وصف فيها ذهابه الى مكة فى القرن الثالث قبل الهجرة بقصد هدم الـكعبة ورجوعه عن فـكره واحترامه لها وكسوته اياها وطوافه حولها .

مربع منحط عنه ، سعته نحو مترين من كل جهة يسمى المعجن : وهو ما كان يعجن فيه اسماعيل المؤنة التى كان يستعملها ابراهيم فى بناء الكعبة وقد وجدنا فيه كتابة محفورة فى قطعة من الرخام مثبتة فى الشاذروان هذه صورتها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سلطان الانام الامام الاعظم ، المفروض الطاعة على سائر الامم ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله ، وزين بالصالحات أعماله ، فى شهور سنة ستة وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله » .

وعليه فقطر دائرة المطاف من الشمال الى الجنوب نحو ٥١ مترا ، ومن الشرق الى الغرب نحو ٤١ مترا ، والكعبة تقريباً فى وسطها . فاذا اعتبرنا أن متوسط ما يقطعه الطائف حول الكعبة مائة متر فى كل مرة ، ففى السبعة الاشواط يقطع سبعمائة متر . واذا عرفت ان الحاج يطوف مرات متعددة فى اليوم الواحد أقلها مرة قبل كل صلاة من الصلوات الخمس أو بعدها ، علمت أن الحاج بين شاب وشائب وصبى ذكر أو أنثى يقطع فى طوافه اليومى على رجليه نحو أربعة كيلومترات على الاقل ، بل منهم من يقطع أضعاف ذلك قبل وبعد الصلاة الواحدة .

وذكر ابن بطوطة فى رحلته انه رأى وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الازدى يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ، ولم يكن يطوف وقت القيلولة لشدة الحر : فكأنه كان يقطع فى طوافه كل يوم سبعين كيلومترا .

وللطواف مرشدون يقال لهم المطوفون . ولكل مطوف حجاج مخصوصون على حسب تغاير البلاد وتقاسيمها : فترى للاتراك أو الهنود أو البخاريين أو المصريين مثلا مطوفين خصيصين بهم ، بل لكل قسم من أقسام البلاد مطوف معلوم يتوارث عن أبيه خدمة حجاجه ، تعينه امارة مكة لهذا الغرض ، وكانوا قبيل الدستور كالملتزمين يحتكر كل منهم رسمياً صنفا من أصناف الحجيج لا يمكنه أن يتعداه الى غيره ، لانهم كانوا يشترون من أصحاب السلطة بمكة هذه الالتزامات : ولذلك كان لبعضهم سلطان على حجاجهم يأمرون فيهم وينهون ولا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة ، حتى اذا جاء الدستور أزال هذا التحكير ،

وأطلق الحرية للحجيج يطوفون مع أي شخص أرادوا .

وكيفية التطويف أن يجمع المطوف في الغالب حجاجه قبل الصلاة أو بعدها ويسير هو أو واحد من صبيانه على رأس كل جماعة منهم ، فيطوف بهم حول الكعبة وهو يتلو أدعية الطواف بصوت عال ، فترد عليه الجماعة التي تتبعه . وربما كان المطوف ولدا صغيراً لا يزيد عمره عن ست سنين أو سبعة : فيحمله بعض الطائفين على عاتقه ويطوف به وهو يلقنهم الدعاء على هذه الحالة . ومن الطائفين من يطوف وحده ويكون دعاؤه بينه وبين ربه .

وبعد صلاة الصبح والعشاء على الخصوص ترى المطاف مزدحماً بجماعات الطائفين بحيث لا يمكن أن ينحرك الرجل الا بحركة المجموع من كثرته . فاذا حاذوا الحجر الاسود انقض بعضهم عليه لاستلامه ولا يزال يزاحم بمنكبيه حتى يصل اليه . ولكن البعض الاخر يكتفي بالاشارة من بعد وخيراً فعل . ومن لم تكن لهم قدرة على المشي من الطائفين يجلسون في محفة يحملها أربعة على رؤوسهم أو أكتافهم ويطوفون بهم حول الكعبة ، وأغلب هؤلاء من الهنود وخصوصاً البنغاليين أو الجاويين : لان سواد حجاجهم ممن جاوز والثمانين ، يأتون الى هذه الاماكن المقدسة رجاء موتهم بها ، وهم يرون في ذلك كل سعادتهم ويعملون له طول حياتهم : لذلك تجد هذين الجنسين بؤرة الامراض التي تتفشى في الحجيج لان حالتهم الصحية تتأثر باى مؤثر بسيط وليس فيهم من القوه ما يقوى على دفعه وربما كانت حالتهم المعاشية تساعد الامراض بالفيد على الفتك بهم !!

ولقد ذكر أهل السنة للطواف فضائل كثيرة وحثوا على الكثرة منه ، وقالوا ان لم يتيسر للانسان ذلك فانه يحمل به أن يجلس في المسجد مستقبلا الكعبة مشاهدا فيها .

وبعد الطواف يذهب الطائف الى حِجْر اسماعيل فيصلي به ركعتين سنة الطواف يختمه بهما ، وان لم يستطع ففي مقام ابراهيم . وهو قبة قامت على أربعة أعمدة وأحاطت بها مقصورة نحاسية مربعة يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثة أمتار وستين سنتيمترا وهي على آخر المطاف تجاه باب الكعبة وفي داخلها الحَجَر الذي كان يقف عليه ابراهيم حال بناء الكعبة ، وبه أثر يقال انه أثر قدميه ، وذُكِرَ أن أثر قدمي ابراهيم في هذا الحجر انما كان باستناده عليه عند زيارته لمكة

بعد بناء الكعبة ، وكان هذا الحجر قبل الاسلام موضوعا بالمعجن الى جوار الكعبة ثم أبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرة ، ودفن بمكانه الحالى ، و بنى عليه فيما بعد القبة الحالية ، و يقولون ان تحته آلة البناء التى كان يعمل بها ابراهيم فى الكعبة . والعرب قبل الاسلام كانوا يعتقدون فى هذا الاثر و يحترمونه بل يقدسونه ، وهو المقصود بقول أبى طالب فى لاميته :

وموطئ ابراهيم فى الصخر رطبة (١) * على قدميه حافياً غير ناعل

و ربما أخذ العرب قبل الاسلام هذا الاثر من أثر القدم الذى بقبة الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف ، و يزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام وهم يقدسونه و يحترمونه . ومن ذلك أتى احترام المسلمين لآثار تلك الاقدام التى ينسبونها الى النبى عليه الصلاة والسلام : كما تراه فى قبة السيد البدوى فى طنطا ، و فى جامع المؤيد ، ومسجد قايتباى بالقاهرة ، و فى قبة الآثار النبوية فى الاستانة ، و فى خزانة الآثار النبوية بقبة الصخرة ببيت المقدس ، و فى مسجد ابراهيم بحَبْرُون . وعلى صخرة بيت المقدس آثار أقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أسرى به ، والى جوارها أثر قدم ينسبونه الى سيدنا إدريس عليه السلام ، والمسلمون هناك يقدسونها جميعاً كما يقدسون أثر قدم عيسى التى تراها فى محراب على يمين منبر المسجد الاقصى ، و يقول النصارى ان المسلمين فصلوها عن أختها التى فى قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا . و يقال ان فى محطة قدم التى فى جنوب دمشق أثر أقدام غائصة فى الصخر ينسبونها الى موسى عليه السلام وذكرها ابن جبير فى رحلته . وقد رأيت فى الفصل الرابع والثلاثين من كتاب محاضرة الاوائل للسكتوارى ان أوّل موضع اهبط الله فيه آدم جبل سرنديب ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص فى الصخرة طوله سبعون شبراً الخ ؟ ؟ ؟ وعليه فلابد أن تكون فكرة تلك الاقدام أخذتها العرب عن اليهود أو الهنود ان لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين و بقى أثرها فى المسلمين الى الان .

ولمقام ابراهيم كسوة من الحرير المزركش بالقصب تأتى اليه سنويا من مصر مع كسوة الكعبة . و يتصل بمقصورته من الشرق سقيفة على طولها ، بعرض متر وثمانين سنتيمتراً ،

---

(١) وفى رواية وطئة

يزدحم الناس لصلاتهم فيها ركعتى الطواف ، ثم يذهبون الى قبة زمزم . وباب هذه القبة الى الشرق وفيها بئر زمزم المشهورة وخرزتها من الرخام من عمل السلطان سليمان وهى مرتفعة عن سطح الارض بنحو متر ونصف ، ومن دونها حوض يصب الملاءون فيه بدلائهم ، ومن هذا الحوض يملأ السقاءون جرارهم ، الا ما كان لخاصة القوم فانه يملأ مباشرة من الدلاء الخارجة من العين . وهذه الحركة لا تكاد تنقضى فى مدة الحج أبداً . وللحجيج اعتقاد كبير فى ماء زمزم ويتهادون به فى آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة . ويزعم أهل مكة انه نافع لكل شئ بدليل حديث « ماء زمزم لما شرب له » . ويدعى بعضهم أنه يشرب به اتقاء الجوع فيشبع ، وأظن ان خدمة العين يبالغون فى فوائده مبالغة يتجسم معها الوهم عند شاربيه . ومن ذلك يتنوع طعمه من أذواق الناس على نسبة اعتقادهم فيه : فمنهم من يقول انه لا يعادله شئ فى لذته ، ومنهم من يرى انه أحلى من العسل وألذ من اللبن ، ويرى غيرهم خلاف ذلك قال المعرى :

تباركت أنهار البلاد سوائح * بعذب وخصت بالملوحة زمزم

والذى يفهم من ظاهر الحديث المذكور أن هذا الماء نافع لما شرب له من الادواء التى من طبيعته اشفاؤها ، ويفسره بذلك حديث « انها شفاء سقم » . وحقيقة فانه ماء فلو تكثر فيه الصودا والكلور والجير والحامض الكربنيك وحمض الازوتيك والبوتاسا ، مما يجعله أشبه شئ بالمياه المعدنية الصحية فى تأثيرها ، ويفيد قليله ولا تخلو الكثرة منه من الضرر ، خصوصاً فى غير موسم الحج حيث تكون بئرها مهجورة : لان أهل مكة لا يشربون منها لملوحتها . وفى هذه الحالة يزيد فيها الحامض الازوتيك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب . وربما كانت نصيحة بعضهم بالتضلع (كثرة الشرب) منها بعد طواف القدوم ، لتأثيرها على الجهاز الهضمى بما ينظفه من المواد التى تكون قد افرزت اليه مدة هذا السفر الشاق ، مما يكون نتيجته رد فعل تنشط به الاعضاء وتصح الجسوم . وقد قال الاطباء ان هذا الماء نافع للكلى والمعدة والامعاء والكبد .

ولفضل ماء زمزم وشدة اعتقاد الناس فى بركته ، تجرأ بعض خدمة المساجد فى مصر ،

وادعى تغريرا بالجهلاء من المسلمين بان عين الماء التى عنده فى مسجده لها امتداد على عين زمزم بمكة (كما هى الحال فى شهرة العين التى بمسجد الحنفى بالقاهرة !!) و يثبتون هذه الاكذوبة بفرية أشنع منها !! فيقولون ان رجلا من مصر كان حاجا فسقطت طاسة من يده فى بئر زمزم فلما حضر الى القاهرة عثر عليها فى تلك العين ! ولهذا ترى كثيرا من الناس يتبركون بها و يستشفون بمائها .

ولقد بلغ من اعتقاد الناس فى عين زمزم (وخصوصا الدكارنة والهنود) أنهم يأتون بقطع طويلة من القماش و يغرقونها فى مائها ثم ينشرونها على حصباء صحن الحرم ، حتى اذا جفت حافظوا عليها وأوصوا بها لتكون كفنا لهم عند مماتهم . و بلغ من اعتقاد بعضهم فيها أنهم يرجون أن تكون هذه البئر المقدسة مقبرة لهم ، حتى يكون لهم من بركتها وعالى مكانتها مقام كبير فى حياتهم الاخرى !!! ولقد حدث فى سنة ١٣٢٦ ه ان القى بعض الهنود بنفسه فيها حياً على غرة من خدمتها ، فاهتم الناس لهذا الأمر واستدعوا بالغواصين من جدة للبحث عن جثته ، و لم يعثروا عليها الا بعد عناء شديد . فاخرجوها ونزحوا من البئر كمية كبيرة صلح معها ماؤها ، أما هذا الجاهل فقد ذهب ولا أدرى الى رحمة الله أو الى نقمته !!

ولقد أجمعت التواريخ العربية ان مبدأ ظهور هذه العين من عهد قدوم هاجر مع ولدها اسماعيل الى مكة فكانت سبباً لعمارتها . وقد غاضت مياهها زمنا طويلا ولذلك يسمونها المضنونة ، و بقيت هكذا الى زمن عبد المطلب فحفرها ، واهتم بتوسعتها وتعميقها أبو جعفر المنصور والمأمون وغيرهما ، ولا تزال محل عناية الملوك والسلاطين الى الآن .

والأعراب يكادون يلصقون زمزم بنفس أركان الحج : فان الشخص منهم يضيف زمزم الى البيت الذى يحج اليه فى نفس الأمر ، واذا حلف فانه يقدم زمزم على مقام ابراهيم فى قسمه فيقول « والبيت الحرام و زمزم والمقام ما فعلت كذا مثلا » . وهذا القسم تصعد معرفتنا به الى معرفتنا بالعرب من عهد اسماعيل ، لذلك ترى الحجاج من الأعراب يدخلون الى زمزم جماعات و زرافات آخذين فى صدورهم كل من كان فى طريقهم ، حتى اذا وصلوا الى الحوض الذى بجوار البئر نزحوا ما فيه على رؤوسهم ، فيسيل الماء على ثيابهم الى أن تبتل

جميعها ، ثم يخرجون فرحين مستبشرين تظللهم عصى خدمة العين التى لا تؤثر فيهم بالمرة دون القيام بهذا الواجب الاقدس .

وليس الاعتقاد فى مثل ماء زمزم خاصا بالمسلمين فان للهنود اعتقاداً عظيما فى نهر الكنج و بحيرة مادن . والنصارى يعتقدون فى ماء الاردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلومترا الى شرق بيت المقدس و يسمونه نهر الشريعة لذلك ترى حجاجهم يذهبون اليه ، و يتبركون بالاستحمام به فى المكان الذى تعمد فيه المسيح ، و يأخذون من مائه فى آنية من الصفيح يتهادون بها عند عودتهم الى بلادهم . وأكثر النصارى اعتقادا فى ذلك الروسيون والاقباط أما الافرنج فاعتقادهم فى ماء لورده (Lourdes) فى جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم فى ماء الاردن .

﴿فشل الامراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة﴾

مما سبق ترى أن الكعبة مشرفة فى الجاهلية مشرفة فى الاسلام . لذلك اجتهد غير واحد من الملوك قبل و بعد الاسلام فى تحويل العرب عن وجهتهم للكعبة الى شئ غيرها .

وأول ما نذكر من ذلك أن تبع ابن حسان ملك ملوك حمير ، وهو عائد من حرب الاوس والخزرج بيثرب ، أراد هدم الكعبة وكان يهوديا فمنعه من ذلك من كان معه من أحبار اليهود ، فكساها وعاد الى بلاده . وقد كانت غطفان بنت حرما مثل حرم مكة فى القرن الاول قبل الهجرة بقصد تحويل العرب اليه ، وقد كان على العرب ملك اسمه زهير بن حباب ، فلما بلغه ذلك قال لا والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حى ثم نادى فى قومه وقال لهم ان أعظم مأثرة ندخرها عند العرب أن نمنعهم من ذلك فأجابوه الى مراده وجرى بينهما قتال شديد ظفر فيه زهير وأبطل حرمهم . وفى نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة ، دخلت جيوش الحبشة الى اليمن انتقاما من ذى يزن ملك حمير الذى كان يفتك بنصارى نجران من قومه ، فغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها . ثم تفرد ابرهة الاشرم بالحكم فيها ، و بنى فى صنعاء القليس (الكليسه) ، وأراد أن يحول اليها حج العرب فسار بجيوشه الى هدم الكعبة . فلما وصل الطائف عرج على مكة ، و بعث من ساق اليه أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب . فأتى

أبرهة وطلب منه أن يردها اليه . فقال له أبرهة « أتكلمني فى إبلك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أنى انما جئت لهدمه ؟ » فقال عبد المطلب « أنا رب الابل وللبيت رب يحميه » . فأعطاه أبرهة الابل فساقها هديا، ودخل عبد المطلب مكة وهو يخاطب أهلها بقوله :

يا أهل مكة قدوافا كمو ملك * مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشيّ قد سارت كتائبه * مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه * كمنع تبّع لما جاءها حرد (١)

و زحف أبرهة على مكة ، فلما وصل قريبا من المزدلفة عند جبال يسمونها جبال النار وجد نوعا من الطير الابابيل (٢) قد حلق على الجو وأخذ يرميهم بحجارة من سجيل « طين » بمقدار حبة العدس ، فلما وصلوا مكة فشا فيهم داء الجدرى الذى أصابهم ولا شك من مكروب كان كامنا فى الحجارة التى كانت تتساقط عليهم من تلك الطيور : و يؤيده قول عكرمة « ان من أصابته الحجرة جدرته » . ولعل هذه الحجارة كانت فى بيئة محدورة فى بلاد العرب أو فى غيرها، فتشربت من هذه المكروبات وحملتها الطيور الى هذه الجهة فكان منها ما كان . وكان مع جيش الحبشة ذلك الفيل الشهير عند العرب باسم محمود، وهو لفظ يصح أن يكون هنديا ان لم يكن مغوليا كان يطلق على نوع عظيم الخلقة من الفيلة ولا يزال هكذا مستعملا فى اللغات الافرنكية (Mamouth) ، فارادوا سوقه على مكة فلم يتمكن من الحركة الى هاومات ، و يقال انه دفن بمكانه المشهور بباب جرول الذى يخيم عنده المحمل المصرى ، وكانت له قبة كسرها الشريف عون الرفيق . ولما رأى أبرهة كثرة الامراض التى تفتك بقومه هرب وتشتت شمل جيشه، وصادف قومه السيل فاغرق أغلبهم، وهلك الباقى فى شتاته ولم يصل منهم الى اليمن الا من أخبر بحادثهم . وكان ذلك فى عام ولادته صلى الله عليه وسلم، والعرب تسميه عام الفيل ،وكانت تؤرخ به الى الهجرة : فيقولون وقع الامر

(١) حرد يعنى عصيان .
(٢) وهو مثل صغار العصافير السوداء ونوعه لا يزال موجوداً بالحرم يعيش في قبابه. وهو معروف في مكة باسم أبابيل، ويطلقونه على المفرد والجمع. وهو ما ذهب اليه أبو عبيدة والفراء حيث قالا لا واحد له من لفظه . وقال بعضهم مفرده ابيل كسكين أو أبال كعراب أو اباله بتشديد الباء وتخفيفها . وقال آخرون ان أبابيل وصف للطير بمعنى جماعات .

الفلانى قبل الفيل أو بعده بخمس سنين مثلا . وذهب ابن الكلبي الى أن واقعة الفيل كانت قبل ولادته صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة .

ولقد ذكر المؤرخ اليونانى مالالاس (Malala) فى تاريخه الذى طبع فى اكسفورد سنة ١٦٩١م، «ان أبرهة الاشرم فى حملته على مكة كان يركب عربة يقودها أربعة من الفيلة» وقد قال ابن الزبعرى أبياتاً يشير فيها الى هذه الحادثة منها هذان البيتان:

سائل أمير الجيش عنا ماترى * ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم * بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

ومرض الجدرى ما كان يعرف ببلاد العرب قبل هذا الوقت . وذكر المؤرخ بروكوبيوس (Procope) الذى ولد سنة ٥٠٠ من الميلاد ووصل الى رتبة الوزارة فى القسطنطينيه فى سنة ٥٦٢، ان أول ظهور الجدرى فى مصر كان سنة ٥٤٤ للميلاد فى مدينة بيلوسيوم : وهى مدينة عظيمة أطلالها بين بورسعيد ودمياط للآن ، ونقلت جراثيمه الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ وهى نفس السنة التى ظهر فيها المرض فى جيوش أبرهة حول مكة ، ولا يبعد أن الرياح أو الطيور نقلت اليها مكروبها فى تلك الاثناء ، فكان منها ما كان . ولا شك أن قوله هذا حجة لان مصر كانت لذلك العهد من أعمال الامبراطورية الرومانية . ويؤيد ذلك ماقاله الرحالة بروس (Bruce) الايقوسى فى رحلته الى بلاد الحبشة فيما بين سنتى ١٧٦٨ و ١٧٧٢ م التى كتب فيها عن كثير مما عثر عليه من الامور التاريخية والجغرافية والتاريخ الطبيعي ، وذكر فيما ذكره أنه رأى فى كتب الحبشة ان أبرهة رفع الحصار عن مكة للمرض الذى أصاب جيشه اذ ذاك ، واستنتج من صفاته أنه مرض الجدرى الذى انتشر من ذلك الوقت فى الشرق وأخذ يفتك فى الناس فتكا ذريعا ، حتى ألف فيه الرازى رسالته المشهورة فى الجدرى والحصبة . وهذه الرسالة لها قيمة كبرى عند أطباء الافرنج للآن خففت من مصابه كثيراً، غير أن هذا المرض الخبيث مازال يفتك ببنى الانسان حتى اخترع الاستاذ (جونر) (Jonner) الانكليزى مادة تلقيح الجدرى وأشهر أمرها سنة ١٧٦٩م وباستعمالها خفت هذه المصيبة وأصبحت لا أثر لها تقريبا فى البلاد المتمدنة ، الا أنها لا تزال موجودة بكثرة فى البلاد العربية لعدم العناية بها . لذلك يجدر

بكل من قصدها أن يلقح جسمه بهذه المادة قبيل سفره اليها . ومن أعجب ما شاهدت بالبلاد العربية عناية صاحب الجمل السليم بعدم قطره مع جمل أجرب خوفا من سريان العدوى اليه ، فى حين أن العرب أنفسهم لا يهتمون بفصل الاجرب من بينهم عن اخوته الاصحاء الذين لا يعتمون ان يصير واطعمة لهذا الداء المهلك !!! ولله فى خلقه شؤون .

و فى أيام المقتدر العباسى ظهرت فى العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون الى موالاة محمد بن الحنفية بن على كرم الله وجهه ، و يكفرون من لم يكن على مذهبهم . وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطى ، وقد بنى دارا فى هجر [1] سماها دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحج اليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة الى مكة و يفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج فى أيامه خشية منه . وسار القرمطى الى مكة فى عسكر كثيف أيام الحج ودخل بخيله و رجله الى الحرم و وضع السيف فى الطائفين والعاكفين والركع السجود على بغتة منهم ، وقتل فى مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفا واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما فى خزينة بيت الله الحرام من الجوهرات الثمينة ، واقتلع الحجر الاسود من مكانه ، وانصرف به الى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم !! و بقى مكان الحجر خاليا يتبرك الناس بمحله ، وبعد موت أبى طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم . فقام شنبر بن الحسين القرمطى بالحجر الى مكة ، وكان يحيط به بروازمن الفضة يضبط بعض القطع التى تكسرت منه حين قلعه ، فوضع فى مكانه على الحالة التى تراه عليها الآن .

و فى سنة ٤١١ دخل رجل الحرم بصفة درويش وضرب الحجر بعمود من حديد كان معه . فقامت عليه الاهالى وقتلوه شر قتلة . وكانت قد تطايرت من الحجر ثلاث قطع مثل ظفر الانسان فاخذت والصقت فى مكانها بحيث لا يمكن ملاحظتها . و يزعمون أن الحاكم بأمر الله الفاطمى هو الذى كان أرسل ذلك الرجل حتى اذا كسر الحجر الاسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة الى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة .

ولقد ذهب بعضهم الى ان اهتمام عبد الملك بن مروان بعمارة بيت المقدس بالفخامة التى

---

(١) قرية مشهورة من أعمال البحرين .

كان يعمره بهاء انما كان لصرف مسلمى الشام ومصر وما والاهما شمالا وغربا الى حجهم اليه اذا تمت الغلبة لابن الزبير على بلاد الحجاز . كما زعموا أن المنصور العباسى لما بتنى مدينة بغداد وشيد فيها قصره المشهور بقصر الذهب بنى الى جواره القبة الخضراء وبالغ فى زخرفها ليولى وجوه الناس شطرها ، وهى تهمة لا نراها فى مكانها لما نعتقده من كمال دينهما ومتانة يقينهما رحمهما الله .

هذا وانى أظن أن ما يجرى للآن على لسان بعض السذج من فلاحى مصر من أنه يجىء يوم ينقطع فيه طريق الحج الى مكة ، وعندها يحج الناس الى مقام السيد البدوى فى طنطاء انما كان أثرا سياسيا لبعض ملوك مصر يقرب به الى الوهم امكان حصول ذلك ، حتى اذا سنحت له الفرصة مضى فى سبيلها . ومع زوال هذه الفكرة بزوال صاحبها فان هذا الاثر السىء بقى على السنة بعض السذج للآن !! ومن هذا تلك الجرأة التى ذهبت بتسمية بعضهم لقبة الميضأة التى نراها فى وسط صحن مسجد ابن طولون فى القاهرة بالكعبة ، ولا أدرى اذا كانت هذه التسمية قديمة على عهد ابن طولون فنشك فى علتها أو من وضعيات بعض الجهلاء فنرجو الله أن يغفر هاله .

لهذا كله ترى خدمه الكعبه الشريفة كلهم عيونا تباشر حركة الطائفين حول الكعبة المكرمة وخصوصا الاعجام الذين ينسب لهم أهل مكة ظلما أنهم لا يتأخرون عن تدنيس الحجر الاسود اذا سنحت لهم فرصة تمكنهم من ذلك ، ويقولون انهم دنسوه فى سنة ١٠٨٨ وفى سنة ١١٤٣ وفى سنة ١١٥٥ حتى يصرفوا الناس عنه ، وهو أمر ان لم يكن بعيدا عن الصحة فلا شك فى أنه مبالغ فيه : والسبب فى ذلك هو كراهية أهل مذهب لمذهب آخر ، يؤيده ما قاله العصامى فى تاريخه من أنه رأى بنفسه القذارة على الحجر وعلى أستار الكعبة فى سنة ١٠٨٨ ، وظن أنها عجينة من دقيق العدس كان الغرض منها الايقاع باهل الشيعة .

أما ما حصل فى سنة ١١٥٥ فاصله سياسى محض : ذلك ان ملك الفرس نادر شاه طومان أرسل الى الشريف مسعود فى تلك السنة يطلب منه ضرورة اقامة صلاة خامسة فى

الحرم للشيعة . فارسل الشريف بالخبر الى الدولة العلية فاتهمته بانه مشايع الاعجام . فتخلصا من هذه التهمة اتهمهم هو بهذه الفعلة الشنعاء حتى يوغر عليهم صدور الناس وأمر بان تلعن الرافضة على المنابر ولا يزالون يلعنونهم عليها فى الحرمين الى الآن !!!

هدايا البيت الحرام

لعظم مكانة بيت الله الحرام عند الناس كانوا يتقربون اليه قديما وحديثا بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة والحلى الفاخرة . فكانت تحفظ أولا فى بئر فى الكعبة يسمونها غبغب[1] أو عبعب ، ولكن سدنتها كانت تلتهمها أولا فأولا . ومما وصل من هداياه القديمة الى عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزالان وسيفان من ذهب ، كان ساسان[2] ملك الفرس أهداها الى الكعبة (انظر تاريخ ابن خلدون) فضرب بهما صفائح وصفح بهما بابها .

فلما كان عبد الله بن الزبير حلى أساطينها بصفائح الذهب . وأرسل عبد الملك بن مروان بثلاثين ألف دينار الى عامله على مكة ، خالد بن عبد الله القسرى ليحلى بها باب الكعبة والاساطين التى فى جوفها وأركانها من الداخل . وزاد فى ذلك ولده الوليد فى عمارته للمسجد الحرام . وأرسل الرشيد الى عامله على مكة سالم ابن الجحاج بثمانية عشر ألفا من الدنانير فضرب بها صفائح سمرت على الباب ، وجعل مساميرها وحلقتى الباب وعتبتها من الذهب . وذكر ان المتوكل العباسى عمل زاوية من زوايا الكعبة بالذهب (ولعلها كانت تشققت فملأها ذهبا يربط به طرفيها ، ولا يخفى ان هذه المادة تستعمل الآن لمتانتها فى ربط الاجزاء الثمينة بعضها ببعض) ثم كسا عتبة الباب بالفضة ، وعمل له عضادتين من الذهب بدل اللتين أخذهما بعض

---

(١) العبعب فى اللغة المنحر ولا يبعد انهم كانوا ينحرون على حافته قرابينهم فى الجاهلية ولما جاء الاسلام سدت هذه البئر وأزيل ما حولها من الاصنام والانصاب والازلام .

(٢) ساسان هو رأس الدولة الساسانية التي حكمت بلاد الفرس من سنة ٢٢٥ ميلادية الى سنة ٦٥١ الى استولت فيها العرب على بلاد العجم .

أمراء مكة . وذكر أيضا أن أم المقتدر العباسي أمرت فى سنة ٣١٠ فالبست جميع اسطوانات البيت ذهبا . حتى اذا دخلت القرامطة سنة ٣١٧ الى مكة جردت البيت من جميع ما كان به من الحلى والذخائر .

وفى سنة ٥٥٢ اقتلع الخليفة المقتفي باب الكعبة وصنع عوضه بابا مصفحا بالذهب وعمل من القديم تابوتا له يدفن فيه بعد موته .

وقد كانت أيدى السلاطين والأمراء والملوك لا تقف فى أى زمن من الازمان عن تقديم الهدايا النفيسة الى بيت الله الحرام ، كما كانت يد الاشقياء لا تقف عن التطاول اليها ! سواء فى ذلك حجبتها أو غيرهم !! وممن جدد بعض الحلى التى عبث بها هؤلاء الاشرار كثير من الملوك والامراء نخص بالذكر منهم السلطان الناصر قلاوون ثم السلطان سليمان القانونى ثم السلطان مراد الرابع .

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة فهى من زمن بعيد . وأول من كساها تبع أبو كرب أسعد ملك حمير ، حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة : كساها بالبرود المعصبة وعمل لها بابا ومفتاحا وفى ذلك يقول مفتخرا :

ورد الملك تبّع [١] وبنوه * ورّثوهم جدودهم والجدودا
ادجبيا جيادنا من ظفار [٢] * ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فاستبحنا بالخيل ملك قباد [٣] * وابن اقلود [٤] جاءنا مصفودا

(١) تبع لقب كان يطلق على ملك ملوك حمير وهو فى قوة لفظ امبراطور الآن .
(٢) ظفار كانت مدينة عظيمة من مدن اليمن واطلالها باقية الى الآن فيما بين عدن وصنعاء ولها اقليم يسمى الى الآن باسمها .
(٣) ملك من ملوك العجم . (٤) لعله أمير من أمراء العراق أو الشام .

فكسونا البيت الذى حرم الله ملاء مقصباً وبرودا

وأقمنا به من الشهر عشرا * وجعلنا لنابه اقليدا (١)

ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا * وسجدنا عند المقام سجودا

وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطى (قماش مصرى) زمنا طويلا. ثم أخذ الناس يقدمون اليها هدايا من الكساوى المختلفة فيلبسونها على بعضها، وكان اذا بلى منها ثوب وضع عليه ثوب آخر الى زمن قصى، فوضع على القبائل رفادة لكسوتها سنويا واستمر ذلك فى بنيه. وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الاسلام يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها أخرى فسمى بذلك العدل لعدله بين قبائل قريش فى كسوة الكعبة. وقد كساها النبى صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية. ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان. ولما حج الخليفة المهدى العباسى سنة ١٦٠، كان على الكعبة جملة كساوى فشكا اليه سدنتها من كثرتها فامر بها فانزلت تخفيفا عن سقفها، وأمر بان لا تعلق عليها الا كسوة واحدة فكان كذلك الى الآن. أما كسوتها من الداخل فمذ ورد فى محاضرة الاوائل للسكتوارى أن أول من كسا البيت بالديباج والدة العباس بن عبد المطلب حين ضل العباس صغيرا فنذرت ان وجدته لتكسون الكعبة فوجدته ففعلت.

وكان العباسيون يبالغون فى العناية بكسوتها، وكانت من الحرير الاسود (وهو شعارهم)، وكانوا يعملونها بمدينة تنيس المصرية التى كانت لها شهرة عظيمة فى المنسوجات الثمينة (انظر مادة تنيس بالمقريزى) وكانت ثغراً لمصر فى شمال دمياط فهدمها الملك الكامل سنة ٦٢٤ لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الفرنجة فى الحروب الصليبية، ولما كانت تتكلفه مصر فى المحافظة عليها، ولا تزال أطلالها موجودة قرب مدينة المطرية (دقهلية).

وقد قال الفاكهى فى أخبار مكة: رأيت كسوة مما يلى الركن الغربى (من الكعبة) مكتوبا عليها «مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بامر الفضل بن سهل ذى الرآستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة» ورأيت شقة من قباطى مصر فى

(١) الاقليد هو المفتاح.

وسطها مكتوبا فى أركانها بخط دقيق اسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنه ست ومائتين » و رأيت كسوة من كساوى المهدى مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » و رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله ، محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة » وكان من أعمال تنيس قرية يقال لها تونة وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا . قال الفاكهى : و رأيت أيضا كسوة لهرون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله ، مما أمر به الفضل بن الربيع ان يعمل من طراز تونه سنة تسعين ومائة » .

ومازال العباسيون يهتمون بأمر كسوة الكعبة حتى اذا ضعف أمرهم صارت ترسل تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر ، الى ان استقرت فى سلاطين مصر فوقف عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون قريتى باسوس وسندبيس من أعمال القليوبية . ومن ثم صارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء اليها سنويا . وكان كلما يتجدد ملك أو سلطان يرسل للكعبة بكسوة داخلية من الحرير الاحمر ، و باخرى خضراء للحجرة الشريفة النبويه . فلما استولت الدوله العليـة على مصر اختصت بكسوة الحجرة الشريفة النبوية وكسوة البيت الداخلية ، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية . ومن ذلك الوقت صارت هذه الكسوة المباركة ترسل من مصر سنويا : وهى ثمانية ستاير من الحرير الاسود المكتوب بالنسيج فى كل مكان منه « لا اله الا الله محمد رسول الله » وطول الستارة نحو خمسة عشر مترا ، ومتوسط عرضها خمسة أمتار و بعض سنتيمترات . وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاها فى حلقات من الحديد غاية فى المتانة قد ثبتت فى سقف الكعبة ، ثم تربطان الى بعضهما بواسطة عرى وأزرة ، وتثبتان من أسفل فى حلقات وضعت فى الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة ثبتت فى التى

بجوارها بواسطة هذه الازرة، حتى اذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الاسود، ثم يوضع على محيط البيت المعظم فوق هذه الستاير فيما دون ثلثها الاعلى حزام يسمى رنكا، مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل العربى آيات قرآنية، كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة (فى زمن المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر) الخطاط الطائر الصيت النادرة النابغة المرحوم عبد الله بك زهدى أحسن الله اليه.

ومكتوب على الحزام من الجهة التى فيها باب الكعبة « بسم الله الرحمن الرحيم، واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل، أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود. واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا، انك أنت التواب الرحيم » ومكتوب فى الجهة التى تليها من جهة الحجر الاسود « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين. ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم. بسم الله الرحمن الرحيم، واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق » ومكتوب فى الجهة المقابلة للمقام المالكى « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ومكتوب فى الجهة الرابعة وهى التى بها الميزاب « فى أيام دولة مولانا السلطان الاعظم ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازى ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان ابراهيم خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان عثمان خان خلد الله تعالى ملكه ».

والكسوة الشريفة تعمل فى مصر سنويا بدار فسيحة بالخرنفش وادارتها موكولة لمديرها الهمام صديقنا عبد الله فائق بك الذى ترقت الكسوة فى مدته رقيا ظاهرا باهرا بالتحسينات

التي يدخلها عليها من آن الى آخر .

ومصاريف الكسوة تصرف الآن من المالية وميزانيتها سنويا ٤٥٥٠ جنيها مصريا وبيانها هكذا .

جنيه	
٠٥١٥	ثمن مخيش فضة وملبس بالذهب ١٤٩٣٥ مثقالا و ٣٨٠٥ مثقالا فضة بيضاء .
١٦٦٤	اجرة شغالة فى الزركشة وعددهم ٤٧ نفراً .
١١١١	ثمن حرير واجرة اسيج والذين يشتغلون فيه عددهم ٧٠ نفراً .
٠٢٠٠	ثمن أدوات للتشغيل مثل بفتة وخلافها .
٠١٥٠	مصاريف ليلة المهرجان المعتاد عمله للاحتفال بموكب الكسوة السنوى .
٠٠٦٠	عوائد تصرف للشغاله يوم نهاية عمل الكسوة .
٠٨٥٠	ماهيات مستخدمين ومرتبات خدمة ادارة الكسوة .
٤٥٥٠	الجملة

الآن الجناب العالى الخديوى بعد عودته من الاقطار الحجازية أمر حفظه الله بزيادة العناية بالكسوة الشريفة مما زاد فى ميزانيتها وسيزيد فى بهائها ورونقها .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها بالبرقع ، وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف وهى من الاطلس المصنوع بالمخيش الذهبي والفضى .

وعند اتمام عمل الكسوة يعمل لها موكب عظيم فى نحو منتصف شهر ذى العقدة بحضره الجناب العالى الخديوى أو نائبه فيسيرون بها فى موكب فخيم من المكان المعروف بمصطبة المحمل الى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه ، حيث يسلمها حضرة مأمور تشغيلها الى المحاملى فى مجلس يعقد بحضور نائب من قبل سماحة قاضى مصر وبشهادة حضرة أمير الحاج للسنة المرسلة فيها ، وبعد أن يعمل بذلك اشهاد شرعى توضع فى صناديق وترسل

مع ركب المحمل الى مكة . ويرسل معها غلايتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقى لغسيل الكعبة المكرمة .

وهنالك تسلم الكسوة لحضرة الشيبى القائم بسدانة الكعبة باشهاد شرعى بحضرة العلماء والكبراء فتبقى فى منزله الى صباح يوم عيد النحر فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد انزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خلوا من الناس لان سوادهم يكون بمنى ، ولا يصبح مكة منهم الا نفر قليل .

اما الكسوة القديمة فيرسل المفصب منها عادة الى سيادة الشريف ، واذا كان الحج بالجمعة يرسل الى جلالة السلطان ، والغير المفصب يأخذه الشيخ الشيبى فيبيعه على الحجاج ، وبجوار باب السلام دكاكين مخصوصة لذلك . وقبيل الحج يقطع الشيبى نحو مترين من أسفل ستاير الكعبة ويعوضها بازار من البفتة البيضاء يسمونه احراما ، وليس لهذا عندى من معنى ، اللهم الا لحاق الوقت لبيعه قبل الموسم على الحجاج بثمن كبير . وكان عمر ينزع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج وتبعه فى ذلك عثمان ، الى أن وجد شيئا منها على حائض فأمر بحفر حفرة وألقى فيها الكسوة القديمة وأهال التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له عائشة « ان ثياب الكعبة اذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى وابن السبيل » . ومن ثم صاروا يبيعونها ، وهم يأخذون ثمنها الآن لانفسهم .

ولم يكن بيع استار الكعبة أو كسوة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم للتبرك بهما مما يؤخذ على المسلمين فى دينهم الذى لم ينص فيه على شىء من ذلك . لان الاعتقاد فى آثار الانبياء والصالحين شىء قديم فى جميع الشعوب . واعتقاد النصارى من الفرنجة فى آثار البابا عظيم جدا : فقد حدثنى صديقى عزيز بك الفلكى أن خالته (وهى فرنساوية الجنس كاثوليكية المذهب) كان عندها قطعة صغيرة من نعل البابا « بى » التاسع طولها ٢ سنتى متر فى عرض نصف سنتى ، اشترتها بار بعين جنيها وغلفتها بصفيحة من الذهب ، وكانت تحملها تميمة ثمينة تتقى بها جميع الامراض والطوارئ السيئة ، على أن مجرد الاعتقاد فى مثل هذه الامور

لايخلومن الفائدة الفعلية .

المحمل

ذهب بعض المؤرخين الى أن المحمل يبتدئ تاريخه من سنة ٦٤٥ هجرية ، وقالوا انه هو الهودج الذى ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر فى حجها فى هذه السنة ، وصار بعدها يسير سنويا أمام قافلة الحاج وليس فيه من أحد لان مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم .

والذى أراه أن المحمل قديم جدا وربما كان من قبل الاسلام ، وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة ، وقد سير رسول الله صلى الله عليه وسلم محملا الى مكة بهداياه الى البيت المعظم ، ومن ذلك مانراه فى التواريخ من اسم المحمل العراقى والمحمل اليمنى وما نشاهده الآن من محمل ابن الرشيد[١] ومحمل ابن سعود ومحمل ابن دينار ، وكل ذلك ليس الا جمالا تحمل صرتهم الى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ ، وكذلك محمل النظام ملك حيدر أباد بالهند يأتى مكة مع الحاجين من بلاده حاملا هداياه الى أهل الحرمين الشريفين . ولقد جاء فى الكلام على دارفور فى تاريخ السودان لنعوم بك شقير تحت عنوان صرة الحرمين ما نصه : «وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الارض كلها لا تدفع جزية لاحد ماعدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة فكان موكب المحمل يأتى[٢] الى مصر ومعه الريش والصمغ وغيرهما من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى » .

وعليه فمحمل شجرة الدر انما كان يسير امامها حاملا الهدايا التى أخذتها معها للبيت المكرم فى هودج مزين بابهى زينة وغاية ماهنالك انها عنيت به ورتبت له كثيرا من الخدم

---

(١) وأمير محمل ابن الرشيد يسمونه سبهان .

(٢) أما الآن فمحمل ابن دينار يتوجه الى الخرطوم ومنها بالطريق الحديدي الي بورسودان ومنها يبحر الى جدة .

والحشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة ، ومازالوا يبالغون فى زينته من سنة لاخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الجمل حمل غيرها معها ، (وكسوة المحمل الحالية مع هيكله الخشبي لا تقل عن ١٤ قنطاراً) ، وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا يحمل فى صناديق على جمال أخرى تسير مع الحملة .

ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الايوبية . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشي فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذى يعينه الجناب العالى الخديوى سنويا ، وهو من الباشوات العسكريين فى الغالب ، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة فى ميدان الملعة يمر على المصطبة ، وهى المكان المعد لجلوس الجناب العالى الخديوى يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام والعلماء الاعلام وكبار وذوات العاصمة ، وهنالك يأتى حضرة مأمور الكسوة الشريفة وبيده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناب العالى منه ويسلمه الى أمير الحاج ، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه الحاملون والجمالة ثم الفرايحية (الطبالون) على جمالهم . ويستمر هذا الموكب سائرا الى المحجر فالدرب الاحمر ويمر من بوابة المؤيد فالغورية فالنحاسين فباب النصر فالعباسية . وهنالك يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل الى خيامهم التى ضربت لهم فى فضاء العباسية ، وينصب المحمل فى وسط ساحتها لزورة من يريد التبرك به حتى اذا كان يوم السفر الى السويس نقلوه مع أدواتهم وذخائرهم الى وابور المحمل الذى يكون مهيأ فى محطة العباسية ، وبعد الشحنة يسير الى السويس ومنها يبحر الى جدة ، ثم يقصد مكة براً .

وفى سنة ١٣٢٨ سافر المحمل مع قوته على الاسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ حضره الجناب العالى الخديوى ومنها أبحر الى يافا وركب الوابور الى المدينة المنورة ، وبعد الزيارة سافر الى مكة من الطريق الفرعى ، وبعد أداء فريضة الحج عاد الى جدة ومنها الى الطور ثم الى السويس ثم الى القاهرة . والحكومة الآن تهتم فى تقرير

قاعدة لسيره فى الطريق الاقل كلفة ومشقة .

وللمحل المصرى كسوتان : كسوته اليومية وهى من القماش الاخضر ، وكسوته المزركشة ولا يلبسها الا فى المواكب الرسمية . وفى أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبى وباب السلام بكسوته اليومية . فيكون هناك مزاراً للناس على اختلاف أجناسهم ، ولا ينقلونه من هذا المكان الا فى مواكبه الرسمية . وعند السفر به الى المدينة المنورة يسير اليها ركبه اما بالبر من الطريق السلطانى أو الفرعى أو الشرقى ، و إما من طريق البحر من جدة الى ينبع ومنها برا الى المدينة أو الى الوجه ، ومنه الى محطة العلا ، ثم يتوجه فى السكة الحديدية الى المدينة ، والمحمل الآن يسير فى هذا الطريق الاخير لعنت أعراب الطريق البرى من مكة وينبع وتشددهم فى طلباتهم وزيادة مرتباتهم .

وعند وصول المحمل الى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبريه ، وهنالك يطلق له واحد وعشرون مدفعاً ، حتى اذا وصل الى الباب المصرى ترجل كل من فى موكبه اجلالا لمقام الرسول صلوات الله عليه ، فاذا وصلوا الى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهنالك يرفع المحمل ويوضع فى مكانه من الحرم غربى المنبر الشريف وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، ويلبس أمير الحاج ومن معه من المستخدمين لباس الخدمة فى الحجرة الشريفة (وهو عمامة وفرجية بيضاء مشدود عليها حزام أبيض) ، ثم يحملون كسوة المحمل بكل احترام ويدخلونها فى الحجرة الشريفة من الباب الشامى ويتركونها فى جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضى الله عنها . ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم سفر المحمل من المدينة المنورة ، ويركبون بها فى يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال فى يوم دخوله .

وعند عودة المحمل الى مصر يحتفل بقدومه رسمياً احتفال كبير يحضره الجناب العالى الخديوى أو من ينيبه عنه ، فيسير الموكب من العباسية الى القلعة من الطريق التى كان خرج منها ، حتى اذا وصل الى مكان الجناب العالى الخديوى فى المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسلمه الى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعندها تطلق المدافع ويتم

الاحتفال . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن فى المالية ، وهذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة مرة وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصرى . اما كسوته الخضراء فيكسى بها سنويا بعد عودته ضريح سيدى يونس السعدى (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له مدة حياته خدمة فى سفرية المحمل .

واليك كشفاً ببيان ما يصرف من المالية سنويا فى تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها فى مكة والمدينة المنورة حسب الوارد فى الميزانية الاخيرة .

جنيه	
٠١٢٨٢	مرتبات وتعيينات لاميرالحاج ومستخدمى المحمل .
٠٢٥١١	« العربان .
٠١٤٩٣	« الاشراف بمكة والمدينة المنورة .
٠١٩٦١	« تكية مكة .
٠١٦٥٧	« تكية المدينة المنورة .
٠٢٨٧٩	« أهالى مكة والمدينة .
٠٣٠٠٠	« لمكة والمدينة تصرف سنويا من أوقاف الحرمين والاوقاف الخصوصية والاهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية .
٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة .
٠١٦٢٩	« شمع وقناديل للحرمين .
٠٠١٥٥	« خيام وقرب وخلافها .
٠٤٢٤٨	أجرة منقولات براً أو بحراً وأجر جمال .
٠٦٤٢٠	قيمة ما يرسل كل سنة الى الحرمين الشريفين من الزيوت والحصر وخلافها من ديوان الاوقاف .
٠٠٢٦٥	مصاريف نثرية .
٥٠٠٠٠	مجموع المنصرف سنويا .

واذا قارنت هذا المبلغ بما جاء في المقريزي عند الكلام على قافلة الحاج وجدت أنه نحو نصف ما كان يصرف عليها في زمن الفاطميين . قال المقريزي : « قال في كتاب الذخائر والتحف ان النفقة على الموسم كانت في كل سنة تسافر فيها القافلة مائة الف وعشرين الف دينار ، منها ثمن الطيب والحلوى والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصل الى الحضرة أربعون الف دينار ، ومنها في ثمن الحمايات والصدقات واجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون الف دينار ، وان النفقة كانت في أيام الوزير البازوري قد زادت في كل سنة وبلغت الى مائتي الف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك في دولة من الدول » .

ولقد كان لركب المحمل في الدولة المصرية شأن كبير ومقام خطير، وكانت مرتبة أميره في المرتبة الثالثة من مراتب الدولة، وكان صاحبها في عهد المماليك مرشحاً لان يكون حاكما للعاصمة التي هي اهم وظيفة عندهم بعد وظيفة الوالي والسلطان ، وله رأي مسموع وكلمة محترمة ، وكانت وظيفته مستديمة وتوليته بفرمان سلطاني ، وله المكانة العليا والكلمة النافذة في بلاد الحجاز ، وكثيراً ما كان يصدر أمره بعزل وتولية امراء مكة . ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفاء بالمحمل أنهم قضوا على جميع حكام البلاد التي كان يمر عليها في طريقه بان يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله وما زالت امراء مكة يقبلونه أيضاً في استقبالهم له الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة ٨٤٣ . وكان الاحتفال بطلوع وعودة المحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن اسماعيل من الفخامة بمكان عظيم ، وكانوا عند عودته يبلون السكر فرحاً به في احواض كبيرة يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام وهي عادة قديمة جداً . وكان يسافر في خدمته غير مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف، كثير من الخدم والحشم والعكامة والجمالة والفراشحية والنجارين والفراشين والخيمية والسقائين ، وكان ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساوي والحلويات ومن شأنه توزيع الحلويات والكساوي التي كانت ترسل للعرب

واستعيض عنها الآن بصرف أثمانها لأربابها . وكان يخرج معه موظف برسم مأمور الذخيرة في عهدته البقسماط الذي كان يؤخذ لما عساه يحصل في الأيام الغير المعتادة التي كانوا يحتاجون فيها للصرف على الحجاج اذا اقتضت الضرورة . وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الجمل ، وآخر اسمه أبو القطط ، ثم سائس الهرجلة (الهركله) ومقدم العيط ، ثم سواق المقاطيع وكانت وظيفة الاول أن يشتري الجمال اللازمة للمحمل ، ويركب وراء جمل المحمل في موكبه لملاحظته في سيره من الخلف كما يلاحظه المحاملي في سيره من الامام . أما الثاني فيقولون انه كان يقوم بغذاء القطط التي كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره في البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فهي التي غيروها بوظيفة امام المحمل . ويقال ان وظيفته كانت من عهد حج شجرة الدر ، أما الثالث فقد كان رئيسا للضويه والعكامة يستدعيهم عندما تكون هناك حركة مهمة ، فيأتون بغير نظام بين صياح وهياج وكلام . والرابع كان مباشر الدين يقعد بهم المرض أو ضيق ذات اليد عن الاستمرار مع الركب . وجميع هؤلاء كان تعيينهم بفرمانات مخصوصة بعضها من السلطنة وبعضها من ولاة مصر ، ولهم مرتبات بالرزنامجة من عهد بعيد . وقد استغنى الآن عن كثير منهم في سفرية المحمل لعدم الحاجة اليهم مع صرف مرتباتهم لهم ، كما استغنى أخيراً عن وظيفة أمين الصرة التي يؤديها الآن واحد من كتبة المالية تندبه النظارة لذلك .

وكان للمحمل عشرون جملا لهذه المأمورية . وكان لها مناخ في بولاق بجوار شيخ اسمه سيدي سعيد . وكانت الحكومة في الزمن السابق تشتري مع هذه الجمال جملا تجعله فداء عنها كل سنة : فيأتي به الجمالة قبل موكب الحج ويركبون عليه شيخ الجمل ويسيرون به ومعهم العكامة والضويه وأمامهم القرابحية يحيط بهم كثير من الغوغاء ، ويمرون في القاهرة ثم يذهبون الى باب الشيخ سعيد ويذبحونه هناك . وكان المحاملي يأخذ ربعه ، والجمالة ربعه ، وخدمة الشيخ سعيد ربعه ، وخدمة الشيخ يونس الربع الباقي . وكانوا يبيعون لحمه الى الناس على سبيل البركة مدعين أن لحمه ينفع للصداع وشحمه للبواسير ، ولذلك فانهم ما كانوا يلقون به الى الارض بقصد ذبحه ، حتى يهجم عليه الحاضرون من العامة ويقطعونه اربارا بأيديهم قبل

ذبحه ويأخذ كل منهم ماتسمح به قوته . وكان كثيراما يؤدى ذلك الى ضرر جسيم يستهين به هؤلاء الجهلاء فى جانب هذا الاعتقاد السخيف . فلما بلغ ذلك الجناب العالى حفظه الله أمر بابطال هذه العادة الشنيعة مع صرف قيمة ثمن الجمل الى أربابه جزاه الله عن الدين والانسانية أحسن الجزاء .

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور بحمام الحمى يملأ سطوح المسجد الحرام ومنافذه وطاقاته . فتجده معششاً هنا وهناك ، ويجتمع زرافات زرافات فى جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص فى الجهة الشرقية ، وله فيها مكان مخصوص فيه أحواض لشربه ، وبجواره مكان يلقى فيه حب القمح المرتب له من أوقاف مخصوصة . وكثيراما تراه فى الجهة الغربية ، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد القائه الى جيوش هذه الحمامات المستأنسة ، التى تكاد ترفرف على رؤوس الناس ، لانها لم تعرف منهم فى حياتها الا كل لطف وأنس . وليست هذه الخصيصة قاصرة على نوع الحمام ، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن ، حتى ذهب بعضهم الى عدم قتل الحية أو العقرب فى الحرم ، احتراما له واكراما لها فيه . وانفراد الحمام بوجوده فى الحرم لا أظنه الا لسهولة أنسه وقلة جفائه . ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرته فى الحرم لم يشاهد منه شئ على الكعبة الا نادرا جدا . وفى الجهة الشرقية من مكة تحت جبل أبى قبيس بئر يقال لها بئر الحمام يجتمع عندها كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب الى حيث أراد . وهذه البئر قديمة جدا وأظنها من زمن الجاهلية . كما أنى أظن أن احترام الحمام هنا أيضاً من زمن بعيد . وعلى كل حال فهو مكرم للبيت سواء قبل الاسلام وبعده . والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التى عششت فى الغار على النبى صلى الله عليه وسلم انما يزيد فى احترامه واعظامه .

وليس الحمام يحترم فقط هنا بل هذه عادة قديمة جدا : فبنو نوح كانوا يكرمونه لانه أول

من بشرهم بظهور راليا بسة مدة الطوفان . واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس ، لانه يمثل عندهم روح القدس ، ويقولون انه عندما كانوا يغسلون المسيح فى نهر الاردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه ، لذلك يرسمونها فى كنائسهم وعلى صورهم الدينية بكثرة . ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية فى كنائس القوم فى أوربا وخصوصا فى كنائس ايطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا ، وقد تعدى هذا الكنائس الى منافذ المساكن وكرابيشها وأسطحتها وأشجار الشوارع العمومية وبساتينها: فاذا ذهبت الى فينا أو روما مثلا وجدته هنا وهناك فى كل مكان من غير أن يؤذيه أى انسان .

وأثر هذه العقيدة باق فى الحمام الذى لا يزال فى مدينة القسطنطينية الى يومنا هذا، وتراه على الخصوص فى مسجد بايزيد ومسجد أبى أيوب الانصارى ، غير أن أهل الاستانة قد بالغوه فى اكرامه حتى حرموا ذبحه ، فهم لا يأكلونه أبدا سواء فى ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم . أما ماذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الاستانه من ذريه حمام الغار (الذى يقولون عنه انه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون) ، فانه لا أصل له عندهم ، كما لا أصل فى دينهم لتلك المأمورية التى كان يؤديها حمام الغار . والشيعة من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد فى حمام الحرم ، ويزعمون أنه هو الذى أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضى الله عنه .

والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد فى استكشاف بختهم على مثل ما يستعمله بعض الارورام الآن فى طرقات مصر : فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شئ من الخير والشر ، فتأتى الحمامة وتستخرج بمنقارها واحدة يكون منها فألهم ، ويسمون هذه الحمامة پاك ـ كوپ ـ پن (Pak-pKo-Pin) يعنى الحمامة ذات الورقة البيضاء .

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للاله عشطورت (Astarte) . وكان عند الفنيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم . وأظن أن احترامه عند العرب فى الجاهلية لم يأت الا من هذا الطريق . ولذلك كانوا يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل : ولقد ورد فى سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة بعد الفتح وطاف بالبيت ، دعا عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة فلما

دخلها وجدوا فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها .

على أننا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله ، أنيساً في نوعه ، جميلاً في صورته ، نظيفاً في لباسه ، يمثل في عائلته المحبة الحميمة والشفقة الحسية ، فإننا نرى فيه درساً عائلياً كبيراً : نرى الذكر منه مع أنثاه يعملان لحاجتهما وحياة عائلتهما عمل المجدين المجتهدين ، حتى إذا فرغا من واجبهما الأهلي تفرغا إلى حياتهما الزوجية : فتراهما بين توامق وتعاشق وتعانق ، لا ينفصلان إلا ليتصلا ، ولا يفترقان إلا ليجتمعا ، في جلابيب جمال ، وأساليب دلال ، مما لا يرى له مثال ، في زوجين من غير نوعهما على كل حال .

على أن الحمام له على الإنسان خدمة تذكر فتشكر : فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح إلى منتصف القرن التاسع عشر يؤدي وظيفة التلغراف بين الأمم المختلفة ، حتى أعلن مرس وطسون سنة ١٨٤٤ م بلعرافهما الكهربائي ، الذي لا يشك أحد في أنه أفاد العالم بأسره فائدة جسيمة ، وكان من أكبر الأشياء التي ساعدت على التمدن العصري وانتشاره بسرعة . ولكن هل هذه الفوائد الجسام ، تنسينا فضل ذلك الحمام ؟

ولتكملة الفائدة نقول لك إن أول من استعمل الحمام في الزجل هو رجل من جزيرة أوجين (من جزر اليونان) ، أي في سنة ٧٧٦ قبل المسيح إلى آتينا لحضور الألعاب الأولمبية ، واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين أفراخها . فلما برز في هذه الألعاب أرسل الحمامة فذهبت إلى عشها ، ومن قدومها علم أهل الرجل بنجاحه في مأموريته . ومن ثم استعمله اليونان والرومان والعرب والمصريون في مراسلاتهم . وكان لمصر وخصوصاً زمن الأيوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل ، وكان بها في كل جهة بيت للحمام ، وكله غريب من جهات متعددة : فكانوا إذا أرادوا إرسال مكتوب إلى أي مكان ، أرسلوه على جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة . إلا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورتين على حمامتين بعد الذي حصل في حصار الفرنجة لعكا . ذلك أن المسلمين في عكا أرسلوا رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي بواسطة حمامة من حمامهم ، فتبعها طير جارح وصرعها ، فسقطت في معسكر العدو الذي عرف منها مواقع الضعف من عدوه . ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع

ملك فرنسا الى دمياط سنة ١٢٧٠ م وسار بجنده الى المنصورة ، أخذ ملك مصر الملك الكامل خبره بواسطة الحمام الزاجل ، فسير اليه جيوشه لوقته فأوقفته عند حده ، وكان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة وأسر لويس وسجنه بها الى أن تم الصلح بينه وبين ملك مصر ، فأطلقه وسافر الى تونس ومات بها . وفى حبسه يقول بعضهم .

قل للفرنسيس وان أنكروا حبس لويس فى مقال صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

والحمامة تقطع فى طيرها من سبعين الى ثمانين كيلومترا فى الساعة ، ولها صبر على الجوع جملة أيام ولكنها لا تصبر على العطش .

وكان لهذا الحمام فى حصار المانيا لباريس بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٧١ أكبر فضل فى ربط أجزاء المملكة الفرنساوية بعاصمتها .

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت أن لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لأيدى الصيادين وخلافهم فيؤدى مأموريته وهو فى غاية الهدو والطمأنينة .

ولقد كان عباس باشا الاول والى مصر رجع الى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه . ولكنه مات رحمه الله قبل أن يتم غرضه . وأخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه الغية ، ولكنهم اقتصروا على تربيته وتطييره فى محيط ديارهم . وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى اذا التحم بحمام غريب طار معه الى أن ينفد قواه ثم يرجع به الى صاحبه الذى يكون فرحه به لا يقدر . وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الخزغندى ـ والريحانى ـ والمرزرز ـ والفزازى ـ والابلق ـ والعنبرى ـ والغزار ـ والنشاقى ـ وغيرها ، الا أن هذه الغية لم تقف عند أفنية الاغنياء بل تعدتهم الى الفقراء وهم الى الان يضيعون فيها وقتهم الذى هم وعيالهم فى حاجة اليه لعمل حيوى مفيد . ولقد شاهدت فى بستان سراى يلدز الداخلى ، بعد خلع السلطان عبد الحميد ، دارا كبيرة من السلك وفيها ما لا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم . وربما كان يتسلى به فى سجنه الذى قضى على نفسه به طول حياته سامحه الله .

الحج

الحج فى اللغة القصد ورجل محجوج أى مقصود . وفى اصطلاح المسلمين قصد مكة لاداء المناسك فى زمن مخصوص من كل سنة قمرية . و واحدته حجة، وتطلق على السَّنَة فيقال عمر هذا الصبى سبع حجج أى سبع سنين .

وهو سُـنّة قديمة جـدا فى الامم ، والغرض منه على كل حال أمر دينى محض ، وان كان الاجتماع فيـه لايخلو من فائدة دنيوية، تزيد فى رقى الامة أدبياً وماديا. وقـد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحجون الى هيكل معبودهم ايزيس بمدينة سايس (صا) ، وفتاح فى منفيس ، وأمون فى طيبة .

واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرنا الى هيكل ديانا فى افسوس، ثم انتقلوا فى مبدأ القرن الثانى قبل المسيح الى حج معبد ميزارفا فى أتينا ، وجوبيتير فى اولمبيا . واليابان يحجون من عهد بعيـد الى هيكل عظيم مشهور فى ولاية اسجى ، وتجب زيارته عندهم على كل فرد منهم فى عمره ولو مرة واحدة: فيتوجهون اليه بلباس أبيض على شكل مخصوص، وسوادهم يقصدونه عراة لبس عليهم الا ما يستر عورتهم، و يقطعون اليه كل المسافة ركضاً . والصينيون يحجون الى هيكل المعبود تيان من زمن بعيـد جداً . والهنود لا يزالون يحجون الى هيكل جاغرنات، أو هيكل الورا فى حيدر أباد وهو محفور فى الصخر على طول فرسخين، وكذلك يحجون الى هيكل نودا بجزيرة منا قرب سـيلان . وهم يكثرون من الطواف حول هيا كلهم ، ولهم بحيرات مقدسة يتبركون بمياهها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين . واليهود يحجون من القرن الرابع عشر قبل المسيح الى المكان الذى به تابوت العهد، وكانوا يحجون اليه ثلاث مرات فى السنة . وكان ذلك أكبر سبب لعمار أورشليم ، حتى أحرقها الامبراطور طيطوس الرومانى وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية ، ومازالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت العرب عليها سنة ٦٣٦ م (سنة ١٦ هـ)، فاقرهم عمر رضى الله عنه مع

النصارى على ما كان لهم فى بيت المقدس . ولما قامت الحروب الصليبية قطعت عليهم طريق حجهم الى أن استولت دولة بنى عثمان على أورشليم فى سنة ١٥١٧ م فأمنت الطرق ومهدت السبل الى بيت المقدس ، وهم يحجون الآن الى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان فى الجهة الغربيــة من المسجد الاقصى ويسمونها البراق .

أما النصارى فانهم يحجون الى بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيــح ، أى منذ سارت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الى أورشليم وابتنت بها كنيسة القــبر المقدس المشــهورة باسم كنيسة القيامة . وكانوا يخرجون اليه من غرب أوربا باحتفال عظيم ، وكان رئيس الجهة الدينى يزود كلا منهــم بعصا ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقتــه ، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون اليها مدة سفرهم ، واذا وصــل الحاج الى بيت المقدس يتطهر فى نهر الاردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلومــترا شرقى القدس ، ثم يلتحف برداء يحمله معــه ليكون له كفناً عند موته . فلما استولى السلجوقيون على بيت المقــدس قل حجاج الافرنج الى أورشليم وحولوا وجوههم الى كنيسة القــديس بطرس وبولس فى رومــه ، وفى تريف (Treves) بجرمانيا . ويزعمون أن بالأخــيرة قميص المسيــح الذى كان يلبسه ، وقد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليونا ومائة ألف نفس من الافرنج . وهم يحجون أيضاً الى كنيسة لورده (Lourdes) فى جنوب فرنسا بعــد أن شاع فى أوربا أن السيدة مريم العــذراء ظهــرت لاثنــين من رعاة هــذه المدينة . والزائرون لهــذه الــكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقــدون الى اليوم بأن فيــه شفاء للناس ويرســلون منه الى جميع أقطار المسكونة للتبرك والاستشفاء . ولم تكثر حجاج بيت المقــدس الا بعــد عمل السكة الحديدية اليها من يافا .

والعرب كانت تحج الى الــكعبة قبل الاسلام بنحو خمسة وعشرين قرنا ، لأنهــم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الالهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب . وكانوا يقصدونها ســنويا للطواف بها من غــير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين ، لانها كانت عندهم بيتاً لله الذى هو إله العالمين . ورغماً عن شيوع عبادة الاوثان فى سواد

قبائل العرب فانه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة ، وليس ما ورد فى أسمائهم من عبد الكعبة (وكان أبو بكر يسمى عبد الكعبة فلما جاء الاسلام سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله) الا لزيادة اجلالهم اياها ، كما هو الشأن فى تسمية عبد النبى عند المسلمين ، مع كراهيته فى دينهم . وكذلك لم يسمع عنهم أنهم عبدوا الحجر الأسود مع احترامهم له ذلك الاحترام الذى لا يمكن تصوره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء، وبه أخذ بعض الفقهاء، ونحن لا ندرى ان كان وصل اليهم من طريق النيازك أو من طريق آخر . وكان لهذا الحجر فى العرب شأن عظيم جداً حتى انه لما حصلت الحرب بين اياد ومضر ابنى نزار، ودارت رحاها على اياد، قلعت الحجر الاسود ودفنته بجبل أبى قبيس فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها ، فاشترطوا على مضر إن هم ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم ، فوفوا لهم بذلك فردوه ومن ثم صارت ولاية البيت فى خزاعة .

واحترام الاحجار[1] فى الناس قديم جداً : فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها ، ومنهم من كان يجعلها رمزاً لآلهتهم كما كان الشأن فى الدول الراقية فى عمرانها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها : ولم يكن نبوغهم الى الآن فى نحت الاحجار وعمل التماثيل وتبرزهم فى التصوير، الا لاحترامهم اياه من قديم الزمان ، واستعمالهم له فى الأزمنة الخالية تمثيلا لمعبوداتهم . والصينيون واليابان والهنود لا يقلون عنهم فى هذه الصناعة ، ولهم فيها دقة غريبة وخصوصاً فى الاعمال الخشبية التى يمثلون فيها كثيراً من معبوداتهم مثل بوذا وكونفوشيوس وغيرهما .

أما العرب فقد كانت أصنامهم ساذجة مثل جميع طبائع الاشياء فيهم ، وقد كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، وفى عتبة باب السلام الخارجية بالحرم المكى ترى حجراً ضخماً أشبه شئ بدرجة سلم غير منتظمة . نازلة فى الارض يطئونها بنعالهم ، وأهل مكة يقولون عنه انه صنم من أصنام الجاهلية واسمه اساف ،

(١) وفى باريس بجهة التروكادرو متحف اسمه جيميه (Musée Guimet) فيه مجموعة كبيرة من الاحجار القديمة وهي أكبر مجموعة فى بابها وقد زرتها سنة ١٩٠٦م مع صديقى الفاضل على بك بهجت وكيل دار الآثار العربية فسمح لنا صاحبها والقائم بادارتها بكل أنس ولطف .

وكان أنبياء بني اسرائيل يقيمون الاحجار في مناسبات كثيرة : منها ما هو تذكار لحادثة من الحوادث الجسيمة، كما فعل يعقوب عند ما تراءى له ربه في نومه ، فانه أقام حجراً تذكاراً لهذه الحادثة الكبرى في مكان سماه بيت إيل (بيت الله)، كما أقام حجراً غيره تذكاراً للعهد الذي تم بينه وبين لابان (أنظر الآية الرابعة والاربعين والخامسة والاربعين من الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين) . ومن هذا تلك الحجارة التي نصبها موسى في ذيل الجبل تذكاراً لكتابة كلام الرب (أنظر الآية الرابعة من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج)، ثم الاثنا عشر حجرا التي نصبها يشوع تذكاراً لعبور الاسباط نهر الاردن بتابوت العهد (أنظر الآية التاسعة من الاصحاح الرابع من سفر يشوع) .

ومن حجارة التذكار أيضاً تلك الحجارة التي يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع القافلة . فتراهم اذا صادفوا في طريقهم أحجاراً صغيرة تسابقوا اليها وأخذ كل بين يديه ما أراد منها، ووضعها على بعضها حجراً حجراً قائلا : هذا لابي هذا لأمي هذا لأخي هذا لاختي هذا لصديقي فلان مثلا . ويسمون كل كوم منها ناطوراً ، وهم يزعمون أنه ما دامت هذه الرجمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياة ! ! ولو لم يكن في عملهم هذا من حسنة سوى تنقية الطريق من الحجارة التي يتعثر فيها الانسان والحيوان لكفى . وقد رأيت بعضهم في مصر يقيم هذه النواطير في طريقهم الى الموالد وكثيراً ما ترى ذلك في جبانات الأرياف فوق بعض الاضرحة . وجبانات النصارى بالارياف لا تخلو من ذلك .

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونها للاستشهاد بها : كالحجر الذي أقامه يشوع عند ما أخذ العهد على شعبه قائلا لهم هذا الحجر يكون شاهداً علينا (أنظر الآية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع) .

ومن حجارة الشهادة ما يستعمله الناس في الاقتراعات [1] السرية في أيامنا هذه مما هو

---

(١) وذلك انهم اذا خافوا على حرية الشخص في ابداء رأيه في الاقتراع العلني، ذهبوا الى الاقتراع السري : وهنا لك يدار على الاعضاء بانائين حجارة سوداء وأخرى بيضاء ، فيأخذ المقترع حجرا من هذه للاقرار على الرأي المقترع عليه أو من تلك اذا كان مخالفاً له، ويضع هذا الحجر في كيس يقدم اليه بحيث لا يشعر به أحد . وبعد أخذ جميع الاقتراعات يقدم الكيس الى الرئيس، فاذا وجد أن الحجارة البيضاء أكثر من السوداء كان الاقتراع ايجابا بغالبية الاصوات والا كان سلبا .

مستعمل على الخصوص فى دوائر الحكومات الكبرى كمجالس النوّاب وغيرها .

وكان المصريون يقيمون الاحجار الجسيمة كالمسلات وغيرها تذكاراً للحوادث التاريخية الكبرى . وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدنة وعلى الخصوص ما يقيمونه منها اعترافا بفضل من ينبغ من أفراد الامة ، وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم أوروبا .

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الاحجار لتعيين تخومها وتحديد ممالكها . وقد عم هذا الاستعمال فى تحديد ملكية الافراد حتى أطلق لفظ الحجارة على الحدود ، وأجمعت الشرائع كلها على احترامها .

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط سور المسجد الاقصى من جهة القبلة يسمونها البراق ، ويبلغ طولها نحو ثمانية وأربعين متراً فى ارتفاع مترين ، لزعمهم أنها القطعة الوحيدة التى بقيت من قاعدة سور الهيكل الاصلى الذى بناه سليمان عليه السلام ، وهدمه بختنصر وسنحاريب وغيرهما من ملوك الاشوريين والرومانيين . وهم يحجون الى هذه القطعة مرتين فى كل سنة وخصوصاً فى العيد الذى يسمونه عيد الدجاج (عيد السربان) . ويهود القدس يجتمعون عند هذا السور كل يوم وعلى الخصوص فى عصر يوم الجمعة مع رؤسائهم الدينيين ، ويستلمون حجارته باكين شاكين منتحبين متضرعين الى الله أن يرد عليهم ملكهم وأن يعيد الى أورشليم فخامتها وجلالتها . وقد وصل بهم احترامهم لحجارة ذلك الهيكل الى أنهم لا يدخلون فى حوش بيت المقدس أصلا ، بل لا يدخلون من بابه مطلقا ، خوفا من أن تطأ أقدامهم حجراً من الحجارة التى تكون ربما تخلفت من هيكلهم القديم ، وألفت بها يد الصدفة فى أرضية هذا المكان . وهم يقدسون أيضاً جانباً من سور منارة المكفيلة التى بها قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب فى حبرون ، ويجتمعون عندها مساء كل يوم جمعة ويصلون ويبتهلون ويستغيثون ، صارخين الى الله تعالى أن يعيد اليهم ملك بنى اسرائيل .

وللنصارى أحجار كثيرة يقدسونها ، ومنها شىء كثير فى بيت المقدس . وقد بلغ تقديسها منهم الى حد لا يمكن تكييفه . ومن تلك الأحجار الحجر الذى تحت قبة الصعود : وفيه أثر صدر

قدم يمنى يقولون انه أثر قدم السيد المسيح عند ما صعد الى السماء . وقد شاهدت بنفسى هذا الحجر الذى ملس وكاد يذهب أثره من كثرة لمسهم له وتقبيلهم اياه . وفى أسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلى وادى سدرون (الذى يسميه العامة وادى مريم) قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالى، فيها بعض تقعر رأسى، يقولون ان السيد المسيح أسند ظهره اليها عند ما نزل من جبل طور زيتا (جبل الزيتون) الى المدينة . ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية فى ادخال هذا الحجر اليها، فقامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الاخرى، وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة، لولا أن الامر انتهى بجعلها منطقة عامة لجميعهم حتى لا يحرم الكل من التبرك بها . وازاء هذه الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للأروام، يقولون ان السيد المسيح كان جلس عليها اذ ذاك ليشاهد منها صخرة بيت المقدس، وباب هذا السور يفتح للزيارة فى أيام مخصوصة . وللقوم فى كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تفوق حد التقديس : منها حجر نصف الدنيا الذى تراه فى وسط هيكل الاروام، وحجر المغسل الذى يزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه، وحجر الكأس الذى نزل به جبريل الى المسيح ووضعه عليه، وعمود الجلد الذى كان المسيح مربوطا به عند ما جلده أعداؤه، وحجر الاكليل الذى أجلسوا عليه المسيح وقت ما وضعوا على رأسه اكليل الشوك، ويوجد فى بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة عند النصارى .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء، صخرة بيت المقدس التى كانت محل قربات ابراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بنى اسرائيل عليهم السلام، وكانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة، ثم صخرة أيوب (النبى) التى فى قرية الشيخ سعد على طريق السكة الحديدية بين المزيريب والشام، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الآفاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

من ذلك ترى أن هذه الحجارة لم تقدس لذاتها، ولكن لعلاقتها بشىء مقدس محترم : وعليه فالحجر الاسود الذى وضعه ابراهيم عليه السلام فى الكعبة إما أن يكون وضعه تذكاراً لصدعه بأمر ربه برفع قواعد هذا البيت المعظم، وإما أن يكون للعهد الذى أخذه ابراهيم

على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس، وإما أن يكون قد أقامه ابراهيم حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود. ووضعه فى الركن الاقرب الى الباب ليكون أوّل حدود هذا البيت المكرم الذى يبتدئ منه الطائفون، وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه: لذلك كان هذا الحجر محترما من ابراهيم، محترما من ولده، محترما من المسلمين الى اليوم والى الغد. ولا عبرة بما ذهب اليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامى، وكتب عليهما كل بحسب نزعته سياسية كانت أو دينية، وافترى بعضهم على المسلمين بأنهم فى حجهم يعبدون الحجر الاسود الذى هو أثر من آثار الوثنية العربية الاولى!! وانى لا أذكر شيئاً أدحض به هذه الفرية سوى ما رواه الامام أحمد والبخارى ومسلم ورواه ابن أبى شيبة والدارقطنى فى العلل، من أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر فقال «إنى لا علم أنك حجر لا تضر ولا تنفع» ثم قبّله، ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال «انى لا علم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك»، وقال عمر «أما والله انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلك ما قبلتك» ثم دنا فقبل. على أنه لم يسمع عن عرب الجاهلية مطلقاً أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الاحجار بالمرة، مع احترامهم له كل الاحترام واجلالهم له كل الاجلال. وعلى كل حال فان الحجر الاسود عند المسلمين محترم مكرم معظم لا لذاته ولكن لكونه شعاراً لربوبيته تعالى ورمزاً لسلطانه. يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ويقبلونه، أو يسلمون عليه من بعد بكل احترام واحتشام: وعليه فهو فى ذلك كاعلام الدول التى لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها، بل لانها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك: وهلا حضرت استعراض جيش من جيوش الدول العظام ورأيت القوم اذا حاذوا علمهم أحنوا أمامه رؤوسهم وسيوفهم علامة على الخضوع والاحترام؟

وما زال الحج عند عرب الجاهلية على ملة ابراهيم واسماعيل ، ومشاعره[١] كلها محترمة عندهم ، حتى اذا عظمت قريش بعد واقعة الفيل ، وقال الناس فيهم انهم أهل الله يدافع عنهم ، شمخوا بأنوفهم على العرب ، وقالوا نحن ولاة البيت ، وليس لاحد من العرب مثل منزلتنا ،

(١) ولابي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة مشهورة ببلاغتها وهي لامية التي تبلغ واحداً وثمانين بيتاً نذكر لك منها هنا بعض قسمه الذي تعرف منه المشاعر التي كانت تقف بها العرب في الجاهلية . قال رحمه الله :

وثور[١] ومن أرسى ثبيراً[٢] مكانه * وراق ليرقى في حراء[٣] ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة * وبالله ان الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه * اذا اكتنفوه بالضحى والاصائل
وموطئ ابراهيم بالصخر رطبة * على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين الى الصفا * وما فيهما من صورة وتماثل[٤]
ومن حج بيت الله من كل راكب * ومن كل ذي نذر ومن كل راجل
وبالمشعر[٥] الاقصى اذا عمدوا له * ألال[٦] الى مفضى الشراج[٧] القوابل
وتوقافهم فوق الجبال عشية * يقيمون بالايدي صدور الرواحل
وليلة جمع[٨] والمنازل من منى * وهل فوقها من حرمة ومنازل
وجمع اذا ما المقربات[٩] أجزنه * سراعا كما يخرجن من وقع وابل
وبالجمرة الكبرى اذا صمدوا[١٠] لها * يؤمون قذفا رأسها بالجنادل[١١]

والقصيدة موجودة برمتها في الجزء الاول من سيرة ابن هشام

(١) و(٢) و(٣) جبال بجوار مكة (٤) التماثل التماثيل وهي الاصنام (٥) واحد المشاعر الحرام وهي المواضع التي بها مناسك الحج ، والمشعر الاقصى هو عرفة لانه أبعدها . (٦) بفتح الهمزة وكسرها جبل عرفه . (٧) مفرده شرج وهو مسيل الماء ، ومفضى الشراج مجمعها في مجرى واحد وفي هذا ما فيه من بلاغة التعبير اشارة الى اجتماع الناس في مكان واحد وهو عرفه . (٨) هي ليلة المزدلفه . (٩) هي الخيل التي ضمرت للركوب والابل التي عليها رحالها . (١٠) قصدوا . (١١) الحجارة .

واتفقوا على أن لا يعظموا شيئاً من الحل: فتركوا الوقوف بعرفة والافاضة منها، مع علمهم بأنها من المشاعر الحرام وأنها مكان الحج من زمن ابراهيم، وأفاضوا من جُمَع (المزدلفة)، وقالوا لا ينبغى لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل فى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عماراً، وأن لا يطوفوا بالبيت الا فى ثياب الحمس (وهم قريش وسموا بذلك لتحمسهم فى دينهم أى تشددهم)، فان لم يجدوا طافوا بالبيت عراة. فدانت لهم العرب بذلك، وكانت المرأة فى طوافها تضع عنها ثيابها الا درعها.

وقد كان السعى بين الصفا والمروة من لوازم الحج فى الجاهلية، وكان لهم صنم على الصفا يسمى (أساف) وآخر على المروة يسمى (نائله)، وكان للعرب فيهما اعتقاد سخيف كغيره من الاعتقادات الوثنية، وكانوا ينحرون عندهما هَدْيَهم. فلما جاء الاسلام امتنع المسلمون عن السعى كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية فى وثنيتهم، فنزل قوله تعالى «ان الصفا والمروة من شعائر الله»: ومن هذا ترى ان الشكل فى العبادات لا يعول عليه وانما المدار فيها على النية.

وبالجملة فالشعائر التى كانت مستعملة فى الحج من زمن ابراهيم واسماعيل، واتخذها الناس بمدهما لمعبوداتهم على تغايرهم فى العقائد، قد أقرها الاسلام وجعلها كلها لله تعالى وحده، (وانما الاعمال بالنيات)، وجعل الحج من قواعد الاسلام: قال عليه الصلاة والسلام «بنى الاسلام على خمس: شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله، واقام الصلاة، وايتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا». وقد وقف صلى الله عليه وسلم بالناس فى عرفة وقال «الحج عرفة» وأفاض منها، ونزل فى ذلك قوله تعالى «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» (يعنى قبل الحمس)، وطاف الحجاج بالثياب التى معهم من الحل، وأكلوا من طعام الحل فى الحرم، ولا يزال المسلمون يحجون على ما شرع لهم من هذه النسك الى اليوم.

ولكن يظهر للمتأمل فى طواف البدو الآن وعلى الخصوص أهل الشروق من عُتيبة ومطير، أن حجهم الصق بالبيت منه بعرفة: ذلك لان هؤلاء القوم يفدون على مكة فى الخمس الاول من شهر ذى الحجة، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بايدى

بعضهم ، لا يوقفهم فى طوافهم زحام المطاف بغيرهم ، بل يأخذون فى طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون « اللّه محمد ، لبيك لبيك ، حجيت ، تقبل أو لا تقبل حجيت ، الا تقبل » . واذا كان معهم نسوة (ولا يكن فى الغالب الا من المتقدمات فى السن) ، تراهن فى مؤخرتهم ماسكات باكتافهم ، ولا يظهر منهن سوى أعينهن و فى أيديهن القفازات ، حتى اذا وصل الكل الى الحجر الاسود تعلق المتقدم منهم بكسوة الكعبة ، وأمسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد ، وتبعه اخوانه وأزاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يعتورهما ملل ، محتملين فى ذلك ضرب الضارب وانتهار الناهر ، حتى اذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعاً وقبّلوه ، أتت نساؤهم لتقبيله ، فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطدم جبهتها فى الحجر ، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج (كالوشم عند حجاج بعض النصارى الى بيت المقدس) ، وعندها يصرخ الرجل قائلا لزوجته « حجيت يا حاجة » ؟ فتصيح قائلة « حجيت حجيت » ثم تلتفت الى الحجر الاسود قائلة « حجيت ، خبر ربك[1] انى حجيت » ثم ترفع رأسها الى السماء قائلة « تقبل أو لا تقبل حجيت الا تقبل غصباً تقبل » . هذا كله قبل وقوفهم بعرفة ، ومنه ترى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف انما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومحاه الاسلام .

وأخلاق هؤلاء الأعراب فى الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها فانك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح ، لا يقابلون الاهانة الشخصية الا بالسكوت المطلق عن الاجابة عليها ، وما ذلك الا لشدة احترامهم حرم اللّه واجلالهم لبيته المعظم . .

ولا شك ان قصد الشارع من الوقوف بعرفة انما هو وحدة الوجود فى مكان واحد ، تجمع اطرافه جميع أولئك الذين وفدوا من الاقطار المختلفة ، وهم وان اختلفت أجناسهم وتغايرت لغاتهم فقد توحّدت وُجْهَتُهم وتفردت غايتهم . نعم تجمعهم صحراء عرفة وتضمهم

(١) من تأمل فى هذه العبارة يرى ولا شك أنها من آثار الجاهلية ومنها يحكم قطعياً أن القوم قبل الاسلام ما كانوا يعبدون الحجر الاسود .

الى فؤاد ذلك الحبل حتى اذا اجتمع الشخص بالآخر، عرف كل واحد ما يهم من أمر صاحبه، فهما سيان وقد اهتم كلاهما بأمر أخيه مما تنصلح به أحوال الافراد وتستقيم به أمور الامم . وكيف لا وقد كان هذا الاجتماع بين يدى الله تعالى وفى حضرته، فى يوم يكون الانسان فيه بكليته عاطفة شريفة : هى الاخلاص بجميعته، لا يشوبه رياء ولا يتطرق اليه مراء .

وكان موسم الحج موعدا بين الناس ينهضون به أشغالهم و يقضون فيه أمورهم وذلك لصعوبة المواصلات التى كانت بينهم قال بعضهم :

ما أحسن الموسم من موعد * وأحسن الكعبة من مشهد

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يهتم بالحج من مبدأ الاسلام . وقد خرج من المدينة غير مرة حاجا أو معتمرا الى مكة ، وهى فى أيدى أعدائه من المشركين، غير حاسب أى حساب للخطر الذى ربما كان يصيبه منهم . فمنعوه من دخوله البلد الحرام . وفى عام الحديبية أناب عنه أبا بكر بأن يحج بالمسلمين . وفى السنة العاشرة من الهجرة حج بهم صلى الله عليه وسلم حجة الوداع . وفى خلافة أبى بكر أناب عنه فى الحج عمر لاشتغاله بحروب الردة . وحج عمر بالمسلمين فى خلافته تسع أو عشر مرات وهكذا كانت الخلفاء فى الغالب يؤمون فريضة الحج فى صدر الاسلام حتى يقفوا بأنفسهم على حال رعاياهم، وقد أفادهم هذا الأمر فى سياسة ملكهم داخله وخارجه سياسة عظمى . ومن كانت مشاغل الملك تحول بينه و بين هذه الفريضة، أناب عنه على أمارة الحج رجلا من قرابته أو من عظماء أمته . وما زالوا يتراخون فى القيام بهذا الامر، حتى صار من النادر أن نسمع بخليفة أو ملك أو أمير أو وزير اسلامى يقوم بأداء هذه الفريضة . ولعل أمراء المسلمين يعودون الى ما كان عليه سلفهم الصالح من احياء هذه الفريضة، لتحيا بها نفوسهم وممالكهم . نعم تحيا بها حياة طيبة : لأنهم اذا تنازلوا لحظة الى منزلة الناس فى جميع طبقاتهم، واختلطوا مع العامة منهم قريبهم و بعيدهم، وسمعوا نداء الفقير و بكاء الضرير، وشاهدوا حاجة البائس ومقدار ما تعمل الفاقة فى احشاء هؤلاء المساكين الذين يحول سياج الملك بينهم و بين معرفتهم بحقيقتهم، هنالك يشعرون بما يجب عليهم لرعاياهم و يعملون على اعانة الضعيف واغاثة اللهيف . و يقلدهم فى ذلك الكبراء والعظماء مسوقين بطبيعة تقليد الصغير للكبير

(والناس على دين ملوكهم): فيصبحون وأممهم فى أهنأ بال، وأحسن حال، وهذه هى سعادة الراعى والرعية على السواء. نعم يجب على الامراء والعظماء والاغنياء أن يحجوا، حتى اذا وقفوا لحظة فى صف هؤلاء التعساء والبؤساء، ترفقت قلوبهم وتحننت أفئدتهم وأصبحوا بعيدين عن عوامل الظلم والاستبداد، قريبين من مؤثرات الرأفة والرحمة. نعم نعم اذا وقف أولئك الملوك فى سلك هؤلاء الناس والكل مملوك لعرش إله واحد عادل، وهو القادر القاهر، مالوا الى الاشتراكية الحقة واهتموا بحال المعلوكين والمظلومين: فيردون عن هذا ظلامته، و يخففون عن ذلك محنته، و يحولون بين براثن القوى ومهجة الضعيف: و بذلك تستقيم أمور الرعية، وتعود الى ما كانت عليه فى خلافة الراشدين من الحياة الصحيحة.

ولقد شهدنا فى ذلك برهانا محسوساً: فان الجناب العالى الخديوى عند ما وقف هذا الموقف أخذ يذكر حال البؤساء من حجاج بيت الله الحرام عموما والمصريين منهم خصوصاً، مهتما بأمرهم كل الاهتمام، مفكرا فى الواسطة التى تخفف من مصائبهم وتسهل من مصاعبهم. فكنت تسمع منه على الدوام، ووجهه حفظه الله محتقن بدماء الانفعال بعامل الرحمة والحنان، عبارات الاسف على ما يقاسيه البؤساء من حجاج بيت الله الحرام، و يبحث على الطريق التى يكون من ورائها راحتهم وطمأنينتهم. وهذه الفكرة لا تزال تشغل فكره الشريف الى الآن. كذلك كان الخلفاء والامراء فى صدر الاسلام، وكثيرا ما كانوا يحجون. حتى ان الرشيد كان يغزو عاما و يحج عاما (وقيل انه حج ماشيا غير مرة)، ولذلك كانت حكومته من أحسن الحكومات نظاما وأمتنها احكاما. فلما تقاعد الخلفاء عن تأدية هذا الواجب الهومى وأهملوا شؤون رعاياهم، استهان الناس بهم، ومازالوا كذلك حتى غلبوا على أمرهم!! نسأل الله أن يعيد الى الاسلام عظمته ومجده.

على ان الحج له تأثير كبير فى الاخلاق: فترى الحاج يتوب الى الله فى حجه، ولا يتم مناسكه الا وهو على اعتقاد تام بمغفرة الله له وتفضله بمحو ذنوبه من صحيفة أعماله. فاذا عاد الى بلاده سار فى طريق الفضيلة و يصعب عليه أن يتركه الى غيره مهما كان شابا: فان تمثل له شيطان غوايته، جرد له وازعا من نفسه يحول فيما بينهما، و فى الغالب يكون هذا الوازع أقوى

من خصمه الذى ينهزم أمامه . واذاً فليس من مهذب حقيقى للنفس أحسن من تربية الحج ، فهو نعم المربى للنفوس الشريرة ونعم المهذب لها . ولقد قرر علماء التربية أخيراً أن الانسان لا بدله من شخص يسهل له طريق عمله ، حتى اذا انطلق فى سبيله فلا شىء يرده عنه : لذلك تراهم يستعملون كل الوسائل فى تحسينهم الى الصبى البليد أو الكسلان الاندفاع فى طريق العمل ولو مرة واحدة ، فاذا ذاق حلاوة الاجتهاد صعب عليه رجوعه الى الكسل والبلادة . على أن الحاج ان لم تردعه نفسه عن اقتراف الرذيلة فانه لا يحرم من الناس مؤنبا عليها ، أو معيرا على اقترافها ، فيرجع اذ ذاك عن غيه طوعا أو كرها . وهذا أظنه حسبك فى فضيلة الحج التى لا تماثلها فضيلة ، والتى لو فطنت لها الحكومات الاسلامية لسهلت طريقه على رعاياهم ، حتى اذا كثر سواد الحاجين منهم كثرت فيهم الفضيلة التى تؤدى الى الخير العام والسعادة الحقيقية . ولقد كانت الحكومة المصرية فى الزمن الغابر تُخْرِج الى الشوارع والحارات فى أشهر الحج اناسا يتغنون باناشيد (يسمونها تحاسين) تحرك عواطف الناس الى أداء هذه الفريضة ، كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها (ولا يزالون كذلك الى الآن) .

المسجد الاقصى

هو ثالث المساجد المقدسة عند المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام (لا تُشَدّ الرحال الا الى ثلاث : المسجد الحرام ـ ومسجدى هذا ـ والمسجد الاقصى) . وهو مسجد الصخرة ببيت المقدس . وكثير من المسلمين يزورونه بعد زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقولون لمن زاره فلان قدّس (بصيغة الماضى) . وليس لزيارتهم له وقت مخصوص ولا شروط مخصوصة مثل ما فى الحج . ولكنها زيارة بسيطة يؤدونها فى أى زمن شاءوا ، واختيارها فى موسم شم النسيم انما هو للحاق مولد سيدنا موسى عليه السلام . وأهل تلك الجهة يحتفلون بهذا المولد احتفالا عظيما جدا : ذلك أنهم بعد صلاة الجمعة التى قبل سبت النور

يذهب المتصرف والقاضي والمفتي ومشايخ الحرم الشريف وأرباب الطرق وأرباب الدولة من ملكيين وعسكريين في آلاف من الناس من عرب وأهلين وحاجين ، ويجتمعون حول شجرة الزيتون التي في حوش الحرم بين مصطبة الصخرة والمسجد الاقصى . وهذه الشجرة[1] ينسبونها الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون انه هو الذي غرسها بمكانها هذا ؟؟ وهنالك ينشرون جملة أعلام يسمون بعضها بعلم النبي ، وبعضها بعلم داود ، وبعضها بعلم موسى ، وبعضها باعلام الصخرة ، ويسير الموكب من الحرم الشريف الى مشهد موسى عليه السلام ، وهو على مسافة ست ساعات من بيت المقدس في الجهة الشرقية الجنوبية . وهناك ينتهي الاحتفال الذي يبدأ به المولد ويستمر خمسة عشر يوما في الجبل وتقام فيه الاسواق لبيع ما يلزم للأعراب القاطنين بتلك الجهات .

أما الصخرة الشريفة فقد كانت قبلة للمسلمين بعد ما فرضت الصلاة مدة ستة عشر شهرا حتى أمرهم الله تعالى بتوجيه وجوههم الى الكعبة المكرمة في السنة الثانية للهجرة . وهي صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جدا ، فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء (الموزاييك) والنقوش الذهبية وغيرها ما يدهش الفكر ويحار له العقل . وهذه الاعمال من عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد . وللمأمون فيها أثر عمارة تشكر . وقد أصلح الحاكم بامر الله قبتها وضرب عليها قبة أخرى من الخشب لتحفظها من عبث الامطار وتأثير الاجواء . وارتفاع

(١) ويوجد في الوادي الداهب من المزيريب الي حرش شجرة يزعم أهالي تلك البلاد ان عليا ابن أبي طالب غرسها هناك ؟ ولها عندهم مقام كبير ويأتون لزيارتها من جميع الجهات . وكذلك يوجد قرب العزيزية بولاية سيواس صخرة في رأس جبل يبلغ ارتفاعه ٢٠٠ متر تقريبا يسمونها طاش ديلي (ناقة الحجر) ويزعمون ان سيدنا عليا كان مارا بهذا الوادي وكان راكبا فرسا فتأخر فلوها اليرعى ولما توارى في منعطف الوادي نظرت الفرس فلم تر فلوها فصهلت فسمع فلوها صوتها فقفز من مكانه فوق الجبل فوقع في الصخرة فحفر تها ومات وهناك له قبر معروف ، وفي طريق السالك في هذا الوادي الى قيصرية صخرة عظيمة يزعمون ان عليا ألقى بها على حاكم قيصرية الذي كان يقصده أن يسد عليه الطريق ، وفي جوار قرية القنيطرة (من أعمال الشام) جبل اسمه جبل علي ويزعمون ان عليا لما توفي وضعوه على جمل وأطلقوه فسار به الي هذا الجبل وله مسجد يقصده الناس لزيارته وخصوصاً الشيعة .

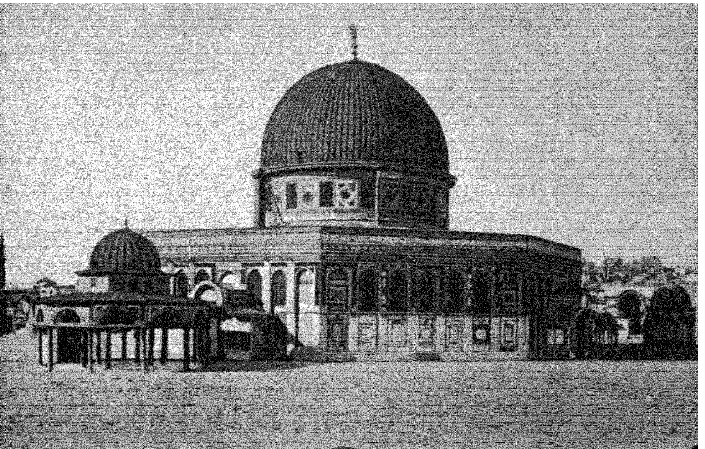
الاولى منهما وهى السفلى ١١,٥٠ مترا وقطرها عشرون مترا ، أما الثانيــة (العليا) فارتفاعها ثلاثون مترا . ولقــد عمرها صلاح الدين الايوبى بعــد أن عبث الصليبيون بها وحولوها الى كنيسة وجعلوا هيكلها فوق الصخرة . ثم عمرها السلطان سليمان القانونى . وهذه القبة الآن آية من آيات الصناعة الرومية والعربية القديمتين ، مما يستعصى على عمال زمننا الحاضر اصلاح مااعتل منها . وهى قائمة على قاعــدة مثمنة الشكل ، طول كل ضلع منها ٢٠,٤٠ مــترا وحوائطها مكسوة بألواح كبيرة من المرمر فيها نقوش طبيعية جميلة جدا ومتناســبة مع بعضها تناسباً غريبا : حتى ليتخيل للانسان انها مرسومة بيد الرسامين الماهرين لا بيد هذه الطبيعة المتواضــعة التى لا تريد أن تعلن عن نفسها باى حال من الاحوال !!! وأرضية القبــة من الداخل مفروشة بالرخام المجزع ، وحوله أعمال الموزاييك المرمرية من ألوان مختلفــة . أما حوائطها من الخارج فــكلها بالقيشانى الغريب فى بابه ، والقــديم منــه ثمين جــدا ، حتى أن القيشانى الذى رممت به مدة عمارة السلطان سليمان القانونى أقل منه فى قيمته . وعلى كل حال فهذا وذاك لا يمكننا أن نعوض ما تعبث به يد الضياع منهما . ولو وقــه ذلك حماتها وخادموها لما تجرءوا على اغتيالها وبيعها من الفرنجة السائحين بثمن بخس لا يسمن ولا يغنى من جوع !!

وفى وسط هــذه القبة ترى الصخرة الشريفة : وهى من الجرانيت الاسود ، وحولها درابزين من الخشب على شكل مربع طوله من الشرق الى الغــرب ١٧,٧٠ مترا ، وعرضه ١٣,٥٠ مترا ويبلغ ارتفاعه نحو مترين . وفى زواياه جملة محاريب الى القبلة ، يسمون واحدا منها بمحراب ابراهيم ، وآخر بمحراب داود ، وآخر بمحراب على رضى الله عنه ، ولا أدرى معنى لهذه التسمية الاخيرة لانه لم يعرف عن علىّ رضى الله عنه انه قدم بيت المقدس .

ويبرز من الصخرة لسان الى جهة القبلة يميل الى الشرق ، لهم فيه أقوال كثيرة : منها انه سلم على النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، وسَلّم على عمر رضى الله عنه عند قدومه لفتح المقدس !!! وتحت هذا اللسان مغارة صغيرة ، ينزل اليها بنحو ١٥ درجة ضيقة . وهى لا تزيد عن أربعة أمتار طولا فى ثلاثة أمتار عرضا ، والحوائط التى بنيت فى محيطها تجعل شكلها مربعا تقريباً . وفى سقف هذه المغارة فوهة تنفذ الى ظهر الصخرة ، كانت مكان القرابين التى كان

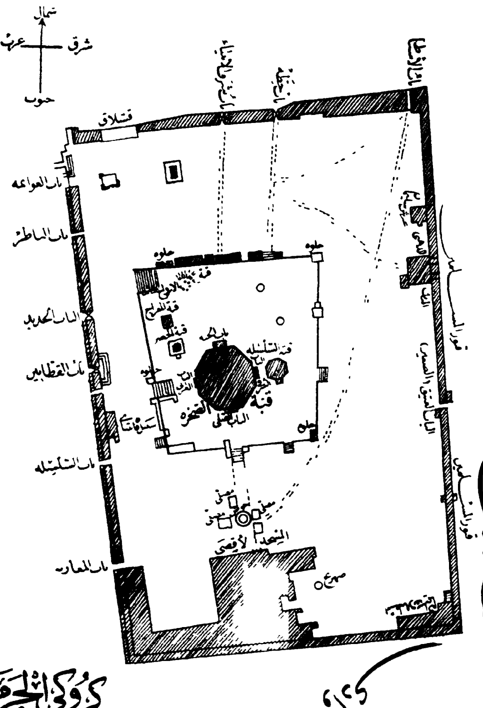
يقدمها ابراهيم وخلفاؤه الى الله تعالى ، ومنها أتى تقديس هذه الصخرة . وفى قبالة هذه الفوهة بلاطة من أرضية المغارة تغطى بئرا يسمونها جُب الارواح ، وللقوم فيها حكايات كثيرة أشبه شئ بالخرافات ! ولعل لهذه التسمية أصلا أخذوه من دماء القرابين التى كانت تنزل اليها ، وربما كان القوم يلقون فيها الهدايا النفيسة التى كانوا يقدمونها الى الصخرة ، كما كان الشأن فى البئر التى كانت فى جوف الكعبة . وعلى ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثنى عشر قدما : كان النصارى فى القرون الوسطى ينسبونها الى عيسى عليه السلام ، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا انها آثار قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سار عليها ليلة الاسراء . ومع ماهى عليه من عدم النظام ، وانها على خط مستقيم تقريبا ، وهو مالا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين ، فانها تكاد يكون شكلها واحدا ، وهو مالا ينطبق على شكل القدمين ، خصوصاً وانها أصغر بكثير من الاقدام المنسوبة له صلى الله عليه وسلم مما ذكرناه فى صفحة ١٢٥ من هذا الكتاب . ومن هذا وذاك ترى انها كلها موضوعة لا أثر لها من الصحة : يؤيد ذلك أنه لم يرد فى ديننا الحنيف مايشير الى شئ من ذلك بالمرة . وبجوار هذه الاقدام أثر قدم آخر ينسبونه الى ادريس عليه السلام . ويوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بجوار الدرابزين خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسبونه أيضا الى نبينا صلوات الله عليه ، وفيها أيضا بعض شعرات من لحيته الشريفة .

ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة فى الهواء ، وانما بنيت تحتها هذه الحوائط حتى لا يفتتن الناس بها . واظن أن فكرة تعليق الصخرة مأخوذة عن اليهود ، وربما كان لهم شبه حق فى ذلك لكثرة الفضاء الذى حولها ، كالصهاريج وغيرها من السراديب والمغاير . على أنه لا يبعد أن الصخرة الشريفة لا تتصل نقطتها المركزية بالجبل الا فى النقطة الصخرية التى تشاهد فى الجهة الغربية الشمالية من أرضية حوش الحرم . وعلى ذلك تكون كأنها ممتدة فى الفضاء على مسافة ستين أو سبعين مترا بين رأسها وقاعدتها . وكأن بناء هذه المصطبة حولها انما كان دعامة لها من جهة ولسهولة الوصول الى رأسها الذى كان مكان القرابين من جهة أخرى .



BOEHME & ANDERER, CAIRO

قبة الصخرة وإلى جوارها قبة السلسلة



كروكي الحرم الأقصى

BOEHME & ANDERER, CAIRO

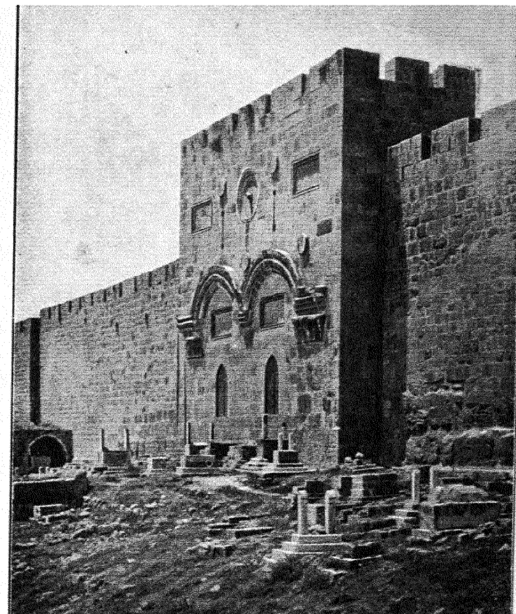
ولقبة الصخرة أربعة أبواب : واحد فى شمالها ، والثانى فى جنوبها ، والثالث فى شرقيها ، والرابع فى غربيها . والاوّل منها يسمى باب الجنة . وفى الاضلاع التى ليست بها أبواب توجد شبابيك كبيرة ، فيها أشكال كثيرة من الزجاج الملوّن ، غاية فى حسن الصناعة ، وخصوصاً فى تنسيق الالوان المختلفة التى بانعكاسها على جُدُر القبة تعطى أشكالا بديعة جداً تزيد فى رونقها ، لاسيما اذا كانت الابواب مقفلة !!

ويحيط بالقبة من الخارج فناء كبير أرضه مفروشة بالرخام يسمونه مصطبة الصخرة . وطول هذه المصطبة من الشرق الى الغرب لا يقل عن مائة وثمانين متراً ، وعرضها يزيد عن مائة متر . وترى بها هنا وهناك حول قبة الصخرة جملة قباب صغيرة ، يسمون واحدة منها بقبة المعراج ، يعنى أنها ضربت على المكان الذى عرج منه النبى صلى الله عليه وسلم . والثانية يسمونها قبة الخضر . والثالثة قبة الارواح الخ . وعالبها فى الجهة الغربية من قبة الصخرة . أما الشرقية ففيها قبة السلسلة ، وهو شكل مصغّر لقبة الصخرة الا أنها قامت على عمد من المرمر : ويزعمون أنها كانت محل حكومة داود عليه السلام ، ويقولون انه كان بجوارها سلسلة تنزل من السماء اذا أمسك الشخص بها وحلف عليها كذبا انفصلت عنها حلقة فتصعقه لوقته ؟؟؟

وهذه المصطبة ترتفع عن أرضية الحرم بنحو ثلاثة أمتار ونصف ، ويصعد اليها بثمانية سلالم فى كل جهاتها : منها ثلاثة فى الغرب ، وسُلّمان فى الشمال ، وسلمان فى الجنوب ، وسلم واحد فى جهة الشرق . وسعة الدرجة الواحدة من هذه السلالم لا تقل عن عشرين متراً . ويقوم على طول الدرجة العليا من جميعها خمسة أعمدة قامت عليها أربعة أقواس لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار ، وهى أشبه شىء بمداخل المعابد الرومانية . وربما كانت من أعمال هيرودوس ملك اليهود ، حين بنائه للهيكل سنة ١٩ قبل المسيح . ويسمون هذه الاقواس بالموازين : يعنى التى تزن أعمال الخلق يوم القيامة ؟؟ كما يزعمون أن الصخرة تكون عرش الله فى ذلك اليوم ؟؟؟ ومسلمو القدس يشتركون فى هذه الافكار مع اليهود واذاً فأصلها يهودى صرف .

وحول مصطبة الصخرة يوجد حوش الحرم القدسى ، وهو على هيئة مستطيل غير منتظم من الشمال الى الجنوب : وطول ضلعه الغربى ٤٩٠ متر ، والشرقى ٤٧٤ متر، والشمالى ٣٢١ متر، والجنوبى ٢٨٣ متر . وفى الجهة الشرقية وبعض القبلية سور به مزاغل ارتفاعه ٨ أمتار تقريباً ، وهو قديم جداً رممه السلطان صلاح الدين الايوبى ، والسلطان سليمان القانونى . وهاتان الجهتان تشرفان على وادى سدرون (وادى مريم)، وبعضهم يسميه وادى جهنم، واليهود يسمونه وادى يوسفات ، وقد ورد ذكره فى التوراة بلفظ يوشافاط ، ويزعمون أن به يحشر الناس يوم القيامة ، وهنالك يتسع فناؤه وتنفسح أرجاؤه ؟ ؟ وهذا الوادى يفصل بين جبل الزيتون وجبل صهيون الذى بنيت عليه مدينة بيت المقدس . أما الجهتان الاخريان (الغربية والشمالية) ففيهما جملة مدارس على محيط الحرم، اشهرها مدرسة قايتباى فى الجهة الغربية ويسكنها الناس الان ، وأما التى فى الجهة الشمالية ففيها قشلاق للعسكر .

وفى حوش الحرم جملة مصاطب صغيرة يصلون فيها، وفى كل واحدة محراب الى القبلة . وفى الجهة الغربية قبة جميلة جداً أقيمت على سبيل للاشرف قايتباى . أما الجهة القبلية ففيها مسجد كبير فخيم يسمونه بالمسجد الاقصى : وليس هو المراد بما ذكر فى القرآن الكريم : لانه كان كنيسة بناها الامبراطور جوستنيان فى منتصف القرن السادس للمسيح ، وحوّلت الى مسجد اسلامى بعد الفتح . وانما كان المراد به المسجد الذى حول الصخرة نفسها كما تقدم . ولما حضر سيدنا عمر رضى الله عنه الى بيت المقدس، صلى فى الجانب الشرقى الجنوبى للمسجد الاقصى ، وترى مصلاه الى الآن على بساطة تامة فى بنائه بجوار الفخامة التى عليها باقى المسجد . وباب هذا المسجد الى الشمال فيما يقابل مسجد الصخرة ، وطوله من الشمال الى الجنوب ٨٠ متراً، ومن الشرق الى الغرب ٥٥ متراً، من غير الزيادات التى أضيفت عليه شرقاً وغرباً . وجميعه مسقوف ، ويحمل سقفه أعمدة عظيمة من الرخام المرمر الجميل : ومن ضمنها عمودان بجوار بعضهما الى جهة القبلة من الشرق ، عليهما درابزين من الحديد ليمنع الناس من الولوج بينهما، بدعوى أن من يمر من بينهما يكون سعيداً والا كان شقياً



الباب الذهبي للمسجد الاقصى



اليهود يستلمون احجار سور المسجد الاقصى

(كما يقال عن العمودين اللذين بمسجد عمرو بن العاص بفسطاط مصر) ! !

و في هذا المسجد منبر جميل جداً من خشب الابنوس المطعم بالسن والصدف أهداه اليه نور الدين الشهيد محمود بن زنكى . والى جواره من الغرب محراب صغير في أرضيته حجر به أثر قدم ينسبونه الى عيسى عليه السلام .

و يوجد في حوش الحرم وخصوصاً في الجهة الغربية والقبلية صهاريج كثيرة ، وأبواب توصل الى كهوف تحت الارض : واحد منها بجوار المسجد الاقصى من جهة الشرق : و ينزل اليه بجملة درجات من الحجر ، توصل الى مكان واسع مربع الشكل ، في وسطه عمودان كبيران من الحجر الصلد ، يحملان قبابا يستند عليها سقف المكان ، و في جوانبه حوائط بها فتحات مسدودة .

وأهم هذه الكهوف ما يسمونه باصطبلات سليمان : وتوجد في الزاوية القبلية الشرقية للحرم . و ينزل اليها بواسطة سلالم صغيرة بجوار السور الشرقي ، وترى في وسطها صدفة كبيرة بجانبها دخلة فيها اناء كبير من الرخام ، و يزعمون انه مهد مريم أو محراب مريم و يقولون ان زكرياء كان يأتيها بالطعام هناك " وهذه السلالم توصل الى فناء رحيب ، يحمل عرشه اثنا عشر صفا من العمد الكبيرة ، يكوّن مجموعها ٨٨ عموداً ، ارتفاع متوسطها ثمانية أمتار أو أكثر . وكل هذه العمد تحمل أقواساً عليها قباب تدعم أرضية الحرم . وحول هذا الفناء حوائط من البناء العتيق ، و في الجهة القبلية منه باب مسدود ينفذ على وادي سدرون . وفي الجهة الشمالية والغربية فتحات مسدودة بعضها صغير و بعضها كبير ، ربما كانت توصل الى مثل هذا المكان : مما جعل بعضهم فيما بعد صهاريج لخزن مياه الامطار معروفة بأسماء من اتخذها لهذا الغرض ، وقد رأيت في زيارتى للقدس سنة ١٩١٠م أمام بعض هذه الفتحات آثار حفر قديم .

ومن هذا يتضح لك ان أرضية الحرم كلها معلقة على مثل هذه العمد : مما يدل على أن هذا كله إنما هو الهيكل الذى بناه سليمان أو خلفاؤه وسماه الصليبيون باصطبلات سليمان .

ولا يبعد أن اليهود استعملت جانباً من هذا المكان وقت الكوارث التي حلت بهم زمن

سنحاريب و بختنصر وطيطوس، ودفنوا فيه دفائنهم الثمينة ، التى أكثرت الجرائد أخيرا من ذكر العثور عليها أو على بعضها ، وخبطت فى شأنها و وصفها كثيرا سواء بحق أو بغير حق، واهتمت الدولة بها اهتماما عظيما .

وللحرم الشريف عشرة أبواب : سبعة منها فى الجهة الغربية، أهمها باب السلسلة فى الوسط، ثم باب المغاربة الى جنوبه ، و باب القطانين الى شماله . و فى الجهة الشمالية باب شرف الانبياء وهو الذى دخل منه عمر الى المسجد ، ثم باب الاسباط و يسمونه باب حطة ، و يزعمون أنه هو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة البقرة «وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » . و يوجد فى جهة الشرق باب الظاهرية و ينزل اليه بسلالم توصل الى دهليز يحيط ببناء مربع ، فيه أعمدة من الرخام من جوانبه الغربى والشمالى والجنوبى يقوم عليها سقف المكان . وقد أحيطت هذه الاعمدة بدرزين من الحديد عليه قطع كثيرة من الخرق البالية ، يضعها العامة تذكارا لزيارتهم له . و يقولون ان هذا المكان كان محل حكومة سليمان عليه السلام ؛ و به الى الان عمودان من السماق (نوع جميل جدا من المرمر يندر وجوده الآن)، يقولون انهما أرسلا الى سليمان هدية من بلقيس ملكة سبأ . و بجوار هذا المكان باب له منفذان مغلقان على وادى سدرون : القبلى منهما يسمى باب التوبة ، والشمالى باب الرحمة ، وهذا الباب كان يسمى مدة العمارة التى قام بها هيرودوس فى الهيكل باب سوزان ، وهو الذى دخل منه هرقل الى بيت المقدس سنة ٦٣٩ ميلادية، ومن ثم سمى بالباب الذهبى . ومفاتيح المسجد الاقصى والصخرة من مدة مديدة فى يد عائلة الخالدى الشهيرة ، وكذلك فى يدهم مفاتيح كنيسة القيامة لعدم اتفاق طوائف النصارى عليها .

أما المدينة فهى واقعة فى درجة ٣١ و ٢٧ دقيقة من خطوط العرض الشمالى، ودرجة ٣٢ و ٥٤ دقيقة و ٤٥ ثانية من خطوط الطول الشرقى ، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٧٧٠ متر . وهى مبنية على هضبتين عاليتين احداهما على جبل صهيون والثانية على جبل عكره ، وتنحدر مبانيها نحو الشرق الى وادى سدرون ، ونحو الجنوب الغربى الى وادى هنوم . وعدد سكانها الآن ٧٠ ألفا : منهم عشرة من المسلمين، وخمسة وأربعون من اليهود،

وخمسة عشر من النصارى من أجناس مختلفة وأغلبهم من الار وام .

ولمدينة القدس طريق حديدى ضيق من يافا طوله نحو ٨٠ كيلومترا ، وهو لشركة فرنساوية قامت بعمله فى منتصف القرن الماضى .

ولقد كانت هذه المدينة فى منتصف القرن الخامس عشر قبل المسيح عامرة، وكانت تسمى يَبُوس وكان سكانها يُسَمَّوْن اليبوسيين .

و فى مبدا القرن العاشر قبل الميلاد استولى عليها داود ملك بنى اسرائيل، وكان ملكه فى حبرون ، وأتى اليها بتابوت العهد وعَمَّر فيها كثيرا وسماها أورشليم، و بنى فى غربها الجنوبى مدينته التى سماها باسمه، وقبره موجود فيها على جبل موريا، وخَلَفَه ابنه سليمان فزاد فى عمارتها و بنى على الصخرة الهيكل المقدس . ولما تقسمت مملكة فلسطين بين أسباط بنى اسرائيل، وقعت مدينة أورشليم فى نصيب يهودا . و فى مدة بنيه حاصرها سنحاريب ملك بابل سنة ٧١٢ ق م و رجع عنها بعد أن هدم جانبا منها ونهب شيئاً من أمتعة هيكلها . ثم استولى عليها بختنصر ثلاث دفعات : سنة ٦٠٦ و ٥٩٦ و ٥٨٨ قبل الميلاد . و بعد أن نهبها واستولى على كل ما عثر عليه من ذخائرها، أمر بها فهدمت و لم يتركها الا بعد أن جعل عاليها سافلها .

و فى سنة ٥٣٦ ق م استولى عليها قيروش ملك العجم، وأمر بها فبنيت وجدد بناء هيكلها سنة ٥١٦ ق م، وأعاد اليه جميع ذخائره التى نهبها الاشوريون . ومازالت أورشليم عامرة حتى استولى عليها الرومانيون مدة الملك بومبيوس سنة ٦٤ ق م . و فى مدة حكم الرومان ظهر فيها المسيح عليه السلام . ولما استولى عليها الملك طيطوس سنة ٧٠ م ، أحرق هيكلها وهدم المدينة بعد أن طرد اليهود منها . ومازالت حتى عمرها الملك ادريان وسماها ايلياء . ومنع اليهود من أن يطئوا أرضها ، وجعل الديانة الرسمية فيها المسيحية ، و بنى فيها كنيسة القيامة سنة ١٣٨ م . ومازالت مدينة القدس فى يد الرومانيين حتى استولى عليها العرب فى سنة ٦٣٦م ، وكانوا يسمونها بيت المقدس ، وأتى اليها سيدنا عمر بن الخطاب بنفسه لفتحها وأطلق الحرية المطلقة للنصارى واليهود فى مزاولة دياناتهم والتصرف فى أموالهم، ومنحهم كثيرا من فضله فى عهده الذى كتبه لهم !!! مما يدل على منتهى التسامح الاسلامى الذى

كثيرا ما ينساه أو يتناساه أعداؤه خصوصاً فى هذه الايام . و فى سنة ٩٦٩ م تغلب الفاطميون على هذه المدينة ، ثم استولى عليها السلجوقيون فى سنة ١٠٨٦ م ، ثم أخذها الصليبيون فى سنة ١٠٩٩ م ، وأقاموا فيها مملكة سمّوها مملكة القدس ، مكثت فى أيديهم كل مدة الحروب الصليبية الاولى ، وأحسن ملوكها هو الذى كانت تسميه العرب البردويل (Bauduin) ، ومازالت هذه المملكة فى يد الصليبيين حتى غلبهم عليها صلاح الدين الايوبى فى سنة ١١٨٦ م ، و بقيت فى حكم ملوك مصر حتى استولى عليها الاتراك سنة ١٥١٧ م ، وهى باقية بايديهم الى الآن . وللسلطان سليمان القانونى فى هذه البلاد آثار كثيرة تذكر له بالشكر ، ولكن أهلها اختلط عليهم الامر فينسبون كل اصلاح له الى سليمان بن داود عليه السلام .

ولتتمة الكلام على بيت المقدس نقول لك : انه يوجد فيه مزارات كثيرة : منها وراء سور المدينة فى الجهة الغربية القبلية فى قمة جبل صهيون ، مسجد فيه قبر سيدنا داود عليه السلام ، و يقول بعضهم ان سليمان ولده مدفون معه ، و يقول آخرون بل هو مدفون فى مصطبة الصخرة . و بعضهم يقول انه داخلها تحت البلاطة السوداء . و يوجد تحت سور المدينة من جهة الشرق قبر سيدنا عبادة بن الصامت وسيدنا شداد بن أوس الانصارى . والى ناحية من هناك المغارة التى فيها قبر السيدة مريم . وفى جبل طور زيتا قبر سيدنا سَلْمان الفارسى الصحابى ، والسيدة رابعة العدوية ، وقبة صعود سيدنا عيسى عليه السلام ، وقبر الشيخ حسن الراعى وقبر العزير عليه السلام . وعلى بعد ست ساعات بالعربة من جنوب بيت المقدس مدينة الخليل ، و يسميها اليهود حبرون . وفيها مسجد مرتفع عن الارض بنحو عشرة أمتار ، و به قبر ابراهيم وسارة واسحق و يعقوب و يوسف عليهم السلام ، وهذه القبور كلها فى مغارة تحت أرضية المسجد ، وهى مغارة المُكْفيلة التى اشتراها ابراهيم ليدفن بها ، ولها مزارات على سطحها فى أرض المسجد . وعدد سكان هذه المدينة عشرون ألفا منهم ١٥ من اليهود والباقى من المسلمين . و فى الطريق بين الخليل و بيت المقدس مدينة بيت لحم ، وفيها كنيسة فخيمة أقيمت على المكان الذى ولد فيه المسيح . ترى فى داخلها على الدوام عسكرا من الجند العثمانى لحفظ النظام الذى كثيراً ما يعبث به تشاحن بعض الطوائف المسيحية مع بعضهم .

كيف تحج أيها المسلم

اعلم وفقك الله لطاعته، أن الحج فُرِضَ على المسلمين فى أواخر سنة تسع من الهجرة، مرة واحدة فى العمر على كل مسلم، حر، مكلف، صحيح البدن، ميسور الزاد والراحلة، قادر على نفقة عياله مدة سفره فى حجه، مع أمن الطريق اليه . ويحرم الحج بمال حرام، ويكره بدون اذن من له الولاية على من يريده ، وتجوز الانابة فيه عند العجز عن أدائه بحبس أو مرض، فان زال وجب اداؤه بالذات .

فاذا تيسر لك ذلك كله فسافر على بركة الله لاداء هذه الفريضة . فاذا وصلت الى ميقات الاحرام فأحرم بنية الحج (أو العمرة (١) ان شئت أو هما معا) قائلا : اللهم انى نويت الاحرام لحج بيتك المعظم فيسره لى وتقبله منى (وكيفية الاحرام ان يتجرد الرجل من مخيط الثياب، ويلبس ازارا معه رداء ونعلان ان تيسر له دلك . أما المرأة فتلبس ملابسها وتكشف كفيها ووجهها ان لم تخش الفتنة . ويسن تقليم الاظافر وحلق ماشعث تحت البطن « العانة » وتسريح الشعر والغسل قبل الاحرام وصلاة ركعتين يبدؤه بهما) . ثم تلبى قائلا : لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك . ولا تزال تكرر التلبية من وقت الى آخر، حتى اذا دخلت مكة قلت : اللهم ان هذا الحرم حرمك والامن أمنك والعبد عبدك ، اللهم انى جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة راجياً أن تستقبلنى بمحض عفوك وكرمك وأن تحرم جسدى على النار، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .....

(١) العمرة فى اصطلاح الحجيج زيارة البيت الحرام . وهي سنة عند المسلمين وأركانها احرام، وطواف، وسعي . وحلق أو تقصير، وا س لها زمن محصوص، وكثير من الحجاج اذا وصلوا لى مكة يذهبون الي التنعيم، وهو أقرب مكان في الحل على طريق المدينة قبل وادي فاطمة، ويتوضئون من ماء هناك ثم يحرمون بنية الاعتمار ويصلون ركعتي سنة احرام العمرة، ثم يعودون الي مكة فيطوفون ويسعون ثم يحلقون أو يقصرون ثم يتحللون .

وصحبه وسلم . فاذا جئت الى الحرم فادخل من باب السلام قائلا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام بفضلك ياذا الجلال والاكرام . ثم سر نحو البيت من جهة الشرق قائلا : اللهم ان هذا الحرم حرمك وهذا الامن أمنك، اللهم حرّم جسمي على النار . فاذا وقع بصرك على الكعبة فقل : بسم الله والله أكبر (ثلاثا) لا إله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وادخل من باب شيبة قائلا : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ، وقل جاء الحق و زهق الباطل ان الباطل كان زهوقا، ونزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا . فاذا أتيت الحجر الاسود فاستقبله وقل : بسم اللهِ اللهُ أكبر ولله الحمد، اللهم اغفر لى ذنبي وطهّر لى قلبي واشرح لى صدري وعافني برحمتك فيمن تعافى . ثم استلمه بيمينك وقبله (ان أمكنك) وانو الطواف قائلا : اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم، اللهم يسرها لى وتقبلها مني ، ثم انطلق فى طوافك قائلا : اللهم ايمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا السنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، اللهم ان هذا البيت بيتك والحرم حرَمك والامن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار فاعذني منها يا عزيز يا غفار ، اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم انى أسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة ، اللهم أظلنى تحت عرشك يوم لا ظل الا ظلك واسقنى بكأس نبيك محمد صلى الله عليه وسلم شربة هنيئة مريئة لا أظمأ بعدها أبدا ، اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور ، اللهم انى أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق وسوء الاخلاق وسوء المنقلب وسوء المنظر فى المال والاهل والولد ، اللهم انى عبدك وابن عبدك قد أتيتك بذنوب كثيرة ، اللهم ما كان لك منها فاغفره لى وما كان منها لعبادك فاحمله عنى . وكلما قربت من الحجر الاسود قل : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فاذا حاذيته فقل مستلما ان أمكنك أو مسلما عليه بيمينك

من بُعْد : بسم الله الله أكبر ، ثم ادع الله تعالى بما تشاء من الادعية السابقة أو بما يحضرك من غيرها ، والا فحسبك الذكر والتوحيد والاستغفار ويجمعها قولك : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . ويسن الاضطباع فى طواف القدوم : وهو اخراج الذراع الايمن فوق الرداء الذى تشتمل به ، وكذلك يسن فيه الرمَل (أى الجرى بخطى ضيقة اشارة الى أن الجسم ممتلئ قوة وشهامة ، ولم تؤثر فيه عوامل مشقة السفر فى سبيل الله) .

و بعد طوافك سبعة أشواط على هذا النظام توجه خلف مقام ابراهيم وصل ركعتين سنة الطواف ، ثم قل : اللهم انك دعوت عبادك الى بيتك الحرام وقد جئت طائعا لامرك فاغفر لى وارحمنى ، اللهم اغفر لى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، اللهم اغفر لى ولجميع المؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والأموات . ثم اقصد الملتزم وقل اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار ، اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم انى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم لاعتابك متذلل بين يديك أرجو رحمتك وأخشى عذابك ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واغفر لى ذنبى . ثم اذهب الى بئر زمزم فاشرب منها هنيئا مريئا . ثم توجه الى المسعى فاذا خرجت من باب الصفا فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يَطَّوَّف بهما ، ثم اصعد على درجات الصفا وتوجه الى الكعبة فاذا شاهدتها قل : بسم الله الله أكبر ولله الحمد ، ثم اسع الى المروة قائلا : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم انى أعوذ بك من عضال الداء وخيبة الرجاء وشماتة الاعداء وزوال النعمة ونزول النقمة ، وتهرول بين الميلين الاخضرين (وهما عمودان مبنيان فى جدار الحرم : واحد بجوار باب البغلة ، والآخر بجوار باب على ، ومسافة ما بينهما سبعون مترا) قائلا : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الاعز الاكرم ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا عزيز يا غفار

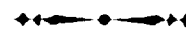
ياأرحم الراحمين ثم ادع الله بما شئت، حتى اذا أتيت المروة فاصعد على سلمها وتوجه الى المسعى[١] وادع بما شئت . و يعد هـذا شوطاً من السعى . وهكذا تسعى فى الاشواط السبعة . وتستحضر أثناء سعيك ذاك الجهد الذى أصاب هاجر فى هرولتها طلبا للماء عنـد قدومها بولدها الى هذه الفلاة ورحمـة الله بها بعثورها على عـين زمزم، فكان عليها استـعمار مكة التى أصبحت قبلة للمسلمين فى جميع أطراف الارض . واذا كنت متمتعاً (محرما بالعـمرة) حلقت أو قصرت وتحللت (فـكـكت احرامك)، حتى اذا كان يوم التروية (اليوم الذى قبل يوم عرفة)، أحرمت للحج . أما ان كنت قارنا (أعنى محرما بالحج والعـمرة معا) أو مفردا (محرما بالحج فقط)، بقيت باحرامك فى مكة الى يوم التروية، ثم تتوجه الى عرفة فتبيت فيها ان لم تكن أردت المبيت بمنى . وتقضى بعرفة[٢] يوم التاسع من ذى الحجة وجزأ من ليلة العاشر فى الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي والاكثار من تلاوة سورة الاخلاص ومن قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي و يميت وهو على كل شئ قدير، وتكثر من الدعاء والتضرع الى الله بقبول حجك وغفران ذنبك خصوصاً بعد العصر . و يسن الجمع (تقديم العصر مع الظهر) مع الامام بعرفة . فاذا أفاض الامام أو نائبـه

(١) المسعى هو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو أربعمائة وعشرين مـترا، وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمخازن والدكاكين، مما يجعله مزدحماً بالناس زمن الموسم لاسـيما عـند دخول القوافل بالحجيج الى مكة، وهنا لك يكثر الساعون ويصادفون في سعيهم مشـقات كثيرة . وعلى طرفي المسعى وخصوصاً من جهة المروة دكاكين للحلاقين يحلق أو يقصر فيها من أراد ان يتحلل من احرامه .

(٢) يكفي فى الوقوف بعرفة لحظة من يوم التاسع وليلة العاشر . ولو فاتك الوقوف فقد فاتك الحج من عامك، فتحلل بعمرة، وعليـك قضاؤه في العام القابل ولو كان حجك نفلا . هذا عند أهل السنة، أما عند الشيعة من الاعجام فحاجهم لو فاته الوقوف فانه لا يتحلل حتى يقضى حجه في عام قابل : لذلك تراهم يبالغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون فى اليوم التاسع والعاشر، ولا ينزلون من عرفة الا بعد قليل من ليل الحادي عشر .

ولقد فاتهم الوقوف سنة ١١٤٣ فاقاموا بمكة محرمين حتى أدوا الفريضة سنة ١١٤٤، ولـكن أهل مكة قاموا عليهم بدعوى أنهم وضعوا نجاسة فى البيت وأرغموا الشريف محمد بن عبدالله بن سعيد على اصدار أمره باخراجهم من البلد الحرام فساروا الي الطائف وجدة وأقاموا بهما الي الموسم التالي .

من عرفة فانفر معه الى المزدلفة، وان كنت مالكياً فحسبك من اقامتك بها مقدار ماتجمع فيه جمارك وهى تسع وأربعون حصاة فى حجم الفولة تقريباً، وان كنت شافعياً فحسبك الاقامة فيها جزأ من نصف الليل الثانى، وان كنت حنفياً فبت بها وانزل بعد صلاة الصبح الى منى، وارم جمرة العقبة بسبع حصيات تقول فى اثنائها: بسم الله الله أكبر رجماً للشيطان وحزبه، اللهم تصديقاً بكتابك واتباعا لسنة نبيك وخليلك عليهما الصلاة والسلام. ثم اذبح ان كان عليك هدى، ثم احلق أو قصّر وقل: الحمد لله الذى قضى عنى نسكى، اللهم زدنى ايمانا ويقيناً، وهنالك يحل لك كل ما حَرُم عليك فى الاحرام الا النساء والطيب. وفى اليوم الثانى ارم جمرة العقبة بعد الزوال، ثم ارم الجمرة الثانية ثم الثالثة بسبع حصيات فى كل جمرة، وكذلك تفعل فى اليوم الثالث. ثم انزل الى مكة وطف طواف الافاضة، واسع ان لم تكن سعيت بعد طواف القدوم. ومن الناس من ينزل فى عاشر ذى الحجة الى مكة، حتى اذا طاف طواف الافاضة وسعى (ان كان عليه سعى) عاد من يومه الى منى، ونزل منها الى مكة بعد زوال اليوم الثالث عشر وبهذا ينتهى الحج. ويقيم الحجاج فى مكة أياما يصلحون فيها من شؤونهم، ثم يقصدون السفر الى الزيارة أو العودة الى بلادهم.



محرمات الاحرام

يحرم على المحرم لبس المحيط وتغطية الرأس وازالة شعره بنتف أو حلق، فان فعل شيئا من ذلك متعمدا أو ناسياً فعليه الفدية (ذبح شاة): الا اذا كان الشعر الذى أزيل منه يسيرا لا يتجاوز اثنتى عشرة شعرة فعليه حينئذ أن يتصدق بحفنة من بر. ويحرم عليه أيضا تقليم أظافره، وعليه الفدية ان فعل: الا اذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدق بمد أو مدين. ويحرم عليه الطيب فى بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو فى عطوس أو دهان، ويجب عليه به الفدية. ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره أو ازعاجه كما يحرم عليه قطع حشيش

الحرم وشجره وعليه به دم . و يحرم عليه الجماع و به يفسد الحج .

واذا فات الحاج شيء من أركان الحج أو العمرة أو شروطهما سهوا أو عمدا بطل حجه وعمرته ، وان فاته شيء من الواجبات وجب عليه دم لكل واجب تركه : وذلك بأن يذبح شاة في الحرم ، فان عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت احرامه الى يوم النحر ، وسبعة اذا رجع الى بلده . هذا اذا كان ترك شيئا منها قبل الوقوف ، أما ان تركه بعده فله صوم العشرة الايام بعد عودته الى وطنه . وان فاته شيء من السنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق .



	الحنبلي	الشافعي	المالكي	الحنفي	
الاحرام للعمرة	ركن	ركن	ركن	شرط *	* وقيل انه ركن
طواف العمرة	»	»	»	ركن	
السعي في العمرة	»	»	»	واجب	
الاحرام للحج وهو نية الدخول فيه	»	»	»	شرط	
التلبية مع الاحرام واعادتها بعد السعي	سنة	سنة	واجب	سنة	
الاحرام من الميقات	واجب	واجب	»	واجب	
طواف القدوم	سنة	سنة	واجب	سنة	
البدء بالحجر في الطواف	شرط	شرط	»	واجب	
ستر العورة في الطواف	»	»	شرط	»	
الطهارة في الطواف من الحدثين	»	»	»	»	
ركعتا الطواف	سنة	سنة	واجب	»	
وقوع السعي بعد الطواف	شرط	شرط	»	شرط	
عدم الفصل بين السعي والطواف	سنة	سنة	»	سنة	
البدء في السعي من الصفا	شرط	شرط	شرط	واجب	
المشي في الطواف والسعي مع القدرة	سنة	سنة	واجب	»	
موالاة الاشواط في الطواف والسعي	شرط	»	»	سنة	
الوقوف بعرفة نهاراً	ركن	ركن	»	ركن	
الوقوف بعرفة ليلا	واجب	واجب	ركن	واجب	
الدفع من عرفة مع الامام (المرة)	سنة	سنة	واجب	»	
الوقوف بمزدلفة	واجب	واجب	»	»	
تأخير جمع المغرب والعشاء لمزدلفة	سنة	سنة	سنة	»	
المبيت بمنى ليالي أيام التشريق	واجب	واجب	واجب	سنة	
رمي الجمار	»	»	»	واجب	
عدم تأخير الرمي الى الليل	سنة	سنة	»	سنة	
الحلق أو التقصير	واجب	ركن	»	واجب	
الترتيب بين الرمي والذبح والحلق	سنة	سنة	سنة	»	
الحلق بالحرم وتوقيته بأيام النحر	»	»	»	»	
طواف الافاضة	ركن	ركن	ركن	ركن	
طواف السبعة الاشواط	شرط	شرط	شرط	واجب *	* الركن عنده أربعة أشواط فقط
الطواف من وراء الحجر والشاذروان	»	»	»	»	
تأخير طواف الافاضة عن الرمي	سنة	سنة	واجب	سنة	
فعل طواف الافاضة في أيام النحر	»	»	» *	واجب	* الى آخر شهر ذي الحجة
السعي في الحج	ركن	ركن	ركن	»	
طواف الوداع	واجب	واجب	مندوب	»	

الاحرام

يجب أن يكون الاحرام من الميقات . ولكل جهة ميقات معين : فقد روى عن عمر وابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَهَلّ أهل الشام الجُحْفَة، ومهل أهل المدينة من ذي الحُلَيْفة، ومهل أهل نجد من قَرَن، ومهل أهل اليمن من يَلَمْلَم » والجحفة وتسمى مَهْيَعة قرية صغيرة على طريق المدينة الى مكة ، وهى شرقى رابغ وعلى نحو ستة أميال منها (ويراد بأهل الشام هنا ما كان شمالى مكة) . وذو الحليفة (آبار على) منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج من المدينة المنورة لحج أو عُمْرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يحج من هذا الطريق ويهل من هذا المكان ، واذا عاد الى المدينة دخل من طريق المعرس وهو بطن الوادى . وكان طريقه الى مكة على الصفراء وبدر وعسفان، ومنازله على غير منازل الحاج فى أيامنا هذه، وربما اتفقت فى كثير منها وان اختلفت اسماؤها . وأما قرن المنازل فهو مشتبك طريق نجد مع طريق القافلة من الطائف الى مكة ، وهو على مرحلة من الطائف ومرحلتين من مكة (وقد كان فى قرن لعدنان مع بختنصر واقعة كبيرة فى القرن الثالث عشر قبل الهجرة انتصر فيها الاشوريون على العرب ثم رجعوا عنهم الى بلادهم) . اما ذات عرق التى يحرم منها القادمون من نجد فهى غربى قرن، والحد الفاصل بين نجد وتهامة ، قال الشاعر .

كأن المطايا لم تنخ بتهامة * اذا صعدت عن ذات عرق صدورها

ويلملم بفتح أوله وثانيه جبل على ليلتين من مكة ، وهو فى طريق اليمن اليها، وأودية تنحدر الى البحر .

وهذه المواقيت للخارج عن حدودها، أما الداخل فيها فيحرم من أى نقطة من الحل . ولا بد لنا ان نلاحظ أن جعله صلى الله عليه وسلم ميقات احرام أهل المدينة من ذى الحليفه ، التى هى على نحو عشرة مراحل من مكة ، فى حين أن مهل الجهات الاخرى لا يبعد عنها الا بنحو مرحلتين ، انما هو لزيادة عنايته صلى الله عليه وسلم بالاستعداد للدخول الى حرم الله ،

وأراد ذلك لاهل المدينة لانهم أحب الناس اليه وأقربهم منه : وانما الاجر على قدر المشقة .
وكثير من الناس اذا عزموا على الحج يحرمون من بيوتهم، وترى ذلك كثيرا فى أهل المغرب .
وقدذكر أن عبد الله بن عامر والى البصرة لعثمان بن عفان، لما أكرمه الله بفتح بلاد الفرس من أدناها الى أقصاها، حتى وصلت فتوحاته الى حدود الهند شرقا وتخوم سبيرياشمالا والمحيط الهندى جنوبا، قال له أحد خاصته: لم يفتح الله لاحد ما فتح عليك : فقال لاجرم لأجعلن شكرى لله أن أخرج مُحْرما من موقفى هذا وأحرم بعمرة من نيسابور .

لباس الاحرام

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جدا . والمصريون كانوا يستعملون فى أول أمرهم المئزر ثم البرنس : وهو قطعة من القماش تلقى على الاكتاف، وتربط بحزام وترسل الى الركبتين فى العامة أو الى أسفل منها فى الخاصة .
حتى اذا ترقت الدولة فى عمرانها أطالوا من ذلك البرنس الى الكعبين، ولبسوا من تحته قميصا لا أكمام له أخذوه عن الانيوبيين [1] . وكانوا فى مبدا أمرهم يلونون ملابسهم بلون واحد (أخضر أو أزرق أو أحمر)، ثم انتهوا باستعمال كثير من الالوان فى ثيابهم مع ما كانوا يوشون به دوائرها بالاشرطة المنقوشة .

أما الاشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش، ويمرون بها من تحت ابطهم الايمن ويغطون بها الصدر، ثم يرسلونها على الكتف الايسر حيث يثبت طرفها اما بعقدة أو بمشبك (انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثانى من دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى). ثم غيروا هذا الزى بأن لبسوا قميصا صغيرا ومن فوقه شىء يشبه العباءة . والاعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة .

(١) هم سكان اثيوبيا : وهى مملكة قديمة كانت فى جنوب مصر فى المنطقة التى بها الحبشة وما والاها شرقا الى السومال، وشمالا وغربا الى جزء عظيم من السودان المصرى .

واليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعاً ويمرون به من تحت ابطهم الايمن ، بعد أن يلفوا به وسطهم ، ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر . ثم صاروا يشملون به الجسم جميعه : ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ، ثم يدخلون ذراعهم الايمن مع الرأس من فتحة ما بينهما ، بحيث تكون العقدة على الكتف الايسر ، ثم يلف الجسم بباقى هذه الشملة ويسمونها شيون (Chion) ، كما تراه الى اليوم فى عرب البادية المصرية خصوصاً عرب المغرب ، ولا شك فى أنهم أخذوا هذا الزى من الرومانيين أو القرطاجيين ، ولبث فيهم على بداوته الاولى الى الآن . وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية ، وقد شاهدت شيئاً يماثله تماما على قاعدة المسلة التى فى القسطنطينية فى ميدان السلطان أحمد ، وعلى بعض النواويس الموجودة فى متحف الاستانه ، وفى النقوش الموجودة فى سقف جامع القهريه (القعريه) : وهو أول كنيسة بنيت فى الاستانة وحولت الى مسجد بعد الفتح .

أما دار الآثار المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين فى قديم الزمان كانت تنحصر فى لبس المئزر : وهو فوطة يلف بها النصف الاسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل فى أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية (١) ، وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال كفرين المشهور بشيخ البلد فى القاعة حرف (B) ، وهو بانى هرم الجيزة الثانى ، ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التى كانت توجد فى القرن الخمسين قبل المسيح ، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة فى القاعة حرف (D) ، ثم تمثالى أمور وأمون وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطرقة اليمنى تمثله بمئزر بسيط . ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزيه والنحاسية التى فى دواليب المتحف لابسة شبه احرام كامل ، وقد شاهدت من بينهما تمثالا من الفخار للعذراء وهى ملتحفة بشملة تغطى جميع جسمها وانها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التى على يمين صحن المتحف من الدور الاول ، ففيها امثال

(١) هذا اللباس شائع للآن فى أعلى بلاد السودان وغيرها من البلاد التى لا تزال على فطرتها الاولى ، ونشاهده على كثير من أعراب البادية فى احرامهم وفى غير احرامهم .

الاحرام باشكاله التامة : فترى فى وسط القاعة حرف (T)، امرأة رومانية من الرخام الابيض الوردى بهيئة احرام كامل: أعنى أنها ملتحفة برداء أبيض يغطى كل جسمها ماعدا رأسها . ويقرب منها مثال رجل من الجرايبت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الايمن: وهو ما يسمونه فى الاحرام بالاضطباع، وفى رجله نعلان لا يغطيان ظاهر القدم، اللهم الا عروة يدخل فيها الابهام، ويخرج منها سيران رفيعان يتصالبان على مادون الكعبين، ويربطان فيمادون العقب: وهى مايسمونها فى الحجاز بالنعال الشرقية، التى أجمعت المذاهب الاربع على صحة الاحرام بها . وهذه النعل تراها أيضاً فى قدم منفصلة عن جسمها، موضوعة على يسار الداخل فى القاعة حرف (R) .

ومتاحف الفنون الجميلة فى جميع انحاء الدنيا غاصة بصور الناس فى العهد القديم وهم فى لباسهم البسيط الذى يماثل لباس الاحرام بل هو بعينه . والآن يمثلون هذا اللباس تماما فى تشخيص الروايات التى تشخص الزمن القديم الرومانى أو اليونانى، وخصوصاً فى تمثيل صور الانبياء والحكماء .

ويقال ان اليهود كانوا يستعملون فى معابدهم لبس غير المخيط ، أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه تليت أو تسيسوت، ليتشبهوا بموسى عليه السلام فى بساطة لباسه .

ومن هذا ترى أن ملابس الناس فى الزمن القديم، بل فى جميع أدوار الأمم الخالية حتى فى ابان حضارتها، كانت على هذه البساطة . وليس هذا بغريب، فان آلة الخياطة ما كانت معروفة فى تلك الازمان : ولقد كان الناس يستعملون أولا فى خياطة ملابسهم شوك الاسماك وسلّ النحل ، ثم توصلوا الى استعمال الابر الحديدية، أما الابر التى من الصلب فانها لم تخترع الا فى القرن الرابع عشر للمسيح، ولم يذع استعمالها فى أوربا الا فى القرن السادس عشر .

وكان أبسط تلك الملابس شكلا ونوعا ملابس الاشور بين الذين هم اخوان الكلدانيين، الذين خرج منهم ابراهيم (لان كليهما من الجنس السامى) : وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذى كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

ومازالت هذه السنة قائمة فى حج البيت الى الآن . وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة ، والا فالغرض من الاحرام لبس غير المخيط مطلقاً : اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا ومافيها الى بساطة الوجود وبداوته ، خرج الى ربه من أبهة الحياة ورفهها ، وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشرى من حيث البساطة التامة ، التى كان مظهرها ذاك الزى الذى يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها ، فيستوى فيه الصعلوك والملوك ، هذا الزى الذى يستقبل الانسان فى مهده ويشيعه الى لحده ، حتى كأنه يقول لربه : اللهم انى قد نزعت عن نفسى ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الاباطيل وموهته الاضاليل ، وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعاً فى نيل ما لا أملك من نعم ان عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة ، وان مت أقضى بها فى سبيلك ومحبتك وطاعتك ، وأنتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر فى زمرة المقبولين والصديقين ، زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسى البسيط (لباس الرهبان) الذى رسم عليه كل من تمثالى غليوم الثانى أمبراطور المانيا والامبراطورة فريتته ، وأرسل بهما فوضعا فى الملجأ الالمانى الذى بنى فى بيت المقدس ؟ وسافر البرنس ايتل لافتتاحه رسمياً بالنيابة عن والده الامبراطور فى شهر ابريل الماضى سنة ١٩١٠ .

على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبو عن فكرتك أن الاطباء وجدوا أخيراً أن الانسان لابد له من تعريض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الجو نحو شهر من كل سنة ، يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه ، بفضل ملامسة أوكسيجين الهواء لجميع مسام جسمانه : وبهذه العملية يحترق ما فى الدم من الكربون الذى تشبع به أثناء دورته من الفضلات التى تخلفت فى الجسم ، فيعود الى القلب دماً نقياً زكياً صالحاً لتغذية الحياة بمادة القوة ، التى تكون بها العافية التامة والصحة العامة ، التى هى قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها .

لذلك ترى الاوروپاويين ، وعلى الخصوص الانجليز (لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الجبال ، أو الى شواطئ البحار ، فيخلعون ثيابهم الا ما يسترعورتهم

خريطة منى

ومخيم الحجاج فيها ايام التشريق

مخيم المحمل الشامي

الطريق الى عرفه

مسجد الخيف

مخيم المحمل المصري

مخيم الحجاج

الجمرة الاولى

السوق

الجمرة الوسطى

مسجد ابراهيم

غار ابراهيم

جمرة العقبة

الطريق الى مكة

شرق

غرب

شمال

جنوب

و يقيمون على هذه الحال شهراً أو أكثر يستعيدون فيه مافقدوه من قواهم فى سبيل العمل طول سنتهم . وكثيراً ما رأيت الفرنجة فى هذه الاماكن الصحية على شاطئ البحر، حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء و برودة الجو أو حرارة الشمس جملة ساعات، وليس عليهم الا تلك العانة المستعارة التى يغطون بها السبيلين ، و يسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء (('ured' atr) . ولا غرابة اذا رجعت بنا المدنية الحديثة الى كثير من العوائد التى كان عليها القدماء فى بداوتهم مما يسميه الجهلاء خشونة وتوحشاً .

واذاً فلا عبرة بما يقوله المخرفون أو المتحاملون على الدين الاسلامى المتعصبون عليه، من أن الاحرام هو سبب كثير من الامراض التى تعترى الحاج بمكة وعرفة ! ولو أنصفوا لنسبوا كل ما يقع لبعض المحرمين من البرودة شتاء والاحتقانات الدماغية صيفاً الى علته الحقيقية وهو الفقر ، الذى يموت منه يومياً آلاف من الناس على قوارع الطرق فى عواصم الدنيا المتمدنة . ولقد شاهدت فى بعض أسفارى بعاصمة من عواصم أوروبا شاباً يموت من البرد والناس حوله ينظرون الى ما يعترى جسمه من انفعالات الموت، بين ضاحك منه وساخط عليه !! واذاً فالمحرم الذى يحرم بثوب واحد يكون من عادته لبس ثوب واحد ، والا فلا حجر عليه أن يلبس ما شاء من غير محيط ، أو يضع على رأسه مظلة ، أو يلبس ما شاء من مخيط و يفدى عنه بما يساعد على حياة البائس والفقير .

خروج الحجيج الى عرفة وافاضته منها

فى السابع والثامن من شهر ذى الحجة يبتدئ الناس فى الخروج من مكة الى عرفة على جمالهم أو حميرهم أو أقدامهم ، و يتجهون الى طريق الشرق مارّين بالمعلى ، ثم يسيرون نحو الشرق بميل خفيف الى الجنوب بين جبلين فى واد عرضه يختلف من مائة متر الى خمسمائة، وحركة الناس فيه لا تنقطع فى هذين اليومين . و فى نهاية مكة من هذه الجهة « البياضية » وفيها قصر الشريف عبد المطلب على يمين السالك الى عرفة، يحيط به بستان أغلب أشجاره

من شجر السدر . و بعد نحو ثلاثة كيلومترات منه تجد جبل النور على يسارك ، وقمته عالية جداً قد أقيمت عليها قبة بيضاء ضاربة بنورها الى السماء : وكان هذا المكان يتعبد الناس فيه قبل الاسلام ، وتعبد به النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وابتدأ نزول الوحى عليه فيه . ثم تنعطف قليلا نحو الجنوب ، و بعد نحو خمسة كيلومترات تصل الى مِنًى ، فترى فى مبدإ دخولك فى طريقها العمومى على اليسار جمرة العقبة : وهى حائط من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار فى عرض نحو مترين ، قد أقيم على قطعة من صخرة مرتفعة عن الارض بنحو متر ونصف ومن أسفل هذا الحائط حوض من البناء تسقط اليه حجارة الرجم (الجمار) الذى يقوم الحاج بعمليته عند الافاضة من عرفة . ولقد كانت منى [1] مكاناً مقدساً عند عرب الجاهلية وكان بها لهم بيت لاصنامهم . وهى الآن مكان متسع طوله من الغرب الى الشرق ، قد أقيمت فيه بيوت أغلبها لاشراف مكة وأغنيائهم ، يسكن بعض الحجاج فيها بالاجرة عند ذهابهم الى عرفة أو عودتهم منها ، أما غالب الحجيج فانه يكون مخيما بالفضاء الذى يحيط بها ، وفى غير الموسم لا يكون فيها أحد فى الغالب . وفى هذه المدينة شارعان متوازيان على طول الوادى . و فى شارعها العمومى ترى الجمرتين الاخريين فى وسط الطريق واحدة بعد الاخرى .

و بعد هذه المساكن الى الشرق ترى الوادى يتسع من الجنوب على مسافة اثنين كيلومتر ، وتشاهد به على يمينك مسجد الخيف ، ثم المصطبة التى تنصب فيها خيم الشريف والوالى مدة اقامتهما فى منى زمن الحج . ومن ثم يضيق الوادى و يسمى بوادى محسر ، حتى اذا وصل الى المزدلفة وهى على مسافة ساعتين من منى أخذ فى الاتساع مرة أخرى . وهنالك ترى على يمينك المَشْعر الحرام الذى يجب الوقوف عنده فى النزول من عرفة ، وفى هذه الجهة [2] مسجد على جبل قزح عَمّره السلطان قايتباى ، ومن هنالك يضيق الوادى ثانياً و يسمى بوادى عُرَنَة (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى اذا قرب من مسجد نَمِرَة (و يسمى مسجد عرفة أو مسجد ابراهيم) انفتحت أرجاؤه الى الشمال والجنوب . وهذا المسجد كبير قد أحاطت به

---

(١) لا يبعد أن يكون العرب أخذوا هذا الاسم من جزيرة منا التى فيها هيكل بوذا قرب جزيرة سيلان .

(٢) الموجود من هذا المسجد الحائط الغربى (الذى هو جهة القبلة) فقط .



خريطة جبل عرفات
ومخيم الحجاج في وقوفهم به
جبل عرفات
وادي عرنة
IEHME & ANDERER, CAIRO

البواكى فى جهاته الاربع من داخله، وعمّره قايتباى عمارة تشكر. ونصفه الغربى (الذى الى مكة) فى الحرَم والنصف الآخر فى الحِلّ، وبوسطه مجرى ماء يُسيّر اليه زمن الحج من مجرى عين زبيدة. وفى شمال هذا المسجد بقليل الى الشرق ترى العلمين: وهما عمودان من البناء بعيدان عن بعضهما، بارتفاع نحو خمسة أمتار فى عرض نحو ثلاثة، قد أقيما فى فضاء الوادى للدلالة على حدود عرفة من الغرب، وهنالك تحدّ الجبل قد حلق على الوادى وقفله أمامك من الشرق بشكل قوس كبير وهو ما يسمونه جبل عرفة. وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف على كرا. وفى طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمونه جبل الرحمة، وسفحه الجنوبى هو حد عرفة من الشمال، وفيه صخرة عالية كان يقف عليها الرسول صلوات الله عليه فى حجه ليخطب فى قومه: وهى مكان وقوف الخطيب الى الآن. وفى أعلى جبل الرحمة منارة يعلق فيها ليلة عرفة مصابيح لارشاد السالكين اليه، وفى أسفله مصلى تسمى مسجد الصخرات لان فى أرضيتها صخور كبيرة الى جانب بعضها يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيها، وبجوارها ترى مجرى عين زبيدة الذى سيّر به الى مكة.

الوقوف بعرفة

عند وصول الحجاج الى هذا الوادى ينزل ركب المحملين بخيامهم قريباً من جبل الرحمة يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم. وعلى سفح عرفة من عاليه الى جبل الرحمة ترى حجيج الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص، أما باقى الحجيج فانه ينصب الخيام فى بطن الوادى الذى يزدحم اليه الناس حتى لا تكاد ترى فيه مكاناً خالياً من واقف أو قاعد، وجمالهم وحميرهم مربوطة بجوارهم، وترى الكل فى صعيد واحد، حتى يتعذر على الانسان السير الى أى جهة أراد ولو لضرورة فى نفسه. ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادى عرفة الى أحذية أفقية يقسمها شارع رأسى، ويخصص

كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج ، وجمالهم من ورائهم ، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج فى وضع مضاربهم ، ولا الجمّالة فى ربط جمالهم ، ويعين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة ، لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين . وفى سعة الوادى ما يضمن لدولته اقامة الكل على الراحة التامة ، لان هذا التزاحم انما سببه التقرب من مجرى الماء ، ومن السوق الذى تراه بجوار مسجد الصخرات (ويباع فيه بعض الاغذية الضرورية) . وربما كان لتزاحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الاعراب ، الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على النهب والسلب . وبسبب هذا التزاحم يضل الناس عن أمكنتهم اذا تركوها لامر ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم إما بأسمائهم ، أو بألفاظ اصطلح عليها أهل كل جهة ، حتى اذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال وقصد مصدر الصوت . وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة الاقامة بعرفة .

ويحدر بدولة مولانا الشريف إصدار أمره الكريم بالعناية التامة بملاحظة فتحات مجرى عين زبيدة ، وتعيين خدمة مخصوصين لها لا يدعون أحداً من الحجاج يعبث بها أو يغتسل فيها ، خصوصاً أولئك المجذومين الذين يغتسلون فى الحوض الذى يسمونه بحوض المجذومين زاعمين أن فيه شفاءهم ، وهم بعملهم هذا انما يضرون اخوانهم المسلمين بنقل العدوى اليهم . ولا يعزب عن فكره السامى أن علماء البكتريولوجيا ذهبوا الى أن الماء هو أكبر موصل للعدوى وخصوصاً فى وباء الكوليرا : نسأل الله تعالى السلامة لعباده .

ويوم الوقوف هو التاسع من ذى الحجة مع قليل من ليلة العاشر باتفاق المسلمين . فاذا ثبت هذا اليوم عند القاضى بالصفة الشرعية وقف جميع المسلمين على اختلافهم فى الجنسيات والمذاهب من غير أن يكون للشك تأثير عليهم ، الا الشيعة من الاعجام فانهم لو حصل عندهم أدنى شك فى رؤية هلال ذى الحجة ، بمعنى أنهم لم يشاهدوه منهم الجم الغفير ، وقفوا يوم التاسع والعاشر احتياطاً . وفى عرفة ترى الناس مشتغلين كل بشأنه ، وهم وان انفصلوا فى هيأ كلهم ، فان قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرّات الجسم الواحد ببعضها . وبعد صلاة العصر يتحرّك المحملان بحرسهما الى منحدر جبل الرحمة وينهض خطيب عرفة (وهو فى الغالب قاضى مكة



الحجاج على جبل الرحمة بعرفات

BOEHME & ANDERER, CAIRO

الذى يتعين من قبل السلطان) ، فيصعد بناقته من طريق حلزونى الى صخرة فى صدر هذا الجبل ، و يخطب نيابة عن خليفة رسول الله خطبة يُعَلِّم الناس فيها مناسك الحج و يُكثر فيها من الدعاء والتلبية ، ومن دونه مبلغون بأيديهم مناديل يشيرون بها فى كل تلبية الى الواقفين دون الصخرة فيقول الكل «لبيك اللهم لبيك» ، بصوت يكاد يصعد بالاحشاء الى عنان السماء ، ويالها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرة عن أنفسهم ، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة ، وقد تغلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم ، حتى كأنهم فى لباسهم الابيض الطاهر النقى ملائكة لله فى هذا الوادى الذى يردد أصواتهم وابتهالاتهم الى واجب الوجود ، الى الملك المعبود ، الى الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فاذا تراجع اليهم صدى هذا الصوت احدث فى نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم وتضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الارباب ومالك الرقاب ، هنالك تسوح النفوس فى ظروفها وتنكمش الجسوم على هياكلها من رهبوت هذا الملكوت ، وحشاشات القلوب تتصبب من آماق عيونهم أسفا على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب ! ! وتتلاحق الارواح الى التعلق بأستار رحموت رحمانها ، تائبة مستغفرة ضارعة اليه تعالى بقبولها فى ساحة غفرانه ، مؤملة فى عظيم كرمه واحسانه ، ولا تلبث أن تتراجع وهى على يقين من قبولها فى ساحة الرحيم الرحمن ، وقد وقر فى نفوس ذويها حب الفضيلة و بغض الرذيلة ، وحسب الانسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة . و يستمر الناس على هذه الحال حتى اذا غابت الشمس فى الافق ، أطلق صاروخ من قبل الخطيب اعلاناً بتمام الموقف . عندها تتحرك المحامل بين ضروب المدافع وعزف الموسيقات ، وأصوات الابتهالات ، وكثرة الدعوات ، وانهمال العبرات ، و يكون كل حاج قبل ذلك قد حمّل حموله واستعد للافاضة ، فتنفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والحبور حتى اذا وصلوا الى ذينك العلمين خرجوا من بينهما . وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس فى حركة هائلة الى المزدلفة . فاذا وصلوها نزلوا بها ، وأقام بها الحنفية الى ما بعد صلاة الصبح ، والشافعية الى ما بعد نصف الليل ، أما المالكية فحسبهم من الاقامة بها قدر ساعة يجمعون

فيها جمارهم من الحصى الموجود فى أرضية واديها : وهى تسع وأربعون حصاة فى قدر الفولة يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة ، ليرجم بها فى منى التى ينزل اليها من ليلته . وأغلب الحجاج يقلدون مالكا و يسرعون فى النزول اليها حتى يجدوا لهم فيها مكانا يقيمون به على راحتهم . و فى صباح النحر وهو يوم العيد الاكبر يكون عموم الحجاج وصلوا الى منى . و يخيم المحمل المصرى فى شمال المصطبة التى فيها مخيم الشريف ، والمحمل الشامى الى جوار مسجد الخيف : وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يحيط به سور متسع ، والى حائطه الغربى رواق على طوله ، قام سقفه على أعمدة من البناء . و باب هذا المسجد الى الشمال ، و فى وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة أقيمت على مكان يصلى الناس فيه ، وهو المكان الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بجوار هذه القبة مأذنة صغيرة بناها السلطان قايتباى سنة ٨٨٤ ، و بنى بجانب هذا المسجد داراً كان ينزل اليها أمير الحاج المصرى فاندثرت ، ولكن المسجد باق على حاله ، الا أنه يحتاج من داخل سوره وخارجه الى عناية ذوى الشأن ، حتى يكون نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، ان لم يكن لموجبات الدين فلموجبات الصحة العمومية ، وخصوصاً فى منى التى تكتب فيها صحيفة الحاج الصحية وتساق على أجنحة البرق الى جميع أقطار المسكونة .

و بمجرد وصول الحجاج الى منى يقصدون من فورهم جمرة العقبة فيرمونها و ينحرون و يحلقون أو يقصرون ثم يلبسون ملابسهم : وعندها يحل لهم كل شئ ماعدا النساء والطيب .

ودبائح القربان تدبح فى شرقى منى وتلقى فى حُفَر تحفر هناك لهذا الغرض وكلما امتلأت حفرة بجثث القرابين ردمت وحفرت غيرها وهكذا ، ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جداً ، ولو كانت الحكومة تعتنى بجمع ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة ، و تبيعه لاحدى الشركات بجدة ، و تصرف ثمنه فى تحسين طرق الحجاج ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة . وقد طلبت شركات كثيرة التزام ذلك من الحكومة السابقة فلم يقبل طلبها . أما الحكومة الحالية فاظن انها لا ترى مانعا فى ذلك مادام فى مصلحة البلاد

و يقيم الحجاج بمنى الى عصر اليوم الثالث عشر من ذى الحجة ، ثم ينزلون الى مكة لاداء الركن الباقى من أركان الحج وهو طواف الافاضة والسعى لمن لم يكونوا سعوا بعد طواف القدوم ، ومن الناس من ينزل الى مكة أوّل يوم بعد رمى جمرة العقبة لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم يرجعون من يومهم الى منى فيقيمون فيها مع اخوانهم ثانى وثالث أيام التشريق ، و يرجمون فى كل يوم منهما الجمرات الثلاث ، و فى عصر اليوم الثالث ينزلون الى مكة .

الرجم

الرجم فى اصطلاح الحجيج رمى غرض مخصوص فى منى بسبع حصيات فى حجم الفولة ، وهذا الغرض يسمى جمرة . والجمرات ثلاث : جمرة العقبة ، والجمرة الوسطى ، والجمرة الصغرى (و يسميها العامة ابليس الكبير والوسطانى والصغير) . ولكل جمرة مكان مخصوص (مذكور فى وصف الطريق الى عرفة) ، و رميها واجب باتفاق المذاهب : فيرمى الحاج فى أوّل أيامه بمنى (يوم الاضحية) جمرة العقبة وحدها ، ثم يرمى ثلاثتها فى كل يوم من اليومين التاليين ، فيكون جملة ما يرميه سبع حصيات فى سبع (٤٩ حصاة) . ومكان الجمرات تراه على الدوام غاصاً بالرامين فلا تصل اليه الا بمشقة عظيمة ، وكثيراً ما تشاهد بين هؤلاء الرماة اناساً يَجْمُرُون بتشفٍّ شديد ، ومنهم من يغلو فى ذلك فيرمى هذا الغرض برصاص طبنجته كأنما يرمى عدواً ألد ، والكل يتخيل أنه انما يرمى ذلك الشيطان الرجيم الذى لا تخفى عداوته لبنى الانسان ، فكأنهم بهذا الرمى يشهرون عليه حرباً عوانا لما سبق من إغوائه لهم ، و يقطعون كل صلة بينهم و بينه .

والعرب كانوا يرجمون هذه الجمرات الثلاث فى حجهم قبل الاسلام ، لانهم كانوا يعتقدون ان الله تعالى أوحى الى ابراهيم وهو فى تلك الجهة بذبح ولده اسماعيل . فأخذه وسار ليصدع بامر ربه فوسوس له الشيطان بأن لا يفعل ، فأخذ حصيات و رماه بها ، وكان ذلك فى المكان الذى به الجمرة الاولى ، فتركه وسار الى هاجر وأخذ يقبح لها عمل ابراهيم ، فاخذت

حجارة ورمته بها ، وكان ذلك فى مكان الجمرة الثانية . فذهب الى اسماعيل يشنع له عمل أبيه ، وأخذ قبضة من الحصى ورماه بها ، وكان ذلك فى مكان الجمرة الثالثة . لذلك كانت ترجم العرب هذه الامكنة مشخصين ذلك الشيطان ، وتابعهم عليه الاسلام ، ولا غرابة فى ذلك : لان الناموس الطبيعى يقضى بأن يكون كل معنى من المعانى مصدره المادة . وعليه فهذا الرمى المادى يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل فى ذاته : هو تربية ملكة جديدة فى شخص الرامى وهى مخالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشرور .

والرجم أمر قديم فى الامم : قال الله تعالى فى سورة الشعراء فى اجابة قوم نوح على نصائحه لهم « لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين » . وقال تعالى فى سورة هود فى جواب أهل مدين على نصيحة نبيهم شعيب لهم « قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » .

وكان الرجم فى بنى اسرائيل ، وقد ورد فى الآية ٢٤ و ٢٥ من الاصحاح السابع لسفر يشوع ما نصه : « فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه ، وصعدوا بهم الى وادى عخور ، فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة » .

والنصارى يرجمون مكان شجرة التين التى لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمراً ، أنظر آية ١٩ من الاصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى . ومكان هذه الشجرة على طريق الذاهب من بيت المقدس الى نهر الاردن فى الوادى الذى ينزل على يسار جبل الزيتون .

والعرب كانوا يرجمون فى الجاهلية من سخطوا عليه حياً وميتاً . فكانوا يرجمون الزانى المحصن حياً لشناعة عمله ، وتابعتهم عليه الشريعة الغراء ، كما كانوا يرجمون قبور من ينقمون عليهم : وهم يرجمون من القرن الاول قبل الهجرة الى الآن قبر أبى رغال فى المغمس بين مكة والطائف ، لانه كان يقود جيش أبرهة الى مكة ، فمات فى هذا المكان قبل وصوله اليها .



BOEHME & ANDERER CAIRO

الحجاج يرمون الجمرات بالجمرة الوسطى

قال جرير يهجو الفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه * كما يرمون قبر أبى رغال

والمسلمون يرمون قبر أبى لهب خارج مكة لانه عدو نبيهم صلى الله عليه وسلم ، و يرمون قبر أبى جهينة فى طريق العمرة لانه كان من حكام مكة الظالمين ، و يرمون قبر يزيد بن معاوية (١) لسوء سيرته وشناعة فعلته مع آل البيت رضوان الله عليهم ، و يرجمون قبر مسلم ابن عقبه (٢) فى ثنية المشلل بين مكة والمدينة ، لانه فتك باهل المدينة و لم يراع حرمة رسول الله فى صحابته وجيرته . وقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب عند ذكر اليمن وملوكها ، انه يوجد فى طريق العراق الى مكة نحو النظامية ، موضع يعرف بقبر العبادى (٣) ترجمه المارة ؟

(١) قبر يزيد بن معاوية بدمشق الشام في حارة الحالية شرق مقبرة الباب الصغير يفصل بينهما طريق . وهو مكان مسور يبلغ طوله نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة وعليه تل من حجارة الرجم يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار ، وأهل دمشق يبغضونه . وبهذه المناسبة أذكر لك اني زرت في هذه المقبرة قبر معاوية بن أبي سفيان وهو في قبة بسيطة وقد دفن الى جواره بعض التابعين ، وقبر عبد الملك بن مروان بجواره يحيط به سور متهدم من الطوب الني ولا سقف له !! وهنا لك من يخيالي عظم ملكهم وفخامة سلطانهم وكبير ابهتهم وجليل مظهرهم في حياتهم وهو ما لا ينطبق على ما أراه من حقارة مقارهم الحالية التي لم تقم لها من مبدأ حكم العباسيين قائمة ! سبحان من بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء .

(٢) مسلم بن عقبة هو أعور بني مرة سيره يزيد بن معاوية الي مكة لقتال عبد الله بن الزبير وأمره أن يجعل طريقه على المدينة ، وكان أهلها قد نبذوا طاعته ، وقال له ان هم أطاعوك اتركهم الي مكة والا حاربهم وأوقع بهم . فلما وصل اليها أغلقوا أبوابها في وجهه وكانوا قد خندقوا عليها لما بلغهم تحركه اليهم . فدخلها عنوة في يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٣ وأخذ يقتل في صحابة رسول الله وتابعيه حتى قتل منهم نيفاً وأحد عشر ألفاً ونهب المدينة ثلاثة أيام : ويسمون ذلك اليوم المشئوم بيوم الحرة . ثم ارتحل عن المدينة قاصدا مكة فمات في الطريق ودفن في ثنية المشلل . فأتت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة ، وكان قد قتل ولدها مسلم فيمن قتل ، فنبشت قبره وصلبته على المشلل ورجمته ولا يزال قبره يرجم للآن .

(٣) لعله أبو منصور العبادي المشهور بالامير والمولود بعباد احدى قرى مرو سنة ٤٩١ ه وقد ورد في دائرة المعارف « انه مات في طريقه الى خورسان من بغداد وكان غير موثوق به في دينه وله رسالة يبيح فيها شرب الخمر » . وربما كان له في الجهة التي مات بها ما أسخط أهلها عليه فرجموه ولا يزالون يرجمونه

القربان

القربان شيء كان يتقرب به الناس من قديم الزمان الى الله تعالى، وكان يختلف نوعه باختلاف الازمنة والامكنة. وأول ما وصلنا من أمر القرابين أن قابيل بن آدم قرّب الى الله شيئا من ثمرات أرضه، وقرّب أخوه هابيل ذبيحة من أبكار غنمه: قال الله تعالى «واتل عليهم نبأ ابنَيْ آدم بالحق اذ قربا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر»، وبعد الطوفان بنى نوح مذبحا لله قرب اليه فيه كثيرا من الحيوانات وكان يحرقها على المذبح. وكان ابراهيم يتقرب الى الله تعالى بالخبز والخمر، وقد أمره الله أن يذبح له عجلة وعنزا وكبشا وحمامة ويمامة (انظر سفر التكوين أية ٩ و١٧٩)، كما أمره أن يفتدى ولده الذبيح بكبش يذبحه قربانا، وذهبت على سنته العرب قبل الاسلام، ثم المسلمون من بعدهم فى أضحيتهم. وكان بنو ابراهيم يقربون الى الله الذبائح ويحرقونها، حتى أتى موسى فقسم الذبائح الى دَمَوِى وغير دموى: وهذا القسم الاخير كان ينحصر فى الماشية التى كانوا يطلقونها فى البرية لله تعالى، ومنها أتت السائبة (١) والبحيرة (٢) والحامى (٣) عند العرب: وهى التى كانوا يطلقونها لاصنامهم، ومازالت فيهم حتى حرّمها الاسلام. ولا يزال شيء من هذه العادة عند بعض خدمة الاضرحة فى أرياف مصر: فانهم يرسلون عجلا صغيرا فى حقول بلدهم معلنين أنه عجل هذا الولى، ولا يزال سائبا على حريته فى حقول البلد وماجاورها يأكل مما يشتهيه منها، وأربابها لا يجسرون على طرده أواهانته خوفا من الولى الذى هو فى حمايته،

. . . .

(١) السائبة الناقة اذا ولدت عشر اناث ليس بينها ذكر سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف وتهمل لآلهتهم.

(٢) البحيرة هي بنت السائبة يخلى سبيلها مع أمها بعد أن تشق أذنها.

(٣) الحامى هو الفحل اذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره وخلى في ابله يضرب فيها فلا ينتفع به بغير ذلك، والعرب يلحقون بها الوصيلة: وهي الشاة التي أتأمت عشر أناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر.

حتى يأتى مولده فيأخذه الخدمة سميناً معلوفا و يذبحونه و ينتفعون به (وعجل السيد أشهر من أن يذكر ، كما أن فحل العزب لا ينكره أحد) . أما الذبائح الدموية فكانت تنقسم الى ثلاثة أقسام: الذبيحة المحرقة، وذبيحة التكفير عن الخطايا ، وذبيحة السلامة . وكانوا يحرقون الاولى ولا يبقون منها شيئا الا جلدها فيأخذه الكاهن . والثانية كانوا يحرقون منها جانباً والباقى يأكله الكهنة . أما الثالثة وكانت اختيارية ولحمها حل لهم . وكانوا يشترطون فى هذه الذبائح أن تكون خالية من العيوب . واذا عجز الانسان عن تقديم ذبيحة من ذوات الاربع كان يكتفى بتقديم ذبيحة من الطيور .

أما الذبيحة عند المسيحيين فهى محصورة فى لحم المسيح ودمه اللذين يقدمهما الكاهن فى صورة خبز وخمر للمتناولين منهما .

فلما فشت عبادة الاوثان والكواكب فى الناس كانوا يقدمون اليها شيئا من نباتات حقولهم، و يحرقونها على هياكلهم، ثم آل أمرهم الى استعمال النباتات العطرية كالند والعود وأمثالهما من الاصماغ ذات الروائح الحسنة . وفشا استعمالها بعد ذلك فى الحفلات الدينية على اختلاف أنواعها .

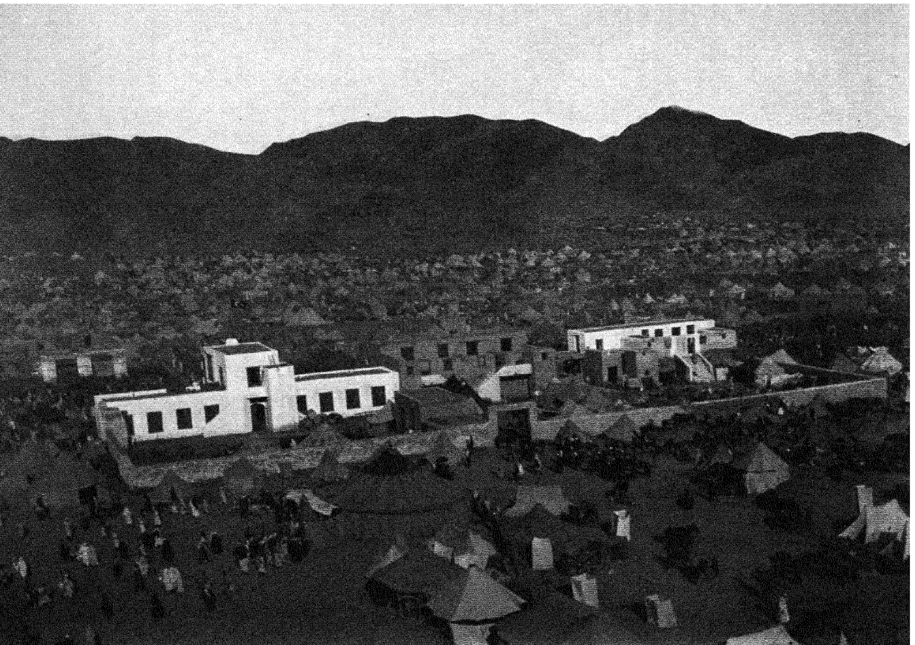
وكان قدماء اليونان يُدخلون الملح فى قرابينهم لانه كان عندهم رمزاً للصداقة، كما كان رمزا لحسن القرى . وكانوا يضعونه مع حب الشعير فى سلة و يقدمون منه شيئا الى الحاضرين : و يظهر أن عادة بعض المصريين من رش الملح فى مجتمعاتهم على رؤوس الناس مختلطا فى الغالب مع حب القمح ، وكذلك ما يرشونه منه فى أسبوع المولود ، انما هى مستمدة من هذا الاصل

أما الرومان فكانوا يقدمون الذبائح الى آلهتهم بكثرة ، وكان الحاضرون يأخذون من لحومها تبركا . و يفرقون منه جانباً على من لم يكن حاضره من ذويهم وأهليهم: وهى عادة باقية فى حجاج الهنود والجاوه المسلمين الى الآن . وكانت كهنتهم وقت تقديم ذبائحهم يرشون على الحاضرين بواسطة غصن من شجر الغار عسلا وماء . وترقى الناس فى ذلك حتى صاروا يرشون ماء الورد فى اجتماعاتهم، ولا تزال هذه العادة مستعملة فى الحفلات الدينية على اختلاف مذاهبها الى الآن .

ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوانات ، بل بالغ كثير من الامم فيها، حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر كالفنيقيين والكنعانيين والصوريين والفرس والرومان والمصريين وغيرهم، ومازالت هذه العادة الشنيعة فاشية، وعلى الخصوص فى أوروپا حتى صدر قرار من مجلس الاعيان الرومانى بمنعها سنة ٦٥٧ ميلادية . ومع ذلك فقد استمرت فى بلاد الغال و بلاد الجرمان الى ما بعد هذا التاريخ بمدة طويلة .

وكان المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء ملك الحيرة يقدم الى معبوده العزى الذبائح من البشر، ولا شك أنه أخذ هذه العادة عن وثنى الفرس .

وقد كان قدماء المصريين يقدمون الى النيل (وكان من معبوداتهم) فى يوم ١١ بؤونه من كل سنة غادة من فتياتهم، و بعد أن يزينوها باحسن زينة يغرقونها فيه استمطار الرحمته بهم . ومازالت هذه العادة السخيفة حتى أبطلها عمرو بن العاص و وافقه عليها ابن الخطاب رضى الله عنهما ، كما هو مبسوط فى المقريزى فى الكلام على مقاييس النيل وزيادته . وكثير من العجائز المصريات الى الان يعملن عروسة من الطين و يغرقها فى اناء من الماء فى هاته الليلة التى يسمونها ليلة النقطه ، و يزعمن أن ماء الاناء اذا زاد ثانى يوم عما كان عليه ، كان النيل عاليا فى سنته والا فلا . ولا شك أن هذه العادة صورة بسيطة من التى أبطلها عمرو . ومن هذا ترى أن المسلمين كانوا أسبق الامم فى تحريم الذبائح البشرية . وهم يسوقون ذبائحهم الى البيت الحرام بمكة فى حجهم و يسمونها هَدْيا ومعناه الهدية . وهو اما من البُدْن (الابل) ، أو البقر، أو الغنم، والابل أحسنها، و يشترط ألا يكون عمرها أقل من خمس سنوات ، وألا يكون عمر البقر أقل من سنتين، والغنم أقل من سنة . وقد قسموا الهدى الى واجب فى دم الكفارات ، ومندوب فى دم الشكر . واشترطوا أن يكون ذبح الهدى بمنى فى أيام النحر وهو الافضل أو بمكة فى غير أيام التشريق، وأن يفرق لحمه على الفقراء من عباد الله .



منظر عمومي لمنى والحجاج مخيمون فيها

BOEHME & ANDERER, CAIRO

الآثار فى منى

يوجد فى منى غير مسجد الخيف غار قريب فى الجبل الجنوبى يسمى بغار المرسلات، كان يتعبد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، ونزلت فيه عليه سورة المرسلات، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به. وفى الجبل الشمالى منها مغارة يقولون ان ابراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر، ويبلغ طولها ٤ متر وعرضها متران ونصف، وعلى يمين الداخل فيها كهف نقر فى جوف الجبل. ومن خارجها مصلى فى مكان يقولون عنه انه مذبح اسماعيل، وبجوارها صخرة كبيرة فى جوف الجبل فيها فلح كبير، يزعمون أن تلك السكين التى أراد أن يذبح بها ابراهيم ولده فلتت من يده رحمة بالذبيح فغاصت فى هذا الصخر فعلمته على ماترى، وهذا الاعتقاد باق بمكة الى يومنا هذا! ولو ادعوا أن هذا الفلح انما هو ناشئ عن حادث طبيعى، واختار ابراهيم مذبحاً ليسيل فيه دم ولده حتى يسمع صوته فى عالم السموات اعلانا بصدعه بامر الله وكمال طاعته له، لكان أولى. وبقرب هذه المغارة يقيم حجاج الهنود ولهم فيها اعتقاد هائل: فتراهم هناك وقد فرشوا على الحصباء خارج خيامهم وداخلها شطرات نيئة من لحم الاضحية، وبعد جفافها فى الشمس يحتفظون عليها ويأخذونها معهم الى بلادهم هدية مباركة مقدسة لمن كان عزيزا عليهم. وأظن أن هذه عادة قديمة للعرب كانوا يقومون بها فى أيام منى ومنها سميت بايام التشريق أى التقديد. وهى الثلاثة الايام التى تعقب يوم النحر، وقد مر بك فى باب القربان مثل ذلك فى عوائد الرومان ولعلهم أخذوها من اليونان، وهؤلاء أخذوها ضمن العوائد الكثيرة التى أخذوها عن الهنود أنفسهم فيكون أصلها منهم ومرجعها اليهم. ولو علموا أن أجرهم من ذلك انما هو ما يصيبهم من الامراض التى تنشأ عما يحدث من مكروباتها الضارة لكانوا ألقوا بها الى بطونهم من يومها، خصوصاً وسوادهم فى حاجة اليها لكثرة الفقراء فيهم. وعلى كل حال ففقراء حجاج الهنود فى غاية من الوساخة، ومن وسطهم تظهر الامراض والاوبئة وتفتك بهم فتكاذريعاً ولا قدرة لهم على مقاومتها لان غالبهم فى سن الشيخوخة.

خروج الجناب العالى الى عرفة

وافاضته منها

فى صباح يوم التروية خرج الجناب العالى من مكة الى عرفة ، راكباً جواداً كريماً وهو بملابس احرامه . وسار فى موكب رهيب ، ومن خلفه رجال معيته الكريمة من ملكيين وعسكريين ، يتقدمهم دولة البرنس كمال الدين والكل محرمون . وكان فى رفقة سموه سعادة عبدالله بك نجل الشريف . ومعه كثيرون من علية الاشراف وحضرة مكتوبجى الولاية وياوران دولة الشريف ، وفى مقدمة هذا الركب الميمون فصيلة من عساكر الحرس الخديوى السوارى بمزاريقهم تخفق عليها البنود ، ومن ورائها فرقة من جند البيشة على هجنهم وهم يضربون نوبتهم ويوقعون عليها أناشيدهم ، ويحيط بالركب جميعه فرقة أخرى من الحرس الخديوى . ولما تجاوز حفظه الله المعلى ، مر على جنود الدولة وهى واقفة وقفة الاحتشام لتقديم واجب السلام والاعظام ، وطلقات المدافع تدوى فى فضاء هذا الوادى احتفاء بمقدمه الشريف فحياهم سموه تحية الشاكر ، وسار حتى اذا حاذى جبل النور ، وقف برهة مستقبلا فيها هذا الاثر النبوى الكريم ، قرأ فيها الفاتحة ودعا الله تعالى بما شاء . ومازال حتى وافى صيوان الشريف الخصوصى بمنى ، وقد كان خصص لجنابه العالى ، والى يمينه الصيوان الخديوى يتلوه صيوان دولة البرنس ، ثم صواوين دولة الشريف والوالى وحاشيتهم . وكانت خيم المعية السنية ، وباقى الحاشية قد نصبت فى الجانب الآخر من الطريق على يسار السالك الى عرفة . وبعدما استراح حفظه الله فى صيوانه ركب قبل الزوال وسار فى حاشيته الكريمة الى مسجد الخيف فصلى به الظهر ، ثم سار لزيارة دولة الوالدة بمنزل دولة الشريف الذى جهز لاقامتها فيه بمنى ، وعاد سموه الى مقره بعد صلاة العصر ، ومازال هنالك والمحامل وجيوش الحجيج تمر بين يديه الكريمتين الى عرفات ، حتى ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح يوم ٩ ذى الحجة فى موكبه الحافل قاصدا عرفة ، وسار تحدوه العظمة والفخامة ، وفرقة الأعراب من

أمامه تضرب نوبتها ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تعلو بالتلبية وراء التلبية . وقد عرج جنابه العالى فى طريقه على مسجد نمرة، وبعد زيارته سار الى عرفة، فوصلها فى الساعة الرابعة العربية نهارا، ونزل الى الصيوان الذى أعده لسموه دولة الشريف فى الجهة الجنوبية من هذا الوادى . وكان الى جواره صيوان دولة الوالدة وخيم حاشيتها، يتلوها خيم المعية السنية ، والى جانبها غرباصيوان مولانا الشريف وخيم حاشيته ، وأمضى الجناب الخديوى يومه معتكفاً فى صيوانه، وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب جواده وسار والى يساره دولة الشريف ، ومن خلفهما دولة البرنس وعطوفة وكيل الولاية وجم غفير من كبار الاشراف ورجال الدولة، حتى وقفوا حذاء جبل الرحمة ، ومازالوا واقفين هناك حتى أفاض الناس فافاضوا معهم .

وكانت افاضة الجناب العالى حفظه الله من عرفات من الفخامة بما لم يشاهد له مثيل بالمرة: فانه بمجردما تحرك المحملان سار حفظه الله والى جانبه حضرة الشريف، ثم من فى معيتهما من الامراء والعظماء يحيط بالجميع سياج من الحرس الخديوى يتلوه آخر من حرس الشريف . ثم انتظم الموكب فسار وفى مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم ، وفى وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم، والباقون يتغنون بنغمات تدخل رناتها فى القلوب فتملؤها سروراوحبورا . ومن ورائهم شرذمة من عسكر الحرس ، يتلوها الجناب العالى وحضرة الشريف يتلوهما حاشيتهما، ومن ورائها فرقة الموسيقى العربية تعزف بنغماتها الشجية ، ثم رجال الاشراف من حضر وبدو . وسار الجميع فى هذا الموكب الرهيب حتى وصلنا الى المزدلفة ونحن على غاية ما يكون من الراحة .

وكان موكب ذات الجلال والعظمة والدة الجناب الخديوى، وصاحبات الدولة البرنسيسات يسير بعد ركب الجناب العالى . وكان مما يأخذ بالالباب بهاء وسناء : فكانت جنود الحرس المشاة والخيالة تحيط بعرباتهن، يتقدم الجميع فرقة من عسكر الدولة وجند البيشة بموسيقاها، يتبعها هوادج الحاشية، وآلاف المشاعل فى جوانب الركب تملأ الجو نوراً، وغناء الضوية والخدم وزغردة نساء الحجيج تزيد الافئدة سرورا .

وقد قطعنا المسافة من عرفة الى المزدلفة فى ساعتين ، كان الجناب العالى فى أثنائهما محل أنظار الناس على اختلاف أجناسهم . والمصريون منهم يرفعون له كلما مر عليهم أصوات الدعاء وعبارات الولاء . وكانت قد أعدت هناك الخيام ونصبت الصواوين لنزوله حفظه الله الهامع دولة الوالدة وحاشيتهما ، فقضوا فيها ليلة النحر فى صفاء وهناء . وبعد صلاة الصبح نزل جنابه العالى فى موكبه الى منى ، فرمى جمرة العقبة ، وذبحت الضحايا الكثيرة بحضوره حفظه الله ، وتحلل من احرامه (لبس ملابسه العادية) ، ثم نزل الى مكة بموكب حافل ومعه دولة الشريف ، فصليا العيد فى الحرم الشريف بالمقام المالكى ، وطافا طواف الافاضة ، ثم تناول سموه طعام الغداء فى دار الامارة ، وعاد بعد صلاة العصر الى منى فى موكبه الفخيم .

ايام الجناب الخديوى بمنى

— والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها —

ما بزغت شمس يوم الجمعة ١١ ذى الحجة الموافق ٢٤ ديسمبر حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى التى كانت عليها سرادقات سمو خديوينا المعظم ودولة الشريف وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقاها استعدادا للتشريفات بحفلة تلاوة فرمان دولة الشريف . وفى الساعة الثانية العربية نهارا اصطفت رجال المعية السنية فى الجهة اليمنى من الصيوان الكبير المعد للجناب العالى الخديوى . وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته لملاقاة الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنية ، ثم سار الى صيوان الجناب العالى وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى اذا وصل الوفد الى سلم المصطبة ، خف الجناب العالى ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبلا الفرمان بتقبيله ، ثم قصد الكل الصيوان الخديوى وجنابه العالى فى مقدمتهم . ولا يخفاك ما فى هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف الذى يشير الى علو مكانة جنابه الرفيع ، وأن مقامه هنا هو المقام الاول ، ومنزله هو المنزل

الاجل . فجلس حفظه الله فى صدر المكان ، وعن يساره دولة الشريف ثم نائب الوالى ثم أنجال الشريف ثم علية الاشراف ، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية وصاحبا الفضيلة مفتى وقاضى مكة وكثير من علمائها وأعيانها ، ثم رجال العسكرية العثمانية و فى مقدمتهم سعادة ناظم باشا قومندان قوة الحجاز . وجلس على يمين الجناب العالى دولة البرنس كمال الدين باشا ، ثم أصحاب السعادة شفيق باشا وعزت باشا وخيرى باشا ثم موظفو المعية السنية ، يليهم مستخدمو قوة المحمل الشريف المصرى . وهنالك توسط ساحة الصيوان عزتلو مكتو بجى الولاية وأخذ فى تلاوة الفرمان الذى كان يمسك بطرفيه اثنان من التشريفاتية فتلاه بالتركية ، وعند ما أتى على لفظة الخلعة السنية التى قدمها جلالة السلطان ﴿محمد الخامس﴾ الى دولة الشريف فكها أحد المهمندارين من غلافها الاطلسى وألبسه اياها . و بعد تلاوة الفرمان قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته المرسلة معه بالعربية : وفحواها أن مولانا السلطان حفظه الله لما يعلمه فى دولة الشريف من أصالة الرأى ، وعلو الكعب فى حسن الادارة ، وكمال الدراية ، ومحاسن الاخلاق ، و واسع المعرفة وكريم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالى الفضائل ، وَجَّه لدولته مركز الشرافة العظمى ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام ، والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم ، مع تأمين الطرق و تسهيل المواصلات والضرب على أيدى الخارجين من الاعراب عن الصراط السوى المستقيم . ولفت نظره الى الدقة فى صرف المرتبات وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط ، مع مساعدته لمأمورى الدولة من عسكريين وملكيين على أداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم واحد منهم ألبسوه كركا ، حتى اذا تمت الحفلة أمر الجناب العالى فاديرت أكواب الشربات على الجميع ، و بعد شرب القهوة انصرف الشريف مودعا من الجناب السامى بكل تجلة واحترام .

ومما يجمل بنا ذكره تلك الالقاب التى وردت فى هذا الفرمان موجهة من قبل صاحب الخلافة العظمى الى دولة الشريف حتى تعرف مكانته السامية : « جناب الامين الامجد ، الاجل الاوحد ، المقتفى آثار أسلافه الاشراف ، من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده الحميدى السير الجيلى الاوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز

العصبة العلوية المصطفوية، المنتمى الى أشرف جرثومة علا عنصرها ، والمنتسب الى أنفس أرومة غلا جوهرها ، زبدة سلالة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى من أعاظم وزراء سلطنتنا السنية، الحامل لنيشانى الافتخار المرصع العثمانى والمجيدى ،وزيرى سمير الفطانة أمير مكة المكرمة الخ »

وعلى هذا يجدر بنا أن نسوق اليك شيئاً من الالقاب التى كان يكتب بها الى أمير مكة فى عهد الدولة الچركسية : فقد ورد فى صبح الاعشى فى رسم المكاتبة الى أميرها هذه العبارة:

« أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ،الاميرى ،الكبيرى ،العالمى ،العادلى ،المؤيدى ، العضدى ،النصيرى ،الذخرى ،العونى، المقدمى ،الاوحدى ،الظهيرى ،الزعيمى ، الكافلى ،الشريفى ،الحسيبى ، النسيبى ، الاصيلى ، الفلانى (الحسينى مثلا) ، عز الاسلام والمسلمين ،سعد الامراء فى العالمين ،جلال العترة الطاهرة ، كوكب الاسرة الزاهرة ،فرع الشجرة الزكية ،طراز العصابة العلوية ،ظهير الملوك والسلاطين ، سيب أمير المؤمنين ، لازال حرمه أميناً ، ومكانه مكينا ، وشرفه يبيض له بمجاورة الحجر الاسود عند الله وجهاً ويضيء جبيناً ، صدرت هذه المكاتبة من المجلس العالى تحمل اليه سلاما تميل اليه الركائب الخ » .

ومنه ترى ما كان وما يكون لمركز الشرافة العظمى من جليل المقام وعظيم الاحترام لدى الملوك والسلاطين . وليس هذا بغريب فى بابه فحسب هذه الاسرة فخاراً أن

عائلة اشراف مكة اقدم اسرة[1] شريفة فى العالم

(١) لان هذه الاسرة الشريفة تصعد حلقات سلسلتها من عيرشك الي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: وكل فرع من فروع هده الشجرة الكريمة النبوية ، يترك الوالد منه الي ولده من مبدا الاسلام الي يومنا هدا ، نسبته الى هذه العترة المباركة ، ارثا ثمينا لا يضاهيه عنده فى منزله شيء بالمرة . ويوجد كثير من هذه الفروع في بلاد الاسلام وعلى الخصوص بمصر التى كانت محط رحال آل البيت رضى الله عنهم ، ولكل فرع سلسلة نسب توصلهم الي أحد سبطي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : السادة الحسنيون ، أو الحسينيون مثلا . وهذه النسب مسجلة فى دوائر مخصوصة عند نقيب الاشراف ، ولاربابها مرتبات تصرف اليهم سنويا فى مواعيد يعلن عنها في الجرائد اليومية . ومن هدا تعلم من غير شك أن نسب هده العائلة بوصوله الي النبي صلى الله عليه وسلم يصعد الي أربعة عشر قرنا تقريباً .



الجناب العالي الخديوي وهو متوجه لرد الزيارة لدولة الشريف الذي كان في انتظاره امام مخيمه بمنى

BOEHME & ANDERER, CAIRO

و بعد تلاوة الفرمان خرج سمو أفندينا الخديو حفظه الله مع دولة الشريف الى رصيف المصطبة ، و فى أثرهما جميع رجال المعية السنية و رجال الشريف والدولة وموظفو المحمل الشامى ، حيث استعرضت جنود القوة الحجازية يتبعها حرس المحمل الشامى ، ثم الحرس الخديوى يتبعه حرس المحمل المصرى . أما الترتيب والنظام فى القوتين الاخيرتين فقد كانا مما دهش له جميع المتفرجين من ملكيين وعسكريين وخصوصاً رجال الدولة : حتى أن رئيس قوة الحجاز رأى أنه لا يحسن سكوته عن الاعتراف بذلك ، وأبدى اندهاشه من النظام العسكرى المصرى . وكان دولة الشريف وسعادة وكيل الولاية يبديان اعجابهما مما شاهداه ، وشكر اللجناب العالى الخديوى عنايته الكبرى برقى حكومته السنية . ومما يذكر بالمنة

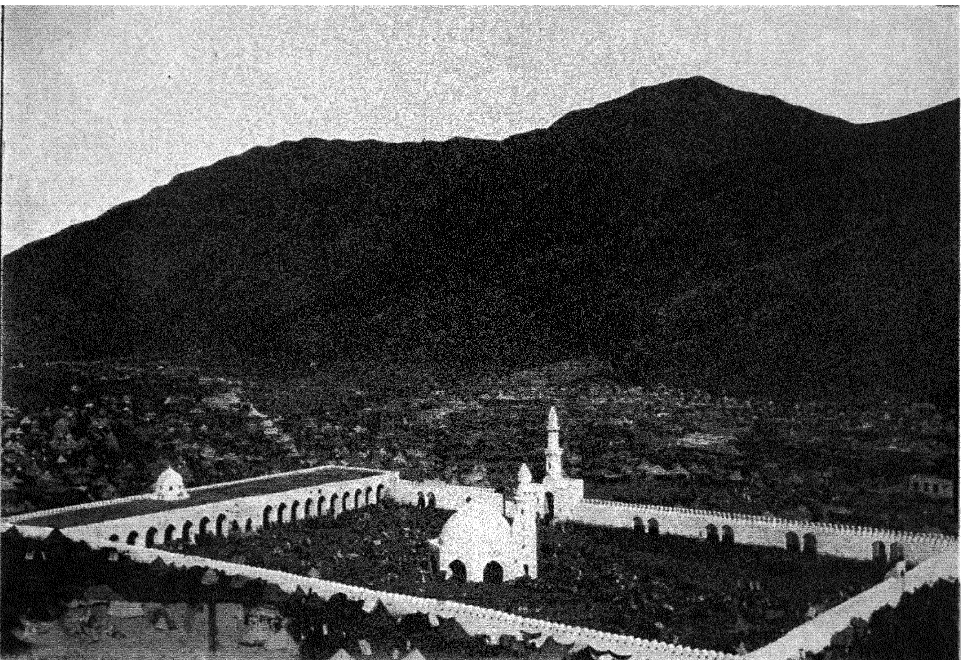
وحيث ان النسابين والمؤرخين قد حققوا بالاجماع أن نسبه عليه الصلاة والسلام يصعد الى عدنان فلا يكون هناك أى شك في تحقيقهم نسبه اليه . لان الانتساب كان من الخصيصات التى امتازت بها العرب على سائر الامم ، وهو من خصائصهم الى الآن . وكلما كان انتسابهم الى جد أعلى (أعنى كلما كانت حلقات سلسلة نسبهم أكثر) كان مجدهم أعظم ، وأصلهم أكرم . وقد أجمع المسلمون من مبدا الاسلام الى يومنا هذا على صحة هذا النسب العالي ، وهم يحفظونه عن ظهر قلب من نعومة أظفارهم وهاك هو : محمد ، بن عبدالله ، بن عبدالمطلب ، بن هاشم ، بن عبدمناف ، بن قصى ، بن حكيم ، بن مرة ، ابن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، ابن الياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان . وحيث انه من الثابت فى التاريخ أنه كان لعدنان واقعة مع بختنصر في مبدا القرن السابع قبل المسيح ، فتكون المسافة بين حلقة السلسلة الحالية (أى الموجودة فى يومنا هذا) والحلقة العدنانية نحو ٢٦ قرناً . واذا جارينا النسابين الذين أوصلوا نسب عدنان باسماعيل بن ابراهيم ، وقالوا ان عدنان ، بن اد ، بن ادد ، بن الهميسع ، بن سلامان ، بن بنت ، بن حمل ، بن قيدار (نابت) ، بن اسماعيل ، كانت المسافة بين الحلقة الحالية من هذا النسب الكريم والحلقة الاسماعيلية أكثر من سبعة وثلاثين قرناً .

على أنالو وقفنا بنسب هذه الاسرة الشريفة عند الحلقة النبوية ، فانها تكون أعرق الاسر (العائلات) الموجودة على ظهر البسيطة حسباً ، وأقدمهم نسباً : لان الاسر التى يحترمها التاريخ فى أوربا ويجلها الفرنجه عامة ، ويعظمون شأنها لمجرد اصالتها فى حسبها ، وعراقتها فى نسبها ، لم تظهر الا بعد أسرة الاشراف بمكة بقرون عديدة : اذ لا يخفي ان أسرة البربون (Bourbon) التى هي أقدم أسرة أوربية ، والتى تشمت حكمها فى فرنسا وايطاليا واسبانيا ، لم يبتدئ تاريخها الا في سنة ٩١٣ بعد الميلاد . ويلوها أسرة هابسبورج (Habsbourg) التى لها الحكم الآن فى النمسا ، ويبتدئ تاريخها من سنة ٩٥٤ ميلاديه . ثم أسرة السوواى (Savoie) التى منها ملوك ايطاليا الحاليون وتبتدئ من سنة ١٠٢٧ . ثم أسرة ملوك آل عثمان وتبتدئ من سنة ١٢٧٧ . ثم أسرة قياصرة الروسيا وهي أسرة رومانوف (Romanov) وتبتدئ من سنة ١٥٤٧ ميلاديه .

للجناب العالى أثناء ذلك ، أنه لاحت منه التفاتة فرأى عسكر على بن دينار (سلطان دارفور) ، مع رئيسهم الذى أتى بمحملهم ، وراء صفوف الناس من بعد ، فارسل فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لاطفه وحياه بما يليق بكرمه ، أمره حفظه الله بان يسير بجنده فى هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حرابهم على نغمة الموسيقى بحماسة كانهم يتحركون الى حرب أوطعان .

وفى نهاية الاستعراض قصد الجناب العالى صيوانه ، وبعد ما استراح قليلا ابتدأت التشريفات العيدية لجنابه الرفيع : فتقدم العسكريون يتلوهم الملكيون من رجال المعية السنية وغيرهم ممن حضر لاداء هذا الواجب من وجهاء المصريين ، ثم موظفو المحمل المصرى ، وتشرف الكل بلثم راحته الكريمة ، داعين له بطول العمر وكمال السعود والرفاهية ، مهنئين بفريضة الحج الشريف . ثم تلا ذلك العدد الكثير من الاشراف وعظماء مكة وغيرهم من كبار الحجيج ، وكانوا يفدون على سموه بواسطة دولة الشريف ، فيقدمهم الى جنابه العالى تارة أحد أنجاله الكرام وأخرى أحد رجال تشريفاته أو ياورانه . وكان حفظه الله يقابل الجميع بصدر رحب ، وثغر باسم ، ووجه باش ، مما جعل الكل يخرج من حضرته داعياً شاكراً . وفى أثناء هذه المقابلات كانت تعزف فى أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى ، والمحمل المصرى ، والشامى ، وموسيقى القوة العسكرية الموجودة بمكة ، والى جانبها المزمار البلدى ، تتخلل نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج باصوات السرور والحبور من كل جانب بما لا يمكن وصفه .

وبعد تمام التشريفات قصد الجناب العالى صيوان الشريف لرد الزيارة وتقديم واجب التهانى ، فاستقبله دولته من خارج الخيمة بكل ما يمكن من واجبات التبجيل والتعظيم وأجلسه فى صدر المكان وجلس عن يسار سموه . وهنالك دخل رؤساء الديوان الخديوى يتبعهم جميع الموظفين المصريين عسكريين وملكيين لتهنئة دولته ، وكان الجناب العالى حفظه الله يقدمهم لسيادته واحداً واحداً كلا باسمه ، وبعد شرب الشربات انصرفوا الى أماكنهم ، وتوجه الجناب العالى محاطاً برؤساء معيته الكريمة الى خيمة وكيل الوالى ، فاستقبله بغاية



مسجد الخيف ومخيم الحجاج بمنى

الاجلال والاحترام ، و بعد تناول المرطبات وشرب القهوة توجه حفظه الله الى صيوانه ومكث فيه يستقبل وفود المهنئين الذين كانوا يتقدمون اليه بواسطة دولة الشريف أو بعض حاشيته .

و بعد الظهر زار دولة الشريف ومعه عطوفة وكيل الوالى معسكر المحمل المصرى ، فقوبلا بما يليق بمقامهما من الاحترام بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقى بالسلام الشاهانى . و بعد صلاة العصر ركب الجناب العالى ومعه دولة الشريف فى موكبهما الفخيم لرمى الجمرات ، ثم عادا الى مقرهما . و فى المساء كان الجناب العالى الخديوى قد أعد وليمة فاخرة لسيادة الشريف ومعه ثلاثون من عظماء قومه ، و بعد صلاة العشاء حضر المدعوون يتقدمهم سيادة الشريف فاستقبلهم الجناب العالى بما جبل عليه من الايناس ، وكان رجال التشريفات الخديوية يقومون بالخدمة اللازمة ، و بعد ما أكلوا ما لذّ وطاب هنيئا مريئا رفعت الموائد ، وجلس القوم للسمر ساعة من الزمان ثم خرجوا شاكرين للجناب العالى كرمه ، ذاكرين فضله وآدابه ، داعين مبتهلين الى الله بان يكثر من أمثاله فى أمراء المسلمين وملوكهم . وكانت فى أثناء هذه الحفلة موسيقى الحرس الخديوى تشنف أسماع الحاضرين ، وسهام الالعاب النارية تشق كبد السماء فتزيد درار يها زينة على زينتها ، وسواقيها النارية تنثر فى فضاء الارض تبرها المتلهب فيزيدها نورا على نورها . وكان آلاف المتفرجين من عرب وعجم ومغاربة ومصريين وسودانيين وأتراك وجاوه وهنود وغيرهم ، فرحين مبتهجين مهللين مندهشين لهذه المظاهر البديعة التى لم يسبق لها نظير فى منى بل ولا فى جميع هذه الديار . وكان أكثرهم دهشة من سبق له الحج قبل هذه السنة : وحقيقة فان هؤلاء هم الذين كانوا يحسون بالفارق بين الحج فى السنين الماضية ومظاهره فى هذه السنة المباركة . ومازال الناس فى سرور وحبور الى نصف الليل ، ثم انصرفوا وكلهم داع بعزة الاسلام ونصرة أمرائه وتوفيقهم .

وقد أمضى الجناب العالى يوم ١٣ ذى الحجة فى تزاور مع دولة الشريف وكيل الولاية واستقبال بعض الزائرين ، و بعد صلاة العصر نزل الى مكة فى موكبه الفخيم .

و بالجملة فقد كان سموه بمنى محطاً للرحال ، ومكانا لتحقيق الآمال ، ومنهلا للخيرات ،

ومصدراً للحسنات ، وكان صيوانه على الدوام غاصاً بالزائرين من عظماء الحجيج على اختلاف أجناسهم .

مواكب الشريف

يركب دولة الشريف فى مواكبه الرسمية على النظام الآتى :

تتقدم فرقة من الخيالة والقرّابة، ثم جماعة من الهجانة من عرب البيشة، ثم بعض السياس تتلوهم الجنائب : وهى جملة أفراس عربية يتلو بعضها بعضاً، يقود كلا منها سائسان : واحد الى اليمين والآخر الى اليسار ، ومن وراء الافراس بعض البغال ، وعلى الكل الرخوت الذهبية . ويعقب ذلك عربة يجرها زوج من الجياد ، ومن خلف العربة بمسافة خمسين متراً دولة الشريف على فرس مرخوت، يحيط به الخدم والحشم وغيرهم من الخزنجية (الخزندارية) ، ومن على يساره مائلا الى الوراء قليلا حامل الشمسية على حصانه : وهى شمسية كبيرة من الحرير المزركش بالقصب ، والكنتير المذهّب، وقطع التبر المثقّب (الترتر) ،يتخلل ذلك كثير من الفصوص الكريمة الجميلة . ولهذه المظلة وضع خاص بها : تكاد تكون نصف كرة منتظمة ، قطرها نحو متر ونصف ، وقائمها من المعدن الابيض ويطول حتى يرتكز فى ركاب حامله أثناء السير، ويثبت فى الارض أمام صيوان الشريف اشارة الى وجوده فى مخيمه، وهذا يغنى عن رفع العلم عليه وان كان للشريف علم أحمر خاص به .

ويسير من وراء الشريف الجم الغفير من السادة الاشراف، يتلوهم أعيان مكة على خيلهم أو حميرهم ، والكل بملابسهم الرسمية ونياشينهم ، يتخلل ركابهم الخدم والحشم والعبيد، ومن خلفهم ضاربو النوبة : وهم موسيقيون عربيون راكبون على خيلهم يضربون بالمزمار البلدى والنقرزان ، يحيط بهم عرب البيشه على هجنهم وهم يتغنون من وقت الى آخر باغنية حماسية

على نغمة الموسيقى ، ولا يزال الموكب سائراً على هذا النظام حتى يصل الى المكان الذى يقصده دولة الشريف .

ونظام هذه المواكب عادة قديمة فى ملوك الشرق : وقد كانت تركب فيها على المثال المتقدم الخلفاء من العباسيين والفواطم وملوك الجراكسة وغيرهم مما تراه مبسوطاً فى المقريزى وغيره . وكانت هذه الشمسية تسمى عند الفاطميين بالمظله وحاملها كان من كبار القوم وله مكانة مخصوصة ، ويسمى بحامل المظله ، وبعضهم يسميه حامل القبة . وقد رأيت فى تاريخ السودان لشقير بك فى الكلام على دارفور ، أن أميرها على بن دينار يركب فى احتفالاته الرسمية بما يقرب من هاته المواكب . وهاك نص عبارته تحت عنوان ركوب السلطان « وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جواداً مزركش العدة ، وأمامه العساكر الحاملو الاسلحة النارية مشاة ، ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول ، وبينه وبين الخصيان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفاً واحداً ، وعن جانبى السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظلله وتظلل جواده ، وهى مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطن باطلس مختلف الالوان كل شقة بلون ، تتدلى من أطرافها شراريب قصب ، ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شبر بلون » اهـ .

سفر الحجيج من مكة

بعد النزول من عرفة ينتظر الحاج فى مكة صدور أمر الشريف بسفر الحجاج منها ، ولا يكون ذلك فى الغالب الا فى الاسبوع التالى لنزولهم من حجهم . والغرض من هذا التأخير رواج تجارة هذا البلد . فاذا جهز الانسان نفسه سافر الى المدينة المنورة ، أو الى بلده ان كان سبق بالزيارة قبل الحج أو شغله عنها شاغل : فينزل مع القافلة الى جدة ومنها الى حيث يريد .

وعلى كل حال فانك ترى مكة اذ ذاك فى حركة هائلة بالجمالة وجمالهم وهى مجهزة للحمل غادية رائحة ليلا ونهارا فى طرق مكة وعليها شقادفها (١) ومحفاتها وسحلياتها : لان هذا هو الموسم الوحيد الذى يستمد منه هؤلاء الاعراب حياتهم بواسطة هذه الابل التى هى رأس مالهم الوحيد، بل هى حياتهم بجميع معانيها : فهم من البانها ولحومها يأكلون، ومن أوبارها وجلودها يلبسون، وبروثها وبعرها يدفئون، وهى مركبهم ومحملهم فى هذه المسافات الواسعة الشاسعة، التى لا يمكن غيرها من جنس الحيوان أن يقوم بالمأمورية التى تقوم هى بها فى وسطهم: ذلك لان الجمل سفينة الاسفار فى القفار، وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراوية، خلقه الله مقوس الظهر لاحتمال الاثقال، وجعل خُفّه واسعاً مدوراً طرياً حتى لا ينزلق على الاحجار ولا يسوخ فى الرمال، يحتمل العطش أياماً (وزعم بعضهم أنه يحتمله شهرين): لان القدرة الالهية جعلت له أربع معدات لهضم الغذاء، يعقبها تجويف كبير يخزن به الماء، فاذا نفد ما فيه رجعت اليه عصارة مائية من الاوعية الكثيرة التى حوله مما يأتى اليها من رشح البدن (وتقدر بعشرين لتراً). ويساعده على احتمال العطش انه كغيره من المجترات، له خاصة اخراج الغذاء من معدته الى فيه، بواسطة ضغط عضلات المعدة على بعضها، فتتقلص وتطرد الغذاء الى فمه فيلوكه : ومن هذه العملية تتنبه غدد الفم واللسان والزور فتفرز من اللعاب ما يلطف من غلته ويخفف من عطشه . والجمل يحتمل الجوع أيضاً

....

(١) الشقدف عبارة عن سريرين من الخشب وقاعدتهما من الحبال على مثال العنجريب، وعلى حافة كل سرير من الجنب الخارجي والجلي شبكة من عيدان اشجار السنط بحيث اذا ضم السريران الى بعضهما على ظهر الجمل بحبال متينة يكونان قبة يغطونها بشيء من الحشيش وركابها يصعون عليها في العالب بعض الاكلة المغربية أو التركية فهي الراكب من الشمس والمطر . ولو كانوا يغطونها في الشتاء بشيء من المشمع كانت الفائدة أكبر وأعظم . والشقدف يسع نفرين ويمكنهما أن يناما فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يضعها على ما يحب . والمحفة هي كرسيان من الخشب اذا ضما الى ظهر الجمل جلس فيهما راكبان على مثال جلوسهما على الكراسي ووجههما الى رأس الجمل ، وأغلب ما ترى المحفات في الركب الشامي . أما السحلية فهي سرير من أسرة الشقدف تشد على ظهر الجمل مستعرضاً ويجلس فيه نفران وهي في الغالب من غير مظلة ويركب فيها الفقراء من الناس وخصوصاً من الهنود الذين يحملون حرارة الشمس .

أياما متعددة بتغذيته من الدهن الذى فى سنامه ، ولهذه المزية الكبرى استُخدم فى الحروب من زمن بعيد جداً ، ولفرق الهجّانة المصرية فى فتوحات السودان شأن يذكر فيشكر . وغذاء الجمل فى بلاد الحجاز امامن الحشيش أو نوى البلح أو اللبن ، وقد رأيت بعضهم يلقمه الثريد المصنوع بمرق اللحم ، وبلغنى ان عرب السواحل تلقمه السمك نيئاً . والعرب يقولون ان أنثى الجمل تعرق من جميع جسمها ، أما الذكر فانه لا يعرق الا من دوماته وهى شعر بين أذنيه ، والبدو يشبعون فتيلة قد يحتهم بعرق جمالهم فتصير سريعة الاشتعال بمجرد ضرب الزناد عليها . وجمال الحجاز صغيرة ضئيلة فى الغالب ، والتى لقبائل حرب منها هى المتعودة على الحمل . أما التى لغيرها من القبائل وخصوصاً البعيدة عن مكة والمدينة فانها غير معتادة على الاحمال ويعانى ركابها مشقة جسمية وخصوصاً ركاب الشقادف . ويوجد غير الجمل فى مدن الحجاز وعلى الخصوص فى مكة والمدينة كثير من الحمير الحساوية (الحصاوية) المتينة ، ويؤتى بها من بلاد الحسا فى شرق بلاد العرب . ومع ماهى عليه من السرعة فى السير ، فانها تحتمل المشى فى هذه الصحراء ثلاثة أو أربعة أيام متتابعة . ويمكنها أن تمشى فى اليوم نحو مائة كيلو متر من غير أن ترى عليها أثراً كبيراً من التعب . وغالب هذه الحمير لا يخلو جلدها من البرص . ويوجد هناك أيضاً بغال متينة يؤتى بها على الخصوص من بلاد الشام أو العجم . والخيل فى هذه المدن قليلة ، وهى تتحمل أيضاً مشقة السفر هناك أياما متوالية ، وجنسها ليس بالجيد لان الجنس الطيب محصور فى جهة نجد ولا يفرطون فيه إلا بأثمان غالية ، وعلى كل حال فان الجنس الطيب من الخيل فى نجد قليل الآن جدا : لان الانكليز بالهند يشترون منه كل سنة عددا كبيرا يستعملونه فى الغالب فى المسابقات ويأخذون من نسله من أفراسهم نسلا مختلطا قويا متينا .

* * *

الطريق الى المدينة

تقوم قوافل الحجاج من مكة الى المدينة المنورة : فيسيرون فى واحد من أربع طرق على حسب تبعية المقوم والحمالة اليها . وهذه الطرق هى : السلطانى — والفرعى — والغاير — والشرقى .

والطريق السلطانى هو أحسنها سيراً وأكثرها ماء . فاذا قامت القافلة منه خرجت من باب العُمْرة وسارت الى الشمال الغربى وتمر على المحطات الاتية :

وادى فاطمة — ويجرى فيه ماء عذب يأتى من السيول التى تنزل من جبال الطائف، وبه مزارع كثيرة ، ويسكن فيه عرب الاشراف من ذوى حسين وذوى غالب، ويسكن فى المنطقة التى بينه وبين مكة الى بحرة بنو لحيان .

عسفان — ماؤها قليل وفى طريقها عقبة لا تسع الا جملا جملا، والعرب التى تسكن فى هذه الجهة بشور (بِشْر) وحمران .

خليص — بها بئر التفلة وماؤها غزير ويسكنها قبائل زبيد ، ويقرب منها واحة بها مياه جارية وفيها بساتين ونخيل .

القديمة — (القضيمة) قرية على البحر ومساكنها أكواخ صغيرة وماؤها من الحفر التى يخزنون فيها ماء الامطار، وأهلها من زبيد ويشتغلون فى الغالب بصيد البحر ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

رابغ — وهى قرية على البحر الاحمر وفيها قلعة بها بعض الجند العثمانى ، وماؤها من الحفر والآبار وأهلها من زبيد . ويأتى الى مياهها بعض السفن الصغيرة لمشترى ما يصيده أهلها من الاصداف وغيرها، ويُنزلون اليها خفية كثيرا من الدخان وغيره من الاشياء الممنوعة وعلى الخصوص الاسلحة وما يلزمها من زخيرتها، ويبيعونها بأثمان رخيصة جدا .

مستورة ــ ماؤها غض (ومنها طريق الى بدر، الى الصفراء يسمونه الملف)، و يسكن هذا الطريق قبائل صبح فى بدر، والاحامدة فى الصفراء .

بئر الشيخ ــ وتسكنها قبائل صبح . والمياه على طول هذا الساحل لا ترغى الصابون .

ديار بنى حصانى ــ ماؤها غض و يسكنها صبح ، والحوازم .

الحمـــراء ــ وهى قرية بها نهر عذب وفيها بساتين ونخيـل و يكثر فيها البرتقال والليمون والموز والحناء ، و يزرع بها كثير من الخضر كالقثاء والبطيخ وغـير ذلك ، و يسكنها الحوازم ، ومنها ينثنى الطريق الى الشمال الشرقى .

الجديدة ــ وهى قرية ماؤها عذب و بها قبر ولى الله سيدى عبد الرحيم (١) البرعى المصرى و يسكنها قبائل الحوازم والاحامدة . ومنها يميل الطريق قليلا نحو الشرق .

بئر عبـاس ــ و يسكنها جانب من الحوازم وصبح والاحامـدة وماؤها قليل ، ومنها يميل الطريق الى الشرق قليلا .

بئر درويش ــ و يسكن هذه الجهة قبائل الاحامدة والرِّحَلَة (بكسر الراء وفتح الحاء) .

آبار عـلى ــ و يسكنها قبائل عوف وعمرو وماؤها عـذب وهى على مسافـة نحو خمسـة كيلومتر من المدينة المنورة ، و يترك فيها القوافـل شقادفهم وسحاليهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات فى دخولها المدينة . ومن يريد أن يدخلها بمحمله دفع عليـه الرسوم المعتادة من جيبه . و ربمـا طلب منه الجمال أكثر من اللازم فليتدبر .

الطريق الفرعى

والطريق الفرعى يبتـدئ من رابغ متجها الى الشمال الشرقى و يمر على المحطات الآتية :

وادى حرشان .

نقر الفار ــ وهو محجر ضيق منحدر تمر منه الجمال جملا جملا و يسكنه بنو سالم .

(١) وهو المقصود بقول بعض الشحاذين فى أغنيتهم «ياسعد قل للنبي عبدالرحيم منحاش» ولعل المرض دهمه فى طريق المدينة فمات ودفن بهذا المكان وله ديوان شعر مطبوع كله مدائح فى الرسول

بئر رضوان ـ وماؤها عذب .
أبوضباع أو أم ضباع ـ وماؤها عذب و يسكن فيها بنو عوف .
الرياض أووادى الريان ـ وماؤها عذب وشجرها كثير و يسكنها بنو عمرو .
الغدير ـ وفيه مجرى ماء .
وادى المعظم ـ ماؤه عذب .
بئر الماشى ـ ماؤها حلو و يسكنها عوف .
آبار على .
المدينة .

طريق الغاير

وطريق الغاير يبتدئ من رابغ أومن مستورة و يقطع جبل الغاير الى الشمال وهو أقل هذه الطرق مسافة . فاذا وصل المسافر الى الغاير صعد من عقبة عالية تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جداً بحيث لا يسع الا دابة دابة . وهذا الطريق خطر فى صعوده وهبوطه وخصوصاً على الركاب ، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لانها متعودة عليه، ومسافة الصعود الى ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات . و يسكن الغاير ومنحدراته [1] قبائل اللهَبَة ومسروح وهما شر العرب على الحجاج . وهذا الطريق يسمونه الطريق المدنى، لان أهل المدينة يستسهلونه فى حجهم لقربه : فيركبون هجنهم أو حميرهم أوخيلهم و يسيرون فيه قوافل، قوافل . ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء و يقيمون بها ريثما يأكلون و يصلون ثم يستأنفون السير الى مكة . وكثير من الحجاج الاقوياء الخفاف الاثقال وخصوصاً من المصريين كانوا يصحبونهم من المدينة الى مكة ، أومن مكة الى المدينة عقب أيام التشريق مباشرة و ينتظرون بالمدينة حتى اذا جاءت القوافل اليها انصرفوا معها الى ينبع .

وكل حارة من المدينة تكوّن قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة و يسمون ذلك

(١) جل القبائل الموجودة فى هذه الطرق الثلاثة بطون من حرب .

ركباً فيقولون «ركب فلان حضر الى مكة أو قام منها فى يوم كذا » . وكذلك الحال فى زيارة أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب .

﴿ الطريق الشرقى ﴾

والطريق الشرقى يخرج من مكة من باب المعلى و يتجه الى البيّاضية ثم يسير فى طريق شمال طريق منى و يتجه الى الشرق و يمر على المحطات الآتية :

بئر البارود — ماؤها عذب .

وادى الليمون — و يكثر فيه شجر الليمون والنارنج والليمون الحلو ، و يزرع فيه البطيخ والخضر . وفيه ماء جار ينزل اليه من جبال الهدى و يسير فى مجرى مبنى الى بساتينه وغياضه . ومنه يتجه الطريق نحو الشمال .

الخفاير — (الضريبة) مياهها عذبة وقريبة من سطح الارض .

بركة سمرة — لا ماء فيها مدة الصيف .

بركة المِسْلَح — (حارة) ماؤها غزير وعذب و بساتينها كثيرة .

الحبيط — (الضيعة) .

سُفَيْنَة — (صفينة) و بها نخل وآبار عذبة .

السّوَيْرِجيّة — (السويرقية) قرية يسكنها سادات من بنى حسين و بها آبار ومزارع كثيرة .

الحجرية — و يبعد الماء عنها بنحو ربع ساعة .

غُرابة — أو غراب وفيها مياه كثيرة على عمق ذراع أو ذراعين من سطح الارض .

الغدير — أو الحنك و بعضهم يكتبها الحنق وفيها بركة كبيرة تملأ من مياه الامطار .

سيدنا حمزة —

المدينة المنورة .

وعربان هذا الطريق من الزيود[١] واللّهَبَة[٢] وعُتَيْبَة[٣] ومِطير[٤] والرِّحلة[٥] وهم أبعد الاعراب عن الحضارة .

نظام القوافل

قلنا ان الحجاج لا يخرجون من مكة الى المدينة الا فى ركب القافلة التى تكون جمّالتها من أهل الطريق الذى يسيرون فيه . وغالباً ما تكون جمال الحاج تابعة لجمال واحد وهو الاحسن، أما لو كانت تابعة لجمالين فتكون مشغوليته أكبر وتعبه بينهما أعظم . وعلى كل حال فعلى الحاج أن يجتهد فى تخفيف أحماله وأثقاله . فاذا كملت شحنة القافلة نهضت الجمالة بجمالهم وأخذوا يقطرونها فى بعضها قطاراً واحداً أو قطارين بجوار بعضهما ، وفى المقدمة يكون غالباً أكبر الركب وجاهة وعصبية . وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة فى جمله ، ومنهم من يرى تقدمها على جمله حتى تكون على الدوام تحت نظره خوفاً عليها من عبث العاثين . والجمل عندهم ينقسم الى قسمين جمل الشقدف: ويركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤنتهما اليومية، وجمل الحمل ويقال له العصم يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان ان كان المتاع قليلا . وأجرة العصم فى الغالب ثلثا أجرة جمل الشقدف الذى يكون من الجمال المتينة القوية حتى

(١) الزيود شيعة ينتسبون الى سيدنا زيد بن على زين العابدين . ومن عوائدهم أنهم لا يختنون بل يسلخون جلد عاناتهم وقضيبهم، ويموت من جراء ذلك منهم خلق كثير ، وأطفال مكة يعيرونهم بذلك .

(٢) اللهبة مشهورون بالغدر والخيانة .

(٣ و ٤) هما من أكبر قبائل بلاد العرب قوة ومنعة وأكثرها عدداً وأمنها شجاعة، وأغلبهم لا يلبسون الا المئزر، ونساؤهم على جانب عظيم من الشجاعة . وقد بلغ من المرأة العتيبية أو المطيرية أنها تمسك بذيل الفرس وهو يعدو وتجري معه ثم تضغط على ذيله بيدها وتقذف بنفسها فوق ظهره، وهي كذلك تركب الجمل فى عدوه .

(٥) وعرب الرحلة لا يقيمون فى محل واحد بل تراهم كما يشير اليه اسمهم متنقلين وراء الكلأ من مكان الى آخر .

يتيسر له حمل ما فوقه . وليس لهذه الاجرة من رابطة بل يقدرها الشريف كل سنة باتفاقه مع الوالى، على حسب أهوائهما وتحت رحمتهما بضيوف الله، ثم ينادى بها المنادى فى الاسواق، ولذلك تراها كالترمومتر ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ولاة الامور بمكة . ولقد كانت أجرة جمل الشقدف فى سنه ١٣٢٨ ست ليرات عثمانية من مكة الى المدينة الى ينبع ، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيها مصريا ونصفاً ، كانت تؤخذ من الحاج فى مكة بواسطة المطوف، وهذا عدا ما كان يصيبه من الجمال فى طريقه من طلبه زيادة على الاجرة المذكورة مدعياً بانه لم يصله شىء من أجرته .

وعليه فاذا كان الحاكمون فى بلاد العرب من الاخيار البعيدين عن المطامع، كانت الجمالة على أخلاقهم ، والعكس بالعكس (والناس على دين ملوكهم).

والمطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون غالباً الى المدينة فى قافلتهم بحجة المحافظة عليهم ، وكثيرا ما يغرر الجمالة بضعاف الحجاج فيأخذون الاجرة منهم ويخبرونهم بان الجمال خارج البلد ، ويرجونهم فى أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس ، وهو عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع، وليست لها قيمة مخصوصة بل ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ذوى الكلمة هناك . وربما بلغت ريالين أو أكثر قبل الدستور مع أن الذى يرد لخزينة الدولة منها ستة قروش عثمانية فقط) . فاذا خرج الحجاج المساكين من مكة لا يجدون الاجمالا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة، وكثيرا ما يتركونها ويسيرون على أقدامهم جل مسافة الطريق أو كلها .

والقافلة لا تنتظم عادة الا بعد أول محطة حيث ينظم الجمالة جمالهم ويرتبون قطاراتهم التى لا يخالفونها طول سفرهم .

والجمالة فى الغالب نحيفوا الجسم رفيعوا الساقين قصار القامة يكاد أن لا يكون فى جسمهم عضل بالمرة، أما عظمهم فهو الحديد أو أشد صلابة ، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد: ولقد رأيت رجلا منهم يعدو وراء جمل شارد حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجرى ثم أمسك

بزمامه . أما ملابسهم فهى قميص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويلة أو سيف صغير، و فى يدهم عصا غليظة قصيرة يسمونها المطرقة وعلى رؤوسهم تلك الصمادة (الكوفية) (١) التى يلفونها عليها باشكال مختلفة . و بعض عرب الشروق واليمن يستعملون غير الطاقية شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة الواسعة ان لم يكن هو هى و يسمونها الظلة .

و بعض الجمالة يلبس نعلا فى رجله يقيهما من حرارة الارض وحصبائها . أما نظافة ملابسهم فلا يمكننى أن أقول لك عنها غير أنها اذا اتصلت بجسومهم لا يخلعونها مطلقاً حتى تنخلع هى عنها ، وهذا لا يكون الا اذا أكل عليها الدهر وشرب . والمترفون منهم يغيرون ملابسهم كل سنة مرة فى موسم الحج ، و بعضهم يلبس عليها عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مِشْلَحاً . ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال : فتراها صفراء قاتمة أو حمراء طوبية ، و ربما كان اختيارهم لهذه الالوان حتى لا تُرى بسهولة من بعد بل يشكل فيها الأمر على الرائى . وفى ذلك مالا يخفاك من الفكرة التى أساسها الخبث والغدر !! و ربما أخذ من هذا تغطية الاستحكامات الجديدة فى أوروبا بطبقة ترابية تشبه أرض المنطقة المحيطة بها . و بعض كبراء الحجيج يعطون جمالتهم عباءة من الجوخ الاحمر فيفرحون بها فرحا عظيما و تقع فى نفوسهم موقعاً حسناً و يتباهون بها على أقرانهم .

والجمالة بعد الابتعاد عن مكة يلحفون للحجاج فى السؤال ، و يغلظون لهم فى الاقوال : فترى أصواتهم هنا وهناك قائلين لركابهم «جرجوش ـ هلله ـ سكر ـ جرش» . فيجيبه هذا الحاج أنت أخذت ، و يقول الآخر ما بقى شىء أو ما فى معنى ذلك . وهناك يكثر بينهم الاخذ والرد الذى ينتهى بأخذ الجمالة ما يريدون . وكثيراً ما ترى فى الطريق بعض أعراب من غير جمالة القافلة ومعهم جمال ضئيلة وهم ينادون (يارُ و يكِبْ يارُ و يكِبْ) و يكون ذلك غالباً فى المحطات الاهلة بالسكان : و تصغيرهم للراكب فى ندائهم لا يخلو من معنى ينطبق على حقيقة من يركب معهم من هؤلاء الذين لم تسمح لهم ذات يدهم بالاستعداد على ركائبهم قبل سفرهم، ولهذا فانهم يتساهلون فى أجرتها كثيرا . وترى ذلك على الخصوص فى طريق عرفة .

(١) أظن ان لفظ الكوفية : نسبة الى الجهة التى كانت تعمل فيها وهى الكوفة .

وعلى طول طرق القافلة ترى كثيرا من حجاج الفور (التكرور) مشاة باطفالهم ، وكثيرا ما ترى الام حاملة طفلها فى شبه كيس ملتصق بظهرها بحيث لا يظهر منه غير رأسه ، وعلى رؤوسهم بعض أمتعتهم ، و فى أيديهم صفيحة أشبه بالكشكول يضعون فيها غذاءهم . واذا كانت لهم حاجة الى السؤال سألوا ركاب القوافل بلطف وأدب ، وما رأيتهم يطلبون غير الماء لانه يصعب عليهم حمله ، وخصوصاً فى مدة الصيف الذى تجف فيه القرب وتنشف الركايا .

فاذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل وجدت كثيرا من الاعراب ينادون على البطيخ الكبير بقولهم برطيخ ، وعلى صغيره بقولهم الخربز (وأصلها قاربوز بالتركية)، و ينادى بعضهم الما الما ، خُبزْ خُبزْ . التمر ، الفجل الخ الخ ، فاذا قربت من ديارهم وجدت شرذمة من أولادهم يحيطون بك وأيديهم ممدودة للعطاء وهم يتغنون بقولهم : يا حاج سلامات ، يافندى سلامات ، يابو ياسلامات ، ان شاء الله سلامات ، ان شا الله عرفات ، ان شا الله بركات و بعضهم يقول : حج حجيج (حج الحجيج) بيت الله : والكعبة و رسول الله الخ .

وكانى بالحالة واللقمة تهضم فى أكفهم والحسنة تضيع بين أصابعهم لا يعرفون الكرامة الا وقت امتداد يدك بها اليهم ، فاذا انقضت حركتها صارت كأنها ما كانت !! وهذا أمر لا ينطبق على ما هو مشهور فى الطبع العربى من ذكره للنعمة وحفظه للجميل . ولهم أغنية يتغنون بها فى طريقهم ، وهى فى الغالب على النغمة العراقية والرومية التى أخذوها عن حجاج الاتراك والشوام . وجمالهم ترتاح اليها وتستمع لها فتنسيها لحظة ما هى فيه من التعب والعناء . وهذه الاغنية لا يكاد يعرفها من يسمعها لانها أقرب الى الرطانة منها الى العربية ، على أنها لا تخلو من معان دقيقة لطيفة وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق ومنها ما هو مدح فى المطايا ودونك شيئاً منها :

« ياحبيبى لو ترى حالى　　واللّى جرى لى بعد فرقاك
والله ماغبت عن بالى　　ولا نسيت الحصافه ذاك »

« ياسيدوا ايش غربك فى دايرة الحفا والشوك ، يارهيف ، يامرود العين ، ياريت خدى ينقسم نعلين ، الله يحاسبهم كما حاسبونى ، كما رمونى بجوف الوقيدة وانا حى » .

« لواهني بالحج واو في جماره ، واقف على العيرات ساجدين مع الربيع ، (الجبل المرتفع) صبح أربع يمسى شعيب الخضارة ، مع مثلهن يمسى بوادي الربيع ، مع مثلهن كل تهني بداره ، وادي النعيم اللي عذوقه مهابيع » .

« ياالله ياراد كل غريب بلاده والذوق (النوم) بعد القسا (القسوة)

(يعني التعب الشديد)، حمت اللمن (اليمن) والشام وكل دايره جيت من وراها ، لي في اللمن سيد ولي في الشام باشا ، ان جيت عند اللي في اللمن يبقى السيد يملكني ، وان جيت عند اللي في الشام يبجى الباشا يحكمني » . و ينطقون بالقاف جيا غير معطشة

وصغار الحجاج من المصريين لهم أغنية يتغنون بها في طريقهم وعلى الخصوص نساؤهم . وهي لا تخرج عن ذكر الطريق للحج وذكر البيت وعرفة وزمزم ، وخصوصاً ذكر النبي عليه الصلاة والسلام . وكلها عبارات بسيطة ليس فيها شيء من المعاني العالية نذكر لك شيئاً منها :

« أنا امدح محمد ، والحسن والحسين والقاسم أحمد ، بلّغ العاشقين يارب زيارة محمد ، مديح باشتياق أنا ما امدح الا النبي ، ياهنا اللي انوعد .

ياليلة ان برّزوا و باتوا لبرّه ، و بات قلبي في حنين ، و يطلب من الله يرجعوا سالمين ، بنصره من الله ، ياهنا اللي انوعد .

وان جيت حبيبي ياو بور وان جيت حبيبي ، لا كنسك وأرشك و بالشمع أقيدك ، مروق بخوخه يابحر ، يابحر مروق بخوخه ، لا يمسك عكار ، ولا ريح بدوخه ، تحت ظل القلوع أبوشال وجوخه ، في رابغ نوى الاحرام ولبس احترامه ، يانهار الهنا يوم خلوه يفك احترامه ، يافرح قلبي يوم طلوع الجبل ، والخطيب على الجمل ، والمُبلّغ يرقى ، يافرح قلبي ساعة النفره ، وفرحت عيونا ونزلنا بفرحه ، وفوتنا من بين العلمين كان الفجر لايح ، يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا الذبايح ، وافتكرنا العيال و بقى الدمع سايل ، و بعد

ثلاث أيام حملنا المكة، وطفنا طواف الوداع و برّزنا، والجمال حمّلنا ، وعلى أبو ابراهيم سرنا ، وصلنا قبة المصطفى والاعتاب زمرد، حول مقام النبي، قال الطواشى منين يا جماعة ، زوروا النبي زوروا وأطلبوا الشفاعة » .

والحداء قديم جداً فى العرب . والمؤرخون يقولون ان أول من حدا الجمال مضر بن ربيعة وكان حسن الصوت و يملك كثيرا من الابل، وذهب بعضهم الى أن توقيع الجمال فى سيرها هو الباعث الاول على وزن الشعر فيهم . ولهم لكل سير من سير الجمال بحر محصوص : فاذا سارت الهوينا فالرّجزْ واذا أسرعت فالخَبَبَ . وقد كان الخلفاء يأمرون شعراءهم فيحدون لجمالهم . ومن ذلك أن عبد الملك بن مروان كان راكباً جملا فى سفر له (ولعله فى حجه) وجمّاله يحدو بقوله :

يأيها البكر الذى أراكا ＊ عليك سهل الارض فى ممشاكا

ويحك هل تعلم من علاكا ＊ ان ابن مروان علا ذراكا

خليفة الله الذى امتطاكا ＊ لم يعل بكر مثل ما علاكا

و وقت تحميل القافلة وتنزيلها تكثر السرقات من الجمالة أنفسهم . وقد يتفق جمال مع جمال آخر فيحضر فى هذا الوقت الذى يلهيك فيه بصريخه وصياحه فى حين ما الاخر ينقض على عفشك و يسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدأ روعك شعرت بما نقص من متاعك . وهنالك يكثر الصياح فيقول هذا : خرجى ، و يقول الاخر : ملابسى ، وغيره يصيح : لحافى وهكذا ، و بعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم الى الله ، و يشتغلون بتجهيز شؤونهم . وليست الجلبة قاصرة على هؤلاء بل ترى الصراخ من انحاء القافلة بتمامها فهذا يصيح قائلا : ياحاج فلان ، وذلك ينادى : ياحاجة فلانه ، وآخر يقول : اندر ، وغيره يوهم بانه يشاهد الحرامى فيقول : شايفك ، وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم فيدق هذا بمطرقته ، ويتصارخ الآخر مع جاره الذى زحزحه عن مكانه، وهو فى أثناء ذلك يزعق مع الذى من ورائه لانه يزاحمه على محله . وتسمع فيما بين ذلك أصوات الاعراب هذا يقول : الحطب الحطب ، وآخر يقول : الما الما

وهكذا ، وماهم الا سارقون ما تصل اليه أيديهم، و يفرون من حيث لا يشعر بهم أحد .
و بالجملة فتستمر هذه الجلبة صاعدة فى هذا الفضاء الى عنان السماء نحو ساعة من الزمان ، أعنى ريثما ينزل الحجاج حولهم ، و ينصبون خيامهم ، و يمهدون فراشهم بين رحالهم ، و يحيطونها بشقادفهم التى تلتف بها جمالهم وجمّالتهم . وهنالك يبدأ هذا فى جلب الماء بنفسه أو بواسطة جمّاله، وآخر يستقضى الخشب، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الاغذية الجافة كالعدس والارز واللحم المجهز ، وذلك فى المحطات الصغيرة التى لا تطول الاقامة فيها، أما المحطات الكبيرة فيشترون منها اللحم الطرى الذى يذبحه بعض أعرابها، و بعد العشاء يشربون قهوتهم و ينامون بعد أن يعطوا الجمّالة عشاءهم . والرفقاء من الحجاج يتناوبون السهر على حراسة عفشهم ، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والانزعاج كقولهم ، « شايفك ، ابعد، لا تقرب » وهكذا . والحجاج يقضون حاجتهم بين رحالهم فى الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الأعراب ينقض عليه و يضربه فى رأسه بعصا يابسة قصيرة تخمد معها أنفاسه !! وهنالك يشلحه من ملابسه أو يكتفى بقطع كمره من حزامه أو من ذراعه . فاذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه إما فاقدا للحياة فيوارونه التراب على حاله !! واما فاقداً للشعور فيأخذونه و يقومون بشأنه ، وقليلا ما ينجو من هذه الضربة .
وعلى كل حال فالناس فى القافلة تراهم جلوساً قياماً نياماً مع ماشيتهم وخدمهم وجمالتهم وتبعهم بلا فارق بين الجميع ، بل ترى السيد على الدوام يبالغ فى السؤال عن خدمه والاهتمام بشأنهم حتى لكانه يتقرب بذلك منهم : وهنا تتحقق مسألة السادة الصوفية (سيد القوم خادمهم) .
وقد يقطع الجماله بعض الجمال من القافلة أثناء سيرها، و يتظاهرون باصلاح حمولها حتى اذا ابتعدت القافلة عنهم أوقعوا بركابها وهم يستغيثون ولا يغاثون ، وسلبوهم متاعهم ، وكثيرا ما يجهزون عليهم، و يفرون بجمالهم الى حيث أرادوا . والادهى من ذلك كله ما يهدد القافلة من خطر هجوم بعض القبائل التى فى طريقها عليها ، أو على الاقل وقوفهم فى وجهها فلا يدعونها تمر الا بعد أن يأخذوا منها ما يرضيهم باسم أجرة المرور فى أرضهم، و ربما كانت لهم مع المقوم

وكبار الجمالة مناقشات حقيقية أو ظاهرية تنتهى على الدوام باقناع المقوم لحجاجه باعطائهم مايطلبون .

وبالجملة فركب القوافل لا ضمانة له بالمرة ، وهو بين أيدى المقومين والمطوفين كالطيرة الضعيفة فى يد الطفل ان شاء أكرمها وان شاء أهال عليها المصائب والمتاعب من كل جهة ، لانهم طبعا فى هذا الفضاء ، أرباب الحكومة والقضاء . وهم الذين يفصلون فيما عسى أن يقع من الحجاج من الشغار أو الصغار الذى هو شأن الطبقة السافلة منهم على الدوام ، لاسيما صغار الحجاج المصريين الذين لا تسمع منهم على طول الطريق الا عبارات تافهة أو مشاجرات أساسها شئ لا قيمة له بالمرة ربما أدت الى أخذ البعض بخناق الآخر ، وذوو العصبية منهم هم الغالبون . أما اذا كان الشجار بين بعض الحجاج والجمالة ، فان كان الحاج ضعيفاً احتمل الاهانة لاول مرة ، والا دافع برفع لسانه ويده بسرعة يعقبها رد فعل بالاعتذار اليهم والاستكانة لهم ، ولا يعدم الحاج المتشاحن فى هذه الحال من اخوانه من يعنفه على شجاره مع الجمالة منتصرا اليهم لا بلسان الحق ولكن بعبارة الملق والمداهنة اللذين أساسهما الجبن والنفاق والعياذ بالله ، مما يجعل روح ذوى الاحساس الرقيق تتردد بين حناجرهم وخناصرهم !! واذاً فمن يريد بنفسه خيرا فعليه أن يصم أذنيه ويربط لسانه عن أمثال هذه المهاترة ، فترتاح روحه ويطمئن قلبه وان كان ضميره فى ألم مستمر .

وعلى كل حال فيجب أن يكون الناس فى طريق القافلة كلهم عيونا تحافظ على حياتهم ومتاعهم . وعندى أنه يجب على حجاج كل قافلة أن تكون لهم بصيرة على أنفسهم : فيرتبون أمورهم وينتخبون لقافلتهم رئيساً منهم قبل قيامهم من مكة . وهذا الرئيس يرتبهم فى خارجها فيعين منهم خفراء بالنوبة يقومون بحراسة القافلة فى أثناء سيرها وفى اقامتها . واذا حدث حادث فى القافلة أثناء المشى أوقف سيرها ونظر فيما فيه صالحها : وهذا أظنه أولى من تسليم زمام أمرهم الى مقومهم . وما على حكومة الحجاز اذا رتبت لكل قافلة خفراء من العسكر تقوم بحراستها فى نظير رسوم مخصوصة تتقاضاها من ركاب القوافل ؟ فذلك يكون فيه شئ من الضمان للحجاج ، اللهم الا اذا صادفوا منه ضغثاً على اباله .

من غص داوى بشرب الماء غصته * فكيف يصنع من قد غص بالماء

على أنا سمعنا ونحن نكتب هذه الكلمات أن حكومة الحجاز مهتمة بتسيير السكة الحديدية بين مكة وجدة . فاذا تحققت هذه الامنية سهل على الحجاج الطريق الى الحرمين الشريفين بواسطتها . وهنا نرجو من حكومة الحجاز أن لا تجعل هذه السكة ضيقة مثل السكة التى بين الشام والمدينة ، حتى لا تصادف شيئا يعوق سرعة سير القطارات عليها ، والله تعالى يوفقها بمنه وكرمه الى ما فيه الخير العام .

سفر الجناب العالى

من مكة الى الوجه

أمضى الجناب العالى بمكة يوم ١٤ ذى الحجة وهو يستقبل زواره ، و يفيض نضاره ، على البائسين والمحتاجين ، بعضهم بواسطة رجال المعية السنية ، و بعضهم بواسطة حضرة مأمور التكية الذى أحيل عليه البحث فى الالتماسات الخاصة بالمرتبات اليومية أو الشهرية .
و فى ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله فسارت حملة الحاشية الكريمة الى بحرة تحت قيادة حضرة الامير الاى على بك اسماعيل ومعها كثير من فقراء الحجاج المنقطعين مصريين وغير مصريين ممن صدرت الارادة السنية بتسفيرهم الى بلادهم بناء عن التماسهم على نفقة الخاصة الخديوية . ثم قامت فى عقبها حملة دولة الوالدة فوصلت حفظها الله بحرة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الغروب .

و بعد صلاة العشاء طاف الجناب العالى طواف الوداع ، و ركب سموه و فى ركابه الفخيم من بقى فى خدمته من رجال معيته ، و بمجرد ما خرج من باب مكة وجد دولة الشريف وحضرة وكيل الوالى وكثيرا من الاشراف والكبراء قد اجتمعوا لوداعه ، وساروا فى موكبه ساعة شاكرين له همته السامية ، وآدابه العالية ، مكررين آيات الثناء على فضائله

وفواضله . فشكرهم جنابه العالى مودعا . وسار و فى خدمته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة مكتوبجى الولاية والشريف ناصر الذى تعين من قبل الشرافة العظمى مهمندارا لجنابه السامى مدة وجوده فى أرض الحجاز ، و وصل ركابه العالى بسلامة الله الى بحرة فى منتصف الليل . وأمضى فيها يوم ٢٧ ديسمبر ، و بعد صلاة العشاء ركب الى جدة .

وكان حفظه الله كلما مر فى طول الطريق على طابية ، وجد عسكرها نزلوا من طوابيهم لأداء واجب التعظيم ، وضرب نفيرهم منبئا الطابية التى بعدها بقرب تشريفه اليها . ولما اقترب من جدة وجد سعادة قائمقامها وحضرة قومندان عساكرها مع كثير من أعيانها فى انتظار تشريف جنابه العالى ، وسار الكل فى ركابه حتى وصل الى سلم الكورنتينة فى نحو منتصف الليل . وهنالك سلم عليهم سموه شاكرا لهم عنايتهم وآدابهم ، و ركب الزورق البخارى الى وابور المحروسة مع بعض رجال معيته . وكانت دولة الوالدة قد سبقت اليه مع حاشيتها ، أما باقى رجال الحرس والمعية السنية فقد نزلوا الى وابور الرحمانية الذى كان فى انتظارهم .

و فى صباح يوم ٢٨ ديسمبر قابل الجناب الخديوى فى يخته أصحاب السيادة انجال الشريف وسعادة قائمقام جدة وحضرة قومندان عساكرها ، ثم قناصل الدول الموجودين فى هذا الثغر ، وكانوا قد أتوا بصفة رسمية لتوديع جنابه العالى ، فشكرهم سموه على آدابهم ، وأرسل تلغرافات الامتنان والشكران الى جلالة السلطان ، ومقام الصدارة العظمى ، ودولة الشريف ، وحكومة الحجاز ، على مالاقاه حفظه الله من كمال العناية منذ حضوره الى هذه الاراضى المقدسة . و فى هذه الاثناء كان ينظر حفظه الله فى أوراق حكومته التى أتت الى جدة مع آخر بريد . و بعد ان أصدر أوامره السنية فى الشؤون الهامة ، أمر حفظه الله فسارت مركب المحروسة وقت الظهر تماما قاصدة الوجه : وهى ميناء فى ساحل بلاد الحجاز على البحر الاحمر ، وتبعد عن جدة شمالا بمسافة ٢٤٠ ميلا فوصلها ركابه العالى ظهر يوم ٢٩ ديسمبر ، و فى يوم ٣٠ وصلت مركب الرحمانية ، وهنالك أخذ فى اجراء الاستعداد اللازم لسفر سموه براً من الوجه الى محطة البدايع للسفر منها الى المدينة المنورة بطريق السكة الحديد الحجازية .

الوجه والسفر منه الى المدينة المنورة

الوجه قرية على عرض ٢٦ درجة و ١٤ دقيقة وطول ٣٦ درجة و ٢٧ دقيقة ، وفيها نحو أربعين بيتاً صغيراً . وعدد أهلها لا يزيد عن خمسمائة نفس : كلهم تقريباً عائلة واحدة تسمى عائلة البديوى ، و يشرف على القرية تلة من ورائها ، عليها قلعة حصينة ، و فى هذه القرية على صغرها ثلاثة مساجد يقصدها فى أيام الجمعة كثير من العربان التى فى ضواحيها من قبيلة بلى . وكانت لقرية الوجه اهمية عندما كان يمر عليها ركب المحمل مدة سفره على البر : فقد كانت تنصب فيها الاسواق وتفرق فيها العوائد على العربان . أما الآن فحياة أهلها من صيد الاسماك وتجارة السمن والاصواف التى تأتى اليها من وراء الساحل والفحم الخشبي الذى يؤتى به من داخل البلاد . وأغلب تجارتها مع السويس ، ومنها تقوم اليه فى كل خمسة عشر يوما بوسطة على احدى مراكب الشركة الخديوية . ولما كانت الوجه محطاً لرحال المحمل المصرى وممرا للحجاج المصريين كانت ادارتها وما وليها شمالا من المويلح وضبا والعقبة فى يد الخديوية المصرية ، وكان يعين عليها محافظ من طرف حكومة مصر مع قاض للنظر فى الاحكام الشرعية ، وكان لها جند يحرسون الطرق ، حتى اذا انقطع الحج من هذا الطريق عادت ادارة هذه البلاد الى الدولة العلية .

ولقد كانت هذه القرية مدة وجود الجناب العالى بمياهها على أكمل ما يكون من معالم الافراح : فكنت ترى الرايات الحمر على بيوتها وعلى سوارى فلايكها ، والعلم العثمانى كان يخفق طول هذه المدة فوق قلعتها . و فى الليل كانت القرية تلوح كأنها الثريا زهاء و بهاء لمصابيح الزينة التى كانت على دورها ، وخصوصاً دار القائمقام والقلعة ، و بالجملة فقد كانت البلد فى حركة هائلة لم ترها طول عمرها .

ومن سنة ١٣٢٧ رجع المحمل المصرى الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدى من محطة العلا . وسبب ذلك تعرض عربان الدرب الطويل ودرب ينبع له

بغير حق . ولعلهم يرجعون عن غيهم فيعود الى مجراه الاصلى .

و فى يوم السبت الموافق آخر شهر ديسمبر نزل الجناب الخديوى الى البر ، وكان فى انتظاره حضرة قائمقام الوجه وسليمان باشا أبو رفادة شيخ قبائل بلى والمتعهد بحملة الركاب العالى ، فركب حفظه الله الهجن مع حاشيته وسار الى جهة الشرق فى ركب حافل من علية عربان هذه الجهة ، و فى مقدمتهم نحو خمسين نفراً من عرب عقيل على هجنهم (وهم جند للدوله من العرب مثل جنود البيشه) و فى أيديهم مزاريق مرفوع عليها العلم العثمانى ، وعلى رأسهم ضابط برتبة صاغ قول أغاسى ، وأمامهم فرقة منهم تضرب نوبتهم بالنقرزان (النقره زان) على طول الطريق . ومازال حفظه الله سائراً بموكبه و فى خدمته حضرة قائمقام الوجه و بعض مأمورى الدوله هناك فى واد يقال له أبو عرايش ، حتى وصلوا بعد مسيرة أربع ساعات ونصف الى ماء يسمى رأس حرامل ، وفيه مكان يسمى الرحبة . وقد كانت حملة الخيام سبقت اليه واستعدت فيه لقدومه الشريف ، فقصد سموه سرادقه ونزل من فى معيته كلٌّ الى خيمته .

أما دولة الوالدة حفظها الله فقد ركبت مع صاحبات السمو والعصمة كريمتى الجناب العالى ، ودولة البرنسيس فاطمة هانم افندى ، ودولة والدة البرنسيس نازلة هانم أفندى حليم و بعض حاشيتها ، عربات صنعت بصفة خصوصية للسير فى طرق الجبال يجر كل واحدة منها ثمانية من الجمال ، ومن ورائها تختروانات تحملها البغال ، على جملة اشكال ، حتى اذا تعبن من هذه استرحن فى تلك . وكان خلفهن هوادج لمن كان فى معيتهن من القلفوات ، يتلوهن باقى حملة الركاب الخديوى من حرس وخدم وحشم ، يتقدمهم رجال المعية السنية . ومازالت هذه الحملة سائرة حتى وصلت الى المكان الذى فيه المخيم الخديوى فى مسافة عشر ساعات .

و فى يوم أول يناير ركب سمو الجناب العالى بعد صلاة الفجر وسار بركبه فى وادى السير سيرْ حتى نزل فى مخيمه بوادى أبى الفزاز ، و به ماء يسمى باسمه ، ومسافة السير اليه على نحو اليوم السابق .

و فى هـذا الوادى يكثر شجر العِشار والشَّرَاة (نوع من السنط) والقُرَيْظة (نوع من الحلفـة يرتقع عنها وتأ كله الابل) والدوم والاراك (السواك) ، وكذلك يكثر فيـه نبات العوسج والخروع والضُرْمه (تشبه الحلفة الا انها قصيرة) والرَمْث (نبات كالشيح) والخِرْمة (مثل البتونيا) والسَيال والحنظل وله عنـدهم فوائد كثيرة وخصوصاً فى قطرانه الذى يستخرجونه منه . والعرب يدقون خشب السيال مع الحنظل و يعملون منـه شريطاً يضربون عليه بزنادهم فيورى ناراً ، وهم فى غنى به عن الكبريت .

و فى يوم ٢ يناير ركب الجناب العالى بعـد صلاة الفجر وسار بموكبه الى مكان يقال له مسيل النجد ، وفيـه ماء اسمه البَدا ، ومنه تبتدئ الارض فى الارتفاع نحو الشرق ، فنزل فيه حفظه الله وقطع اليه المسافة مع ركبه فى مثل الايام السابقـة . وقد وجـدنا هناك أورطة من سوارى الجيش العثمانى كانت قد أتت لحراسة جنابه الرفيع من قِبَل الدولة العلية ، وكانت تريد السفر الى الوجـه لانتظار سموه بها والسير فى ركابه العالى فـلم تتمكن ، لانها كانت تظن أن سموه يشرفها بعد هذا التاريخ .

و فى يوم ٣ يناير سار ركب الجناب العالى فى وادى النجد ، ومعه فرقة من خيالة الدولة حتى وصل الى خَشْم سِلْع ، فنزل به و بات فيـه مع باقى ركابه ، والمسافـة اليـه كالمسافات السابقة . و يكثر فى هـذا الوادى شجر العِشار والطَلْح (نوع من السنط) والماء فيـه قليل .

و فى صباح اليوم الرابع من يناير ركب حفظه الله بعـد صلاة الصبح وسار صاعداً من عقبـة سلع (و يسمونها البوق لانها على شكله) الى شرفـة النجد فى أرض صخرية يكثر مدرها ، و يضخم حجرها ، و يصعب السير فيها على الخيـل والبغال ، والحُمُر والجمال ، بل وعلى النساء والرجال ، حـتى ان أحـد سـوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فانقلب به وارتطم رأسه بحجر فانكسر وأخـذ الدم يتدفق من أم ناصيته ومن وجهه وأذنه ، بما فقد معه شعوره وكاد يموت حتف أنفـه ، لولا أن الدكتور الحسـنى طبيب الحرس الخـديوى كان قريباً منه ، فقذف بنفسه عن راحلته ، وتبعته باجزخانتى الخصوصـية فضمدنا

جراحه ، واشممناه بعض المنعشات التي أفاقتــه نوقته ، فركب جواده بين اخوانه الذين لاحقوا اليه، وهم شاكرون لرجال الجناب العالى عنايتهم به واستعدادهم لمثل هـذه الطوارئ ، ذاكرون لهم حسن خبرتهم وعالى هممهم .

ولقد شاهدت في الجبل الذي كان على يسارنا بعد مدخل البوق أثر كتابه بالخط الكوفى محفورة حفرا بسيطا في صخرة مشرفة على الطريق ، فرأيت منها هـذه الكلمات : « بسم الله ما شاء الله بسم الله . . . المستنصر بالله » وانى لا أدرى اذا كان ذلك كتب في مدة المستنصر بالله الفاطمى في مبدا النصف الثانى من القرن الخامس للهجره ، وقتما وقع بمصر ذلك الغلاء الفاحش الذي بلغ فيه ثمن الاردب القمح مائه وعشرين دينارا والذي أكل الناس فيه بعضهم بعضا . اذلا يبعد أن يكون هجرها في ذلك الوقت جماعة الى المدينة المنورة وساروا من هذا الطريق وقيدوا تاريخ مرورهم والاشارة لعلّة هجرتهم ، بذكر اسم الخليفة لذلك العهد . كما يصح ان يكون ذلك حصل في مدة المستنصر بالله العباسي الخليفة ببغداد في سنة ستمائة وثلاثين هجريه . على مدة الملك الكامل صاحب مصر . والذي خلف صلاح الدين الايوبي في محاربته للصليبيين : اذ لا يبعد أنه سيّر في هذا الطريق فرقه من عساكره لترود الطريق من الشام الى بيت الله الحرام . و بيت نبيه عليه الصلاة والسلام ، خصوصاً بعدما كان الافرنج قد ملكوا أيله (العقبة) ، واجلاهم عنها صلاح الدين في سنة ٥٦٦ ه و ربما كانت هذه المعثات هي التي سهلت طريق البر لحج شجرة الدر .

و بعد ذلك أخذ الوادى في الانعراج و رسم أمامنا قوسا حتى تخيلنا انه أقفل امامنا . ولم نزل سائرين فيه الى الشرق حتى وصلنا الى مدخل بين جبلين شاهقين أحمرين (لون كربونات الحديد) ، تتخللهما طبقات قاتمة سوداء أو صفراء ينقاد بعضهما مع بعض في موازاة واحدة في الجبلين بما يحكم معه الرائى لاول وهلة انهما جبل واحد قد تفرق عن بعضه بحادث طبيعى ، و يسمون سلسلة هذه الجبال حرّة العَوِيرقال الشاعر :

واشرق أجبال العوير بفاعل * اذا خبت النيران بالليل أوقدا

﴿ وقال أيضا ﴾

حتى وردن رَكِيّات العوير وقد * كاد المُلاء من الكتان تشتعل

والعوير احدى لابتي المدينة اللتين حرم عليه الصلاة والسلام ما بينهما فقال « حرام ما بين لابتيها » . وفي الصحاح « انهما حرتان تكتنفانها » . ويظهر أن نيران هذا الجبل البركاني كانت تظهر أحيانا من قبل وبعد الاسلام . والعرب تعرف ذلك كما قال القطامي في شعره السابق من قصيدة يمدح بها يزيد بن معاويه . ويسمون نارها نار الحجار وقد ورد ذكرها في الحديث الشريف .

وفي الظهر وصلنا الى رأس الحره . وهي قمة عالية سوداء تشرف على واد ضيق فرشت أرضه بحجارة صوانية حمراء وصفراء ، وفي جهته الشمالية ممر للسيول فيه بعض شجر الطرفاء ونبات الارطى « تأكله الابل » . ويكثر في هذا الوادي المعتران الذي يعطر بروائحه الزكيه . ومررنا سائرين في هذا الوادي الضيق ونحن في شدة من الحر حتى نزلنا منه الى واد متسع يسمى وادي الدهمث ، وليس فيه ماء ، ولكن يكثر فيه شجر العضاه وهو نوع من الطرفاء نادر شديد يضرب بها المثل . وصعدنا منه الى وادي بو بلي (أبي بلي) وهو واد حصباؤه كثيره ، ومدرانه كبيره ، وبلطه كالبطيخ في حجمه ، وفيه يكثر شجر الشراه والسنط . ومن هنا أخذ الطريق في العلو ، والجبال في الدنو . وقد ضرب لونها الاحمر الى السواد ، وأخذت تتجزأ الى اشلاء هرمية ذكرتنا بمصر التي تجلت صورتها الى أفئدتنا ونحن في سبيلنا الى الله تعالى ورسوله بأجمل صوره ، وأتم مثال '' وهل هي الا وطننا العزيز الذي بمحبته يكمل الايمان ، ويرضى الديان ، نعم ذكرنا هذا الوطن العزيز ونحن في ركاب مليكه ، وفي خدمة هذا الروح الامين الذي منه حياته وفيه خيراته ، وبركاته .

نعم ذكرناه في هذه القفار ، التي ترسل عليها الشمس شواظاً من نار يشوي وجوه السفار . نعم ذكرناه ، وذكرنا رياضه وغياضه ، ونحن نسير في أرض نبتها المدر ، وغرسها الحجر ، وثمرها الصخر ، وزهرها الوعر ، ومساكنها القفر ، ونسيمها

لهيب الجمر ! نعم ذكرنا مصر وذكرنا نيلها ، وظلالها ، وليس هناك ماء الا ماينصبب عرقا من جسومنا ، حتى لكأنها شماع باستور ، أو مرشح شوقى ، وليس من ظل الا ظل عوسجة أو طلحة يكاد يلتهب من شدة مايحيط به من الحرارة فى شهر يناير !! نعم ذكرنا مصرهنا وذكرنا أهلها ومافيهم من أخلاق قويمة ، وعواطف كريمة ، وسجايا سلمية ، وآداب لا يصل اليها الاعراب !!!

ومازلنا سائرين فى هذا الوادى حتى وصلنا الى مضيق دخلناه فوجدناه كثير التعاريج ، يلتوى بعضه على بعض كطريق الثعبان ، وأرضه غير معتدله ، وفيها ثنيات كثيرة ، صادفت العربات فيها مشقات كبيرة . وينتهى هذا الطريق بعقبة كئود صخرية فى أرضها نتوءات جمة يصعب السير فيها على كل من مر بها !! لذلك انتظر فيها الجناب العالى حفظه الله لمساعدة قافلة الركب الخديوى فى المرور منها ، وبحسن نظره الثاقب وهمته العلياء ، مر الركب جميعه منها على أحسن حال ، وسار الى مخيمه الذى نصب فى مكان اسمه النجوة وراء هذه العقبة التى تدَّعى قبيلة بلى أن جدها مدفون فيها .

وفى صباح يوم ٦ يناير ركب الجناب العالى وتبعته عربات دولة الوالدة وباقى حملة الركاب الخديوى ، وسار حفظه الله فى هذا الوادى الذى يسمونه وادى حلاوة . ومن هنا أخذت الجبال تتقطع أشلاء على جانبيه حتى انتهينا الى مفرق بين جبلين ، فصعدنا اليه بمنحدر رملى ميله يبلغ ٣٠ فى المائة ، ونزلنا من الجانب الآخر فى واد واسع أرضه رملية خشنة ذات لون أحمر . وما زال سائراً بهذا الوادى حتى نزل منه الى وادى العلا الذى يسير من الشمال الى الجنوب ، ويكثر فيه شجر الطرفاء ونبات الحَمْض (تأكله الابل) وان كانت أرضه مسبخة ، وفى وسطه محطة البدايع التى وصلها حفظه الله فى الساعة العاشرة صباحاً .

وكان فى انتظار ركابه العالى ، سعادة محاسبجى المدينة المنورة وحضرات مدير وخازندار الحرم الشريف ، والبكباشى فؤاد بك الذى تعين مهمنداراً لجنابه الفخيم ، وأصحاب السيادة الشريف شحات وكيل امارة مكة المنورة ، والشريف محسن والشيخ عبد الله شيخ ناحية العوالى ، والشيخ ابراهيم أسعد شيخ خطباء الحرم المدنى ، والسيد حسن أسعد ، والشيخ

يحيي الدفتردار امام الحرم الشريف ، وعزتلو حضرة صالح بك وكيل ادارة السكة الحديد الحجازية ، وحضرات قائمقام محطة العلا وشيخ عربانها وقاضيها وشيخ مشايخ عربان عنزة وشيوخها وشيخ قبيلة بنى سليم (من حرب) .

و بمجرد ماشرف الركاب العالى تقدموا جميعا نحو سموه بواجب التحية والتعظيم ، وهنئوا جنابه الفخيم ، بقدومه بسلامة الله . فشكرهم حفظه الله ، وسار معهم الى صيوانه الخصوصى . وكانت قد اصطفت على طريقه فرقة من الجند البيادة العثمانى وأمامها حضرات ضباطها لاداء واجب السلام . و بعد أن استراح جنابه العالى قليلا استقبل وفود المهنئين بما جبل عليه من اللطف والايناس ، فخرج الكل شاكرين ذاكرين ما القوه من آداب سموه .

وأمضى حفظه الله ذلك النهار بالبدايع بين تواردآى التهانى من كل جهة ، واصدار الاوامر بالاحسانات على فقراء هذه القبائل ، وخصوصاً من كان فى ركابه العالى منها ، كما أصدر أمره الكريم بتوزيع الكساوى على من كان فى خدمة الركاب الخديوى من الضاوية والسقائين والعكامة والفراشين والخيمية : و بالجملة فقد كان يوما كله حسنات ودعوات وابتهالات بحفظ جنابه الفخيم . و بعد ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله بسفر الحرس السوارى الخديوى و بعض بلوكات البيادة الى محطة العلا لانتظار عودة جنابه الرفيع بها ، كما أمر بتجهيز قطار مخصوص يقوم مساء ذلك اليوم الى المدينة المنورة بجانب من الحرس والخَدَمة و بعض رجال المعية السنية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة لنصبها فيها .

أما قطار الجناب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدايع صباح يوم ٧ يناير .

وما زال القطار الاول سائراً فى وادى الحمض حتى وصل صباحا الى محطة الجدّاعة وهناك استوقفه ناظرها ، لان السيول كانت قطعت جسر السكة على بعد ٢ كيلومتر منها . وقد أُخطر الجناب العالى تلغرافيا بهذا الحادث ، ولكنه حفظه الله بمجرد وصوله الى محطة هَدِيّة (قبيل الغروب) ، أوقف قطاره هناك ، وسار بالقاطرة الى محطة الجداعة التى تبعد عنها بنحو عشرين كيلومترا ، و بعد أن تقدم الى القطع و رآه بنفسه عاد قائلا (ليس من الممكن اتمامه قبل يومين) ، ولذا أمر سموه بتأخير القطار الاول الى

محطة هديه ليكون الكل فى حماه ، حفظه الله .

وهدية مكان به محطة مبنية بالحجر الاصم الازرق على شكل قلعة صغيرة فى محيطها مزاغل لتكون مكان دفاع للعمال ، وسط هذه الجبال ، اذا لزم الحال . وبجانبها بناء كبير عليه أحواض من الحديد لتستقى منها القطارات ، ويصعد الماء اليها بواسطة آلة رافعة تدار بالنزول (موتور) كما هو الشأن فى جميع المحطات الرئيسة فى هذا الخط . ومن خلف هذا البناء عشش بعضها بالحجر وبعضها بالطوب التى يسكنها عمال المحطة وبعض العساكر المحافظين على السكة الحديد . وعلى جانبى الطريق الحديدى ، فوق ذروة الجبل الشرقى والغربى ، قلعتان يصعد الى كل منهما فردة من عساكر الدولة لحماية المحطة ويقيم بها طول النهار ، وينزل فى المساء الى سكناه من هذه العشش . وهنالك يصنعون الخبز لانفسهم وقد رأيناهم يعملونه بحال نظيفة . وهو أشبه شىء بما كانوا يسمونه بالصامولى عند العساكر المصريه .

ولقد أمضينا جميعاً ليلتنا بعربات السكة الحديديه مشمولين برعاية الجناب العالى الخديوى حفظه الله . وما أسفرت شمس يوم ٨ يناير حتى أخذ الكل يستعد لهذا العيد السعيد ، الذى هو عيد مصر الحقيقى . ولكنه حفظه الله رأى عدم تكليف عبيده المخلصين بما لا تسعه حال هذه البادية ، وعندها أجمع الرأى بتكليف هذا العاجز بكتابة كلمة الخلاص رفعناها الى أعتابه السنيه وهاهى بنصها :

ولى النعمة ومليك الامة ،

انا نرجو أن يسمح لنا سيدنا ومولانا بان نردد فى هذا اليوم السعيد ، الذى هو عيد مصر والمصريين أكبر عيد ، صدى صوت رعيتك حينما كانوا أينما وجدوا ، فى ابتهالهم الى الله تعالى بحفظ شخصك المحبوب ، الذى استولى بفضله وكرمه على الارواح والقلوب . نعم نرفع لاعتابكم السنية ونحن هنا فى هذه البقعة الطاهرة ، بين يدى الله تعالى ورسوله ، ما تكنه ضمائرنا لذاتكم العلية ، من صادق الاخلاص والعبودية . نعم نرفع لسموكم ما بين جنوبنا من أفئدة كلها صدق وولاء لجنابكم العالى ، حتى اذا تشرفت بتقبيل الاعتاب الكريمة ، تضرعت الى الله تعالى بان يحفظ هذه الطلعة العباسية تاجا على مفرق الزمان ، وأن يجعل من فضلها

ونوالها نعمة فى عنق كل انسان .

مولاى ،

لقد بارحت دار ملكك ، وخرجت الى الله تعالى و رسوله ، فأبى الا أن يظلك السحاب فى هذه القفار ، وأن تغسل طريقك الامطار ، وتنبت مع خطاك حياة هذه الديار ، بعد أن قضت سبع سنين لا ضرع فيها ولا نبات : وهل هذا أيها العزيز الا برهان الله الاكبر بقبوله لك يوم رده لعباده ؟

و بعد أن أتممت حجك المبرور ، وسعيت سعيك المشكور ، يممت شطر رسول الله المصطفى . فعلوت متن البحار ، وامتطيت صعاب القفار ، ثم ركبت سنام البحار ، حتى اذا كنت على مرحلة منه صلى الله عليه وسلم ، أراد من فضله وكرمه ، ان يصنع لك فى حرم حمييه كما صنع لك فى حرمه : فانزل الغيث مدرارا ، وسير البحار أمطارا ، وأسال من سيولها أنهارا ، أوقفتك فى طريقك لحظة تشهد فيها سيل بلادك يسعى بين يديك ، ليروى بفيضه مواطئ أقدامك ، فى هذه البرارى التى يشهد أهلوها انهم لم يروا مثل سنتهم هذه فى خيرها و برها . وهل تريد يا مولاى دليلا غير هذا يعبر لك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بانك قدمت عليه وعلى قومه خير مقدم ، ونزلت منه فى المكان الاول المحترم ؟

وانا لنسأل الله تعالى بعد تمتعك بزيارة السيد المصطفى أن يردك الى بلادك ومن معك من آل بيتك الاكرمين فى أكمل صحة وأتم عافية ، تكلؤكم عين الله تعالى وترعاكم عين رسوله ، كما نرجوه جل شأنه أن يشكرك معنا على نعمتك التى نسير فى بحبوحتها ، وأن يحمدك على نوالك الذى نفيأ فى ظلاله ، وأن يجزيك عنا خير الجزاء .

وقضينا هذا اليوم المبارك فى وسط هذه الفلاة ، التى لم نر فى أرضها أثرا لدى حياة ، اللهم الا اعمال الطريق الحديدى . فيالله من هذه البلاد التى لا نرى بها من جنوبها الى شمالها ، ومن غربها الى شرقها ، غير صحراء حجرية ، وجبال صخرية ، ونجود رمليه ، واحقاف من بحار الرمال ، تسوخ فيها الاقدام كما تسوخ فى الماء ، لولا أنها تتخلص من هذا بسهولة ولا يدين لها على الحركة فى ذلك ! يا شكرا لك ربى وحمدا لك على نعمتك التى أنعمت بها على عبادك فى جميع



BOEHME & ANDERER CAIRO

الركب المدني وهو داخل المدينة في عودته من الحج

الاقطار والامصار ! فقد جعلت فى طبيعة أرضهم ما يكفل لهم حياتهم : فليس من أرض حتى فى منازل الثلوج ومراقد الجليد الا وفيها فصل ينبت فيه النبات ، ويقدم لاهلها شيئا من لوازم الحياة ، الا هذه الارض التى أسكنت فى جوفها من ذرية خليلك ، فاقام بها بيتك وقام بنوه بشرف خدمته ، فهوت اليهم قلوب زائريه من العرب الى أن أصبح يأتيه الناس من كل فج . حتى اذا أرسلت من ذريتهم الطاهرة ، وسلالتهم العاطرة ، نبيك الامين ، ورسولك الامىّ الذى هجر الى هذه الديار أهله ووطنه ، ليتمكن من القيام برسالتك ، والدعوة الى طريقتك ، ضرب الكفر ضربة لم تقم له بعدها قائمة . ونشر فى الناس هذا الدين القويم الذى أنقذهم من همجيتهم الاولى ، وفك ما كان فى رقابهم من سلاسل المظالم وما كان فى أرجلهم من قيود الذلة والهوان . وسار على أثره الشريف صحابته والقائمون بعدهم بخلافته : فتم شأن الاسلام واستولى المسلمون فى أقل من ربع قرن على ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، وبلغوا سويداء الهند ، ومجاهل افريقا ، وصحارى بلاد المغرب . وما زالوا كذلك حتى امتد ملكهم فى القرن الثانى من بلاد الصين شرقا ، الى مدينة بواتييه (Poitier) قرب باريس غربا . وبالجملة فقد جمعت حكومتهم بين دفتيها ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، والمصريين ، والاشوريين ، والبابليين ، والفنيقيين ، والقرطاجيين ، والبربر والفرنجة ، وغيرهم ، واستمرت دولتهم الطويلة العريضة نحو سبعمائة سنة وهى كالمشكاة تنير دياجير المعمورة بنبراس المدنية الصحيحة التى من أجل آثارها ـ وهو ما لا ينكره عليه اعداؤها ـ رقى الاخلاق والاخذ بناصر الفضيلة التى انما هى عمار الكون ، ونظام الوجود.

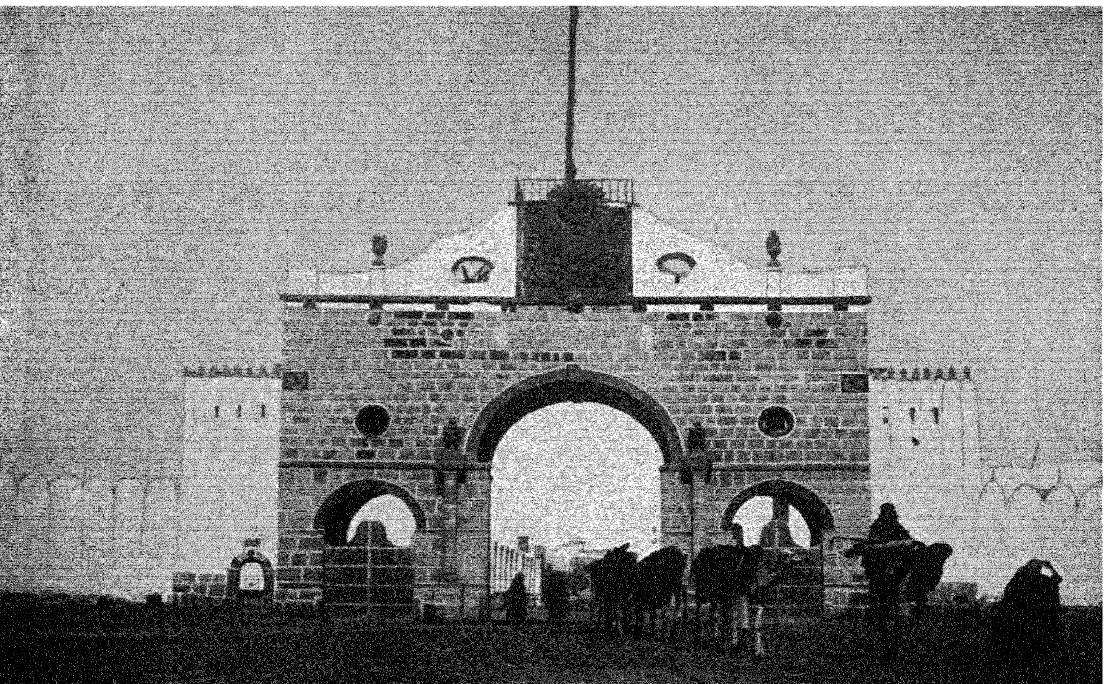
فيالله من كان يظن أن هذه الفيافى والقفار يخرج من جوفها هذا النور الذى أضاء الكائنات ، وتلك اليد القويه التى ضربت على أيدى المظالم التى كانت تسقطها الملوك على رؤوس رعاياهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فى القرون الوسطى ؟ من كان يظن أن أحقاف هذه الرمال ، وأجلاف تلكم الجبال ، تنشئ هذه المدنية التى يرفل فى بحبوحتها العالم أجمع ؟ هذه المدنية التى خدمت العلم خدمة تذكر فتشكر : نعم خدمت العلوم الطبية ، والكيماويه والطبيعية والفلكية والنباتية والرياضية ، حتى أن فرنسا كانت تستمد من مدرسيهم ، كما هو الحال فى

الممالك الشرقية الآن مع أوربا !! ولقـد بلغ من عمران الدولة العربيـة فى الشرق والغرب مالا يبلغه عمران أى دولة قبلها : انظر الى الامويين فى دمشق والاندلس ، والعباسيين فى بغـداد ، تر من رقيهم فى الصـناعات ومعارج العرفان مالا يغوى الا فرنج على انكاره ، ودونك كتاب مدنية العرب (Civilisation des Arabes) تأليف « جوستاف لوبون » فانك ترى فيـه المعجب والمطرب !! فهـل تريد بعـد ذلك كله برهانا على صحة دين الاسلام وحجة على حقيقة من اهتدينا بهديه وانتهجنا سبيله ؟

لذلك كان من اللياقة ، ان لم نقل من الواجب ، التوجـه لزيارة هـذا النبى المصطفى ، الذى قضى حياته جميعها فى سـبيل خدمة الانسانية العامة ، وانارة سبلها المدلهمة ، بمشكاة هذا الدين المتين ، دين الحرية ، دين الاخاء ، دين المساواة ، دين العدالة ، دين الفضيلة ، دين الحياة الصحيحة .

وفى ظهر اليوم التاسع من يناير وصـل الخبر باستعداد الخط . فأمر حفظه الله بتسيير القطار الاول فقام من محطة هَـدِيّة فى الساعة الثامنة عربى نهاراً ولما وصل محطة الجدّاعة (وهى فى الـكيلو ١١٥٦) سار الهوينا حتى غادر مكان القطع الذى كان طوله نحو الفى متر ، والذى أملت فى اصـلاحه عساكر الدولة التى استدعيت اليه من المدينة بلا ءيذكر فيشكر . ومياه هذا السيل كانت آتية من جبال الطائف ، مما يدل على كثرة الامطار التى نزلت فى تلك الجهة ، ونزل منها مجار كثيرة الى مكة والمدينة والى الطرق التى بينهما .

واستمر القطار سائراً فى وادى النعام الذى يبتدئ من محرى السيل ، ويكثر فيه شجر السنط ، ومر على محطة النعام ، ثم محطة عنتر وفيها قلعة قـديمة على قمة الجبل الغربى ، ولعلها كانت على طريق الحاج أيام سيره على البر . وهذا الجبل يسمونه أيضا جبل عنتر ، ولا أدرى لهذه التسمية من سبب ، غير أن ديار عبس كانت شمال المدينة مع شرق ، وربما كان هـذا الوادى من منازلهـا أوكان لهـا فيه واقعة باسم بطلها المشهور الذى مات قبيل الاسلام . وكان عليـه الصلاة والسلام يسر بحديث الناس فى سيرته . ومازال القطار سائراً حتى وصل الى محطة الحفـيرة والقى عصا التسيار للمبيت بها .



باب العنبرية (الباب الرشادي) بالمدينة المنورة

أما الجناب العالى فقد بات فى المحطة التى قبلها وتسمى محطة البوير.

والمحطات من هدية الى المدينة المنورة لم تكمل عملية البناء بها ، وكان العمل فيها جاريا على قدم وساق ، وكان يعمل فيها كثير من المصريين وأغلبهم من مديرية قنا وجرجا ، وهم فى شدة الفرح بمقدم ماليكهم المحبوب . وكانت العساكر على طول السكة الحديدية يقفون فى كل محطة لاداء واجب التعظيم للجناب العالى الخديوى من البدايع الى المدينة . وقد كان عدد العساكر بهذا الخط قبل تشريف الركاب العالى ثلاث أورط عثمانية للمحافظة عليه ، فزادوا عليها أربع أورط قبل تشريفه أيضاً للمحافظة على ركابه الفخيم ، فكنت تراهم منتشرين هنا وهناك وفوق الجبال على طول السكة .

ومازلنا حتى مررنا على القطع الثانى الذى كانت أحدثته السيول فى الحسر قبيل المدينة المنورة بنحو خمسة كيلومترات . وهناك شاهدنا قبة سيدنا حمزة رضى الله عنه ، ثم أهله مآذن الحرم الشريف . وعندها أخذت الاعناق تتطاول ، والابصار تتجاول ، فى هاتيك الارجاء ، مستطلعة أنوار القبة الخضراء . حتى اذا تجلت لنا بفخامتها امتلأت القلوب افراحاً ، والصدور انشراحاً ، والعيون قرة ، والافئدة مسرة ، وراوات الارواح أن تخرج عن نظامها ، وتطير من جسومها ، الى نور الانوار ، وسيد الابرار ، ومصدر سعادة العالمين فى جميع الامصار ، لولا أن الجسوم كانت تتعلق بها ، ناهضة بركابها ، ضاربه آباط وابورها ، مهللة ، مكبرة ، داعية ، ملبية .

نعم نعم كنت ترى الارواح ترفرف بظروفها ، والقلوب تزحف فى تجاويفها ، لتسبق الركاب ، الى ذلك الجناب . وهنالك كنت ترى نفس الجنان ، وحقيقة الوجدان ، يتطايران ، من أطراف اللسان ، فى صورة تحيات خالصات ، وتسليمات سنيات ، الى سيد الكائنات . وجميع الحواس متهيئة الى التمتع بهذه المنة الكبرى ، والنعمة العظمى ، والعين تفتخر عليها بشرف سبقها الى هذه السعادة التى لا نهاية لها ، ممتنة عليها بانها هى التى زفت اليها بشرى الوصول ، الى غاية المأمول .

ومازال القطار حتى دخل بين بساتين المدينة ونخيلها الغربية . وأخذ يسير بنا الهوينا حتى وصلنا الى محطة المدينة المنورة فى الساعة الخامسة عربى نهاراً . وكان العدد الجم من الاهالى

نساء و رجالا على جانبي الطريق الحديدى الى المحطة التى اكتظت ساحتها بوفود الناس على اختلاف طبقاتهم، و فى مقدمتهم سعادة على رضا باشا محافظ المدينة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها ، ومعه كثير من المأمورين العسكريين والملكيين الذين كانوا يقومون بأمر النظام العام استعداداً لمقدم الجناب العالى الخديوى . وكانت عِلْيَةُ القوم على رصيف المحطة يتقدمهم حضرات شيخ الحرم ونائبه ونقيب الاشراف وصاحبا الفضيلة قاضي ومفتي المدينة .

و فى الساعة السادسة تماما ضربت المدافع ايذانا بوصول الركاب العالى فتشارفت الاعناق، وتمادت القامات، لمشاهدة القطار من بعد ، ومازالت الابصار تلمحه حتى وقف فى رحبة المحطة (لان رصيفها ما كان كمل بناؤه) . وهنالك صعد سعادة المحافظ الى صالون الوابور لتأدية واجب الاعظام ، وتبليغ جنابه العالى سلام الدولة العلية ، وتهانى الحكومة المحلية . ثم صعد شيخ الحرم ونقيب الاشراف ، و بعد واجب السلام نزل حفظه الله من القطار ، وسلم على أعيان المدينة الذين قدمهم حضرة المحافظ الى جنابه العالى واحداً بعد الآخر ، وسار ومن خلفه سعادة المحافظ ودولة الرئيس كمال الدين و رجال معيته السنية يتلوهم شيخ الحرم وأعيان المدينة المنورة بين صفوف العساكر التى كانت تؤدى التعظيم ، وموسيقاها تضرب السلام الخديوى ، فدخلوا من باب العنبرية : وهو باب عال مشيد يبلغ ارتفاعه نحو عشرين مترا منقوش بالليقة الذهبية و يسمونه الآن بالباب الرشادى تيمنا باسم صاحب الخلافة العظمى . ومازال الكل سائراً حتى وصلوا الى الصيوان الخصوصى الخديوى الذى كان قد نصب فى مقدمة خيام حاشيته الكريمة داخل سور المدينة الكبير . فاستقبلهم جنابه العالى بكرمه وايناسه ، كما استقبلوه بصنوف تحياتهم وتهانيهم . ولقد كان الصيوان الخديوى حافلا بكبراء القوم ، وكانت رؤساء المعية السنية يقدمون اليهم كل ما فيه راحتهم . وهنالك قام الشعراء والخطباء، هؤلاء يرتلون آى الثناء والدعاء ، وأولئك يصوغون التهانى ، فى اسلاك المثالث والمثانى ، حتى كان يخيل الينا أننا بين وفود العرب على الرشيد ، فى يوم عيد . ومما يذكر من آداب القوم أنهم لما فرقت عليهم السيكارات أكبروا المقام على التدخين ، و بعد ساعة انصرفوا شاكرين ، و بكرم الجناب الخديوى متحدثين .



BOEHME & ANDERER CAIRO

استقبال الجناب العالى الخديوى بمحطة السكة الحديد بالمدينة المنورة

الجناب العالى الخديوى بالمدينة المنورة

لما استراح الجناب العالى من عناء السفر ، امتطى صهوة جواده بعد صلاة العصر ، وقصد الحرم الشريف لاداء واجب الزيارة ، ومعه دولة البرنس وفضيلة الاستاذ المفتى وسعادة محرم باشا و بعض رجال المعية السنية . فدخل حفظه الله من باب السلام ، و بعد تأدية الزيارة وصلاة المغرب بالحرم الشريف ، أدى واجب الخدمة بالمقصورة الشريفة ، ثم قصد زيارة دولة الوالدة وكانت اقامتها مدة وجودها بالمدينة فى بيت شيخ الحرم ، الذى هو دار عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ثم عاد حفظه الله الى مقامه فى معسكره .

وقد كنت توجهت الى الحرم مع بعض اخوانى من المعية السنية ، وكان يبعد عن مخيمنا الذى كان بجوار باب العنبرية بنحو ثلث ساعة سيراً على القدم . فدخلنا كالعادة من باب السلام ، وصلينا ركعتين فى الروضة الشريفة تحية للمسجد ، ثم خرجنا الى الرواق القبلى واتجهنا الى المقصورة الشريفة ، وتمثلنا بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة امام أول باب منها ، تجاه مسمار من الفضة جُعل فى مقابلة الكوكب الدرى الذى وضع فيما يحاذى الوجه الشريف . هنالك وقفت النفس بالمركز الذى ينبغى لها تلقاء هذا الجلال وهذه العظمة : فكنت ترى الروح بمجموعه ، والقلب بخشوعه ، والطرف بدموعه ، واللسان بخضوعه ، ترفع عبارات السلام ، الى سُدّة سيد الانام . و بعد أن دعونا الله بما شاء الله ، انتقلنا الى مقام سيدنا أبى بكر بالشباك الذى يليه ، فسلمنا ودعونا . ثم انتقلنا الى مقام عمر بجواره ، فسلمنا ودعونا . ثم اتجهنا الى حائط المقصورة الشرقى ووقفنا بباب فاطمة ، فسلمنا ودعونا . ولست فى حاجة لان أردد القول بان جلالة المكين ، وفخامة المكان ، لهما على الانسان ، مهما كان تأثير يقف به فى موقف الخاضع الخاشع !! وعلى كل حال فالكل يرى نفسه فى موقفه هذا قد وصل الى غايته ، و بلغ منتهى سعادته .

وكان الجناب العالى مدة وجوده بالمدينة المنورة يكثر من الصلاة فى الحرم ، ولا اذكر أنه

انقطع عنه فى صلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء . وكان حفظه الله يؤدى شرف (١) خدمة اسراج القناديل فى الحجرة الشريفة مساء، واطفائها صباحا، طول مدة الاقامة بها . ولقد سعدنا بالدخول فى معيته السنية الى هذه المأمورية الشريفة غير مرة : فكنا قبل صلاة المغرب نلبس فروجيات بيضاء، ونشد عليها أحزمة، ونلف على رؤوسنا عمامة على نظام خدمة الحجرة، ثم نتشرف بالدخول، من باب البتول، وبعد مرورنا على حرم السيدة الزهراء ندخل من باب فى غربه الى الحجرة الشريفة بقدم متلمس، وطرف منخفض، وقلب خافق، وفؤاد مضطرب، ومثال متأدب، ووجدان متغلب، وروح ينكمش خضوعا، ونفس تذوب خشوعا، وحشاشة تتصبب دموعا، وألباب ترفع لاعتاب ذلك الجناب، آيات السلام، بكل اجلال واعظام . وبعد تأدية ما يسره الله تعالى من شرف الخدمة، نخرج من باب فى الجهة الشرقية، الى حجرة السيدة فاطمة رضى الله عنها، وبعد أن نقرأ ما تيسر من القرآن نبارح المكان، والجنان واللسان، لا يستطيعان تصوير ما كان . وغاية ما كنا نشعر به عقب هذه الزيارة، انما هو قوة تجددت فى روحنا الذى امتلأ سرورا وحبورا، وراحة تمددت فى وجودنا كنا نرى فيها كل يمن وسعادة .

وفى يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر فى الحرم الشريف، أدى الجناب العالى خدمته بالحجرة الشريفة، ثم قصد زيارة البقيع وهو مقبرة المدينة، فابتدأ بزيارة قبة سيدنا عثمان بن عفان وهى فى الشرق، ثم قبة سيدنا الامام مالك وهى فى وسطها، ثم قبة سيدنا ابراهيم ابن النبي صلى الله عليهما وسلم، ثم قبة زوجات الرسول عليهن رضوان الله، ثم قبة (٢) سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن على فى الزاوية القبلية الغربية بالبقيع، وهى أفخم القباب الموجودة

(١) هذه الخدمة يقوم بها الامراء والعظماء وغيرهم من أعيان المسلمين في زيارتهم للرسول عليه الصلاة والسلام . ولا تكون الا بتصريح من شيخ الفراشة النبوية الذي يصدر فرمانا لمن يتشرف بالانتظام في سلك هذه الخدمة . ومن عادة هؤلاء الامراء ان ينيبوا عنهم في أثناء المدة التي يكونون بعيدين فيها عن المدينة أناساً من أهلها يقومون بادائها عنهم في مقابل مرتب يرسلونه اليهم سنويا .

(٢) بجوار هذه القبة قبر بطل القوقاز الشيخ شامل الذى توفى سنة ١٢٨٨هـ .



باب السلام بالحرم المدني

به، ومقصورة سيدنا الحسن فيها فخيمة جداً : وهى من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية، وأظن أنها من عمل الشيعة الاعجام . ثم زار حفظه الله كثيرا من قبور الصحابه والتابعين والصالحين . و بعد الظهر زار التكية المصرية وأثنى على مأمورها لما رآه من حسن نظامها، ثم ركب حفظه الله وقصد دار الحكومة العثمانية ليرد الزيارة الى سعادة محافظها، فاستقبل بما يليق بمقامه العالى من مظاهر الاجلال والاعظام .

وفى يوم الاربعاء بعد صلاة الفجر واداء الخدمة فى الحجرة الشريفة، قصد الجناب العالى زيارة مسجد قُباء مع بعض رجال معيته السنية ، ثم عاد حفظه الله قبيل الظهر الى المسجد الشريف ، وصلى الظهر فيه ، ثم رجع الى مخيمه وأمضى بقية النهار فى استقبال زائريه من رؤساء المدينة وأعيانها .

وفى يوم الخميس أدى الخدمة على حسب عادته، ثم قصد زيارة سيد الشهداء حمزه ، وكان السيل قد قطع طريقه على زائريه ، ولكن ذلك لم يوقف همة جنابه العالى عن قصد عزيمته . فدفع بجواده فى الماء الذى كان على ارتفاع نحو متر، قاصداً عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحظى بزيارته، و وصل الى معيته، ولا عجب فعزائم الملوك ملوك العزائم .

و فى يوم الجمعة بعد اداء جنابه السامى خدمته بالحجرة الشريفة صباحا رجع الى المعسكر الخديوى، واستمر الى قبيل الظهر فى استقبال زائريه، ثم قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة. و بعدها زار دولة الوالدة . ثم قصد منزله الشريف وأمضى يومه فى توزيع الصدقات ، واسداء الاحسانات ، والنظر فى ترتيب المرتبات ، لذوى الحاجات ، من أهل المدينة والمجاورين، مصريين وغير مصريين . وكان فى اثناء ذلك يصدر أوامره الكريمة بتجهيز حملة ركابه العالى للسفر الى تبوك فى اليوم التالى . و بالجملة فقد كان حفظه الله مدة اقامته بالمدينة محط الآمال، ومكان الاعظام والاجلال ، من جميع الطبقات، وكانت موسيقى المحافظه الحربية تحضر يومياً نهاراً وليلا أمام الصيوان الخديوى وتشنف الاسماع بنغماتها الشجية .

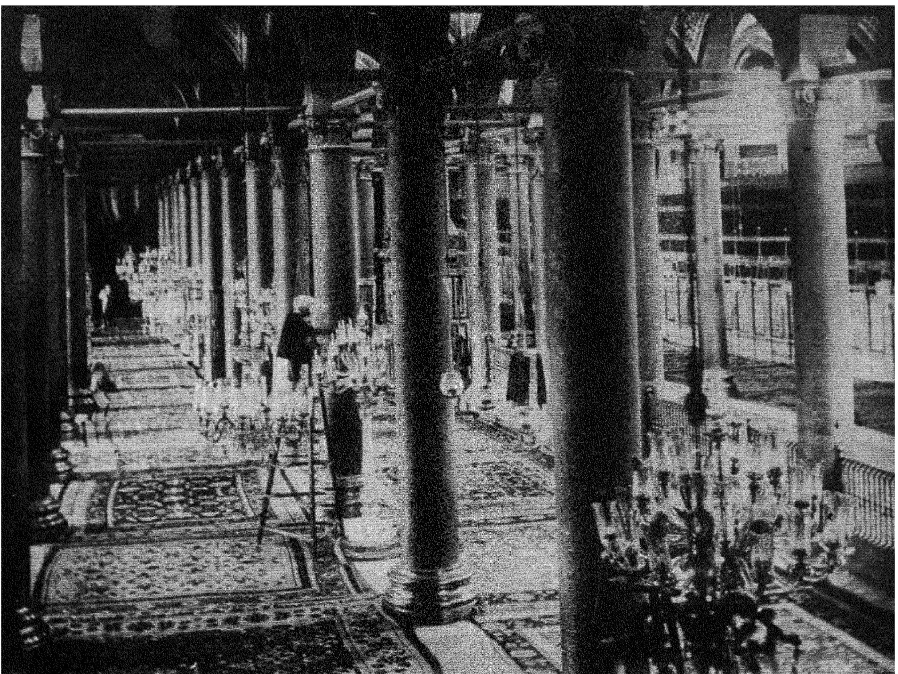
—— ⁘ ——

الحرم المدنى

الحرم المدنى وهو مسجد النبى صلى الله عليه وسلم، واقع فى وسط المدينة يميل الى الشرق، وهو لطيف الشكل، جميل المنظر، على هيئة مستطيل، متوسط طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر متراً وربع، وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون متراً وخمسة وثلاثون سنتيمتراً، ومن جهة الباب الشامى ستة وستون متراً. وينقسم فى وضعه الى قسمين المسجد والصحن: والمسجد يبتدئ من قبلة عثمان، أعنى من الحائط القبلى الى الصحن من جهة، وفى طول ما بين باب الرحمة وباب النساء من جهة أخرى. وهذا القسم جميعه مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب. والقسم الثانى وهو الصحن، ويسمونه الحصوة، شكله مستطيل الى الباب الشامى ويحيط به من جهاته الثلاث، أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل أقواسا رفعت عليها قباب تناطح السحاب!

وعدد جميع أعمدة الحرم الشريف بما فيها الملتصقة بحوائطه يبلغ ثلثمائة وسبعة وعشرين عموداً، منها ٢٢ داخل المقصورة الشريفة. وفى مدخل الباب الشامى للمدرسة الحميدية، وفيها كتابان لتعليم القرآن على الطريقة القديمة فى ريف مصر، غير أن القرآن لا يحفظ فيها عن ظهر قلب بأجمعه(١). ويوجد فى الدور الثانى كتاب يقال انه يدرس فيه غير القرآن المجيد شئ من الحساب. ولهذا المدخل باب للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل. والى جانبه فى جهة الغرب محل للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف، وفيه ميضاتهم وامكنة راحتهم. والى جواره مخزن الزيت المخصص لتنوير الحرم، ثم باب لمدرسة (على

(١) لا يوجد فى بلاد العالم الاسلامي من يحفظ القرآن بأجمعه عن ظهر قلب الا مسلمو مصر، ويليهم أهل المغرب، أما باقي الجهات الاخري فيقرءونه علنا في المصاحف. وتمتاز فقهاء مصر بحسن الترتيل: لذلك تراهم ملحوظين بعين الاحترام اذا شخصوا للاد غير بلادهم، وخصوصا فى الآستانة.



الروضة الشريفة وما يليها غرباً من الحرم النبوي

ما أظن)، وهذه الابواب الثلاثة فى الرواق الشمالى . وفى وسط الصحن يميل الى الشرق حظيرة صغيرة سُوّرت بدر بزين من الحديد ، وفيها بعض نخل صغير نبَت حول نخلة عالية يقال انها أثر نخلة كانت فى هذا المكان للسيدة فاطمة رضى الله عنها . وقبلى هذه الحظيرة بئر ماؤها الذيذ اسمها بئر النبي و بعضهم يسميها زمزم المدينة . ومن وراء هذه الحظيرة اقيمت شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقى عملت فى عمارة السلطان عبد المجيد، اشارة الى أنه مخصص (١) للنساء، ففيه صلاتهن واقامتهن فى الحرم . وفى جنوب هذا الرواق دكة للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف : وهى مصطبة مسطحها نحو ١٢ مترا طولا فى ٨ متر عرضاً وترتفع عن الارض بمسافه نحو أربعين سانتى متر ، وكانت فى عهده صلى الله عليه وسلم مكانا لاهل الصفة (٢) وهم قوم من العفاة والمتقاعدين كان يصرف اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما كان يقوم بحياتهم من غذاء وكساء، وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى رضى الله عنهما . وتجاه هذه الدكة من الجنوب دكة أخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال، وكان يتهجد فى مكانها النبي صلى الله عليه وسلم . ويفصل بين الدكتين طريق الى باب جبريل شرقا ، وعلى يمين الداخل منه دكة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم ، والى جوارها مخزن خاص بالمقصورة الشريفة التى توجد فى الجهة القبلية الشرقية من الحرم .

والروضة الشريفة فى غرب المقصورة الشريفة : وهى مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله « ما بين قبرى (٣) ومنبرى روضة من رياض الجنة » وهى تبلغ ٢٢ متراً طولا فى نحو ١٥ عرضاً . ويفصل الروضة عن زيادتى عمر وعثمان اللتين فى جنوبها ، درابزين من النحاس الاصفر ارتفاعه نحو متر .

والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانها . وفيها مما يلى هذا الدرابزين

(١) ربما كانت هذه الجهة مخصصة لصلاة النساء من صدر الاسلام يؤيده تسمية الباب الموصل اليها بباب النساء من زمن بعيد .

(٢) وكان بالمدينة غير الصفة دار تسمى دار القرى أو دار المضيف كانت توجد فى الجنوب الغربي للمسجد وكانت مخصصة أيامه صلى الله عليه وسلم لنزول ضيوفه اليها .

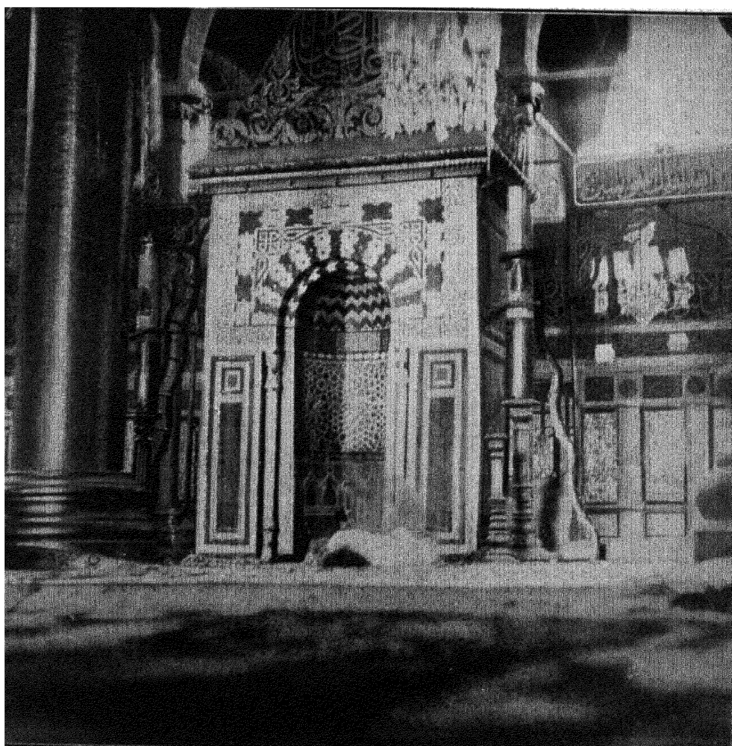
(٣) وفى رواية أخرى : ما بين بيتي ومنبري الخ

ربعات قرآنية كثيرة، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم، منها ماهو بحرف الطبع، ومنها ماهو بخط اليد الجميل، والى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات، وكل ذلك موقوف عليها للقارئين من الزوار. وفى غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم، وهى آية من آيات الله فى كمال بهجتها، وجمال صنعتها، وهى على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة الى الكعبة المكرمة. والى غرب القبلة المنبر الشريف (١) وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية فى الجمال ودقة الصناعة، ارسل هدية من السلطان مراد الثالث العثمانى الى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة، فوضع فى مكان المنبر الذى كان به لقايتباى، وهو نفس المكان الذى كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومما ينبغى الاشارة اليه أنا صلينا الجمعة فى المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والتحية، وكان الزحام شديداً، وبعد أن زار الخطيب المقصورة الشريفة واستأذن للخطبة، من الحضرة النبوية، على حسب عادتهم حضر لابساً قاووقا يسمونه كودابان (٢)، تحف به الاعاوات من كل جانب، ثم صعد المنبر ومال الى جهة اليمين أعنى الى المقام الاشرف الاقدس النبوى، وبعد أن سلم بغاية الادب، حمد الله وجعل خطبته كلها مبنية على سرد كثير من الاحاديث الشريفة فى موضوع الحج والزيارة، وضرورة ...

(١) وكان صلى الله عليه وسلم يخطب على جذع نخلة، ثم عمل له منبر من خشب الاثل مركب من ثلاث درجات أوأربع ووضع في مكان الجذع الذى دفن فى شرق المكان الذي كان فيه حذاء عمود القبلة العربي. وكان معاوية أضاف درجتين على هذا المنبر فأحرق في حريق المسجد الاول الذي حصل في سنة ٦٥٦هـ، ومابقي منه وضع في صندوق ودفن في جوار الجذع، ووضع مكانه منبر من عمل الملك المظفر صاحب اليمن، ثم استبدله بغيره الظاهر بيبرس، ثم غيره الملك المؤيد بآخر أحرق في الحريق الثانى سنة ٨٨٦ هـ، وعمل بدله الملك قايتباى المنبر الذي نقل الى مسجد قباء (ولا يزال به الي الآن) بعد ان استبدلوه بالمنبر الحالى

(٢) وقد رأيت الخطيب فى المسجد الاقصى يلبس مثل هذا القاووق فى الخطبة وهو من لباس القرن العاشر الهجرى فى الدولة التركية.



BOEHME & ANDERER, CAIRO

القبلة النبوية بالروضة الشريفة

توحيد القلوب ، وتقوية الوصلة والرابطة بين أفراد المسلمين . وكان يستند فى نصائحه على أحاديث نبوية : فكان يقول مثلا ورد عن فلان عن فلان عن نبيكم هذا ، ويشير بيده الى الحجرة الشريفة ، ثم يسرد الحديث فكان لخطبته تأثير على القلوب لا يمكن تكييفه ولا توصيفه

ويوجد بالحرم النبوى للخدمة فيه نحو ألف نفس منهم ٤٦ خطيباً ، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة فى السنة ، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه ولهم وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب ، و ٣٨ اماما ، و ٦٢ مساعد امام يتناوبون الامامة فى الصلاة ، و ٥٠ مؤذنا ، و ٢٦ مساعد مؤذن ، و ٥١ كناسا ، و ١١ بوابا ، و ٢٦ صائغا وحاجبا وخياطا وخلافهم ، و ١٠ سقائين ، و ٤ ملائين ، و ٥٧٠ لغسيل وتنظيف وتعبئة قناديل الحرم . أما الذين يقومون بحراسة الحجرة الشريفة والخدمة فيها فهم الاغاوات ، وأول من رتبهم للخدمة نور الدين الشهيد ، وكانوا اثنى عشر ، واشترط أن يكونوا من حملة القرآن الكريم وحفظته ، وجعل عليهم شيخاً منهم ، وزادهم يوسف صلاح الدين الايوبى اثنى عشر آخرين . ومن ثم أخذت الملوك والسلاطين تزيد فى عددهم الى الآن ، وقد وصل عددهم فى بعض الازمان الى أكثر من مائة شخص ، ولهم أوقاف مخصوصة ومرتبات تأتيهم سنويا من الاستانة وغيرها . ولهم دور بالمدينة يسكنون بها . وأغلب خدمة الحرم الشريف من غير مرتبات ويعيشون من خيرات ذوى البر والاحسان . والقاعدة فى خدمة الحرم الشريف : أن من يموت منهم توزع وظيفته ومرتبه على أولاده جميعاً : فاذا مات الخطيب مثلا وكان مرتبه مائة قرش تعين بنوه فى مركزه ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه أكبرهم وهكذا فى الخدمة : لذلك ترى مرتبات الكل غير كافية بمعاشهم .

والحرم مفروش بانواع السجاد العجمى الثمين ، وفيه شىء كثير من الاسطة المصنوعة بفوريقة هركه الشهيرة ، وخصوصاً فى الروضة الشريفة . وبالجملة فهو آية من آيات الله فى نظافته ، ولطافته ، وحسن بهائه ورونقه ، حتى أن الذى يدخله لا يود أن يبارحه مطلقاً .

وله خمسة أبواب : باب السلام ، وباب الرحمة فى الغرب ، والباب المجيدى فى الشمال ، وباب النساء ، وباب جبريل (أو باب البقيع) فى الشرق . وتقفل هذه الابواب

كلها بعد صلاة العشاء الى قبيل الفجر ، وهى سنة من عهد عمر رضى الله عنه . و يوجد بجوار باب الرحمة و باب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد الحميد كما توجد أمكنة للحاجة على بعد منها .

﴿ أصل الحرم المدنى وعمارته والزيادة فيه ﴾

الحرم الشريف يحتوى الآن على منسجده صلى الله عليه وسلم ، وعلى بيت عائشة التى دخل عليها فيه فى الشهر السابع للهجرة ، وعلى حجرات زوجاته رضى الله عنهن ، مع الزيادة التى زيدت فيه . وكان يحيط بمسجده الشريف فى مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجاته وأصحابه رضى الله عنهم ، فكانت مساكن أزواجه فى الجهة الجنوبية و فى بعض الشرقية من الحرم ، وكان يفصل بينه و بينها طريق عرضه خمسة أذرع .

وكانت دار أبى أيوب الانصارى ، ودار عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، جهة الشرق ، ولا تزالان موجودتان الى الآن ، وان كانت صورتهما قد اختلفت عما كانت عليه فى صدر الاسلام . و فى زاوية دار عثمان المداخلة للحرم الشريف حجرة فيها شباك عليه لوحة من الخارج مكتوب فيها (مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه) و يسكن شيخ الحرم عادة فى هذه الدار .

وكانت منازل آل عمر رضى الله عنهم الى جنوب المسجد الشريف و يوجد الى الآن بستان ملاصق للحرم فى اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعل حرماله ، و به باب فى خارجه مكتوب عليه (ديار آل عمر) . وكان بجوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دار مروان بن الحكم وكانت على يمين الداخل من باب السلام . وكان فى غرب المسجد دار أبى بكر رضى الله عنه ، والى جوارها شمالا مما يلى باب الرحمة دار عبد الرحمن ابن عوف . وهذه الدور كانت لها فتحات على المسجد ، فرأى صلى الله عليه وسلم أن يسدها فقال (لا يبقين فى المسجد خوخة الا خوخة أبى بكر) فسدت جميعها الا خوخته رضى الله عنه : ولا يزال فى جدار المسجد شمال باب السلام باب صغير (لمخزن تجاه المقصورة

باب السلام
محراب عثمان
المقصورة الشريفة
المحراب النبوي
المنبر
الروضة الشريفة
دكة
باب جبريل
طريق البقيع
باب النساء
حد المسجد النبوي
الحصوة
بستان السيدة فاطمة
زيادة عمر
زيادة عثمان
زيادة الوليد
الباب المجيدي



الشريفة) يمثل هذه الخوخة، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها الحديث المذكور بخط غاية فى الجمال .

وأول من جدد فى عمارة المسجد النبوى عمر رضى الله عنه ، فبنى حوائطه وغير بعض أساطينه ووسع فيه قليلا . أما عثمان فقد زاد فيه الى قبلته الجنوبية وبناه بالجص والحجارة، وفى سنة ثمان وثمانين أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز فزاد فى المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وأدخل فيه حجرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء (الموزاييك) وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر ، ثم زاد فيه المهدى العباسى سنة مائة وستين ، وقام بعمارته أحسن قيام . ثم عمره الخليفة المستعصم ، ثم الظاهر بيبرس . وفى سنة ثمان وسبعين وستمائة أقام الناصر قلاوون قبة الحجرة الشريفة ، ولم يكن لها قبة قبل ذلك . ثم عمره الاشرف برسباى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة . ثم الظاهر برقوق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . وفى سنة ست وثمانين وثمانمائة انقضت صاعقة على المسجد فأحرقته جميعه بحال مريعة لم ير الراءون مثلها ، ولم يمكن أهل المدينة أن يقوموا فى وجه النار التى لم تكن تبقى على شىء فى طريقها ، الا أنها لم تمس الحجرة الشريفة بشىء بالمرة ! ! وبمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباى ملك مصر ، أمر فى الحال بأن ينقل الى المدينة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون فى الحرم المكى ، ومازالوا يشتغلون بهمة فائقة فى الحرم المدنى حتى أتموه على أحسن هندام ، على هذا القوام الحالى ، وبنوا الحجرة الشريفة على الفخامة والجمال اللذين تراهما عليها الى الان ، وأقاموا على القبة الشريفة قبة أخرى أعلى منها ، وبنوا فى الجهة الغربية من الحرم على شمال الداخل من باب السلام مدرسة عظيمة وأوقف عليها قايتباى الاوقاف الكثيرة وتسمى بمدرسة قايتباى الى الآن . وقد رأيت له باباً كان أرسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام ، ولما وسع هذا المدخل فى عمارة السلطان عبد المجيد نقلوه الى الباب المجيدى : وهو من الخشب الثمين المغطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة ، بل هو من أفخر ما يرى الناظرون من الصناعة المصرية القديمة التى قبرت من

عهد بعيد ! ! و فى سنة ٩٨٠ عمره السلطان سليم الثانى ، و بنى فيه بين المنبر الشريف ومدرسة قايتباى قبلة جميلة وشّاها بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثلث الجميل ، يشاهده السالك من باب السلام الى الحجرة الشريفة . و فى سنة ١٢٣٣ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الاخضر فى سنة ١٢٥٥ ، ومن ثم سميت بالقبة الخضراء . و فى سنة ١٢٧٠ أمر السلطان عبد المجيد خان رحمه الله بعمارته والزيادة فيه الى الشمال ، فكان ذلك وتمت عمارته على ما هى عليه الآن ، و وشاه بالنقوش والزخارف التى تفوق حد الوصف ، وكتب على جداره مبتدئاً من باب السلام الى الشرق ، سورة الفتح بالخط الثلث المجوّف ، و فى السطر الذى تحتها سورة أخرى بخط أرفع منه ولكنه أكثر تعليقاً ، ومن تحته سطر آخر أصغر من الذى فوقه ، فيه أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصيدة البردة مكتوبة فى محيط قباب المسجد ، و فى الزوايا التى ترتكز عليها هذه القباب أسماء الله و رسوله وآله و بعض صحابته . وكل ذلك مكتوب بخط غاية فى جماله وحسن تنسيقه ، وكمال وضعه : وحسبك أنه أثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بك زهدى الذى أوفده السلطان عبد المجيد الى المدينة لهذه الغاية ومكث فيها بضعاً وعشر سنين يعمل فى بيت رسول الله بما آتاه الله من إحكام فى صناعته ونبوغ فى مهنته . وقد ورد فى مرآة الحرمين أن هذه العمارة صرف عليها نحو مليون ليرة عثمانية . وليس هنالك أثر[1] يذكر لمن بعده من الملوك سوى ما أدخل اليه من أسلاك النور[2] الكهربائى فى زمن

(١) رأيت عند صديقي الفاضل الشيخ مصطفى الحريري الخطاط الشهير بمصر لوحة مأخوذة بالفوطوغراف من خط المرحوم عبد الله بك زهدي على باب الحرم المدنى فيها هذه الابيات :

مصباح باب الله طه المرتجي * بحر المكارم ملجأ الطلاب
سلطاننا عبد العزيز لحابه * ليفوز بالآمال والآراب
وغدا لسان مقاله متمثلا * اذ كان خادم هذه الاعتاب
ان الوسائل للملوك ببابهم * ووسيلتى العظمي بهذا الباب

(٢) ومدة زيارتنا للمدينة كان الحرم الشريف منارا بالزيوت والشموع على عادته لان المهندس الكهربائى المخصص لمباشرة الآلة التى تنير الحرم كان أصيب منها بما أفقده الحياة فأوقف عملها الى أن يستحضر لها مهندس آخر من الاستانه ''



منظر الحرم النبوي من داخل الصحن والحجرة الشريفة
وبستان السيدة فاطمة رضي الله عنها

السلطان عبد الحميد ، وابتدأت الانارة به فى الحرم الشريف رسمياً فى يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديد الحجازية بالمدينة المنوّرة فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٦ .

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية فى حسن الصناعة ، عملت فى مدة العمارة التى قام بها قايتباى فى سنة ٨٨٨ ، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ، و إلى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، وهو الذى يذكرونه فى قسمهم فيقولون « وحياة النبى الذى وضعت يدى على شبّاكه » ، ولها أيضاً منفذ الى جهة القبلة فى المواجهة الشريفة و يفتح عند الامور الهامة للدعاء والاستغاثة .

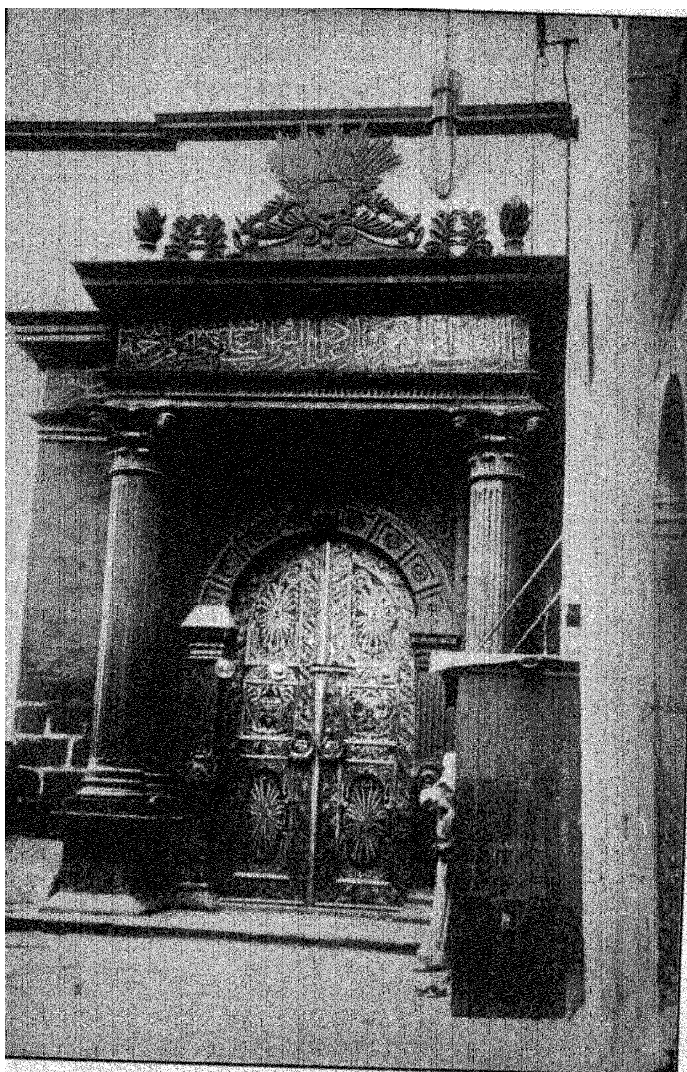
و يتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، وهى على استقامتها من الغرب ، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق .

وطول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبى والشمالى ١٦ متراً ، ومن الشرقى والغربى ١٥ متراً . وفى زواياها الاربع أعمدة مزوية عظيمة ، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف ، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . أما مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ متراً ونصف ، ومن الشمال ١٤ متراً فقط ، ومن الشرق والغرب نحو سبعة أمتار ونصف . وهى تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل ببابين : أحدهما الى الشرق والآخر الى الغرب ، قد أقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذى دفنت(١) فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين . وفى داخل المقصورة الكبرى الحجرة الشريفة وهى المكان الذى توفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأوّل سنة ١١ للهجرة ودفن فيه عليه الصلاة والسلام فى اليوم التالى : لقوله صلى الله عليه وسلم « ماقبض نبىّ إلا دفن حيث قبض » ، و رأسه عليه الصلاة والسلام الى الغرب . ولما توفى أبو بكر فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن الى جانبه من جهة الشمال و رأسه الى قدمى الرسول عليه الصلاة والسلام . ولما طعن عمر رضى الله عنه استأذن من

(١) وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم بنحو شهرين ، ويقول بعضهم انها دفنت بمسها المعروفة الى الآن باسمها فى الزاوية الغربية القبلية من البقيع .

عائشة أن يدفن مع صاحبيه ، فأذنت له ، فلما مات يوم الاربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن الى جوارهما ، ورأسه محاذية لمنكبي أبى بكر رضى الله عنهما . وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذى خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار . وأوّل من بنى هذه المقصورة عمر بن عبد العزيز فى عمارته للمسجد ونزل بأساسها الى غور بعيد ، وجعلها على الشكل المزْوَرِّ المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة فى تربيعها خوفا من أن يتخذها الناس قبلة لهم . وكانت الحجرة الشريفة تسع قبراً رابعاً ويزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء فى آخر الزمان ؟ ؟ ؟ وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة لو أتيت المدينة وأقمت بها فان مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضى الله عنهما . فقال والله لأن يعذبنى الله عز وجلّ بكل عذاب الا النار أحب إلىّ من أن يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا ! فانظر الى درجة أدب الرجل وتنسكه مع ما كان فيه من سعة الملك الذى حلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضى الله عنه .

وفى سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكى أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر باحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر ، نزل بأساسه الى منابع الماء ، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان وقد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الاخضر مكتوب فيه « لا اله الا الله محمد رسول الله » يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتمَ النبيين » وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين ونصف تقريباً) حزام من الحرير الاحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمتراً مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذى أمر بعمل الستر الشريف . وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها ، والكسوة الحالية وصلت الى الحجرة الشريفة بعد اعلان الدستور . وأوّل من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هٰرون الرشيد ، عندما قدمت فى حجها لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام .



باب الرحمة بالحرم المدني

وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين . و بين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة متوسطة سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية ، و فى زاوية هذه الطرقة من الجنوب كرسى موضوع عليه مصحف شريف كبير ، أهداه الى الحجرة الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفى ، و يقولون انه من المصاحف الستة التى كتبها عثمان بن عفان .

وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة ، وخصوصاً فى الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف : فان فيها كثيراً من المشاكى الذهبية ، منها إحدى وثلاثون مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ، ومعلقة بسلاسل النضار . ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة .

و فى مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلانتى فى حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به اطار من الذهب المرصع . و يقدرون ثمنه فى ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، أما فى شرف نسبته الى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، و يسمونه بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه و بهائه . وهو مثبت فى لوحة من الذهب و رصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة . وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الاوّل ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان فى مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر ، و فى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه اليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الاوّل فى سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلانتى «لا إله الا الله محمد رسول الله» أهدته اليها صاحبة السموّ والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين واحدى وتسعين هجرية .

و فى هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء

وهى موضوعة على مقصورتها الداخلية فى الجانب الشرقى ، والى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شئ فى عظمه وجوهره ، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال . ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهداهما اليها السلطان عبد المجيد خان فى سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ، وشمعدانان آخران أهداهما السلطان محمود . والى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ، ومراوح مرصعة بالاحجار الكريمة ، وعصاقى ومباخر مرصعة ، وهذا عدا ما يوجد فى خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة ، وكثير من الاحجار الكريمة والجواهر الثمينة التى لم تكن مشغولة ، وغير ذلك من الاساور والاقراط وخلافها . وبالجملة فقد قدر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات .

ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدونها فى كل الازمان كثيراً من الجواهر الفاخرة والذخائر الثمينة . وكثيراً ما كانت تتطاول اليها يد الاشرار من ولاة المدينة مثل جماز ابن هبة الذى نهب فى سنة احدى عشرة وثمانمائة من ذخائر الحرم المدنى ما قدره السمهودى بعشرين قنطاراً من الذهب . وتبعه فى ذلك الشريف حسن بن زبير المنصورى سنة ٩٠١ هجرية فأخذ منه شيئاً كثيراً . وفى مبدا القرن الثالث عشر الهجرى كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينة ، فنهبها الوهابى سنة احدى وعشرين ومائتين وألف ، وباع بعضها الى الشريف غالب بمبلغ خمسين ألف ريال ، وبعد تميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الاخير بعض ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ ألفى جنيه مصرى ، وردها للحجرة الشريفة . وكذلك رد اليها محمد على ما أعطاه اليه الوهابى من ذخائرها وأهداها هو بشمعدان كبير من الذهب الخالص وشمعدانين من الفضة مكتوب عليها « العبد المذنب محمد على والى مصر سنة ١٢٢٨ » . وأهداها عباس باشا الاول شمعدانات من الفضة وثريتين (نجفتين) من الفضة : واحدة ذات ٣٦ شمعة معلقة فى المحراب العثمانى ، والاخرى ذات ثلاثين شمعة معلقة تجاه الوجه الشريف ، وثريات

وشمعدانات أخرى من البلور . ولسعيد باشا وبعض كريمات العائلة الخديوية بالحرم الشريف هدايا أخرى . وآخر ما قدم للحجرة الشريفة لهذا العهد دواليب ثمينة جداً قدمتها الهادولة والدة الجناب العالى الخديوى لتحفظ فيها هذه الآثار الكريمة جزاها الله خيرا .

وخدمة الحجرة الشريفة يغسلونها فى السنة ثلاث مرات : واحدة فى يوم ٩ ربيع الاول ، والثانية فى أول رجب ، والثالثة فى الثامن عشر من ذى القعدة . و يكون لذلك احتفال كبير ، وماء غسيلها يفرقونه فى قوارير على أكابر المسلمين للتبرك به .

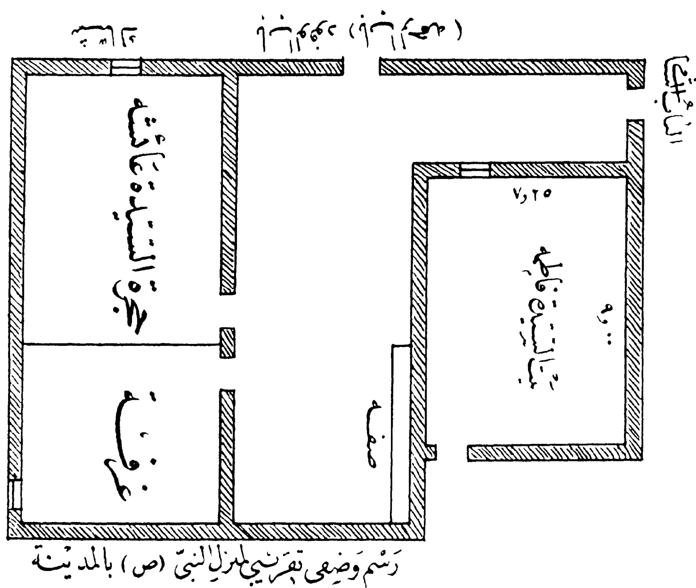
﴿ بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة ﴾

من ينظر الى المقصورة الشريفة الحالية ، و يعلم أنها أقيمت على مكان بيت النبى صلى الله عليه وسلم (المشهور ببيت عائشة) ، و يفكر فى أبوابها ، وتسمية كل باب باسم مخصوص ، و يضف الى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان فيه شباك يطل على بيت أبيها ، وكان صلى الله عليه وسلم يستطلع أمرها منه حتى سدّه محبة فى استقلال كل بيت عن الآخر ، يحكم معى بأن وضع بيته مدة وجوده صلى الله عليه وسلم كان على نحو الشكل الآتى :

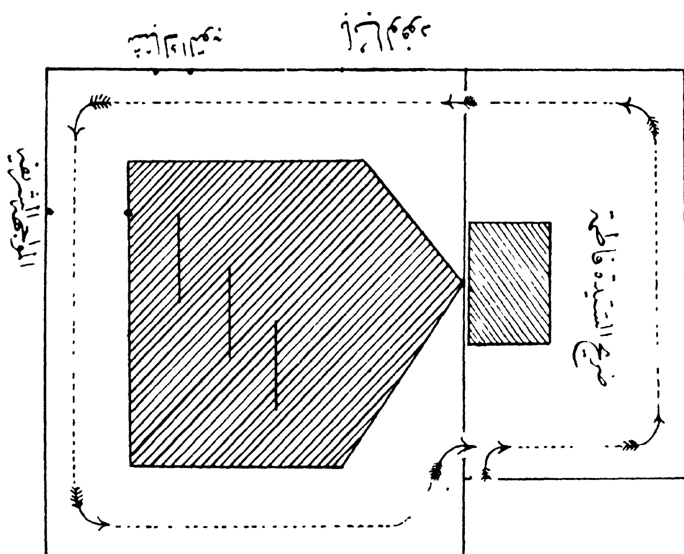
والذى ساعدنى على هذا الوضع ما ورد عن مالك رضى الله عنه « قسم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كانت تكون فيه عائشة ، و بينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلا (يعنى سافرا) ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله الا وهى جامعة[1] عليها ثيابها » .

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان به حجرتان . أما بابه فقد قال بعضهم انه للشام ، وقال آخرون انه للغرب ، ولكن يستنتج من رواية ابن سعد أن له بابين حيث قال : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا (الصحابة) كيف نصلى عليه ؟ قالوا ادخلوا من ذا الباب ارسالا ارسالا فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر » ،

(١) أنظر حفظك الله ورعاك الي هذا الادب العالي والحياء العالى الذى بلغ بكمال القوم رضوان الله عليهم فى المحافظة على الحجاب حتى على الاموات وحتى مع عمر وهو ميت .



رسم وضعي تقريبي لمنزل النبي (ص) بالمدينة



رسم للمقصورة الشريفة الحالية التي بها قبره عليه الصلاة والسلام والى جواره قبر أبي بكر ثم قبر عمر رضي الله عنهما.

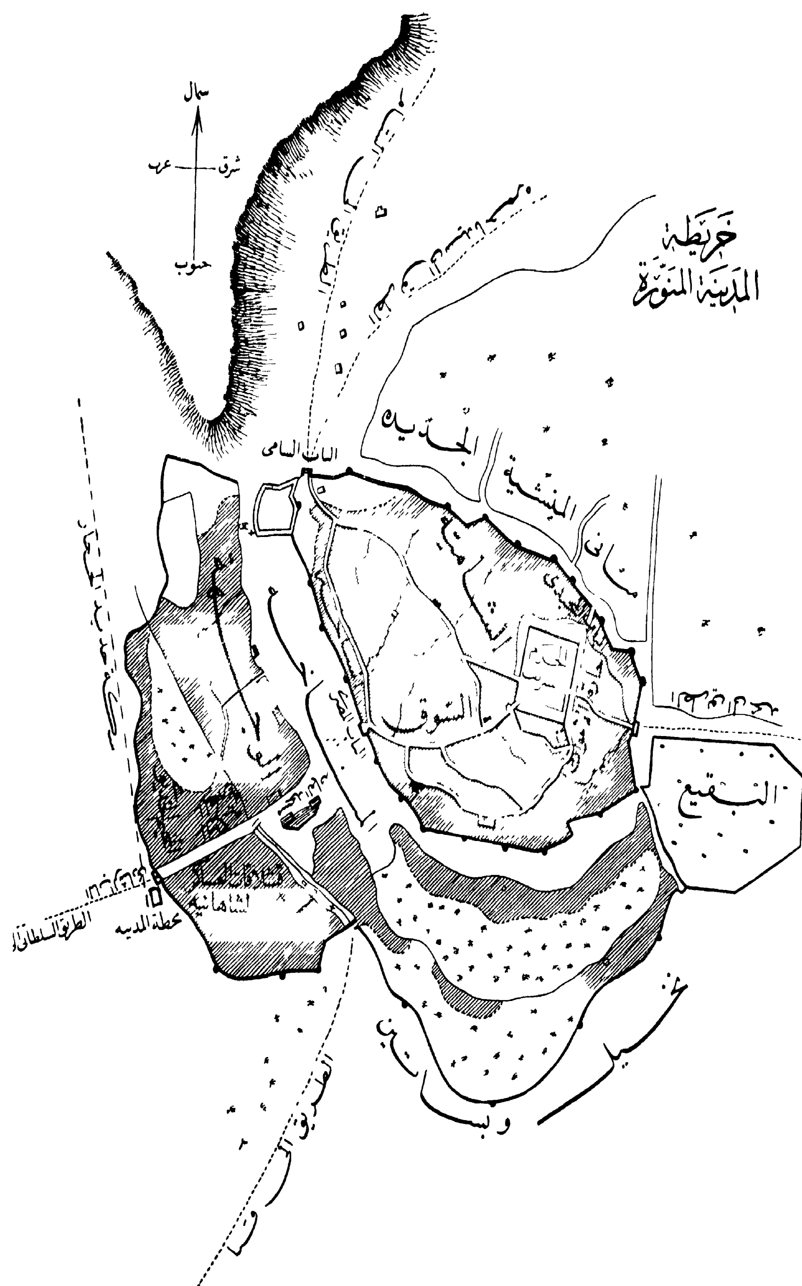
BOEHME & ANDERER, CAIRO

و مما ورد أيضاً أن بيت السيدة عائشة كان به صُفّة الى منزل فاطمة ، وكان به فتحة الى القِبْلة يؤيد ذلك قول ابن ذُبالة: « كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذى فيه القبر الشريف طريق، وكانتا تتهاديان الكلام وهما فى منزليهما من قرب ما بينهما » . وحفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنت عمر بن الخطاب وكان بيتها كما لا يخفى على يمين خوخة آل عمر ، أى فى جنوب بيت عائشة الى الشرق .

و إنى لم أجسر على هذا الوضع الا بعد تدقيق شديد فى أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل مواقفه عليه الصلاة والسلام ، وخصوصاً فى بيته الذى أجمع المسلمون على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم فيه أشرفُ بقعة على سطح الارض . وعلى كل حال فهذا استنتاج لى أو رده لك وأنت حر فى تحسينه أو توهينه ، ولو بدون دليل تقيمه عليه .

وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته فى المدينة على الرسم (الموضوع فى جنوب المقصورة الشريفة) وهو أكثر بساطة من مسكنه فى مكة . وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضى الله عنهنّ : وكان محيطها مع منزل عائشة مبنياً باللبن ، وقواطعها الداخلة من الجريد المكسوّ بالطين والمُسُوح الصوفية : ومن ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه وسلم فى مسكنه . بحيث انه ما كان يتعدى فى أى حال من الاحوال الضرورىّ لحياته، وحياة أزواجه . وقد ورد عن عطاء الخراسانى أنه قال: « أدركت حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، فحضرت كتاب الوليد يُقرأ يأمر بادخالها فى المسجد فما رأيت يوما كان أكثر باكياً من ذلك اليوم، فسمعت سعيد بن المسيب يقول « والله لوَددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناس من المدينة و يقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، و يكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فيها » .

ومع هذا فانك اذا أنعمت النظر فى هيئة المكان على بساطته ، وفكرت فى وضعه الصحى ، وكيف كانت منافذه منقية للهواء ، وأبوابه داعية الى السهولة فى الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة الى المقصد، مما شرع فيه الآن فى العمارات الكمالية ، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القناعة ، والزهد ، وحسن



خريطة
المدينة المنورة
شمال
شرق
غرب
جنوب
الباب الشامي
المنشية
السوق
البقيع
الشاهانية
محطة الديبه
الطريق السلطاني
BOEHME & ANDERER, CAIRO

الذوق . ومن يتأمل فى ذلك يرَ فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الامور فى مواضعها ، من غير زيادة عن الحاجى ولا نقص عن الضرورى ، وهنالك يرى الغنى فى ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله : فتتبادل عاطفة الحنوّ والشفقة فيما بينهم ، وتثبت قدم المحبة فى أفئدتهم ، فيصبح الكل بين محب ومحبوب ، وشاكر ومشكور ، وحامد ومحمود ، وهنالك تزول عوامل الحسد وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، و يتحد الكل على العمل ، بل و يعمل الكل للكل ، و يكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها لحياته و وجوده ، واذاً يكونون قد قاموا بالمأمورية التى وجدوا من أجلها وهى خدمة الانسانية .

المدينة المنورة

المدينة المنورة ، أو مدينة الرسول ، واسمها طيبة ، وكانت تسمى قبل الهجرة يثرب ، ترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متر ، وهى واقعة على طول ٣٩ درجة و ٥٥ دقيقة شرقا ، وعلى عرض ٢٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء ، (أعنى على عرض خط دراو التى توجد فيما بين اسنا واسوان) ، ودرجة حرارتها فى الصيف تصعد الى ٢٨ درجة سنتجراد ، وتنزل فى الشتاء الى عشر درجات فوق الصفر نهارا ، والى خمسة تحت الصفر ليلا ، وكثيرا ما يرى فيها الماء متجمدا فى آنيته عند الصباح فى زمن الشتاء ،

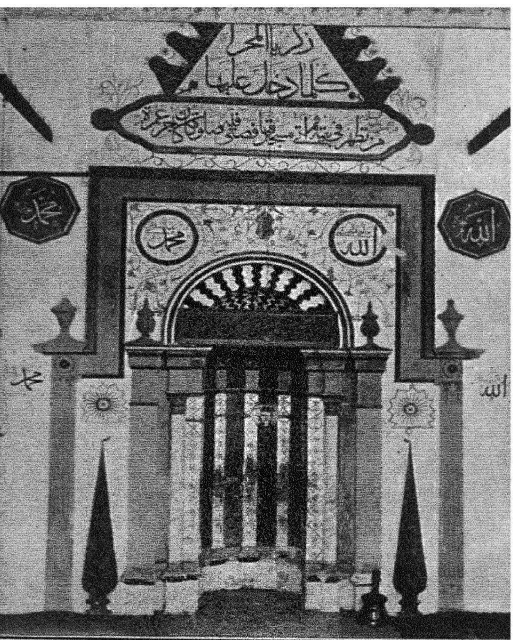
واذا صح ما ذهب اليه بعضهم من أن كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية (إتريبس) ، كان لنا أن نفكر فى أن الذين بنوها اتماهم العمالقة بعد خروجهم من مصر ، ولنا فى يهوديتهم ما يؤيد قول من ذهب الى أن موسى فى طريقه الى فلسطين ، أرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة ، فساروا اليها ، و بلغهم موته فبنوا مدينة اتريبس وأقاموا فيها . وعليه فعمران المدينة يبتدئ من سنة ألف وستمائة قبل المسيح أو الفين ومائتين واثنتين وعشرين قبل

الهجرة : وعلى ذلك يمكننى أن أقول أن لفظ طيبة ان كان مستعملا اسما لها من قبل الاسلام فلا بد أن يكون مصريا أيضاً .

والمدينة مركز لواء وكانت الى عهد قريب ملحقة بولاية الحجاز وجعلت الان متصرفية قائمة بنفسها (كما بلغنى) وفيها عاملان كبيران يقومان بادارة شؤونها وهما: شيخ الحرم، والمحافظ، وهذا الاخير فى يده السلطة العسكرية التى هى الان أهم السلطات فى بلاد الدولة العلية . و يتبع المدينة قضاء الوجه، وقضاء ينبع، والكور، وتيما، ودومة الجندل، والفرع، ودوالرمة، و وادى القرى، وقرى عرينه، والسياله، والرهط، وكحل، ومدين، وفدك، وخيبر . و فى المدينة وكيل لشريف مكة ينظر فى قضايا العربان اسمه الشريف شحات .

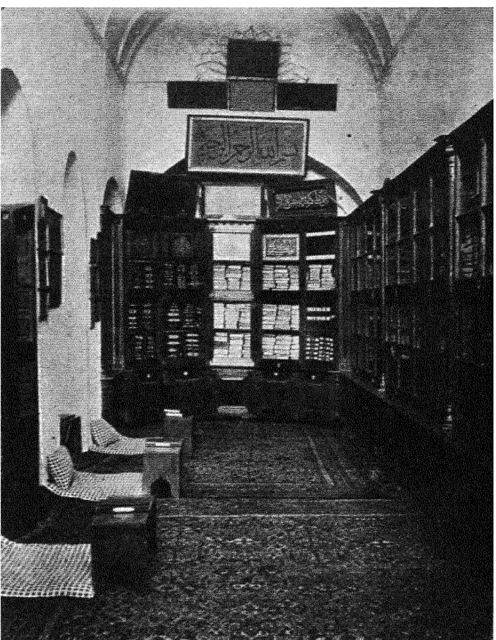
والمدينة مبنية فى وسط واد شاسع يمتد الى الجنوب ، واغلب مبانيها من الحجر المجلوب اليها من المحاجر القريبة منها . وفيها نحو ١٢ ألف بيت، وشكل الابنية فيها هو بعينه ما رأيناه بمكة وجدة ، لولا أن منازلها أصغر ، وشوارعها أضيق، وخصوصاً ما كان منها حول الحرم الشريف، وكان يجب أن يكون حوله ميدان متسع يساعد على تنقية جو المدينة من جهة، وعلى سهولة الوصول الى الحرم من جهة أخرى . وأحسن شارع فى المدينة غرب الحرم، و يسمونه بحارة الساحة وهى أطول حاراتها ، وفيها أحسن مبانيها ، و بها مكان المحافظة فى قلعة على السور الداخلى . ومما ينبغى ذكره أنى رأيت بهذه الحارة منزلا (للسيد هاشم) مشغولا بأعمال الاويمة بما استوقفنى أمامه باهتاً لجمال صنعته ودقتها، وهى من صناعة جاوه ، و بكل أسف أقول ان هذه الصناعة البديعة قد انقطعت عن المدينة بالمرة . و فى هذه الحارة زقاق يدخل منه الى مقام سيدنا عبدالله والد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أتى الى المدينة قبل الاسلام لعمل له فمات بها ، ودفن عند أخواله من بنى النجار فى بيت رجل منهم يقال له النابغة . وهذه الحارة تسمى الابواء ، أو زقاق الطوال ، وفيها منازل آل أسعد .

وأغلب حارات المدينة يسمونها لضيقها أزقة: منها فى شمال الحرم، زقاق البقر، و زقاق الخياطين ، وزقاق الحبس ، و زقاق عنقيبنى ، وزقاق السماهيدى، وزقاق البدور: و زقاق الاغاوات ، و فى جنوبه زقاق ياهو ، و زقاق الكبريت ، و زقاق القماشين ، و زقاق



BOEHME & ANDERER, CAIRO

محراب مسجد قبا



BOEHME & ANDERER, CAIRO

كتبخانه سلطان محمود بالمدينة المنورة

حيدر ، و زقاق الحجامين ، و زقاق مالك بن أنس الخ .

وعلى كل حال فحارات المدينة نظيفة وضيقها يساعد كثيرا على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف ، كما هو الشأن فى أغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يبتدئ من الباب المصرى الى الحرم الشريف فى شارع ضيق طوله ٥٠٠ متر تقريباً يقطعه على المارة تقابل جملين فيه مع بعضهما ، والحركة فيه تكاد تنحصر فى مدة الحج ، والموسم الرجبى : وهو موسم الزيارة الرسمية فى بلاد العرب . وتجارة المدينه مدارها على وارداتها الخارجية ، لا سيما واردات جاوه والهند والشام ، وعلى الخصوص فى الاقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبح والليف الابيض والحناء والبسط والسجاجيد والحنابل (الاكلمة) العجمية والهندية والمغربية والاناضولية ، وأثمانها أغلى منها فى مكة بل و فى مصر ، وانما ابتياع الحجاج لها على سبيل البركة وسهولة الصرف فى هذه الجهات . وتجارة البلح فيها هى أكبر التجارات وأوسعها الان ضواحيها فيها كثير من البساتين وفيها نخيل كثيرة تنتج نحو سبعين صنفا من الثمر وأحسنها البلح العنبرى ، ثم الحلبى ، ثم السكرى وهو أكثرها حلاوة ، ثم بلح السبح ، و يكثر نخله فى جهة الحيف بين المدينة والحمراء وكيفية تجهيزه : هى أن ينظم فى خيط ثم يلقى به فى الماء المغلى زمناً ما ثم يجفف فى الشمس . ولقد اشترينا منه شيئاً من دكاكين أقيمت خارج الباب المصرى بالمناخة ، وكان البائع يروج تجارته باحاديث يسردها ، و ينسبها الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فى مدح بعض أنواع البلح المتقدمة . فعجبت من أن القوم لا يستحون من الكذب على الرسول حتى وهم بين يديه الشريفتين ، وقلت له ياهذا ، انا نشترى منك بلحاً لا أحاديث وأوريته أن مصيبة المسلمين أساسها الجرأة فى التقول على الله ورسوله !! فاعتذر الرجل بجهالته قائلا انه أخذ هذا عن غيره من الباعة السابقين أو بعض المتمشيخين . و يبيعون البلح بالكيلة و وزنها ٦٠٠ درهم ، أما كيلة الارز فزنتها ٣٠٠ درهم . والسمن يبيعونه بالرطل وهو ١١ أو ١٢ أوقية ، والرطل ٢٠٠ درهم ، والاردب ١٢٠ أقه .

و فى المدينة كتبخانات كثيرة أحسنها كتبخانة شيخ الاسلام عارف حكمت ، وهى قريبة من باب جبريل الى جهة القبلة ، وهذه الكتبخانه آية فى نظافة مكانها وحسن تنسيقها

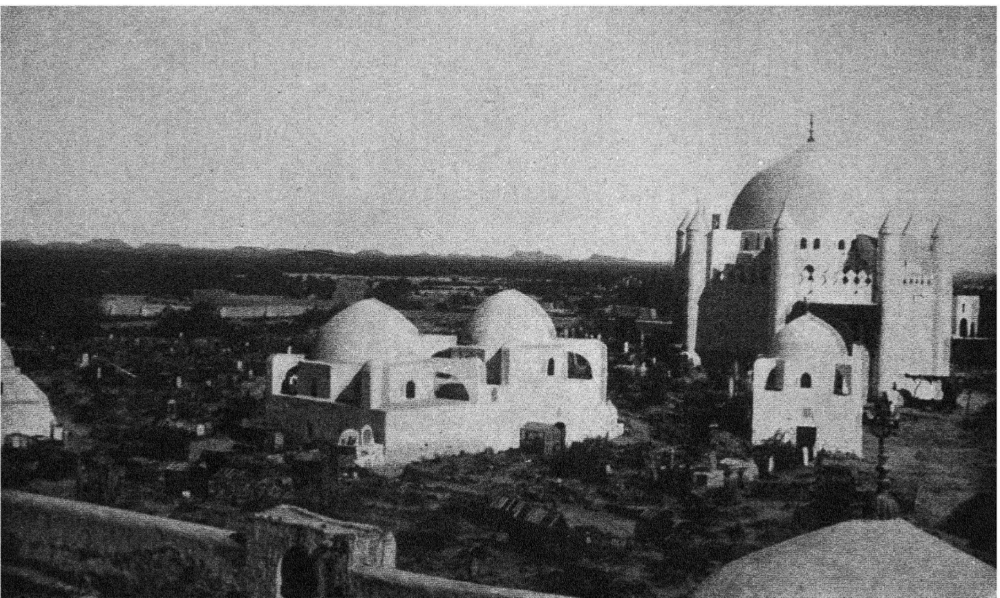
وترتيب كتبها، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمى الفاخر ، وفى وسط حوشها نافورة من الرخام، فيها حنفيات للوضوء، وفيها كتب ثمينة جدا لا يقل عددها عن ٥٤٠٤ كتاب . ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة فى بابها : وهو كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الابيض الجميل لملاّ شاهى ، و بينا نحن نعجب من جودة الخط واتقان الصناعة و نظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها ، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى أن حروف الكتابة انما هى ملصوقة على الورق . فتأملناها ووجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته و يعجز اللسان عن نعته ، خصوصاً عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم ، ثم يلصقونها على ورقة أخرى !!!

وفى باب السلام كتبخانة للسلطان محمود ومقدار الكتب التى فيها ٤٥٦٩ كتاب وهى وان كانت أصغر من كتبخانة عارف وأقل منها نظاما الا أنها جميلة ومرتبة . وفيها كتبخانه للسلطان عبد الحميد الاول بها ١٦٥٩ كتاب ، وفيها أيضا كتبخانة بشيرأغا ، فى زقاق الحياطين بها ٢٠٦٣ كتاب وقد بلغنى أن هناك كتبخانات أخرى منها واحدة فى رباط عثمان حافلة بنفائس كتب مذهب مالك ، و يقدر مجموع هذه الكتب بثلاثين ألف كتاب من الكتب النادرة المثال . ولو جمعت كل هذه الكتب فى دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان ذلك أنفع والفائدة منه أكبر .

وفى المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة البالوزه كلما كان هناك داع لصدورها ، ومديرها حضرة الفاضل الشيخ محمد مأمون ، وكانت تصدر مدة وجود الجناب العالى بها، شارحة حركاته اليومية ، وناشرة كل ما كان يقدم لذاته السنية من المدائح نظماً ونثرا ، ومن ضمن ما رأيت فيها قصيدة لحضرة مديرها تهنئة للجناب العالى بقدومه قال فى مطلعها

البدر فى أفق العلياء قد طلعا * وكوكب السعد فى اسعاده سطعا

وليس فى المدينة من المدارس ما يستحق الذكر، الا أن فيها ١٧ مكتباً لتعليم مبادئ العلوم البسيطة ، والذى يدرس فى الحرم شىء بسيط من الفقه والتفسير .



BOEHME & ANDERER, CAIRO

البقيع وهو جبانة المدينة المنورة وفيه قبة سيدنا عثمان على اليسار وعلى يمينها قبة الامام مالك
ثم قبة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ثم قبر سيدنا ابراهيم بن النبي ثم القبة الكبرى وفيها قبرا
سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهم اجمعين

وفى المدينة حمامان تركيان أحدهما داخل المدينة: وهو من عمل السلطان سليمان القانونى والثانى بالمناخه . وفيها ٨ تكايا أهمها التكية المصرية، والباقى يسمونها رباطات، لها مرتبات قليلة لا تفى بحاجة من يسكن فيها من الفقراء والمعوزين

وللمدينة المنورة حرم مثل حرم مكة يبلغ قطر دائرته نحو اثنين كيلومتر، ولا يجوز لاحد الصيد فيه اجلالا له وتعظيما.

وفى المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قباء، ومسجد سيدنا حمزة، والبقيع: أما مسجد قباء فيبعد عن المدينة بمسافة خمسة كيلومترات، وهو أول مسجد بنى فى الاسلام، بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنوب الغربى للمدينة عند دخوله اليها فى هجرته، وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الاول، وبوسط صحنه قبة أقيمت على مبرك ناقته صلى الله عليه وسلم حين قدومه اليها فى هجرته من مكة . وأما مسجد سيدنا حمزة فانه يوجد فى شمال المدينة فى وادى أحد: وهذا الوادى مشهور بالواقعة التى حصلت بين المسلمين والمشركين فى ١٥ شوال سنة ٣ للهجرة، وأبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً، واستشهد فيها سيدنا حمزه عم النبى صلى الله عليه وسلم وكسرت فيها رباعية النبى اليمنى وشج وجهه وكلمت شفته السفلى، ودخلت حلقتان من مغفره فى وجنته: وقد ورد عن عائشة رضى الله عنها أن أبا عبيدة بن الجراح نزع احدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته، ثم نزع الاخرى فسقطت ثنيته الثانية، فكان ساقط الثنيتين . وهناك قبة يقال لها قبة السن فيها حجر به حفره صغيرة يزعمون أنها المكان الذى سقط فيه السن الشريف . وقد كان أهل المدينة نقلوا بعد انتهاء هذه الواقعة بعض قتلاهم لدفنهم فيها، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم قائلا: «ادفنوهم حيث صرعوا» . وعليه فقد دفن حمزة فى مصرعه الذى عليه الى الآن قبة يقال لها قبة المصرع، شرق مسجده الحالى الذى نقلت جثته اليه فيما بعد لما عبث السيل بقبره الاول . ومن حوله قبور الشهداء الذين قتلوا فى هذه الواقعة وعددهم نيف وسبعون . وفى نهاية الوادى الى الشمال جبل أحد وهو جبل صخرى من الجرانيت، وهو وان كان من السلسلة الجبلية التى تخترق بلاد العرب الا أنه يكاد يكون

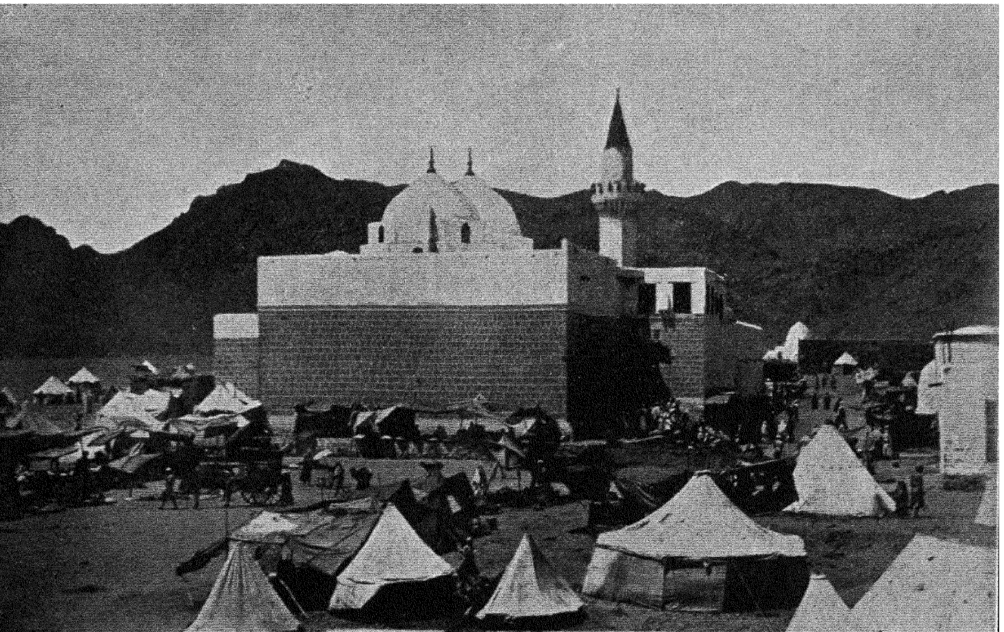
منفصلا عنها وطوله من الشرق الى الغرب نحو ستة كيلومترات .

والبقيع له عند المسلمين مكانة عظيمة و يقال له بقيع الغرقد ، لانه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر ، و به دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، وكثير من آل بيت النبوّة صلوات الله عليهم : منهم سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الحسين و ولده محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، والاخيران فى قبة سيدنا العباس . وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون .

ومن مزارات المدينة المباركة مسجد الرايه ، ومسجد الفتح ، ومسجد القبلتين ، ومسجد السّقيا ، ومسجد الغمامة (بالمناخة) ، ومسجد على (فى طريق قباء) ، ومسجد المائدة (أمام البقيع من جهة الشرق) ، ومسجد الاحزاب (وراء جبل سَلْع الذى هو على يسار الخارج من الباب الشامى) ، ثم مسجد عروة .

وأهل المدينة يشربون من آبار كثيرة منها : بئر الاعواف ، و بئر أنس بن مالك ، و بئر رومة التى اشتراها عثمان بن عفان لشرب المسلمين منها فى صدر الاسلام . وفيها بئر القويم ، و بئر العباسية ، و بئر صفية ، و بئر البويرة ، و بئر فاطمة ، و بئر عروة . وكان أهل المدينة فى السابق يهدون من ماء البئرين الاخيرين للملوك وكبار المسلمين . و فى قباء بئر يسمونها بئر الخاتم ، وهى بئر اريس التى وقع فيها خاتم النبى صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهو خليفة ، وكانوا الى ذلك الوقت يختمون به على مكاتباتهم ، وكان نقشه (محمد رسول الله) .

وماء المدينة الذى عليه مدار سقياها من العين الزرقاء التى توجد غربى مسجد قباء ، وماؤها عذب لذيذ : وسميت بالزرقاء ، نسبة الى مروان بن الحكم الذى أجراها بأمر معاوية رضى الله عنه وقت أن كان عاملا له على المدينة ، (وكان يسمى الازرق لزرقة عينيه) ، وهى موضع عناية كل الملوك والسلاطين الى هذا الزمان . و يمد ماء هذه العين مجرى مأخوذ من عين فى قباء أيضاً يسمونها عين النبى ، وماؤها يسير الى المدينة فى قناة مبنية بناء متينا . وقد تفرع من هذا المجرى فروع كثيرة فى جهات المدينة ، و بنى لها خزانات تنزل عن سطح الارض بنحو عشرة أمتار يملأ منها



مسجد سيّدنا حمزه وحوله زوّار المدينة

السقاءون الماء و يوزعونه على مساكن المدينة . وقد ينزل الناس بواسطة سلالم من حجر الى هذا المجرى فيملئون جرارهم من حنفيات مثبتة فيه، و بهذا ترى أن مياه هذه العين نظيفة و بعيدة عن التلوث وهو السبب الوحيد فى عدم تعرض المدينة غالبا الى الاو بئة التى تحصل فى الجهات الاخرى من بلاد العرب التى لم يعتن بالماء فيها: مثل مكة ومنى وجدة و ينبع .

وهذه العين كان يقوم بتعميرها امراء المسلمين . وقد تخربت فى أوائل الحكم العثمانى ، ومكث أهل المدينة زمنا طويلا وهم فى ضيق شديد حتى عمرها السلطان سليمان سنة ٩٣٢ . ثم جرفها السيل سنة ٩٩٠ فأمر بتعميرها السلطان مرادخان، واشترى بئر الغربالى وألحقها بها . وفى سنة ١١١١ أمر السلطان مصطفى العثمانى فاشتريت بئر العقد والحقت بها أيضاً . وما زالت حتى بناها السلطان سليم سنة ١٢١٢ . ولما حاصر الوهابيون المدينة خربوها ، فاصلحها محمد على باشا ثم جددها السلطان عبد الحميد بما صارت معه عظيمة الفائدة كبيرة المنفعة جزاهم الله خيرا .

و فى ضواحى المدينة عدا العين الزرقاء عين كهف، غربى جبل سلع، وعين الخيف وتجرى من عوالى المدينة، وعين الوادى بجوار قبر حمزة، ثم عين السلطان وهى مالحة وتجرى من قباء الى المدينة، فتطهر بالوعاتها ومحاريها ثم تسير الى بساتين المدينة من خارجها .

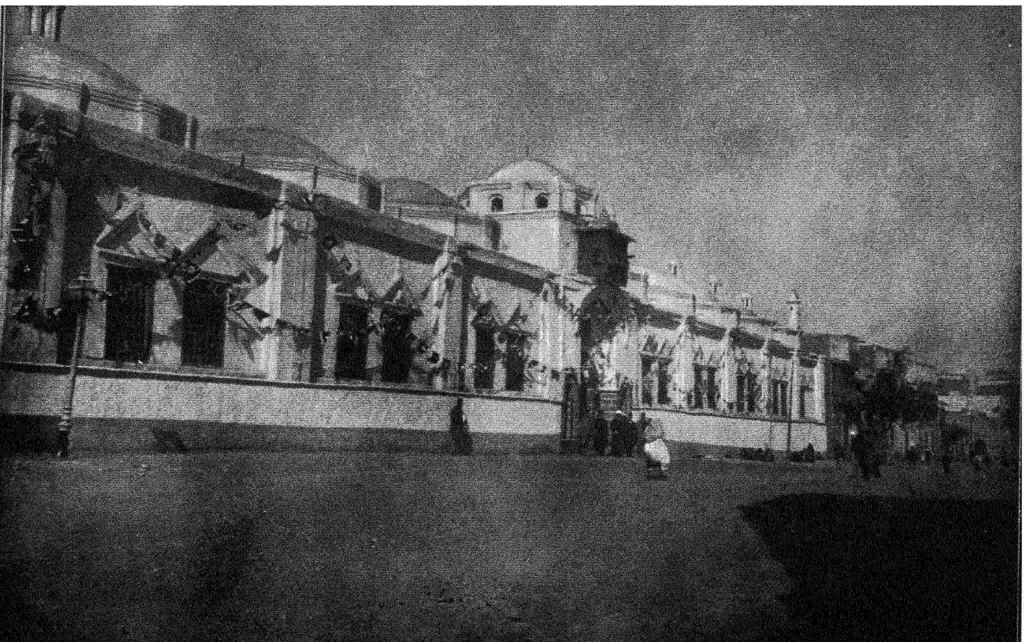
و يوجد فى المدينة بالجهة الشمالية حدائق كثيرة بالقرب من السور: منها حديقة الداوودية، وحديقة الزكى، والسيل، و بضاعة، و بُضيعة، والطرباويه، والفيروزيه، والزينية، والدرويشية، و بئر حاء، والتوابية، والجودية، والكاتبية، والسمانية . و فى داخل السور الحدائق الرومية . و فى الجهة الشرقية بساتين وكروم كثيرة من النخيل . و فى جهة قباء وذى الحليفة والعوالى شىء كثير من المزارع والبساتين، والاخيرة مشهورة بثمرها . و يزرع فيها كثير من الخضراوات مثل الكرنب والقنّبيط (القربيط) والكرات أبو شوشة والخرشوف والبامية والملوخية والباذنجان والبموطة والقرع واللوبيا والفاصوليا والرجلة والسبانخ والخبيزة والكرفص والبقدونس، ومن الفاكهة البطيخ والقاوون والخوخ والرمان والعنب والموز والتمر والليمون والبرتقال والليم (وهو نوع من الاترج كبير الحجم) .

وحول المدينة وديان كثيرة . و ينزل فيها كثير من مجارى السيول التى تسير بها الى بساتينها وخصوصاً فى الجهات المنخفضة منها . وقد ترتفع مناسيب هذه السيول فى بعض السنين فتضر بالمدينة وضواحيها ضرراً بليغاً . و فى خلافة سيدنا عثمان فاض وادى مهرو زفيضانا كاد يقوّض أركان المدينة فأمر ببناء سدين عند بئر مدرى ، وحوّل بذلك مجرى السيل الى وادى بطحان . و فى سنة ١٥٠ نزلت السيول بكثرة على المدينة فأزعجت أهلها وأغرقت صدقاتها ، وكان ذلك فى خلافة أبى جعفر المنصور فأمر ، فبنيت السدود فى أعالى المدينة فتحولت السيول الى جهات أخرى . وفى سنة ٧٣٤ فاض وادى القناة فأغرق الجهة الشمالية من المدينة الى جبل أحد ، وانقطع الناس بسببه عن زيارة سيدنا حمزة ستة شهور . و فى سنة ١٣٢٨ نزل السيل الى المدينة وتكونت مياهه عند جبل أحد و بلغ عمقها نحو نصف متر .

وأهل المدينة يبلغ عددهم ستين ألفاً منهم كثير من المجاورين الاجانب ، وأكثرهم من الهنود والاتراك والشوام والمغاربة والمصريين . ومن أشهر عائلات المدينة عائلة أسعد وهم سادات ، وعائلة برّى وهم مغاربة ، وعائلة السمهودى وهم مصريون . ولكبار أهل المدينة مرتبات من الدولة ، ولكثير منهم مرتبات من الحضرة الخديويه . وأغلبهم يعيش من وراء خدمة الحرم وخصوصاً فى الموسم ، ومنهم كثير من المرشدين الى محالّ الزيارة و يسمونهم مزورين ، وهؤلاء يؤدون فى المدينة وظيفة المطوفين فى مكة . ومنهم من يعيش من التجارة البسيطة ، والمصريون يتجرون فى الحبوب كالقمح والعدس و يأتون بها من طريق القُصير .

وأهل المدينة يعبرون عن الجهات بالشام للشمال ، والبحرى للغرب (لانه الى جهة البحر) والشرقى للشرق ، والقبلى للجنوب (لانه جهة القبلة) . ومنهم أخذ المصريون هذه التسمية واستعملوها فى غير محلها فى اطلاق القبلى على الجنوب ، لان القبلى عندهم انما هو الشرقى الجنوبى كما لا يخفى .

ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزه فى البساتين خارج المدينة ، فيخرجون اليها فى يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات و يعودون فى المساء ، وقد يخرجون الى هذه الرياضة من أول اليوم ومعهم غذاؤهم فيمضون نهارهم فى أحد البساتين التى بضواحى المدينة



BOEHME & ANDERER CAIRO

التكية المصرية بالمدينة المنورة

فى سرور وحبور : ويسمون هذه الفُسْحة مِقْيالا .

ومن عاداتهم القديمة أن كل واحد منهم يُقَدّم كل سنة فى ليلة السابع والعشرين من ذى القعدة مقدارا من الحنطة على سبيل الهدية الى الحجرة الشريفة ، و بعد أن يغسلها و ينظفها جيدا يضعها فى كيس جديد من القماش اللطيف الابيض ، حتى اذا وصل الى الباب الذى فى المقابلة الشريفة ، استغاث برسول الله ، ثم وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة .
وهذه الاكياس يأخذها خدمة الحجرة المطهرة ، و يهدون منها الى عظماء المسلمين على سبيل البركة .

ومن عاداتهم استقبال الزوار من خارج المدينة من غير سابقة معرفة بهم . وكل واحد منهم يدعو الى ضيافته ما استطاع من ضيوف رسول الله ، فيأتى بهم الى منزله و يمهد الفراش و يجهز الطعام اللازم لهم ، و يقضى مدة اقامتهم فى المدينة وهو فى خدمتهم بصدق واخلاص ، غير ملتفت الى أى أجر يصيبه منهم : وان فعلوا فليس على كل حال الا أقل مما يجب بالنسبة لهم . ومن أكمل عاداتهم أن ربة المنزل مهما بلغ من شأنها هى التى تشتغل بداخليتها ، وتقوم بطهى الطعام بنفسها ولا تباشر ذلك الا وهى على وضوء تام .

ومن عاداتهم فى مواليدهم ان الطفل اذا مضى عليه أربعون يوما غسلوه ونظفوه وألبسوه ملابس جميلة بيضاء ، و بعد أن يعطروه يأخذه أهله وهم فى أحسن زينة لهم الى الحجرة الشريفة ، فيأخذه الخَدَمة و يضعونه فيها و يغطونه بستارتها ثم يدعون له بخير ، و بعدها يُسَلّم الولد الى أمه فتأخذه فَرِحة هاشة باشة .

ومن عاداتهم أنهم لا ينوحون اذا مات لهم ميت ولا يبكون ، بل يأخذونه و يدخلون من باب الرحمة حتى يصلوا به الى الحجرة الشريفة ، فيُصَلّون عليه ويخرجون به من باب جبريل الى البقيع ، فيدفنونه مكبرين مصلين على الرسول ، وهنالك يقف صاحب الميت على باب الجبانة فيعزيه الناس : وهى عادة قديمة من يوم وفاة سيدنا الحسن بن على رضى الله عنه ، فانه بعد دفنه وقف أخوه سيدنا الحسين رضى الله عنه على باب البقيع واستقبل تعازى المعزين .

ومن عاداتهم انهم يخرجون يوم الخميس نساء ورجالا بعد صلاة العصر الى البقيع ، و يلقون

على القبو رشيئاً من الرياحين وهى سنة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن عاداتهم فى شهر رمضان انهم يتوجهون الى الحرم قبل المغرب بنحو ساعة و يجلسون حول الحجرة الشريفة، و يمضون بقية نهارهم فى قراءة القرآن الشريف والذكر والصلاة على الرسول . فاذا ضرب مدفع الافطار يكون حضر لكل واحد منهم صينية فيها افطار خفيف كالفطير والجبن والزيتون والبلح والحلوى وما أشبه ذلك فيفطر كل منهم مع من يدعوه الى طعامه من الغرباء، ثم يعطى بقية أكله الى من هنالك من الفقراء . و يقضون فى هذه الفترة نحو ربع ساعة، و بعدها تقام الصلاة فيصلون المغرب ثم يعودون الى منازلهم مع من يصادفهم من الضيوف، فيتعشون ثم يعودون الى المسجد لصلاة العشاء، و بعدها تبتدئ صلاة التراويح: فينقسم المصلون الى خمسين أو ستين جماعة، لكل منهم امام مخصوص، يضعون فى مقابلته شمعدانين بهيئات مختلفة يدل كل واحد على ما اذا كان الامام يطول فى صلاته أو يتوسط أو يقصر ، فيصلى كل انسان وراء من يريده، و بعد ختام التراويح يجرى احتفال الشمع: ذلك انهم فى رمضان يخرجون ما فى خزائن الحجرة الشريفة من الشمعدانات الذهبية والفضية، فيستعملونها امام هذه الأئمة كما بينا، و بعد الصلاة يعيدونها الى الحجرة الشريفة باحتفال كبير . و يتشرف بحمل هذه الشمعدانات من يحضر من الامراء والاعيان بدعوة خصوصية ترسل اليهم من شيخ الفراشة النبوية . وصلاة الصبح فيها شيء من ذلك .

أما صلاة العيد فيصليها فى المسجد النبوى امامان بجماعتين واحد شافعى والثانى حنفى، و بعد الصلاة يتشرف الجمع بزيارة السيد الرسول ثم يعودون الى منازلهم و يقضون أيام العيد فى تزاور وسرور وحبور .

وكانت المدينة فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة فى غاية الرقى الادبى والمادى . وكانت بساتينها تملأ الفضاء المحيط بها وعلى الخصوص من الشمال والشرق والجنوب . وكان للقوم بها رياض زاهرة ، وقصور رفاخرة ، فى وادى العقيق الذى كان يغزر ماؤه، و يبهر رواؤه ، وتزهو أرجاؤه ، و يكثر زهره ، و يفوح عطره ، و يجنى ثمره . وكان أغلبها لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن أماكنه المشهورة الزُّغابة، وأضم، والغابة، وحَصير، والخَليقة



BOEHME & ANDERER, CAIRO

مسجد عروة بالمدينة المنورة

والجثجاثة ، وكلها كانت لعبد الله بن الزبير وبنيه . ثم حمراء الاسد وكان بها قصور لغير واحد من القرشيين ، وخاخ وكانت للعلويين وفيها يقول الاحوص :

لها منزل بروضة خاخ * ومصيف بالقصر قصر قباء

ومن أشهر أماكنها تنية الشريد ، والغراء ، والمعرس ، والبيداء . وكان في جميعها منازل الاشراف من قريش ، وخصوصاً على سفح جبل عير على يمين المقبل من مكة . وكان في الجهة الاخرى مكان اسمه الجماء ، وتجاهها في ضيق حرة الوبرة على أربع أميال من المدينة الى ضفيرة ، أرض عروة بن الزبير وبها قصره المشهور بقصر العقيق ، وبئره المشهورة باسمه والتي فيها يقول الشاعر :

كفنوني ان مت في درع أروى * واستقوا لى من بئر عروة ماء

وكان يوجد أسفل هذا القصر ، تجاه الجماء ، مكان يقال له العرصة وبه كان قصر سعيد ابن العاص الذي يقول فيه أبو قطيفة :

القصر دو النخل فالجماء بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون

ويقال ان آثار هذا القصر موجوده الى الآن . وكان سعيد عاملا لمعاويه على المدينة وكان هذا القصر في أيامه آية في جماله وفخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجرى ، وأعجوبة من أعاجيبه ، حتى فضله الشاعر عن أبواب جيرون (دمشق) التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة ، ومكان فخامتها وأبهتها . وهي الى اليوم آية من آيات الله في جمالها وبهائها : لان القادم عليها من الجنوب يخترق الغوطة وما أدراك ماهيه ، جنة زاهيه . واذا قدمها من الغرب يخترق المرج وهو نزهة الزائرين ، وبهجة الناظرين .

ومن القصور التي كانت مشهورة بوادى العقيق قصر عاصم ، وقصر محمد بن عيسى ، وقصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة ، وقصر جعفر بن سليمان ، وقصر أبي هاشم ، وقصر عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وقصر عنبسة بن سعيد بن العاص ، وقصر عبد الله بن أبي بكر بن عثمان بن عفان ، وقصر خارجة ، وقصر عبد الله بن عامر ، وقصر مروان بن الحكم . وآثار هذه القصور يوجد منها الى الآن شئ كثير يدل على عظمة وادى العقيق وفخامته . وفي ذلك يقول الشاعر :

ألا أيها الركب المخبون هل لكم * بأهل عقيق والمنازل من علم

فقالوا نعم تلك الطلول كعهدها * تلوح وما يغنى سؤالك عن علم

و يظهر أن أول من شيد البناء فى المدينة هو عثمان بن عفان : فقد شيد داره فيها بالحجارة والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، وكان له بوادى القرى وحنين من الضياع ماقدروه بعد موته بمائة ألف دينار . و فى أيامه اقتنى أصحابه بالمدينة الضياع الواسعة والدور الفسيحة ، وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق فرفع بناءها ووسع فناءها وجعل فى أعلاها شرفات ، وابتنى المقداد داره بالجرف على أميال من المدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن .

وفخامة العمارة بالمدينة لم تبتدئ بها الا بعد الخلفاء الراشدين : لان الخلافة لما آل أمرها الى الامويين أخذوا يهيلون العطايا على قريش وعلى سادات الانصار والمهاجرين بالمدينة حتى يستميلوهم اليهم أوعلى الاقل يشغلونهم بأنفسهم عنهم : فكثرت ثروتهم وغزرت مادتهم وأخذوا يقلدون بنى أمية فى سعة العيش ورفه الحياة فى المأكل والملبس والمسكن : فشيدوا العمارات الفخمة وحفروا الآبار فى تلكم الصحراء وغرسوا فيها البساتين والرياض وسيروا اليها الجماوات (جمع جَمّاء وهى مجرى الماء الغزير) ، وصيروا المدينة روضة زاهرة وجنة باهرة ، ومازالوا فى رفاهة هذا العيش حتى اذا ضعفت الخلافة فى مبدأ القرن الرابع الهجرى انقطعت أعطياتهم فتغير حالهم ، وانقشعت سحابة رفههم ، وسبحان من له الدوام .

وضعفت المدينة لضعف الخلافة العربية فصارت عرضة لهجمات الاعراب وغزوات البدو ، فقام عضد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله وبنى سوراً حول المدينة سنة ٣٦٠ . و بقى هذا السور حتى تداعت أركانه فى منتصف القرن الخامس فبناه الامير جمال الدين وزير صاحب الموصل وصاحب رباط الاعجام بالمدينة . و زاد فيه نور الدين بن زنكى سنة خمسمائة وثمان وخمسين أثناء عمارته للحجرة الشريفة . ثم بناه الملك الصالح بن قلاوون سنة ٧٥٥ ، ثم السلطان قايتباى سنة ٨٨١ ، ثم السلطان سليم العثمانى سنة ٩٣٩ . وعمّره محمد على باشا والى مصر بعد حرب الوهابية ، وهو الذى فتح فيه الباب المصرى . وجدده السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٥ وجعل ارتفاعه نحو ٢٥ متراً ، و بنى فيه ٤٠ برجا



BOEHME & ANDERER, CAIRO

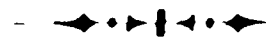
قافلة الحجاج بالمناخة بالمدينة المنورة

تشرف على ضواحى المدينة للدفاع عنها ، وهذا السور باق للآن ، وهو فى طريق باب العنبرية ، وعلى محيطه المزاغل والابراج المشحونه بالمدافع والذخائر الحربية لصد هجمات الاعراب الذين كثيراً ما كانوا ولا يزالون يعتدون على حرم رسول الله .

وأما سورها الخارجى فليس بذى أهمية تذكر ، وهو مهدم فى كثير من جهاته . وفيما بين السورين يعنى فيما بين الباب المصرى و باب العنبرية ، واد كبير متوسط عرضه ٤٠٠ متر يقال له المناخة ، وسميت بذلك لان أغلب الحجاج ينيخون جمالهم فيها ، و يقيمون بها مدة الزيارة ، وفيها مقام ركب المحمل المصرى مدة وجوده بالمدينة . وحول المناخة ، من جهتها الخارجية ، أبنية كثيرة أحسنها ما كان على الشارع العمومى : وهو شارع محطة السكة الحديدية ، و يسمى الآن بالشارع الرشادى ، وفيه التكية المصرية ، ولها مرتبات من مصر ، وتعمل بها الشوربة يومياً للفقراء على النظام الذى تقدم فى تكية مكة ، وفيه قشلاق العساكر الشاهانية ، وكلاهما من بناء المرحوم ابراهيم باشا جد العائلة الخديوية .

وللمدينة ثمانية أبواب وهى : الباب المجيدى ، والباب الشامى ، و باب الكوفة ، و باب العنبرية ، و باب قوبه ، و باب العوالى ، و باب الجمعة . وتقفل أبواب المدينة فى وجه الزائرين من الحجاج اذا تحقق أنهم ملوثون بالوباء ، ولكنهم يفتحون لهم طريقاً من الباب المجيدى الى باب الحرم ، فيزورن و يسافرون بعد يوم أو يومين على الاكثر بقوافلهم التى يجب أن تكون محمية خارج البلد . و بذلك ترى أهل المدينة على الدوام بعيدين عن الاوبئة بالمرة ، ولكنهم فى هذه الحالة لا يفتحون للحجاج الا بابا واحدا من الحرم : فيتراكم بعضهم على بعض و يزدحمون فى الطريق الموصل الى هذا الباب حتى اذا وصلوا اليه ، أخذوا يتدافعون للدخول الى المسجد ، وهناك يجدون مثيلا ممن فى داخله متدافعين للخروج منه ، فتلتحم القوتان ، ولا يزالون حتى يظهر فريق منهم على الاخر ، فيهجمون عليهم و يطئونهم بأقدامهم و يموت من جراء ذلك خلق كثير كما حصل فى سنة ١٣٢٦ هـ . وعليه فيجدر بمشيخة الحرم فى مثل هذه الاحوال أن تجعل بابا من الحرم للداخلين وآخر للخارجين ، و بذلك يتوفر عليها وعلى الناس مثل هذه المشقة .

ومناخ المدينة صحى جدا و ربما كان ذلك من الاسباب التى ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمزجتهم التى اذا أضفت اليها ماهم عليه غالباً من الصلاح والورع والادب وحسن المعاشرة، حكمت لهم بانهم أحسن أهل بلاد العرب على الاطلاق فى مكارم الاخلاق: وليس ذلك بعجيب فجاورتهم للسيد الرسول اكسبتهم كثيرا من أخلاقه الكاملة . على أن من يفكر فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام انما اختص أهل المدينة بالهجرة الى بلدهم، يحكم حكما قطعياً بان مكارم الاخلاق فيهم من زمن بعيد ، وقد زادها الاسلام جمالا على جمالها وكمالا على كمالها . وحسبك ان السيد الرسول بعد ان أدى مأموريته من اظهار الدعوة ونشر راية الدين الاسلامى وتقوية دعائمه، بحال لا يدخل معها الوهن الى أى جانب من جوانبه، أظهر فى حجة الوداع أنه لا يريد الموت الا بين ظهرانى الانصار الذين نرى اليوم من خلفهم على سننهم رضى الله عنهم أجمعين .



محمد رسول الله

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . ولد صلى الله عليه وسلم بمكة ، فى دار أبى يوسف المشهورة الآن بمولد النبى، بعد قدوم أصحاب الفيل بخمسين يوما على الاصح، ويوافق ذلك ثمانيا خلون من شهر ربيع الاول سنة ٥٤ قبل الهجرة . وكان أبوه عبد الله غائبا بجهة يثرب ومات ودفن فيها ولم ير ولده . أما أمه فهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم بن مرة بن كعب .

و فى السنة الاولى من مولده تسلمته حليمة السعدية لترضعه، فذهبت به الى قومها فى البادية وكانت تغنيه بقولها :

الحمــد لله الذى أعطانى ❊ هذا الغلام الطيب الاردان

قد ساد فى المهد على الغلمان ❊ أعيذه بالبيت ذى الاركان

ومكث صلى الله عليه وسلم عند حليمة الى السنة الرابعة من عمره . فردته الى أمه وفيها ذهبت به الى أخواله بني النجار بالمدينة . فماتت بالطريق بمكان يقال له الابواء . وقدمت به أم أيمن الى مكة . فكفله جده عبد المطلب وكان يحبه حبا جما لشدة ذكائه، وفرط نباهته، وقويم سيرته، وعظيم أدبه ، ولما كان يتوسمه فيه من رفيع المنزلة وكبير المستقبل . ولما كان عمره صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين مات عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب وضمه اليه، وخرج به الى الشام وهو فى الثالثة عشرة من عمره، ومن ذلك الحين أخذت تظهر للناس مواهبه وجلائل صفاته، مما كان داعية الى احترامهم اياه واجلالهم لقدره . ولما بلغ الخامسة والعشرين خرج الى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة . وعاد اليها بربح عظيم كان برهانا جديداً على صدقه وأمانته . فلما رأت ذلك خديجة خطبته الى نفسها ، وكانت أعظم نساء قريش فضلا وأكثرهن مالا وأوسطهن نسبا : لانها بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصى بن حكيم . فتزوج بها فى هذه السنة ولم يتزوج عليها فى حياتها . وماتت رضى الله عنها بعد خمس وعشرين سنة من زواجها منه، وقد ولدت له القاسم والطيب والطاهر ورقية[1] وأم كلثوم[2] وزينب[3] وفاطمة[4] . ولم يكن له أولاد من غيرها الا ابراهيم[5] فانه من مارية القبطية، التى دخل بها سنة سبع للهجرة .

أما صفته صلى الله عليه وسلم فقد قال علىّ فيها ما نصه :

لم يكن رسول الله بالطويل المُمَغّط[6]، ولا بالقصير المتَرَدّد[7]، وكان رِبْعَةً من القوم، ولم يكن بالجَعْد ولا بالسَّبْط، ولم يكن بالمُطَهّم[8]، ولا بالمُكَلْثَم[9]، أبيض مُشْرّب (بحمرة)، أدعَجَ العينين[10]، أهدب الاشفَار[11]، جليل المُشَاش[12]، والكَتَد[13]، أجرد[14]

...

(١و٢و٣) أم كلثوم ورقية كانتا زوجتا عتبة وعتيبة ابنى أبي لهب فطلقاهما . فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد الاخرى . أما زينب فكانت تحت أبى العاص بن الربيع . وتوفيت رقية سنة ٢ وزينب سنة ٨ وأم كلثوم سنة ٩ للهجرة . (٤) ولدت فاطمة سنة ٨ قبل الهجرة ، ودخل علىّ بها في السنة الاولى ، وولدت الحسن سنة ٣ ، والحسين سنة ٤ ، وتوفيت سنة ١٢هـ .

(٥) ولد ابراهيم سنة ٥هـ . (٦) كثير الطول . (٧) المتناهي فى القصر . (٨) الكثير السمن .

(٩) مدور الوجه تدويراً تاما . (١٠) واسع العينين مع شدة سوادهما . (١١) طويل شعر الجفون .

(١٢) عظيم رؤوس العظام . (١٣) مجمع الكتفين . (١٤) قليل الشعر .

ذو مَسْرَبة (١)، شثن الكفين والقدمين (٢)، اذا مشى تَقَلّع (٣)، كأنما ينحط عن صَبَب (٤)، أجود الناس صدراً (٥)، وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشْرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعتُه لم أر قبله ولا بعده مثله.

وعاش صلى الله عليه وسلم بين قريش عاقلا حكيما، شجاعا كريما، براً رحيما، كثير التقوى والزهد والورع، بعيدا عن كل ما يؤخذ على الناس في سيرتهم، صادقا في قوله وفعله، عظيم الهمة، كبير المروءة: لذلك كان له في قومه منزلة كلها إكبار وإعظام. وكانت قريش ترجع اليه في مشورتهم، ويرضون بحكمه فيهم، حتى أطلقوا عليه اسم الصادق الامين.

ومع أنه كان أميا (لا يقرأ ولا يكتب)، فقد كان ذكيا بليغا فصيحا جرت كلماته مجرى الامثال، وأخذت عباراته بمقاليد الحكمة، وخصوصا بعد الاسلام. وانا الذاكر لك شيئاً منها، حتى ترى ما فيها من كبير معناها، وعظيم مغزاها، مع قلة ألفاظها، مما هو مذكور بكتب الحديث والسِّير والادب:

اليد العليا خير من اليد السفلى. ترك الشر صدقة. ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء. الدّال على الخير كفاعله. كل معروف صدقة. حبك الشيء يعمي ويصم. البلاء موكل بالمنطق. الحرب خدعة. رأس الحكمة مخافة الله. ابدأ بمن تعول. فضل العلم خير من فضل العبادة. المرء كثير بأخيه. انما الاعمال بالنيات. الغنى غنى النفس. الحياء خير كله. الناس معادن كمعادن الذهب والفضة. لا خير لك في صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه. ما أملق تاجر صدق. خير الامور أوسطها. ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. اقيلوا عثرات الكرام. كادت الفاقة تكون كفرا. اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، الخ الخ

بجلائل هذه الصفات كان عليه الصلاة والسلام مستعداً بطبعه الى ما أكرمه الله به من النبوة وهو في سن الاربعين: فأخذ ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً بما تدرج معه الى احتمال هذا الناموس الاعظم.

(١) شعر بين الصدر والسرة (٢) سمين الكفين من غير قصر (٣) رفع رجليه (٤) منحدر (٥) لا يضن بعلمه وفضله.

وكان الناس قبل الاسلام مختلفين فيما بينهم متفرقين فى عصبياتهم ودياناتهم متغايرين فى شرائعهم : كثرت فيهم فروع الصابئة ، والمجوسية ، والوثنية، والبراهمة، والبوذية، وتعددت الفرق فى الديانات السماوية فانقسمت اليهودية الى ربانيين وقرائين وسامريين وغيرهم . وافترقت النصارى الى مالا يحصى من الفرق التى منها اليعقوبية والنسطورية والاريوسية والارثوذكسية : فكان من ذلك الانقسام العام فى المسائل الاجتماعية والامور الحيوية . فأدى ذلك الى انحلال أجزاء الامبراطورية الرومانية، واختلال أعضاء المملكة الفرسية، لكثرة ما كان يقوم فى داخليتها من المجادلات التى كانت تؤدى الى شديد المخاصمات . و بذلك استعدت النفوس الى شريعة جديدة توحد بين جميع هذه العناصر فى معتقداتها ومعاملاتها : فأرسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة، بدينه المتين، وقرآنه المبين . ومازال يجاهد فى سبيل بناء هيكل الاسلام بثبات جأش وصبر لا يعرف الملل، محتملا فى ذلك تلكم الاهانات التى كان يلقاها من قومه، حسداً منهم له، أوأنفة من دخولهم فى دائرة قيود هذا الدين الجديد : وقد كانوا يعيشون طول أدوار حياتهم لا تجمعهم الا كلمة الفوضى، ولا يحوطهم غير سياج الحرية المطلقة .

ومازال فيهم صلى الله عليه وسلم بثباته، وحسن بصيرته، وكبير حلمه، مع ما كان له فيهم من حرمتهم لشخصه واجلالهم لصفاته التى لم يروا فيها من نعومة ظفره صغيرة يأخذونه بها أو يحاسبونه عليها . فامن به نفر هاجروا[1] معه الى المدينة ووضعوا ايدهم فى يد الانصار، ومابرحوا ينصرونه فى جميع مواقفه على أعدائه، حتى انتهى أمرهم بتصديقه والايمان بما أتى به من عند الله

وأهم هذه المواقف كانت غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية من الهجرة، وأحد فى الثالثة، والخندق فى الخامسة، وخيبر فى السابعة، وفتح مكة وغزوة حنين فى الثامنة، وغزوة تبوك فى التاسعة . ومن هذه المواقف تعلم المسلمون منه صلى الله عليه وسلم تعبئة الجيوش ، وسياسة الحروب ، والثبات فى ساحات النزال، والشجاعة النفسانية فى جميع المواقف، والصبر على الشدائد حتى هابهم الناس وأكبروا منزلتهم .

---

١) كان عمره صلى الله عليه وسلم وقت الهجرة ٥٤ سنة وهاجر معه صاحبه أبو بكر وحده الى المدينة ثم استرسل الناس فى هجرتهم اليها.

ومازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يناهض أهل جزيرة العرب فى سيرهم، ويكافحهم فى تقويم أخلاقهم وتربية نفوسهم، حتى نشأت فيهم أخلاق جديدة، وآراء سديدة، وآمال بعيدة، وصلوا بها فى أيام قليلة الى ضم عروش الاكاسرة والقياصرة الى عرشهم، الذى انما كان حجرا بسيطاً فى هيكل ملكهم وبنيان سلطانهم .

واستمر رسول الله بين المهاجرين والانصار يسلك بهم سبيل الفضائل، ويبعد بهم عن طرق الرذائل، وينفرهم مما كان فيهم من العوائد الشنيعة التى تخالف نظام الانسانية : كوأد البنات، وشرب الخمر، وقتل النفس بغير حق والاستقسام بالازلام، وعبادة الاصنام، ولعب الميسر، والكذب، والنفاق، والرياء، وغصب مال الغير، وسوء معاملة المرأة، وعدم الرفق بالرقيق، حتى فشا فيهم محبة البنات، ونبذوا المسكرات، وعرفوا معنى الحياة، ودانوا بالتوحيد، ووقرت فى نفوسهم فضيلة الصدق والصراحة والرحمة . مازال فيهم صلى الله عليه وسلم يعلمهم الشجاعة النفسانية والادبية، ويسمو بنفوسهم الى منازل الحياة الحقيقية، حتى عظمت فيهم الآمال، ومالوا الى جلائل الاعمال، فى خدمة الانسانية، التى جاء دينهم لنصرتها والنهوض بها من وهدتها، واعلاء كلمتها، والوصول بها الى الغاية التى خلقت من أجلها : فكثرت بينهم المعاملات التى أدت الى وضع نظام تشريعى سماوى، كان ينزل عليه فى ظروف مخصوصة كلما اقتضت الحال، مما هو فى القرآن المجيد . وكان عليه الصلاة والسلام يشرع للناس فيما لم يصل اليه به وحى، مما هو مجموع فى كتب الحديث : فكان من ذلك شريعة قويمة متينة تناسب كل زمان ومكان، لا يعتريها الباطل من أى جهة من جهاتها . وحسبنا دليلا على ذلك أن نابليون بونابرت استمد منها القانون الفرنساوى الذى هو روح التشريع الحديث فى أوروبا جمعها، والى كتب الشريعة الاسلامية الآن ترجع قضاة أوروبا ومشرعوهم فى كثير من الامور التى لم ينص عليها فى قوانينهم . فكان بذلك صاحب هذه الشريعة الغراء أكبر رجل فى الخليقة خدم الانسانية خدمة لا ينكرها الا كل لئيم أو كاذب .

عرف صلى الله عليه وسلم انه ليس للوصول الى هذه الخدمة سبيل الا بمحاربة أعدائها، فكتب الى رؤوس الامم التى تحيط ببلاده منهم ملوك الروم، والفرس، ومصر، واليمن ،

والحبشة ، يدعوهم الى الاسلام، و يطلب منهم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى تسجلت على الناس دعوته . ثم ابتـدأ يأخذ أهبته ضد من لم يقبل رسالته . فدانت له بلاد العرب من أدناها الى أقصاها، وصالحه على الجزية كثير من الامم التى فى شمالها شرقا وغربا . وفى السـنة العاشرة من الهجرة كانت الامة العربية استعدت الى النهوض بدين الله ونشره فى جميع الآفاق ، وتمت بذلك مأموريته صلى الله عليه وسلم، فحج حجة الوداع، وسجل دعوته على المؤمنـين فى خطبته بها (١) فى عرفة . ثم رجع الى المدينة، وفى أواخر صفر اعتل جسمه صلى الله عليه وسـلم ، وقبضه الله اليه فى يوم ١٢ شهر ربيع الاول سـنة احدى عشرة للهجرة، ودفن فى بيتـه حيث هو الآن بمسجده الشريف صلوات الله عليه وسلامه .

أبو بكر

هو عبد الله بن أبى قحافة بن عامر بن كعب بن سـعد بن تيم بن مرة بن كعب . و فى مرة يجتمع نسبه برسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين .

أما صفته فهى كما وصفته ابنته عائشة : «كان أبيض، نحيفاً، خفيف العارضين، أجنأ (٢)، لا يستمسك ازاره يسترخى عن حقويه، معروق (٣) الوجه، غائر العينين، ناتىء (٤) الجبهة، عارى الاشاجع (٥)»

وكان تاجرا، وعرف قبل الاسلام بزهده، و ورعه، وتواضعه، وسعة خلقه، وصدقه، وابتعاده عن المنكر، حـتى أنه لم يشرب الخمر مطلقا فى حياته . فلما جاء الاسلام و رأى أنه دين الحق لم يكن لنفسه سلطان عليه، فـكان أول مصدق من الرجال برسالة صديقه محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) كانت خطبة الوداع في يوم الجمعة، وفي هذا اليوم نزل قوله تعالي « اليوم أكملت لـكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لـكم الاسلام دينا ». وهذا هو سبب اهتمام الناس بالحج في السنين التى يصادف الوقوف فيها يوم الجمعة . وقد ورد فى فضل الحج بالجمعة أحاديث كثيرة . (٢) منحنيا (٣) قليل اللحم (٤) بارز (٥) الاشاجع أصول الاصابع التي تتصل بظهر الـكف .

ولما أسلم أخذ ينصر رسول الله ويساعده ويدعو الناس الى دينه، فنقمت عليه قريش وأخرجته من مكة. فاراد الهجرة الى الحبشة، فلقيه ابن الدُغُنّة، وهو سيد القارة، وعاد به الى قريش، وقال لهم: كيف تخرجون رجلا يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فاتركوه يعبد الله في داره. فقبلوا منه ذلك على أنه لا يجتمع بمحمد صلى الله عليه وسلم. وأتى ابن الدغنة أبا بكر فاخبره بذلك وقال له: اما أن تقتصر في دارك واما أن ترد ذمتي، فاني لا أحب أن تسمع العرب اني أخفرت في عقد رجل عقدت له. فقال أبو بكر: «اني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى ورسوله». ومكث رضي الله عنه بمكة، ومازال ينصر رسول الله بنفسه وماله حتى هاجر معه الى المدينة، مع ما كان يحدق بهما من خطر أولئك الذين كانوا يناوئون الرسول، وينبذون طاعته، وينكرون رسالته ويظهرون عداوته. ومازال ابن أبي قحافة بالمدينة قائما بنصرة صاحبه مختصاً بصداقته، حتى مرض رسول الله مرض الموت، فامره بالصلاة بالمؤمنين. ولما توفي صلى الله عليه وسلم هلع المسلمون وهالهم الامر، فقام فيهم خطيبا وقال في كلام له «من كان يعبد محمدا فمحمد قد مات ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت». ثم تلا قوله تعالى: «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً». فسكن روع الناس وثابوا الى رشدهم واحتملوا مصيبتهم في نبيهم. ثم بايعه الناس في سقيفة بني ساعدة فخطب فيهم قائلا: «قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فاعينوني، وان أسأت فقوّموني».

وقام أبو بكر في حكمه بامر المسلمين خير قيام. وكان رضي الله عنه في خلافته أزهد الناس وأورعهم وأتقاهم. وكان يلبس الشملة والعباءة حتى انه لما وفد عليه زعماء العرب وملوك اليمن ومنهم ذو الكلاع الحميري، وعليهم الحلل المقصبة والبرود المذهبة أكبروه وهابوه وذهبوا مذهبه. وارتدت العرب في أول خلافته عن الاسلام فرارا من قيوده التي ساوت بين الكبير والصغير، والسوقة والامير. فجرد لهم عزيمته واستنفر الناس عليهم وحاربهم بثبات متين وجأش رابط، حتى أرجعهم الى دين الله ورسوله. وبعد ما فرغ من حرب أهل الردة سيّر

خالد بن الوليد الى العراق من أدناه، وعياض بن غَنْم من أعلاه، وأمرهما أن لا يضرا بسواده ولا بفلاحيه: فسار خالد ووقعت له واقعة الحفير المشهورة قرب البصرة، وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد ان قتل رئيسهم هرمز، ثم قصد الحِيرة فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار الى الانبار وصالح أهلها على ما صالح به أهل الحيرة، واستخلف عليها الزبْرِقان بن بدر. وسار الى عين التمر فالتفت به جيوش العجم فهزمهم وسبى من كان به، وفى جملتهم نصير أبو موسى فاتح الاندلس. ثم سار الى دومة الجندل وأخذها عنوة. ومازال ينتقل فاتحا منصورا من بلد الى بلد حتى وصل الى تخوم الشام، فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتها، فنصره الله عليهم ثم رجع الى الحيرة ومنها الى مكة لأداء فريضة الحج.

أما عياض فانه اخترق بفتوحاته بلاد كردستان وارمينية ثم انضم بأمر عمر الى جيوش أبى عبيدة فى حصاره لدمشق لأهميتها وحصانة موقعها.

ولما كثر الفىء على المسلمين انشأ أبو بكر بيت المال وجعل عليه أبا عبيدة، وجعل على القضاء عمر بن الخطاب، وعلى الحرب خالد بن الوليد، وكان يكتب له على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت.

وفى سنة ١٣ هجرية بعث أبو بكر البعوث الى الشام فعقد لواء الى يزيد بن أبى سفيان وكان يحمله له أخوه معاوية، ثم عقد لواء آخر الى أبى عبيدة بن الجراح، ولواء لشُرَحبيل بن حَسَنة، ولواء لعمرو بن العاص. فاجتمعوا فى اليرموك ووقعت لهم فيها واقعة كبيرة مع جنود الروم الذين أحاطوا بهم من كل جانب. وكان أبو بكر أمدهم بخالد بن الوليد ونصرهم الله فى هذه الواقعة نصرا مبيناً. ثم سار كل لواء الى جهة من جهات الشام، وسار خالد وأبو عبيدة الى دمشق وحاصروها. وفى أثناء حصارها وصلهم كتاب عمر بموت أبى بكر، وفيه عزل خالد عن الجيش وتأمير أبى عبيدة عليه.

وكان أبو بكر رضى الله عنه جليل الصفات، قدوة فى مكارم الاخلاق، كثير الزهد، وكان يعيش بالكفاف: وحسبك ما ورد من ان امرأته اقتصدت من قوت عائلتها ما كان منه فى عدة أيام قدراً يسيراً من الدقيق، وأرادت أن تشترى به شيئاً من الحلوى.

فلما علم به أبو بكر أمر فأعيد الى بيت المال لانه فضل عن قوت عائلته، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم . وكانت هذه النفقة تصرف اليه من بيت مال المسلمين ، لانه ترك تجارته لتفرغه للاشتغال بأمرهم . وكان مرتبه ٢٥٠ دينارا فى السنة وشاة غير كاملة كل يوم . فلما وجد المسلمون أن ذلك لا يكفى عائلته أكملوه الى ٣٠٠ دينار فى السنة مع شاة كاملة كل يوم . أما سيرته مع المسلمين و رفقه بهم وحسن سياسته فيهم وتعهده لمصالحهم، فمما لا يفضله فيه راع مع رعيته . وكان رضى الله عنه كثير النصح لعماله بالاناة فى أعمالهم، والابتعاد بالناس عن مواقف الفتن، والتعفف عما فى أيديهم . وأفضل ما يذكر فى تاريخه اهتمامه بجمع القرآن من صدور الحفاظ، ومن بعض الصحف قبل أن يدخل عليه تغيير أو تبديل : والسبب فى ذلك أن عمر ذهب اليه وقال له «ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وانى لاخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه، وانى لارى أن يجمع القرآن» . و رأى أبو بكر رأى عمر فقال لزيد بن ثابت : قد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فجمعه زيد من الرقاع وصدور الرجال، وكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى قابل ربه ، ثم حفظت عند حفصة بنت عمر .

ومازال أبو بكر رضى الله عنه قائما بأمر المسلمين حتى مرض فى أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ . فأمر عليا يصلى بالناس، ومات رضى الله عنه فى يوم ٢٨ من الشهر المذكور، بعد أن عهد الى عمر بالخلافة من بعده ، ودفن الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام . وكان له من البنين عبد الله وعبد الرحمن ومحمد، ومات عبد الله فى خلافته فخلف سبعة دنانير فاستكثرها عليه . وكان له من البنات أم كلثوم وعائشة (١) أم المؤمنين رضى الله عنها .

---

(١) دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة الاولى للهجرة وماتت رضى الله عنها سنة ٥٨ منها .

عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رباح بن عبد الله بن رداح بن عدى ابن كعب، وفيه يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكنيته أبو حفص، ويلقب بالفاروق وهو أول من سمى بأمير المؤمنين. وكان أعسر يسر (يعمل بكلتى يديه)، طويلا، أصلع، ولونه شديد السمرة. ولد رضى الله عنه سنة أربعين قبل الهجرة. وكان فى صغره يرعى الغنم لأبيه ثم اشتغل بالتجارة وسافر حمله مرات فى الجاهلية الى الشام وغيرها فى تجارته أو سفارته لقومه. وقد ذكر ابن عساكر أنه أسر فى بعض أسفاره بدمشق، فتخلص من أسره وفر الى مكة. وكان شجاعا مهيباً بعيد النظر فى الاشياء مشهوراً بالصدق والامانه والشهامة الادبية شديداً فى قوله وعمله. وكان فى أول الاسلام من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأسلم قبل الهجرة بأربع سنين. وكان أسلم قبله تسعة وثلاثون نفراً كانوا فى أشد ما يقاسونه من قريش، وقد هاجر كثير منهم الى الحبشة وغيرها. ومن كان منهم بمكة كان يستخفى عن الناس، وكان المسلمون يجتمعون سرًّا فى دار الارقم المخزومى تحت الصفا، فقال عمر للنبى صلى الله عليه وسلم «يارسول الله على م نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل»؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنا قليل وقد رأيت ما لقينا». فقال عمر: «والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر الا جلست فيه بالايمان». ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفين من المسلمين، حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر حتى دخلوا المسجد. فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة، ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاروق: لانه باظهاره للاسلام فرق بين الحق والباطل.

ومن ثم أخذ المسلمون وفى مقدمتهم عمر يبثون فى الناس دينهم، وينشرون فضله علانية ويكافحون قريشا غير مبالين بما كانوا يصادفونه منهم من الاهانات وسوء المعاملات، حتى أذن الله رسوله بالهجرة. فهاجر الناس مختفين الاعمر فانه لما هم بالهجرة وكان خامس من

هاجر الى المدينة، تقلد سيفه وتنكب قوسه وأخذ فى يده اسهما ومضى الى الكعبة، ورجال قريش فى فنائها، فطاف بالبيت سبعا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الناس وقال «شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه و يؤتم ولده و يرمل زوجه فليلقنى وراء هذا الوادى : فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين علّمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه» .

ومكث عمر مع رسول الله فى المدينة صادقا فى صحبته، أميناً فى خدمته، متفانيا فى نصرته، متشدداً فى تأييد دعوته، حتى اذا بلغته وفاة رسول الله صلوات الله عليه، وضج الناس لهول هذه المصيبة، جزع من صدمة هذه النائبة جزعا شديداً . ولكنه لم يلبث أن ثبته الله تعالى وذهب بأبى بكر الى سقيفة بنى ساعدة ، وكان قد اجتمع فيها الانصار يريدون خليفة منهم . فمد عمر يده الى أبى بكر و بايعه وتبعه المسلمون حتى تمت له البيعة . ومازال عمر لابى بكر صاحبا متينا ومشيراً أمينا وناصراً معينا حتى مات أبو بكر بعد أن عهد بالخلافة اليه . فلما بايعه المسلمون صعد المنبر وجلس حيث كان يضع أبو بكر قدمه تواضعا، وخطب الناس وقال فى خطابته : أيها الناس من رأى فىّ منكم اعوجاجا فليقوّمه . فقام رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا . فقال عمر الحمد لله على أن فى أمة محمد من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه .

ابتدأ عمر عمله فى الخلافة باهتمامه باجلاء المشركين عن جزيرة العرب بعد أن عوضهم عن أملاكهم بما يزيد عن قيمتها، لانه كان يخشى وقوع الفتنة منهم بين المسلمين . وكان قد أرسل بعزل خالد بن الوليد عن امارة الجيش فى الشام لانه كان يوجس منه خيفة . وأقام بدله أبا عبيدة فى امارته، وأشار عليه بالاهتمام بفتح دمشق لانها حصن الشام و بيت مملكتهم . فسار اليها مع خالد وحاصرها بعد أن أقفل طرقها فى وجه من يأتى لمددها . وكان معهما عياض بن غَنْم وعمرو بن العاص والقعقاع بن عمرو وشرحبيل بن حسنة . وكان كل واحد منهم على جهة وأبلوا جميعا فى حصارها بلاءً حسنا . وانتهى أمرها بأن فتحت من الجهة التى فيها ابن الوليد : لانه استغفل الحرس وتسلق السور ليلا مع بعض رجاله وفتح الباب لجنود المسلمين ، وكان ذلك فى أواخر سنة ١٣ للهجرة . ومن ثم أخذت جيوشهم تفتح ما حولها من البلاد : ففتحت بعلبك وحمص وماوالاها شمالا من بلاد السواد . ثم فتحوا بلادها غربا الى بيروت . وسار عمرو بن

العاص جنوبا الى بيت المقدس فاتحاً لجميع ما فى طريقه من البلاد، وشدد الحصار على أهلها فقالوا له انا لا نرضى بفاتح غير ابن الخطاب . فكتب له فحضر الى الجابية وهى قرية من أعمال دمشق ، وقابله فيها أمراء الجند منهم : أبوعبيدة وخالد ويزيد بن أبى سفيان وابن العاص . وهناك وفد عليه وفد ايلياء وقالوا له انهم نوّاب فى الصلح عن قومهم ، فكتب لهم عهداً بذلك وجعل عليها علقمة بن مِجَزّ ، ثم سار اليها ودخلها ليلا و بنى مسجد الصخرة وجعل قبلته الى الكعبة بعد أن طهره مما تراكم به من القمامة التى كانت الروم تلقيها عليه ، ثم عاد الى المدينة . وكان ذلك فى سنة ١٦هـ .

واستمر أبوعبيدة فى الفتح ففتح حماة واللاذقية وقنّسرين وحلب وأنطاقية . وفى سنة ١٧ هـ دانت للمسلمين بلاد سوريا والشام وجنوب الاناضول من أقصاها الى أدناها . فأخذوا يرتبون أمور البلاد فى داخليتها، و يضعون لها نظاما فى حكومتها . ولكن قيصر الروم لمّ شعثه وجمّع جنوده وجدد قوّته وهاجمهم من جهة قنسرين فى جيش هائل، الا أنه لم يلبث أن انهزم مدحورا وغنم المسلمون سلب جيشه، وبهذه الموقعة قضى على حكم الروم فى هذه البلاد . وسار ابن العاص الى مصر فتم له فتحها فى سنة ٢٠ وأقام فيها يرتب أمورها و ينظم أحوالها وسيّر منها نفراً من قومه الى برقة و بلاد النوبة فافتتحوهما .

هذا ما كان من فتح الشام ومصر . أما ما كان من فتح العراق، فان عمر رضى الله عنه كان سير اليها أبا عبيد الثقفى . فسار حتى عبر الفرات بمن معه من المسلمين، وهناك حصلت بينه و بين الفرس واقعة عظيمة استشهد فيها أبوعبيد فى عدد كبير من قومه . فأرسل عمر سعد بن أبى وقاص فى جند من المسلمين، فسار حتى وصل الى القادسية : وهى مدينة فى جنوب النجف بميل الى الغرب . وكان موقعها فيما بين البادية وسواد العراق، وكان معه عدد عظيم ممن لحق به من المسلمين من الشام وغيرها، منهم النعمان بن مقرّن وحنظلة بن الربيع التميمى والمغيرة بن زُرارة والاشعث بن قيس وعاصم بن عمرو وعمرو بن معديكرب والمغيرة بن شعبه .

وهنالك قابلهم رستم قائد جيوش الفرس بما لا يحصى من الجنود . فحصلت بينه و بينهم جملة وقائع أبلى فيها الطرفان بلاءً عظيما، وكانت نتيجتها قتل رستم وانهزام الفرس ودخل سعد

القادسية سنة ١٥ هـ . ثم سار منها الى المدائن وهى عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربى لبغداد، ويسميها الافرنج اكتيزيفون (Ktésiphon) ويسميها الفرس (بُهرَسير)، فحاصرها وافتتحها بعد شهرين، وهرب كسرى الى حلوان ثم الى أصفهان . وغنم المسلمون من خزائنه مالا يحصى، وجعلوا ايوانه مسجداً وكان ذلك فى سنة ١٦ هـ. وأقام سعد بالمدائن الى سنة ١٧، وفى غضونها فتحت جنوده تكريت والموصل، ثم تحول الى الكوفة بعد أن اختطها بأمر عمر .

وجمع كسرى فل الفرس وشتاتهم الى نهاوند، فلما بلغ عمر ذلك سير النعمان بن مقرّن فى جيش من المسلمين، فأتى اليها وحصر الفرس فيها وقطع عليهم خط رجعتهم، وحصلت بينه وبينهم معركة تشيب لهولها الولدان، كانت دماء الناس فيها تجرى فى ساحة الوغى كأنها الانهار : فزلق جواد النعمان فصرعه، فكتم أمره من عرف ذلك من المسلمين وثبتوا فى قتالهم الى الليل، فانهزمت جيوش الفرس وتشتت شملهم . وسار المسلمون فى أثرهم حتى وصلوا همذان، فصالحهم أهلها على أن يكفوهم شر الفرس من جهتهم، وهرب يزدجرد ملك الفرس الى بلاد التتار ولا زال فيها حتى مات فى خلافة عثمان . وفى واقعة نهاوند قتل كثير من عظماء المسلمين : منهم طليحة الاسدى وعمرو بن معديكرب الزبيدى .

بعد ما استقر أمر المسلمين فى بلاد الفرس أرسل سعد بعياض بن غنم الى الجزيرة، وكانت جنود الروم قد اجتمعت فى أعلاها، فافتتح بلادها الى حدود كردستان وأرمينية شرقا، وبلاد الشام غربا، وكسر جنود الروم ومزقهم كل ممزق، ثم عاد الى حمص فمات بها رضى الله عنه .

وكان عمر قد سير عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى سنة ١٨ الى فتح أرمينية وعززه بسلمان أخيه من جهة، وبحبيب بن مسلمة الفهرى من جهة أخرى . فساروا حتى وصلوا بالفتح الى شمال جبال القوقاز : وبعد أن ضربوا الجزية على أهل هذه البلاد انجلوا عنها الى الجنوب، خوفا مما كانت تستلزمه سعة أطرافها وثغورها من كثرة الجند والمرابطة وما كانوا يخشونه من تجمع جيوش الروم عليهم فى هذه النواحى القاصية .

ولما دانت للمسلمين بلاد الفرس والعراق والجزيرة والشام وسوريا ومصر وبرقة والنوبة، أخذ عمر فى تقوية ثغورها، وتنظيم داخليتها، وترتيب ماليتها، وربط خراجها، ووضع جزيتها: فدوّن الدواوين، ووضع السجلات لضبط حسابات كل مصر وأعطياتها، وقيد محرراتها. وجعل للحسبة ديوانا يفتش على أعمال التجار حتى تكون الناس فى أمن من غشهم، وضرب النقود من الدراهم[1] الفرسية وعلى نقشها (سنة ١٨ هـ) وزاد على بعضها الحمد لله وعلى الآخر محمد رسول الله. وكان رضى الله عنه ينتخب للولايات العمال من أحسن الرجال، ورتب البريد بينهم وبينه يوافونه بأمورهم ويوافيهم برأيه فيها. وكان قبل قيام البريد من الجهات ينادى المنادون فيها « من كانت له الى أمير المؤمنين شكوى فليرفعها اليه فان البريد قائم من غده » وكان رضى الله عنه لا يعين فى القضاء الا أكثر الناس ورعا وزهداً، وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان على قضائه أبو موسى الاشعرى، ولما ولاه القضاء كتب له الكتاب الآتى:

« بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فان القضاء فريضة محكمة، وسنّة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس فى مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييئس ضعيف من عدلك. البيّنة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين: الا صلحاً حرم حلالا أو أحل حراما. ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والاشباه، وقس الامور عند ذلك: ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق. واجعل للمدعى حقا غائباً أو بينة: حداً ينتهى اليه، فان أحضر بينته أخذت له بحقه، والا وجهت عليه القضاء، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ للعذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض: الا محلوداً فى حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة: فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والايمان.

(١) لان الدنانير لم تضرب فى الاسلام الا فى عهد عبد الملك بن مروان.

اياك والقلق والضجر، والتأذى بالناس، والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الاجر، ويحسن بها الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه يكفه الله ما بينه و بين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه ، هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام » .

وكتب الى معاوية وهو عامله على الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فانى لم آلك فى كتابى اليك و نفسى خيراً . اياك والاحتجاب، وائذن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجرئ قلبه، وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه: وانما ترك حقه من حبسه. واحرص على الصلح بين الناس مالم يستبن لك القضاء . واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم .

وكتب الى أحد العمال :

« اجعلوا عندكم الناس فى الحق سواء، قريبهم كبعيدهم، و بعيدهم كقريبهم . اياكم والرشاء والحكم بالهوى، وان تأخذوا الناس عند الغضب . فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » .

وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه :

« أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله . واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، و بأسهم شديد . وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده، لبحوره وفيوضه ودآدئه: الا ان توافقوا غيضاً من فيض . واذا لقيتم القوم أو واحدا منهم فابدءوهم الشد والضرب . واياكم والمناظرة لجموعهم. ولا يَخْدَعُنَّكم فانهم خَدَعَة مَكَرَة أمرهم غير أمركم، الا أن تجادوهم . واذا انتهيت الى القادسية: والقادسية فى باب فارس، وهى أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأُصُل (النواحى)، وهو منزل رغيب خصيب حصين، دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها، و يكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع (الارض الرملية) بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحه : فانهم اذا أحسوك انفضتهم، رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحَدّهم وجَدّهم . فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة ، رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً، الا أن يجتمعوا وليست معهم

قلوبهم . وان تكن الاخرى كان الحجر فى ادباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها اجراء وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح ويريد لكم الكرة عليهم .

من الكتاب الاول ترى أن عمر رضى الله عنه كان من أكبر المشرعين ، وكتابه هذا نظام تشريعى جمع بين كلماته القليلة روح التشريع القضائى ، مما تراه مبسوطاً فى مجلدات ضخمة . ومن كتابه الثانى والثالث ترى انه من أبعد الناس نظرا فى النظام الادارى . ومن الرابع ترى انه أكثر الناس معرفة باساليب الحرب . وقلما تجتمع هذه المزايا كلها فى شخص واحد . نعم كان عمر نادرة فى بابه بل نابغة من نوابغ الخليقة . ومَنْ من الناس يجلس مكان عمر بجزيرة العرب ، بينما هو يحرك عماله فى الفرس والعراق والجزيرة والشام ومصر واليمن وغيرها : فى حروبهم ، وادارتهم ، وجبايه أموالهم ، وقضائهم ، حتى لكانهم على مرآى منه ومسمع .

مَنْ من الملوك يمكنه أن يصل ليله بنهاره فى نصح رعيته ، وسهره على كل ما فيه مصلحتها كما كان يعمل عمر : وهو مع ذلك يرى نفسه مقصرا فى واجبه غير قائم بعمله فلا ينفك مفكرا على الدوام فى حساب ربه له على كل صغيرة يتوهم أنه ارتكبها فى سبيل المصلحة العامة !!!

اللهم ان هذا هو مقام الراعى من رعيته : فنعم الراعى عمر ونعمت الرعية رعية عمر !!!

كان رضى الله عنه كثير النصح لعماله ، شديد المراقبة عليهم ، كثير التجسس عن أحوالهم ، حتى أقام عليهم العيون يوافونه باخبارهم كيلا يأخذوا الناس بظالمهم . وجعل له عمالا من أهل الورع والصدق يفتشون على أعمال الولاة والقضاة . ومن ذلك أن قد شكا الناس بالكوفة أميرهم سعد بن أبى وقاص فى سنة احدى وعشرين ، فبعث عمر محمد بن مَسْلَمَة الانصارى ، فحرق عليه باب قصر الكوفة وجمع الناس فى مساجدها ، فسألهم عنه . فحمده بعضهم وساءه بعضهم ، فعزله عمر وبعث عليها عمار بن ياسر . وكان عمر يتابع أوامره لولاته بعدم ظلم الرعية ، ومن ذلك كتابه الى عتبة بن غزوان أمير البصرة : « أعزب الناس عن الظلم ، واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى ، فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم ، فاوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصرا » .

وخطب عمر في الناس يوما فقال : « أيها الناس اني والله لم أرسل عمالا اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه اليّ : فوالذي نفس عمر بيده لأقصنّه منه » .

وكان عمر رحيما بالناس رفيقا بهم ولم يقتصر رحمته على الانسان بل كان يرفق بالحيوان ، قال المسيب بن دارم : « رأيت عمر بن الخطاب يضرب حمّالا ويقول حملت جمالك بما لا تطيق » .

هذه كانت حياة عمر مع عماله ورعيته لم يفرق فيهم بين كبير وصغير ، غني أو فقير ، وحسبك ما كان له مع جبلة بن الايهم ملك غسان ، فانه أسلم في جمع من قومه وأتى الى مكة ، ففرح به عمر وأكرمه كثيرا ، وبينما هو يطوف حول الكعبة اذ وطىء اعرابي رداءه فانحسر عنه ، فلطمه جبلة فتقاضاه الاعرابي عند عمر ، فقضى بالقصاص الا اذا حاور صاحب الحق عن حقه . فقال جبلة : أتُعامَلُ الملوك عندكم معاملة السوقة يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم لم يفرق الاسلام بين ملك وسوقة . فاستمهله جبلة حتى يرى رأيه ، وفر ليلا الى بلاده . وكان عمر شديدا في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم . أقام حدوده في الناس لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم قريبهم وبعيدهم ، وناهيك بحده لولده عبد الرحمن في الخمر حتى مات وهو يحده . وقد كان رحمه الله شديد العناية بالفقراء : ولهذا اتخذ لهم دار الدقيق يعين بها المنقطع منهم .

أما حياته في شخصه فقد كان رضي الله عنه كثير الورع والزهد شديد الخوف من الله يقتص من نفسه لغيره . وكان يعيش من عمله وتجارته الى أن صارت اليه الخلافة . فلما ولي أمر المسلمين واشتغل بشؤونهم أرادوا أن يرتبوا له من بيت المال ما يقوم بأمره وسألوه مقدار ما يريد ، فسأل عليا رأيه فقال له : « ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، ليس لك من هذا الامر غيره » . فقال عمر : القول ما قال ابن أبي طالب .

وروى الطبري ان هذا العطاء الذي رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة : فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وطلحة والزبير وتشاوروا في

زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال، فهابوا مقابلته بذلك. فأتوا ابنته حفصة التي كانت زوجاً للنبي صلى الله عليه وسلم وأمروها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماءهم. فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه، وقال لها من هؤلاء؟ قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك، فقال لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملابس؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع. قال فأي الطعام ناله عندك ارفع؟ قالت خبزنا خبزة شعير وصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة (فربه السمن) فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها وتطعم استطابة لها. قال فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ (ألين) قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا، فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه، قال يا حفصة فأبلغيهم عني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية (الرجاء). واني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية. وانما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الاول وقد تزود زاداً فبلغ. ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه. ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وان سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما.

مازال عمر رضي الله عنه على هذه الحال بين رعيته: مهتماً بأمورهم غير مفكر الا فيما يكون من رقيهم وسعادتهم. يقضي بينهم بما أتى من عند الله ورسوله، واذا وقع له ما لم يمكنه أن يستخرج حكمه من القرآن والسنة، جمع اليه خاصة المسلمين أعقلهم وأعرفهم بكتاب الله وسنة رسوله وسألهم رأيهم وقضى بما يرونه. وبذلك تحقق الحكم الشورى بين المسلمين: فعلا به سلطانهم وعظم ملكهم وانبسطت أفياء نعمتهم. ومازال رضي الله عنه مشتغلاً بنصرة الاسلام وتعزيز أركانه وتوطيد بنيانه الى سنة ٢٣ من الهجرة، فأتاه فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وكان فارسياً، يشكو اليه كثرة ما ضرب به سيده عليه من الخراج. فسأله عمر كم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم. قال وايش صناعتك؟ قال نجار نقاش حداد. قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال. فتوعده الغلام وانصرف. فقال عمر توعدني العبد!!

وتحيّن أبولؤلؤة عمر فجاءه فى صلاة الغداة حتى قام وراءه، فلما كبر وجأه أبولؤلؤة فى كتفه وخاصرته فسقط عمر ونادى عبد الرحمن بن عوف وأمره أن يصلى بالناس . وكان ذلك يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين . وفى غد ذلك اليوم أخبر عبدُ الرحمن بن أبى بكر عبيدَ الله بن عمر أنه رأى أبا لؤلؤة مع الهرمزان ومعهما رجل اسمه جفينة، وكانوا يتناجون فلما رأوه تفرقوا وسقط منهم ذلك الخنجر . فعدا عبيد الله على ثلاثتهم فقتلهم فامسكه سعد بن أبى وقاص حتى جاء به الى عثمان بعد البيعة .

ولما مات عمر صلى عليه صهيب . ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وعمره ثلاث وستون سنة، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحدا وعشرين يوما . وقيل بل كانت وفاته فى يوم الاربع المذكور من غير أن يعهد بالخلافة الى أحد: ولما سئل فى ذلك قبل وفاته ، قال انه لا يريد أن يحمل تبعتها حياً وميتاً ، وجعلها شورى الى ستة وهم على وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف . وكان له من الولد: عبد الله وحفص وعبيد الله وعاصم وفاطمة وزيد وعبد الرحمن . أما عماله فى السنة التى مات فيها فكان على مكة: نافع بن عبد الحارث الخزاعى، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفى، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبو موسى الاشعرى، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى دمشق معاوية ابن أبى سفيان، وعلى حمص عمير بن سعد، وعلى البحرين عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكان كاتبه زيد بن ثابت ، وعلى بيت المال عبد الله بن أرقم .

عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويكنى بابى عبد الله . ولد رضى الله عنه سنة ٢٨ قبل الهجرة . وكان ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، بوجنتيه نكتات جدرى ، أقنى مشرف الانف ، من أجمل الناس ، رقيق

البشرة، عظيم اللحية طويلها، اسمر اللون، كثير الشعر، له جمة أسفل أذنيه، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، أصلع الرأس، وكان يصفر لحيته . وكان بزازا وتاجرا وله ثروة واسعة في قومه وكان شديد الكرم فيهم كثير البذل هيناً ليناً كثير الحياء حسن الخلق، لين العريكة: وكان له بذلك منزلة من قلوب الناس يحبونه ويهشون اليه ويحترمونه . وهو رضي الله عنه من السابقين الاولين في الاسلام : أسلم بدعوة من أبي بكر فاضطهدته قريش ونالت منه، فهاجر الى الحبشة . وكان العرب يتعاهدونها قبل الاسلام بالتجارة . وهاجرت معه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان تزوجها قبل الاسلام أو بعده على خلاف بين المؤرخين: وهو رضي الله عنه أول من هاجر في الاسلام ، وهاجر معه أحد عشر رجلا من المسلمين منهم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، ثم لحق بهم جعفر بن أبي طالب وآخرون . وأرسلت قريش بعمرو بن العاص الى النجاشي يطلبون منه ردهم اليهم فلم يفعل . وما زالوا ببلاد الحبشة حتى بلغهم كذبا أن قريشا قد أسلمت كلها ، فعاد عثمان ومعه نفر منهم الزبير بن العوام الى مكة ، وكان ذلك عام ثلاث أو أربع قبل الهجرة، فوجدوا المسلمين على حالهم من الهوان وسوء معاملة قريش لهم فاقاموا معهم على أذى قريش حتى أمر الله نبيه بالهجرة الى المدينة فهاجر عثمان اليها ومكث في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ماتت رقية زوجته، فزوجه صلى الله عليه وسلم بام كلثوم أختها، فكانوا لذلك يسمونه ذا النورين . وأقام عثمان في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يساعده بنفسه وماله ، ولما أراد رسول الله صلوات الله عليه تجهيز جيش العسرة ، أتى اليه عثمان بالف دينار وألقاها في حجره اعانة للمسلمين ، فجعل رسول الله يقلبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » . ؟

ما زال عثمان رضي الله عنه في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبة صاحبيه يعمل معهم في توطيد أركان الاسلام وتشييد بنيانه ، وكان آية من آيات الله في مكارم أخلاقه وجميل صفاته وسديد آرائه ، حتى مات عمر رضي الله عنه . ولما دفن عمر بن الخطاب جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة فبايعوا لعثمان بن عفان يوم الاثنين، لليلة بقيت من

ذى الحجة سنة ٢٣ ، أو لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤ على رواية أخرى .

وأول عمل له فى خلافته أنه جمع الناس الى ناحية فى المسجد وشاورهم فى أمر عبيد الله بن عمر لقتله من قتل فاشار على بقتله . وقال عمرو بن العاص : لا يقتل عمر بالامس و يقتل ابنه اليوم ، وقد حصل هذا الحدث وليس لك على المسلمين سلطان . فجعلها عثمان دية واحتملها وقال أنا وليه . ثم كتب عثمان الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس كتباً بلغت النصح والارشاد ، وطلب الى عماله فيها السير فى طريق العدل والانصاف والمساواة بين الناس كبيرهم وصغيرهم ، مسلميهم وأهل ذمتهم ، و زاد فى اعطيات جيشه . و فى سنة ٢٦ سير عثمانُ حبيبَ بن مسلمة الفهرى ومعه سلمان بن ربيعة الى فتح أرمينية والقوقاز ، وكانتا قد نقضتا الصلح بعد وفاه عمر فافتتحوهما ، وأقاموا على ثغورهما من يحفظهما من جند المسلمين .

وبينما كانا يتساجان بجيوشهما فى هذه البلاد بينما كان معاوية يغير من جهة أخرى على بلاد الاناضول . و فى سنة ٢٧ استأذن معاويه عثمان رضى الله عنه فى غزو الروم من جهة البحر فاذن له ، وأرسل الى عبد الله بن سرح عامله على مصر بان يسير الى الشام اسطولا يساعد اسطول معاويه . وسار الاسطولان فافتتحا قبرص وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار يدفعونها سنوياً . و فى سنة ٢٩ فتح معاويه جزيرة افريطش (كريد) ، وقد كان عثمان أصدر أمره فى سنه ٢٥ الى عبد الله بن سرح بغزو افريقية [1] ، فامر عقبة بن نافع على جند وأمر عبد الله بن نافع على جند آخر وسيرهما الى بلاد المغرب فصالحهم أهلها على مال يؤدونه اليهم ولم يمكنهم التوغل فيها لكثرة أهلها .

و فى سنة ٢٦ جهز عثمان من المدينة جيشاً لفتح افريقية وفيه ابن عباس وابن عمر وابن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وعبد الله بن الزبير ، فساروا مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح حتى وصلوا برقة فلقيهم بها عقبة بن نافع فيمن كان معه من المسلمين ، وساروا الى طرابلس فقابلهم جيوش الروم وعليهم جريجوار (جرجير) فحصلت بينهم موقعة هائلة انهزمت فيها جيوش الروم بعد أن قتل عبدُ الله بن الزبير قائدهم جريجوار . وبذلك

(١) كانت العرب تطلق اسم افريقية على بلاد تونس .

صارت البلاد الى المسلمين فولى عثمان على افريقية عبد الله بن نافع، وعادا بن سعد الى مصر . فلما بلغ قسطنطين بن هرقل امبراطور الروم خبر استيلاء العرب على بلاده فى افريقية جهز اسطولا كبيرا مؤلفا من ٦٠٠ مركب وسافر به من القسطنطينية الى تونس . فعلم به عبد الله بن سعد بن أبى سرح فخرج اليه من مصر فى اسطوله، وخرج معاوية فى اسطوله أيضاً من سوريه والتقوا بمراكب الروم وأثخنوهم، فانهزم قسطنطين بما بقى من مراكبه الى صقلية فقتله أهلها . والمسلمون يسمون هذه الواقعة بواقعة ذات الصوارى .

وكانت بلاد فارس قد انتقضت أطرافها فعزل عثمان فى سنة ٢٦ أبا موسى الاشعرى عن البصرة بناء على طلب أهلها لشدة رفاهته، وولى بدله عبد الله بن عامر القرشى وهو ابن خال عثمان وعمره اذ ذاك ٢٥ سنة، فبلغت جنوده الى أقاصى بلاد الاكاسرة . ثم انتقضت فارس فبلغ ابن عامر الخبر وهو بالبصرة فاستنفر الناس اليهم وسار وعلى مقدمته عثمان بن أبى العاصى وعلى خيله عمران بن حصين فلقيه الثائرون على اصطخر وحصل بينهم مواقع هائلة وافتتح اصطخر عنوة وفنى فى تلك المواقع أغلب بيوتات الاساورة لانهم كانوا جعلوا هذه المدينة مركزا لهم ثم وطئ ابن عامر بلاد فارس وطأة قضى فيها على ما كان بقى فيهم من عزة الملك وخيلاء السلطان . ثم سار الى خراسان وكانت قد انتقضت وسير على مقدمته الاحنف بن قيس وتقدم الى نيسابور فافتتحها الى هراة ثم سير الاحنف الى طخارستان فافتتحها الى مرو وسار منها الى بلخ فافتتحها أيضا . وسير عامر بن الربيع بن زياد الحارثى الى سجستان فافتتحها ثم انتقض أهلها فأرسل اليها عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس فافتتح بلادها الى حدود الهند .

وفى سنة ٣٠ سار سعيد بن العاصى أمير الكوفة الى طبرستان وكان فى جيشه الحسن والحسين وحذيفة اليمانى وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص فأوغلوا فيها بالفتح لكنها بعد ذلك كانت تنتقض فيغزوها المسلمون حتى استخضعها يزيد بن المهلب فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان .

ولما عاد بعض الناس من غزواتهم سألهم عثمان عن حال المسلمين فأخبروه بتعدد

قراءات القرآن فيهم، وقالوا ان هؤلاء يقولون قرآننا خير من قرآن الآخرين وأولئك يقولون بل قرآننا خير من قرآنهم فطلب عثمان الصحف التى كان جمعها أبو بكر من حفصة بنت عمر واستكتب عشرة مصاحف منها وأرسلها الى الجهات ، وأمرهم أن يحرقوا كل ماعداها وبذلك كان حفظ القرآن الكريم على ماهو عليه اليوم من غير اختلاف ولا تغيير ولا تبديل بين أهل جميع الاقطار والامصار، وهو مالم يتيسر لكتاب غيره بالمرة .

ويقال ان أحد هذه المصاحف موجود بكتبخانه موسقو بالروسيا، وله صورة أخذت بالفوطوغراف موجودة بكتبخانتنا المصرية التى بها مصحف آخر يزعمون أنه من مصاحف عثمان، ويوجد فى الاستانه بخزينة الآثار النبوية مصحف يقولون انه منها . ويقولون ان المصحف الشريف الموجود بالحجرة الشريفة الآن منها أيضا

وفى مدة عثمان رضى الله عنه اتسع ملك المسلمين كثيرا وثبت قدمه بتلك الفتوحات التى ساحت فيها جيوشهم فى أملاك الروم والعجم .

الا أن عثمان كان يكثر من ولايه قرابته على الامصار ، وكان يقرّب اليه بنى أمية ويستشيرهم فى أموره حتى ظهروا فى خلافته على قريش كلها، وصارت لهم بالمدينة أملاك واسعة وثروة طائلة وكان مشيره ووزيره وكاتب سره مروان بن الحكم وكان كثيرا ما يعمل فكره ويمضى له رأيه حتى بالغ الناس فى أن ختم عثمان كان مع مروان يمضى به مايريد . ونقم لذلك جماعة من قريش وكثير من صحابه رسول الله، وتذمرت الولايات مما كانوا يأخذونه على ولاتهم من سوء عملهم فخاطبوا فى ذلك عثمان وأوفدوا اليه وفودا يطلبون منه عزل بعضهم فلم يقبل : فرادت الفتنة وثار الناس من مصر والبصرة، وقصدوا المدينة فى جموع كثيرة ومازال علىّ كرم الله وجهه بينه وبينهم حتى قَبِل عثمان بعض مطالبهم وسافروا من المدينة، ثم أعادوا الكرة اليها وفى يدهم كتاب بختم عثمان قالوا انهم وجدوه مع رسول من عثمان الى ولاته بحبسهم وتعذيبهم، وكان منهم محمد بن أبى بكر . فحلف عثمان بانه لم يكتب ذلك ولم يأمر به ولا علم له به فنسبوه للضعف فطلب منه علىّ أن يبعد عنه مروان فلم يقبل فتركه واشتدت الفتنة وطلب الثائرون أن يعتزل عثمان العمل فلم يجبهم وكتب الى ولاته على الامصار بان

يوافوه بالمـدد، وكان ذلك باشارة من مروان : وخاف الثائرون شر ذلك فهجموا على داره وحاصروها ومنعوا الماء عنها . وأرادوا الدخول عليه فوجدوا على بابها عبـد الله بن عمر وعبد الله بن سلام وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابني علي وأباهريرة ومحمد بن حاطب وزيد بن ثابت ومروان بن الحكم والمغـيرة بن الاخنس يمنعونها بسيوفهم . فتسلقوها من خلفها ودخلوا على عثمان والمصحف في يده يقرأ فيـه وقتلوه : وقيل ان الذي قتـله رجل من مصر اسمه جبلة وكان ذلك في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ . ودفن عثمان رحمه الله في البقيع وعمره ٨٦ سنة تقريبا وكان له من الولد عبد الله الاكبر وعبد الله الاصغر وهو من رقية بنت رسول الله توفي صغيرا، وعمرو وأبان وخالد وعمر وسعيد والوليد وأم سعيد والمغيرة وعبد الملك وأم عمرو وعائشة .

أما عماله في السنة التي توفي فيها، فهم عبد الله بن الحضرمي على مكة، والقاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف ، ويعلى بن منبـه على صنعاء، وعبـد الله بن عامر على البصرة، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص (من طرف معاوية)، وحبيب بن مسلمة الفهري على قنسرين، وأبو الاعور السلمي على الاردن ، وعلقمة بن حكيم الـكناني على فلسطين، وأبوموسى الاشعري على الـكوفة، وعلى خراجها جابر المزني ، وعلى حربهـا القعقاع بن عمرو ، وجرير بن عبـد الله البجلي على قرقسيا، والاشعث بن قيس الـكندي على اذربيجان وعتبـة بن النهـاس على حلوان ، ومالك بن حبيب على الماه، والنسير على همدان، وسـعيد بن قيس على الري، والسائب بن الاقرع على اصبهان، وكان على مصر عبد الله بن سـعد ثم تغلب عليها محمد بن أبي حـذيفة، وكان له على بيت المال عقبـة بن عامر. وعلى القضاء زيد بن ثابت

عليّ

هو عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب . ولد كرم الله وجهه سنة ٢٥ قبل الهجرة، وحصل بمكة قحط في نحو السادسة من عمره فكفله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذه الى بيته وكان يحبه حباً جماً . ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان علي أوّل من آمن به بعد خديجة وأوّل من صلى معه من المسلمين : وكان يخرج مع رسول الله الى الصحراء فيصلي معه خفية ثم يعودان الى مكة . وكان ألصق الناس برسول الله : فتعلم من علمه وتأدب بأدبه . وكان أشبه الناس به في صورته : فكان رضي الله عنه : ربعة أدعج العينين عظيمهما، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر، عظيم البطن، عريض المنكبين، له مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يبين عضده من ساعده، قد أدلج دلاجا، شثن الكفين، عظيم الكراديس ، أغيد كأن عنقه ابريق فضة ، أصلع ليس في رأسه شعر الا من خلفه، أبيض اللحية ، قريب الى السمن ، ثبت الجنان ، اذا مشى الى الحرب هرول ، واذ أمسك بذراع رجل أمسك نفسه فلم يستطع أن يتنفس . وكان رضي الله عنه كثير الصبر، شجاعا، مهيباً، ورعا ، زاهداً، أعلم الناس بدين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وكان كرم الله وجهه شديداً في دينه، لا يرائي فيه ولا تأخذه في الله لومة لائم . وسئل مرة : لم نر معاوية أسوس منك يا أمير المؤمنين فقال والله ما معاوية بأسوس مني ولكن السياسة تميل الى الغدر ولست أميل اليه .

وكان رضي الله عنه ، فصيح اللسان ، قوي الجنان ، أكبر العرب بلاغة، وأكثرهم حكمة . ودونك بعض خطبه وحكمه بكتاب نهج البلاغة . ما زال علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أراد الهجرة فعلم بأن قريشاً أجمعوا أمرهم على قتله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بأن يلبس رداءه وينام في فراشه من ليلته وقال له اني مهاجر الى يثرب ، وأمره أن يلحق به بعد أن يؤدي عنه دينه، ويرد ما كان عنده من الامانات الى أربابها . وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر عليّ بعد هجرته بثلاثة أيام بعد

أن أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس : وهو ثالث من هاجر . وبعد الهجرة زوّجه النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة ، وكانت أحب الناس اليه فكان ألصق الناس برسول الله قبل الهجرة وبعدها . وجعل الله ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام في بنيه .

ومكث علي يكتب لرسول الله وينصره على أعدائه ويقوم بخدمته خير قيام، حتى اذا مات عليه الصلاة والسلام كان لصاحبيه أميناً معيناً مرشداً مُبَيِّناً للناس ما غمض عنهم من كلام الله وسنة رسوله . حتى اذا كانت خلافة عثمان كان في عونه ونصحه، ثم اعتزله في آخر أيامه لما كان يحيط بابن عفان من بطانته التي كانت لا تنظر الى المصلحة العامة ، بجوار مصلحتهم الخاصة . فكان ما كان وقتل عثمان، فاجتمع الناس على علي ّ وأرادوا بيعته وأبى وقال: لأن أكون وزيراً لكم أحب الي ّ من أن أكون أميراً . وكان الناس قد افترقوا فرقاً وأحزاباً: فمال أهل الكوفة الى الزبير وأهل البصرة الى طلحة، وغيرهم الى سعد وابن عمر، وذهب الناس الى علي ّ وألحوا عليه فخرج الى المسجد فبايعه الناس ثم بايعه طلحة والزبير . وكان ذلك في ٢٥ ذي الحجة سنة ٣٥ﻫ . وجاءه طلحة والزبير وطلبا اقامة الحدود على قاتلي عثمان: فقال لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس، وننظر في الامور، فتؤخذ الحقوق . فافترقوا عنه وأكثر الناس المقال في قتل عثمان ، وفر بنو أمية الى الشام مع مروان . وفي اليوم الثالث نادى علي ّ برجوع الاعراب الى بلادهم، فتذمروا وأبوا . وأخذ علي ّ يفرق عماله على الامصار فولى ابن عباس على الشام فلم يقبل ، وأشار عليه بأن يقر عمال عثمان حتى يهدأ الحال كيلا يحملوه شيئاً من دمه فلم يسمع له علي ّ لشدته في الحق . وبعث على البصرة عثمان بن حنيف، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب من المهاجرين، وعلى اليمن عبد الله بن عباس ، وعلى مصر قيس بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف . فمضى عثمان الى البصرة فاختلفوا عليه وأطاعته فرقة منهم . ومضى عمارة الى الكوفة فلما بلغ زبالة لقيه طليحة وقال له ارجع فان القوم لا يستبدلون بأبي موسى . ومضى ابن عباس الى اليمن . ومضى قيس الى مصر فافترقوا عليه، فرقة كانت معه وأخرى امتنعت عنه حتى ترى فعل علي في قاتلي عثمان . ومضى سهل الى الشام

فلقيه خيل عند تبوك فقال لهم انه أمير على الشام، فقالوا له ان كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع وجاءت أخبار الآخرين بمثل ذلك ، فجمع عليّ طلحة والزبير وقال لهما قد وقع ما كنت أحذركم منه فسألاه الاذن فى الخروج الى مكة للاعتمار فأذن لهما . وكتب الى أبى موسى فكتب اليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم . وكتب الى معاوية فلم يجبه الى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان، ثم أرسل اليه كتابا مختوما عنوانه من معاوية الى عليّ ففضه عليّ فلم يجد فيه شيئاً، فقال للرسول ماوراءك، فقال تركت قوما لا يرضون الا بالقود: قال ممن، قال منك : وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوبا على منبر دمشق، فقال عليّ اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله . ودعا أهل المدينة الى قتال أهل الشام وكتب الى ولاته على الامصار بأن يندبوا الناس اليه . وكانت عائشة خرجت الى الحج وعثمان محصور، فلما قصدت الرجوع الى المدينة بعد الحج بلغها فى الطريق قتل عثمان ومبايعة الناس لعليّ فعادت الى مكة . ولما وصل الزبير وطلحة الى مكة اتفقا مع عائشة على المطالبة بدم عثمان وساروا بألف رجل ممن كان على رأيهم من أهل مكة الى البصرة ومعهم كثير من بنى أمية منهم أبان بن عثمان وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة وعبدالله بن عامر الحضرمى وكان والياً على مكة لعثمان وساعدهم بمال كثير، وساعدهم كذلك يعلى بن منبه الذى اشترى جملا بمائة دينار لم ير مثله فى العرب، وأركب عليه عائشة . فلما وصلوا البصرة دعوا أهلها لنصرتهم فلم يقبل منهم عثمان بن حنيف عامل عليّ عليها، فنتفوا لحيته وهشموا وجهه وقتلوا من كان معه وحصلت لهم موقعة مع من قام فى وجههم من البصريين ، وكانت الغلبة لعرب البصرة . وبلغ ذلك علياً فندب الناس اليهم وسار من المدينة بعد أن أقام عليها سهل بن حنيف وعلى مكة قثم بن العباس . وأرسل محمداً بن أبى بكر ومحمداً بن جعفر الى الكوفة لاستنفار أبى موسى الاشعرى بأهلها فلم يقبل منهما أبو موسى كلاما ورد أهل الكوفة عن الخروج معهما فرجعا الى عليّ بالخبر وهو بذى قار ، فأرسل الاشتر وابن العباس الى أبى موسى فلم يجب لهما فأرسل ولده الحسن وعمار بن ياسر الى الكوفة فنفر معهما منها تسعة آلاف نفس منهم القعقاع ، وسعد بن مالك،

وهند بن عمرو ، والهيثم ، وزيد بن صوصان ، وعدى بن حاتم ، وغيرهم . وقدموا على علىّ بذى قار ففرح بهم وأكرمهم وأرسل القعقاع الى البصرة ليدعو عائشة وطلحة والزبير الى الالفة والجماعة فقدم الى البصرة واجتمع بهم .

ومازال يقيم عليهم الحجة فى خروجهم حتى مالوا الى الصلح . فعاد الى علىّ وأخبره بذلك ففرح بحقن دماء المسلمين وسار فى الناس حتى قدم البصرة ، وتردد عقلاء الناس بين الطرفين ، وتمايل علىّ مع طلحة والزبير وكادت عرى الصلح تتوطد فيما بينهم ، ولكن الذين أثاروا هذه الفتنة من الامويين أحزنهم هذا الامر وباتوا يتشاورون وصمموا على اشعال نار الحرب ، وهجموا على جهة من جيش علىّ وهم لا يشعرون ، وكثر صياح الناس وتساءل علىّ عن الخبر ، فقالوا له ان جيش طلحة والزبير هاجم جيشه ، فركب فيمن معه واستحر القتال . وكانت عائشة راكبة جملا ومتنحية عن ساحة الحرب لتشرف على قومها وهى تشجعهم وتأمرهم بالصبر وتحرضهم على الكفاح واجتلد الناس أمام الجمل وقتل تحته خلق كثير فأمر علىّ بعقر الجمل قبل أن تصاب عائشة فضرب ساق البعير فوقع الى الارض وقطع القعقاع مع زفر بطان البعير وحملوا الهودج من بين القتلى وأمر محمداً بن أبى بكر أن يضرب عليها قبة ، وفر أصحاب الجمل فأمر على بعدم اتباع الفارين وعدم الاجهاز على الجرحى وسرح عائشة مع نفر من قومها رجال ونساء الى مكة من بعد أن ودعها أميالا فسافرت اليها وحجت ثم عادت الى المدينة . أما بنو أمية فانهم انهزموا الى الشام وقتل فى واقعة الجمل عبد الرحمن أخو طلحة والمحرز بن حارثه ومحاشع ومحالد ابنا مسعود وطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن ابن عتاب وغيرهم وجرح عبد الله بن الزبير .

وبعد الواقعة دخل علىّ البصرة فبايعه أهلها وولى عليها ابن عباس . ثم رجع الى الكوفة ، وبعث الى جرير بن عبيد الله البجلى بهمدان والى الاشعث بن قيس باذربيجان وكانا من ولاة عثمان عليهما فحضرا اليه بعد أن أخذا البيعة من أهل البلدين فارسل جريرا الى معاوية يعلمه بمبايعة الناس له ويدعوه الى رأى الجماعة فاستبقاه معاوية عنده زمنا ، ثم اعتذر له بان أهل الشام يطالبون بدم عثمان ، ورجع جرير بالخبر الى على

فاستنفر الناس لحرب الشام، وقدم عليه ابن عباس برجال من البصرة وساروا الى المدائن ومنها الى الرقة والتقوا برجال معاوية على الفرات وقد ملكوا عليهم شريعة الماء وبادر وهم القتال، فشكا الناس الى علي العطش فبعث الى معاوية يقول له انا سرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نعذر اليكم فسابقنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك وقد منعتم الماء، والناس غير متهيئين فابعث الى أصحابك يخلون عن الماء للناس حتى ننظر بيننا وبينكم، وان أردت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا، فلم يقبل معاوية، وكان ذلك أول ذى الحجة سنة ٣٦ وأرسل على الى معاوية رسلا ينصحونه ويطلبونه الى الصلح: فقال لهم ليس بينى وبينكم الا السيف فرجعوا الى على بالخبر، واقتتل العسكران أيام ذى الحجة كلها، واستأنف على ارسال رسله الى معاوية فى حقن دم المسلمين فلم يقبل: وابتدأ القتال بين العسكرين، وكان قواد معاوية حبيب بن مسلمة، وذو الكلاع، وأبو الاعور، وعمرو بن العاص، ومسلم بن عقبة، والضحاك بن قيس . أما قواد على فكانوا: الاشتر النخعى، وعبد الله بن عباس، وسهل ابن حنيف، وقيس بن سعد، وعمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة، وعدى بن حاتم، ومسعر بن فدكى . واستمر القتال فاستماتت الناس من الطرفين جملة أيام، وأبلى الاشتر وعمار بلاء عظيما، وكانا كلما هجما فرقا جموع معاوية وشتتا رجاله وهجم عمار بقوم كانوا معه فدخل فى صفوف جيش الشام ومازال يفرق كتائبهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه، فلما بلغ ذلك عليا حمل بالناس وهجم على جيش الشام فازالهم عن مواقفهم، ورأى عمرو بن العاص الغلبة فى جيش العراق فقال لمعاوية مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ففعلوا ذلك ، فقال جيش العراق نجيب الى كتاب الله، فقال على لهم امضوا فى حربكم والله ما رفعوها الا مكيدة، فلم يقبلوا وطلبوا اليه أن يمنع الاشتر ويزيد بن هانئ من استمرارهما فى قتال معاوية، وحضر اليهم الاشتر وعنفهم وقال امهلونى فقد أحسست بالفتح فابوا وكثرت الملاحاة فيما بينهم فخاف على وقوع الفتنة وأرسل الاشعث بن قيس الى معاويه يسأله سبب رفع المصاحف على الرماح ، فقال له لنرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به من كتابه، تبعثون رجلا ترضونه ونحن نبعث رجلا منا ونأخذ عليهما العهود بان يعملا بما فى كتاب الله ثم نتبع ما اتفقا عليه، فقبل الطرفان ذلك وقالت القراء من أهل العراق رضينا بان يكون أبو موسى الاشعرى فلم يرض به على لعدم ثقته به واختار الاشتر، فابى

قوم من العراق الا أن يكون أباموسى، واختار معاوية عمرو بن العاص فحضر عند على ليكتب العهد بينه وبين معاوية بالحكمين وأخذ عليه المواثيق من رؤساء العسكرين وكان ذلك فى ١٣ صفر وأجلا الحكم الى رمضان فانصرف الناس الى بلادهم من صفين ورجع على الى الكوفة وبعض رجاله ينكرون عليه التحكيم . ولما جاء ميعاد التحكيم حضر الحكمان فى رجال من قومهما الى دُومة الجندل، نخدع عمرو أباموسى وقال له الاحسن بنا أن نخلع كل منا صاحبه حقنا لدماء المسلمين وهنالك يبايع الناس من أرادوا، فقبل أبوموسى رأيه وصعد المنبر وخلع صاحبه، ثم صعد عمرو وقال ألا ان أباموسى خلع صاحبه وأنا أثبت صاحبى معاوية فهو ولى ابن عفان . وتفرق الناس بعد أن كادوا يقتتلون ولحق أبوموسى بمكة .

ولما أرسل علىّ أباموسى الى التحكيم عارضه بعض الناس من أهل البصرة والكوفة، وطلبوا اليه أن يرسل غيره، فلم يقبل لسابقة عهده مع معاوية بذلك، فتركوا البصرة وخرجوا عليه وأمروا عليهم عبد الله بن وهب فى ١٠ شوال وقصدوا النهروان، ولما بلغ عليا خبر الحكمين أنكر عليهما، وقال ان هذين الحكمين نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلفا فى الحكم فاستعدوا للسير الى الشام وأخذ يحرض الناس على حرب معاوية فاجتمع لديه ثمانية وستون مقاتلا، وكانت الخوارج التقت بعبد الله بن خباب الصحابى قريباً من النهروان فلما عرفوه سألوه عن الشيخين (أبى بكر وعمر) فاثنى عليهما وعلى عثمان، فسألوه عن حال على قبل التحكيم وبعده: فقال انه أعلم الناس بكتاب الله فقتلوه وقتلوا امرأته، فلما بلغ عليا ذلك ندب الناس اليهم وسار الى النهروان وأرسل الى الخوارج وكانوا أربعة آلاف يقول لهم ان من رجع الى الكوفة أو الى البصرة فهو آمن فرجع قوم منهم الى بلادهم وآخرون انضموا الى جيش على ولم يبق منهم الا ألف وثمانمائة فحمل عليهم على بمن معه وقتلوهم عن آخرهم فى ساعة واحدة، وقد قتل منهم عبد الله بن وهب، وحرقوص بن زهير، واراد النهوض الى الشام فشكا اليه الناس التعب وعدم وفرة الذخيرة وطلبوا اليه أن يرجعوا الى الكوفة ليستعدوا للقتال وبعد وصولهم الى الكوفة بايام أخذ على يستحثهم على الخروج معه الى الشام وهم يتثاقلون ولم ينشط معه أحد، وكان عبد الله بن ملجم لحق بالحجاز مع البرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى

وثلاثتهم من الخوارج، وتذاكروا فيما فيه الناس من الحروب، واتفقوا على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص في ليلة واحدة، وأخذ ابن ملجم على نفسه قتل عليّ وسافر الى الكوفة، وسار البرك الى الشام لقتل معاوية، ومضى عمرو بن بكر الى مصر لقتل ابن العاص وكان ولاه معاوية عليها بعد التحكيم. وأتى ابن ملجم الى الكوفة، ولما كانت الليلة التي عاهد صاحبيه عليها أتى المسجد. وجاء عليّ ونادى بالصلاة، فضربه ابن ملجم بسيفه على رأسه فوقع واستخلف على الصلاة جعدة بن هبيرة، وقبض الناس على ابن ملجم فاوثقوه وأتوا به عليا، فنادى بالحسن ابنه، وقال ان هلكت فاقتلوه كما قتلني، وان بقيت رأيت فيه رأيي. وكان ذلك فجر يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٤٠ هـ. ومات عليّ بعد يومين قضاهما في نصح المسلمين ووصية أولاده. وبعد دفنه أحضر الحسنُ ابنَ ملجم وقتله بسيفه الذي قتل به أباه.

وقد اختلف الناس في المكان الذي دفن فيه عليّ: فمنهم من يقول انه دفن في قصر الكوفة، وبعضهم ذهب الى انه وراء سورها، وبعضهم يقول انه دفن بمقامه الحالي في النجف. وكان عمره خمسا وستين سنة.

وكان له من الولد ١٤ ذكرا و ١٨ بنتا. والذكور هم: الحسن. والحسين. ومحسن: من فاطمة. ومحمد الاكبر المشهور بابن الحنفية. وأبو بكر. والعباس الاكبر. وعثمان. وعبد الله. ومحمد الاصغر. ويحيي. وعون: وقد قتلوا مع الحسين. وعُمَر الاكبر. ومحمد الاوسط. وجعفر. وعَقِبه من الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعمر والعباس.

وبناته هن: أم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى من فاطمة. ورقية. وأم الحسن. ورملة الكبرى. وأم هانئ. وميمونة. ورملة الصغرى. وزينب الصغرى. وأم كلثوم الصغرى وفاطمة. وامامة. وخديجة. وأم الكرم. وأم سلمة. وأم جعفر. وجمانة. وتقية.

وبعد موت علي كرم الله وجهه بايع أهل الكوفة ابنه الحسن، وعاهده أربعون ألفا منهم على الموت دونه. وجدد اهل الشام البيعة لمعاوية وكانوا قد بايعوه بعد الحكمين فسار الحسن بجيشه قاصدا معاوية وعلى مقدمته قيس بن سعد، فأرسل معاوية من دس في جيش الحسن خبر قتل قيس، فاهتاج الناس لهذا الامر وهجموا على سرادق الحسن ونهبوا ما فيه. ورأى الحسن

ان أهل الكوفة لا ينصرونه فمال الى حقن دماء المسلمين، وكتب الى معاوية يذكر له النزول عن الامر بشرط أن يعطيه ما فى بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف ، وخراج دارابجرد من فارس . وأخبر بذلك أخاه الحسين وعبد الله بن جعفر فعذلاه فتركهما . وكان معاوية أرسل اليه عبد الله بن عامر يفاوضه فى النزول عن الامر ومعه ورقة بيضاء مختومة بختم معاوية ليشترط فيها ما يشاء . فكتب فيها أضعاف ما فى الصحيفة الاولى . فلما سلّم له وطالبه بالشرط أعطاه ما فى الصحيفة الاولى وقال هو الذى طلبت . وبهذا تم الأمر الى معاوية . وكان ذلك فى منتصف عام ٤١ ، ويسمونه عام الجماعة لان الناس رجعت فيه الى الاجماع على خليفة واحد .

﴿ الانصار ﴾

الانصار وهم الاوس والخزرج بطنان من الازد، وكانت ديارهم مأرب باليمن ، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم فى القرن الثانى عشر قبل الاسلام ، ومروا على يثرب وكانت قرية فيها أسواق يقصدها أهل الجهات المجاورة ، وأهلها كانوا يهودا، وكانوا من بنى النضير، وقريظة ، وبنى قينقاع وغيرهم . وكان لهم بها حصون يلجئون اليها عند الشدة . فنزل عليهم الاوس والخزرج على أن يكونوا تحت حكمهم ، ومازالوا كذلك حتى كان ما كان من سوء سيرة الفيطون أحد ملوك اليهود بيثرب وظلمه وغشمه . فاستغاث الاوس والخزرج بملوك غسان، فساروا لنصرتهم، وأوقعوا بيهود يثرب . ومن ثَمَّ صار الحكم فيها للاوس والخزرج وشاركوا اليهود فى أملاكهم ، وأصبحت لهم عصبية عظيمة . ولهم حروب مشهورة لها أيام معدودة من أيام الجاهلية : منها يوم سمير ، ويوم كعب ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع .

وكانت الاوس والخزرج أصحاب نجدة وهمة وشجاعة وأمانة . وقد كان أتى مكة بعض منهم للحج فى مبدأ ظهور الدعوة الاسلامية ، فقابلهم النبى صلى الله عليه وسلم عند العقبة على يسار الصاعد الى منى قبيل المدرج الذى فى أسفلها ودعاهم للاسلام ، وقرأ عليهم شيئاً من القرآن ، فاجابوه وقالوا له ان بين قومنا شراً وعسى الله أن يجمعهم بك ، فان اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم . وفى العام التالى وافى الموسم من الاوس والخزرج اثنا عشر رجلا ،

فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة الاولى ، فبايعوه البيعة الاولى ، وكان من ضمنهم رافع بن عجلان وعبادة بن الصامت ، ثم انصرفوا الى المدينة . و بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، و يعلمهم قواعد الاسلام . فوصل المدينة واجتمع عليه رجال ممن أسلموا ، وسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بني الاشهل ، فذهب أسيد للايقاع به ، فقال له مصعب أو تجلس فتسمع ؟ فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكرهه . فقال أنصفت ثم جلس ، وكلمه مصعب في الاسلام وقرأ له شيئاً من القرآن . فقال ما أحسن هذا ! وأسلم ، وانصرف واحتال على سعد حتى أخذه الى مصعب . فقال له مقالته الى أسيد ، وقرأ عليه قرآنا فاسلم سعد ، و باسلامهما أسلم القوم ، الا عددا قليلا أسلم بعد الهجرة . وعندها اتفق جماعة منهم على المسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فساروا الى مكة واجتمعوا عليه ليلا دون أن يعلم بهم أحد بعقبة الحديبية تحت شجرة كانت هناك و بمكانها الآن مسجد يسمى بمسجد الشجرة ، وعاهدوه على أن ينصروه : فسماهم الانصار . وهنالك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة ، وكان أول من قدمها مهاجرا أبو سلمة بن عبد الاسد . و في شهر ربيع الاول من هذه السنة هاجر الرسول الى المدينة ، وقدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وقدم بهما دليلهما على قباء ، فنزل صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم ، وأقام بينهم أياما ، بنى فيها مسجدها ، ودعا الناس فيه لصلاة يوم الجمعة ، وهي أول جمعة في الاسلام ، خطب فيها عليه الصلاة والسلام . ثم سار الى المدينة فلما وصل الى مكان مسجده وكان مربدا لبني النجار وكانت منهم أم أبيه عبد الله ، قال ثامنوني به . قالوا لا نبغي به الا ما عند الله . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجدا ، وأقام هو في دار أبي (١) أيوب الانصاري حتى بنى مسجده و بيته (بيت عائشة) . وكان يبني فيه بيده الشريفة هو والمهاجرون والانصار .

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الانصار إحدى عشرة سنة ، كان فيها لهم

(١) ابو أيوب الانصاري مات في حصار القسطنطينية سنة ٦٨٨ مسيحية ، أي في نحو السنة السابعة والاربعين للهجرة ، وكان سار اليها مع الجيش الذي سيره معاوية لفتحها ، وله فيها مسجد شهير في نهاية خليج قرن الذهب ، وهو محترم جدا لدى المسلمين والنصاري واليهود على السواء في عموم الاستانة . وأهلها يسمونه السلطان أيوب .

وللمهاجرين كلية كمالية علمية وعملية : تعلموا فيها الاخلاق الفاضلة ، والمزايا العالية ، والسيرة الحميدة ، والتربية القويمة ، والبلاغة فى الاقوال ، والمبالغة فى محاسن الاعمال ، فبعد صيتهم فى جلائل الصفات ، ومكارم الاخلاق ، والشجاعة ، والقوة ، والمنعة ، وشدة البأس ، التى ظهروا بها فى جميع المواقف التى أمرهم رسول الله بها ، أو شهدها هو معهم رضى الله عنهم . فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم وصار الامر بعده للمهاجرين واشتغل الناس بالفتح أخذ الانصار ينساحون فى أطراف البلاد الاسلامية بعد اتساع دائرتها بتلك الفتوحات المباركة حتى أصبح نسلهم فى المدينة الآن يكاد لا يكون له أثر . وسبحان من يرث الارض ومن عليها .

وكان أمر المدينة المنورة فى صدر الاسلام موكولا الى الخلفاء الراشدين أنفسهم حتى اذا خرج علىّ رضى الله عنه الى الكوفة بعد سير أهل مكة اليها للخروج عليه باهلها ، ولىّ على المدينة سهلَ بن حنيف الانصارى وهو أول ولاة المدينة فى الاسلام .

ومن هذا الوقت صار مركز الخلافة بعيداً عن المدينة وصارت ولايتها منفصلة عن ولاية مكة وكلتاهما تابعة لمركز الخلافة مباشرة . وكان الخلفاء يبالغون فى العناية بهما وينتخبون لهما ولاة من رجال الفضل والاصلاح ، حتى اذا داخل الضعف الخلافة العباسية وأخذت عمال النواحى تتغلب على أطرافها وتغلب على مكة بنو الاخضر فى نحو منتصف القرن الثالث ، أخذت يدهم تتطاول الى المدينة المنورة . ومازال الحكم فى المدينة مرتبكا حتى استولت القرامطة على مكة فزاد ارتباكا . ولما استولت الاشراف الحَسَنيون (١) على أم القرى فى منتصف القرن الرابع جعلت ولاية المدينة للاشراف الحُسَينيون ومازالت فى أيديهم الى سنة ١٠٩٩ ، وفيها صدر أمر الدولة العلية بتبعيتها لولاية الحجاز الى الان .

وهاك جدولا بولاة المدينة أخذنا أغلب أسمائهم من كتاب مرآة الحرمين واستخرجنا من ابن الاثير وغيره تواريخهم الى آخر زمنه ولم نوفق لوضع تواريخ كثير ممن بقى بعده .

(١) كان بنو الحسن وبنو الحسين يلقبون بالاشراف حتى جاء الشريف أبو نمى فخص الحسنيون بلقب أشراف وخص الحسينيون بلقب سادة : فيقولون الاشراف الحسنيون ، والسادة الحسينيون .

﴿ جدول أمراء المدينة المنورة (عن كتاب مرآة الحرمين) ﴾

زمن التوظف سنه هـ		زمن التوظف سنه هـ	
٢٦	سهل بن حنيف الانصارى	١٢٥	يوسف بن محمد
٤٠	خالد بن زيد أبى أيوب الانصارى	١٢٧	عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز
٤١	مروان بن الحكم	١٣٠	محمد بن عبدالملك بن مروان
٤٩	سعيد بن العاص	١٣٢	داود بن على
٥٤	مروان بن العاص	١٣٣	يزيد بن عبيدالله بن عبدالمدان الحارثى
٥٧	الوليد بن عتبة بن أبى سفيان	١٣٤	زياد بن عبيدالله
٦٠	عمرو بن سعيد بن العاص	١٤١	محمد بن خالد بن عبدالله القسرى
٦١	الوليد بن عتبة (ثانيا)	١٤٤	رباح بن عثمان المرى
٦٢	عثمان بن محمد بن أبى سفيان	١٤٥	عبدالله بن الربيع الحارثى
٦٣	عبدالله بن الزبير بن العوام	١٤٦	جعفر بن سليمان بن على
٦٥	مصعب بن الزبير	١٥٠	الحسن بن زيد بن الحسن بن على
٦٧	جابر بن الاسود	١٥٥	عبد الصمد بن على بن عبد الله
	عمر بن عبدالعزيز	١٦٠	محمد بن عبدالله الكثيرى
	عثمان بن حبان		زفر بن عبدالله
	أبو بكر بن محمد بن عمرو	١٦٦	ابراهيم بن يحيى
٧٠	طلحة بن عبدالله		اسحاق بن عيسى
٧٣	طارق بن عمرو	١٦٩	عمر بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر
٧٤	الحجاج بن يوسف الثقفى	١٧٠	اسحاق بن سليمان بن على بن عبدالله
٧٦	أبان بن عثمان		عبدالملك بن صالح
٨٢	هشام بن اسماعيل		محمد بن عبدالله
١٠١	عبدالرحمن بن الضحاك	١٧٨	محمد بن ابراهيم
١٠٤	عبدالواحد النضرى	١٨٠	موسى بن عيسى بن موسى بن محمد
١٠٦	ابراهيم بن هشام المخزومى		ابراهيم بن محمد
١١٤	خالد بن عبدالملك		على بن عيسى
١١٥	محمد بن هشام		عبيدالله بن مصعب

سنة هـ	
	بكار بن عبد الله
	محمد بن على
	أبو البحترى
	وهب بن منبه
	داود بن يحيى
٢٠٤	عبد الله بن الحسين بن عبد الله
٢٠٩	صالح بن العباس بن محمد بن على
٢٢١	محمد بن داود بن عيسى بن موسى
٢٣٧	على بن عيسى بن جعفر بن المنصور
٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى
٢٤٣	عبد الصمد بن موسى
٢٤٥	محمد بن سليمان الزينبي بن عبد الله
٢٤٩	عبد الصمد بن موسى (ثانيا)
٢٥٠	جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى
٣٣٣	مسلم بن عقبة بن محمد العيلى
	أبو القاسم مسلم بن أحمد
	اسحاق بن محمد بن يوسف بن جعفر
	حسن بن طاهر الحسينى
	أبو على طاهر الحسينى
	مهنا بن أبى هاشم وداود بن قاسم
	أبو عمارة الحسينى
	حسين بن محيط بن أحمد بن حسين
	شهاب الدين بن ابى عمارة بن مهنا
	مهنا الاعرج الحسينى بن حسين
	حسين بن مهنا الاعرج الحسينى
	أبو عبد الله بن مهنا الاعرج الحسينى
٥١٨	أبو فليته قاسم بن مهنا

سنة هـ	
	هاشم بن أبى عبد الله الاعرج
	جماز بن قاسم
٦٣٥	شيحة بن هاشم
٦٦٨	أبو سند بن جماز
	منيف بن شيحة
	مميل بن شيحة
	كبش بن المنصور الحسينى
	فضيل بن المنصور الحسينى
	عطية « « «
٧٨٣	محمد بن عطية « «
٣٨٨	عمير بن قاسم الجمازى
	ثابت بن نضير الجمازى
	عجلان بن نضير الجمازى
	عزيز بن منازع
٨٢٥	حسن الجمازى الحسينى
	إيسان « «
	مانع بن على بن عطية بن منصور
	و يتان بن مانع
٨٣٩	قايتباى بن مانع الجمازى
	سليمان بن عزيز بن منازع الجمازى
	إيسان الجمازى (ثانيا)
	سليمان «
	زهير بن ايسان
	فسيطل بن زهير بن ايسان
	زهير بن ايسان (ثانيا)
١٠٩٩	حسين بن زهير .

سفر الحجيج من المدينه الى مصر

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحجاج الى أربعة طرق ، طريق نجد ولا يسلكه الآن الا عرب تلك الجهات غالباً ، وطريق الوجه : وهو الذى سلكه المرحوم سعيد باشا والى مصر سنة ١٢٧٧ هجرية حينما قصد زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومحطات هذا الطريق هى : المدينة المنورة ، ثم آبار عثمان . (وفيها ماء ومزارع و بساتين) ، ثم محطة الضعينى (وماؤها قليل) ، ثم محطة المليح (وماؤها حلو) ، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير) وكانت مجتمع ومفترق المحملين الشامى والمصرى فى سفرهما معابراً ، ثم محطة أبى الحلو (لحلاوة مائها) ، ثم محطة القفارات (ولا ماء فيها) ، ثم محطة القفير (وماؤها عذب) ثم محطة مطر (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الخوثلة (وماؤها عذب) ، ثم محطة أم حرز (ولا ماء فيها) ، ثم قرية الوجه . ومنها كانوا يسيرون الى السويس براً أو بحراً .

وطريق ينبع : وهو الطريق الاكثر استعمالا ، ومنه يرجع سواد الحجيج المصرى والروسى والمغربى ، والسودانى ، واليمنى والجاوى ، والهندى ، وغيرهم . وهذا الطريق ينقسم الى شعبتين : شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل ومنها الى ينبع البحر ، وعربان هذا الطريق من جهينة ، وأرضه رملية ناعمة . والشعبة الاخرى بعد الحمراء وتمر على نقب الفار (نقب على) وهو ممر صعب بين جبلين شاهقين فى طريقه كثير من الاحجار الضخمة على طول نحو ٢ كيلومتر ولا تمر منه الجمال الا جملا جملا ، و فى الغالب ينزل عنها ركابها لتعسر السير عليها فيه ، و يسمون هذا النقب بقلعة حرب لمنعة الجبال التى تشرف عليه ، ومنه يخرج المسافر الى الصحراء التى توصله الى ينبع البحر .

وهذا الطريق من الحمراء نصفه الشرقى للحوازم ، و نصفه الغربى للاحامدة . ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة و ينبع ٢٣٠ كيلومتراً ، فاذا أضفنا اليها ٤٥٠ كيلومتراً ما بين المدينة ومكة ، و ٤٠ من مكة الى عرفة ذهابا و إيابا ، و ٨٠ من جدة الى مكة ، يكون مجموعها ثمانمائة كيلومتر ، وهى كل ما يركبه الآن الحاج المصرى براً .

فاذا وصل الحجاج الى ينبع انتظروا بها المراكب التى تنقلهم الى بلادهم، وغالباً ينتظرون فيها أياما كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئ عن قلة المراكب. وهنالك يكثر عناؤهم و يسوء حالهم وتشتد فاقتهم ، وتفتك فيهم الامراض لكثرة الاقذار التى تحيطهم من فضلاتهم ، وخصوصاً من عدم صلاحية مياه الشرب .

وقد رتبت الحكومة المصرية لهم كونداسه فى زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر ولكن عملها غير منتظم وماؤها لا يصرف الا باذن خصوصى لا يصل اليه فقراء الحجيج . ولا أظن الا أن هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومتنا السنية أن تشدد عليهم كل التشديد فى القيام بواجبهم .

و ياحبذا لو انتبهت الى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة ، وأسعفتها شركات السفن وخصوصاً الشركة الخديوية ، فانهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيراً من عنائهم مما يشكرهم عليه الانسانية .

ومن ينبع يصل حجاج مصر الى الطور لتمضية أيام الكورنتينا ان كان هناك حجر صحى : وهو مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و٣٧ دقيقة وعرض ٢٨ درجة و١٤ دقيقة و بينه و بين السويس ١٢٥ ميل، ومن هناك تأتى بشائر الحجاج بوصولهم الى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد، وكانت قبلهما تصل على يد بعض الافراد الذين كانوا يحضرون من مصر لهذا الخصوص و يعودون من الطور أو الوجه بما يبشر أهل الحجاج بسلامتهم نظير البماشيش التى كانوا يأخذونها .

والطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقى، وأغلب سكانها من الاقباط والاروام ،و فى ضواحيها كثير من البدو، و يقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء لعباس باشا الاول يسمونه حمام موسى، و يقولون انه نافع للامراض الروماتزميه . وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور، وفيه بساتين تنتج كثيراً من الفاكهة، و فى شماله بشرق جبل المناجاة الذى كلم الله عليه موسى وذكره فى القرآن الكريم فى غير موضع ، و يقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس فيزورونه ثم يرجعون الى بلادهم . و فى شرق هذه القرية محجر الطور ، وهو فى نقطة صحية جداً وفيه مباخر وافية بالغرض، وأحذية

مرتبة، وبناؤها نظيف، وفيه اسبتاليات على غاية من النظام، ولكل مرض قسم مخصوص منها. ولقد أصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحى فى العالم . ولا شك أن بعض الصعوبات التى يلاقيها فيه الحجاج لابد وأن تزول قريباً بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجيج .

أما الطريق الرابع فهو طريق السكة الحديدية الى الشام وهو الذى افتتحته الدولة العلية رسمياً بأول قطار للمدعوين الى هذا الاحتفال وصل الى المدينة المنورة فى ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨ . وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا وكثير من المصريين وخصوصاً برسم الزيارة .

وإتماماً للفائدة نقول لك ان المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو متر، والى حيفا ١٣٣٣ كيلو تقطعها الوابورات فى أربعة أيام تقريباً، ومتوسط سيرها فيها ٨٠ ساعة . وسير القطارات من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كيلو فى الساعة، ومن معان الى المدينة على متوسط ١٥ كيلو فى الساعة . وأجرتها فى الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة ذهاباً وإياباً أربعة عشر جنيهاً ، وفى الدرجة الثالثة نصف هذا القدر ، وليس فيها درجة ثانية إلا أن عربات الدرجة الاولى ضيقة وفى كل عين منها ستة مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة ، والمسافر فيها الى المدينة يعانى مشقات كبيرة، وخصوصاً فى الليل الذى يقضيه كما يقضى النهار جالساً . وكان الاولى بها أن تكون ذات أربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلا الى أربعة أسرة لنوم المسافرين فيها . لذلك ترى كثيراً من الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم أن يفرشوا بها فراشهم وينامون ويجلسون على راحتهم . وأملنا فى رجال الدولة حرسها الله أن يفكروا فى ذلك حتى تكون عربات الدرجة الاولى وافية براحة المسافرين فى هذه المسافة الطويلة .

﴿ وهاك جدولا بمحطات الطريق الحديدى من دمشق الى المدينة ﴾

أسماء المحطات	المسافه بالكيلو	ارتفاع عن سطح البحر	المحطات التي فيها ماء	أسماء المحطات	المسافه بالكيلو	ارتفاع عن سطح البحر	المحطات التي فيها ماء
قدم شريف	٠٠	٦٨٦	✡	حالات عمار	٥٩٥	٧٦١	
كسوة	٢١	٧٣٥	✡	ذات الحج	٦٠٨	٦٩١	✡
دير علي	٣١	٧٠٠		بئر هرماس	٦٣٢	٧٤٧	✡
مسجد	٥٠	٦٢٠	✡	الهضم	٦٥٤	٧٥٤	
جباب	٦٣	٦٤٣		المحطب	٦٧٧	٧٥٠	
خبب	٦٩	٦٢٤		تبوك	٦٩٢	٧٧٥	✡
محجة	٧٨	٦٠١		وادي الاثيل	٧٢٠	٨٤٤	
شمرة	٨٥	٥٩٩		دار الحج	٧٤٤	٩٠٤	
أدرع	٩١	٥٨٧		مستبقة	٧٥٥	٩٥٠	
خربة الغزاله	١٠٦	٥٧٥		الاخضر	٧٦٠	٨٨٢	✡
الدرعا	١٢٣	٥٢٩	✡	خميس	٧٨٢	٩٠٨	
نصيب	١٣٦	٥٨٦		ذي يسعد	٨٠٥	٩٦٤	
المفرق	١٦٢	٧١١	✡	المعظم	٨٢٢	٩٨١	✡
خربة السمراء	١٨٥	٥٥٨		خشم صنعاء	٨٥٣	١٠٣٣	
الزرقاء	٢٠٣	٦١٧	✡	الدار الحمراء	٨٨٠	١١٠٣	
عمان	٢٢٢	٧٣٧	✡	المطلع	٩٠٤	١١٥١	
القصر	٢٣٤	٩٤١		أبو طاقه	٩١٨	٩٦٦	
لوبن	٢٤٩	٧٧٢		المرجم	٩٣٠	٩١٤	
الجيزة	٢٦٠	٧٢١	✡	مداين صالح	٩٥٥	٧٨١	✡
الضبعة	٢٧٩	٧٥٢		العلا	٩٨٠	٦٨٤	✡
خان زبيب	٢٩٥	٧٨٢		البدايع	٩٩٩	٦٠٣	✡
سواقة	٣٠٩	٧٥٨		مشهد	١٠١٢	٦٧٠	
قطرانة	٣٢٦	٧٨٣	✡	سهل المطران	١٠٣٤	٦٠٠	
منزل	٣٠٨	٨٤٠		زمرد	١٠٤٩	٧١٤	
فريفرة	٣٦٧	٨٩٣		البئر الجديد	١٠٧٢	٧٣٩	
الحسا	٣٧٨	٨٢٢	✡	الطويرة	١٠٩٠	٦٧٠	
حروف الدراويش	٣٩٧	٩٥٨	✡	المدرج	١١١٦	٤٦٠	
عنيزة	٤٢٣	١٠٥١		هديه	١١٣٣	٣٨٥	
وادي الجردون	٤٤٠	١٠٨٠		جداعة	١١٥٥	٤٥٧	✡
معان	٤٥٩	١٠٨٤		ابو النعم	١١٤٣	٤١٨	
غدير الحج	٤٧٥	١٠٠٠		اصطبل عنتر	١١٨٩	٥٣٠	✡
بئر الشيدية	٤٨٧	٩٩٦		بوير	١٢٠٨	٤٧٢	
عقبة	٥١٤	١١٥٢		ديار ناصف	١٢٢٨	٤٨٩	
بطن الغول	٥٢٠	١١٢٥		بواط	١٢٤٧	٥٣١	✡
وادي الرتم	٥٣٠	٩٩٤		الحفيرة	١٢٦٨	٥٤٠	
تل الشحم	٥٤٦	٨٥٠		المحيط	١٢٨٧	٧٥٠	✡
الرملة	٥٥٥	٨٠٦		المدينة المنورة	١٣٠٢	٦١٩	
المدورة	٥٧٢	٧٣٤	✡				

ومن محطة الدرعا يخرج فرع حديدي الى حيفا ومحطاته هي : المزيريب ، تل شهاب ، زيزون ، وادي كليب ، القارن ، شجرة ، صامح ، الحمه ، جسر المجامع ، بيسان ، العفوله ، الشمال ، حيفاء

المحاجر والكورنتينات

لفظ كورنتينه أوكارانتينه أصله فرنساوى (Quarantaine) ومعناه الشيء الذى يبلغ عدده تقريباً الى أربعين . والفرنج يقولون ان جمهورية ڤينسيا (البندقيه) لما رأت أن الاوبئة كانت تأتى الى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال افريقية، اهتمت لهذا الامر، لان مراكبها هى التى كانت تصل الشرق بالغرب، وعينت لاول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية ضباطاً صحيين كانوا يقومون بتفتيش السفن التى كانت تأتى من الخارج الى ثغورها البحرية . وفى سنة ١٤٠٣ أقامت أول محجر صحى سمته لازاريت (Lazarette) وجعلته فى جزيرة صغيرة قريبة منها بالبحر الادرياطيقى اسمها سانت مارى دونازاريه (Sainte Marie de Nazareh) وكانت تحجر فيها على البضائع والاشخاص القادمين على بلادها من الشرق . ومشى على أثرها فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الابيض المتوسط العظمى ، فاقامت جنوه محجراً صحياً سنة ١٤٦٧، وأقامت مرسلياً محجراً فى سنة ١٥٢٦ . وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون فى بلاده هو الملك رينيه (René) ملك نابل (نابولى) فى سنة ١٤٧٦ م وزادت العناية بها فى سنة ١٦٥٦ م التى فشا الطاعون فيها ببلاد ايطاليا كلها حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم .

ولما ظهر الوباء الاصفر فى كاتالونيا (مقاطعة باسبانيا عاصمتها برشلونه) اهتمت أوروبا لهذا الامر وعملت فرنسا قانوناً للكورنتينات فى ٣ مارث سنة ١٨٢٢ وهو أساس النظامات الصحية للمحاجر . وقد أدخل على هذا القانون تعديلات مهمة فى ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٧ ثم فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٤٩ ثم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠

هذا ما كان فى أوروبا بخصوص الكورنتينات، أما بمصر فان (محمد على) ذلك المصلح الكبير فكر فى ضرورة انشاء مجلس صحى بها وشكل فى سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلساً كانت أعضاؤه من حكماء الجيش وصيدليته . وفى سنة ١٨٢٥ ادخل كلوت بك على هذا المجلس

نظامات جمة وسماه مجلس الصحة العمومى . ولما دخلت الكوليرا فى مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمد على بهذا المجلس وادخل اليه نظامات الكورنتينات باوروبا خدمة للامور الصحية والتجارية فى جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر فى الامور الخاصة بالكورنتينات وأصدر بذلك دكريتو فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٣١، وفى سنه ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحى (Lazarette) فى الشاطبى، ولا يزال الاسكندريون يسمونها مظريطه أو الاظاريطه الى الآن .

وكان من ضمن هذا المجلس عضو مصرى اسمه طاهر بك، وكانت له الكلمة العليا فى أعمال المجلس لثاقب فكره وكبير همته والعناية التى كان يبذلها فى مصادمة ذلك الوباء الذى ذهب بأغلب السكان فى الوجه البحرى . وفى أواخر سنة ١٨٣٩ النى محمد على هذا المجلس القنصلى ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه فى هذا الصدد وشكل ادارة الصحة العمومية بمصر وجعل رئيسها ناظر الاشغال العمومية والتجارة وجعل لها سبعة أعضاء : منهم طاهر بك السابق ذكره، وستة انتخبتهم الحكومة المصرية من أعيان التجار . وفى مدة عباس باشا الاول أهملت هذه النظامات الصحية، فطلبت منه الدول الرجوع الى النظامات الاولى القنصلية فلم يجب طلبها بل ولم يعرها أية التفاتة . فاخذت فرنسا تسعى جهدها فى تشكيل مؤتمر دولى صحى من الدول ذوات المصلحة فى البحر الابيض المتوسط فتم لها ذلك واجتمع هذا المؤتمر فى باريس وكان فيه أعضاء من فرنسا ومرسليا والنمسا واسبانيا وايطاليا واليونان والبورتوغال وسرديه والروسيا وتسكانيا وتركيا، وعملوا قانونا فى ٤ يونيه سنة ١٨٥٣ راعوا فيه السهولة فى الحجر خصوصاً على البضائع : لان العلم كان وصل باكتشافاته المفيدة الى ان أغلب الاوبئة ليست معدية . ولم توافق انكلترا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانيها .

وكان من نتيجة هذا القانون أن تشكل مجلس صحى دولى فى الاستانة ومجلس فى الاسكندرية ووظيفتهما الاعلان أمر الاوبئة عند ظهورها وعمل الاحتياطات اللازمة للوقوف فى وجهها حتى لا تصل الى أوروبا، ولقد تقرر أيضاً تعيين بعض اطباء يركبون

البحر على الدوام الى الشرق الاقصى ليرسلوا الى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التى يمرون عليها .

وعليه فقد اهتم سعيد باشا وشكل فى سنة ١٨٥٤ مجلساً صحياً والحقه بنظارة الداخلية فى ٢١ ابريل سنة ١٨٥٧، وجعل من حقه النظر فى الامور الصحية من داخل البلاد، كما شكل لجنة للنظر فى الامور البحرية الصحية (الكورنتينية)، وكانت يد هذه المصلحة الاخيرة مغلولة عن التصرف بدون ارادة الحكومة المصرية الى سنة ١٨٨١ التى صدر فى ٣ يناير منها دكريتو بفصل ادارة المصلحتين عن بعضهما ، وذلك بناء عن اتفاق من الدول مباشرة ، وسميت الاولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر، وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورنتينات المصرية وجعل مقره بالاسكندرية، ثم تغير هذا الدكريتو بدكريتو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونيه سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس المنعقد فى السنة المذكورة .

وهذه الكورنتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لان سفرهم من وإلى مكة كان على طريق البر، وكانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الاوبئة، الا أن شدة كوليرا سنة ١٨٥٨ فى بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها الى مصر من طريق البحر على القصير . فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الامر وضربت الحجر على الحجاج لاول مرة فى بئر عنبر فى وسط المسافة بين القصير وقنا . أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة فانها منعتهم من الدخول الى السويس وضربت عليهم الحجر فى عجرود .

ومن هذا العهد رأوا ضرورة اقامة محجر صحى فى الطور الا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه لان سواد الحجاج كان يسافر عليه براً، واستمر الحجر فيه أو فى رأس ملعب على ركاب القوافل ، وفى الطور أو عيون موسى على ركاب البحر كلما كانت تقضى بذلك الضرورة الى سنة ١٨٧٧ التى من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر . وهنالك أخذت الحكومة المصريه فى اكمال الاستعدادات فى الطور حتى صارت فى سنة ١٨٩٣ وافية بالغرض منها . ومن ثم أصبحت هى المكان الوحيد الذى تعمل فيه الكورنتينا على الحجاج المصريين أو الذين يمرون على مصر ولا تزال الاصلاحات تدخل اليه من وقت الى آخر

ومن المعجب أنه قد ورد فى مادة (Lazarette) بقاموس لاروس الكبير ، ان بعض الافرنج قال ان أصل هذا اللفظ أتى من الكلمة العربية (الازهرية) وذلك لان الازهر بمصر انما هو ملجأ للعميان والشيوخ المتقاعدين ، وهو كلام أساسه الجهل المطبق أو التحامل على الازهر والازهريين ولو أنصف القوم لعرفوا لهذه الجامعة الاسلامية حقها فى خدمة العلوم على اختلاف أنواعها . فكم لها آيات من العرفان على بنى الانسان تذكر فتشكر . ولا غرو فاهتمام الجناب العالى الخديوى وحكومته السنية بالازهر الآن لابد وأن يجعله يوما من الايام فى مقدمة الجامعات الكبرى نظاما واحكاما .

أما كلمة لازاريت (Lazarette) فهى لاطينيه معناها (Ladre) يعنى الابرص أو المجذوم . وكانت الدوله الرومانية تبالغ فى الحجر على المجذومين بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم وكان عقاب من يخرج عن نطاقه منهم أن يضرب بالرصاص ، وهو قانون حق لولا أنه مبالغ فى شدته ، وقد ورد فى الحديث الشريف « فر من المجذوم فرارك من الاسد » . وقد أقام الوليد بن عبد الملك الملاجئ فى انحاء دولته وجمع اليها المجذومين وأجرى عليهم الارزاق وهو أول من أقام الملاجىء من هذا القبيل .

هذا هو تاريخ الحجر الصحى عند الافرنج . ولكن يرى المطلعون على التاريخ أن المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم . فقد ورد فى تاريخ ابن الاثير فى اخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه :

وكان عمر بن الخطاب قدم الى الشام فى مدة ذلك الطاعون (وهو طاعون عمواس الذى فتك باهل الشام فتكا ذريعاً) ، فلما كان بسرغ وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك لقيه أمراء الاجناد منهم أبو عبيدة بن الجراح ، فاخبروه بالوباء وشدته ، وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازيا . فجمع المهاجرين الاولين والانصار فاستشارهم فاختلفوا عليه : فمنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ، ومنهم القائل انه بلاء وفناء فلا نرى ان تقدم عليه ، فقال لهم قوموا ، ثم احضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود ، فنادى عمر فى الناس انى مصبح على ظهر ، فقال أبو عبيدة أفرارا من قدر

الله ؟ فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعنى لانتقمت منـه) نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . أرأيت لو كان لك ابل فهبطت واديا له عدوتان : احداهما مخصبة، والاخرى مجـدبة، أليس ان رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه، وان رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه ؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فحضر فاخبر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً فى ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم « اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه » فـكان ذلك الحديث موافقا لما رآه عمر رضى الله عنه فانصرف بالناس الى المدينـة .

وقد ورد هذا الحديث بالبخارى فى الجزء الرابع بكتاب الطب بهذا النص : حدثنا حفص ابن عمر حدثنا شعبة قال أخبرنى حبيب بن أبى ثابت قال سمعت ابراهيم بن سعد قال سمعت أسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال « اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تدخـلوها واذا وقع بارض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »، وقال شراح الحديث ان المنع من الدخول لا يتناول من كانت للمرضى مصلحة فى دخوله كالاطباء وغيرهم . وهل هذا الحديث الشريف الا قانون صحى وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقيه) ثمانية قرون

الطريق الى الحرمين فى غابره وحاضره

﴿ ولقب الحاج عند عامة المسلمين ﴾

كانت طريق الحجيج الى بيت الله الحرام كلها مشـقات وأخطار فى الزمن السابق بما كانت تلقيه يد الطبيعة فى سبيلهم من الشـدائد الطبيعية التى كانت تفتك بسوادهم فى الطريق من حر الصيف وقرّ الشـتاء، أو جفاف ماء الآبار فى هـذه الصحراء المحرقـة ، وما كان يدهمهم فيها من السيول التى أشد ما حصلت فى سنة ١١٩٦ حيث اجتاحت نصف الحجيج المصرى بين مكة والمدينة . وعدا هـذه الشدائد الطبيعية فـكثيراً ما كانت توقع بهم يد أشرار الاعراب، وأقسى ما وقع لهم فى سنة ١٢٠٠، وكان أمير الحاج المصرى أمسك بعض لصوص حرب فى طريق المدينـة وسمهم بالنار على خـدودهم . فصرخت صرختهم وتلاحقت به

قبائل حرب وحملوا عليه فهرب مع عسكره ووقعت الحجاج بين أيديهم فأفنوهم عن آخرهم وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة . وكثيراً ما كان تجاذب السلطة بين أشراف مكة وبعضهم ، أو حربهم مع قبائل الاعراب ، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر: يقفل في وجوه الحجاج أبواب مكة أو المدينة بعد وصولهم الى هذه أو تلك فيرتدون عن الاولى من غير تأدية المناسك وعن الثانية بدون زيارة السيد الرسول ، ويعودون الى بلادهم وقد أضافوا على متاعبهم الاولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم آلامهم المعنوية من حرمانهم من أمنيتهم فتضعف قواهم وتخور عزائمهم ، وغالباً ما كانت تشتتهم يد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف الى النهب والسلب !! كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا يمنعهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم في سنة من السنين ، اللهم الا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطي والوهابي لان الطريق كانت مقطوعة عليهم ، ولم يسمع بان جميع المسلمين أهملوا هذا الواجب مطلقاً ولم يقف أحد منهم بعرفة من مبدا الاسلام الى الآن ، الا في سنة ٦٥٤ التي لم يحج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الاشراف على امارة مكة: لذلك كانت الحجاج اذا طلعوا الى أداء هذه الفريضة كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون الى دار حرب لا الى دار قد أمن الله فيها حياة الانسان والحيوان بل وحياة الاشجار ، فاذا عادوا الى بلادهم استقبلهم أهلوهم وذووهم بالطبول والزمور فيقيمون لهم الافراح والليالي الملاح بعد ان يعدوا لهم كل ما فيه راحتهم ورفههم من نقش الدور وتجديد ما قدم عهده فيها من فرش وغيره لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير . وكانت الطبقة الصغرى ، وهي سواد الحجاج وأكثرهم مشتقة طبعاً ، تزوق لهم وجهات منازلهم : فيرسمون عليها صورة المحمل وقافلته وحرسه ويرسمون الى جانبها نخلة قد ربط الى جذعها سبع وضبع في سلسلتين من حديد ويقرب منهما رجل قد أشهر سيفه في يده اشارة الى أن صاحبنا حفظه الله تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهالك .

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين أشرف الالقاب التي يتحلى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى ، وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان ، فاذا

قيل لواحد منهم ياحاج فلان يعني يا أيها الشهم الشجاع ، أما اذا القبت به الشيوخ والكهول فانما يكون ذلك اشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذي تحملوا في طريقه الاهوال التي تشيب منها الاطفال .

على أن طريق الحاج أضبح اليوم أقل صعوبة منه في أمسه ، لذلك نرى الحاج في عودته يستقبل بابسط مما كان يستقبل به في الزمن السابق . وقليلا ماتراهم بمصر يرسمون شيئاً على دور الطبقة الفقيرة ، اللهم الا محملا يسير في جنده والى جانبه مركب بخارية أوقطار سكة حديد مما لاشئ فيه من معنى المشقة التي كان يصادفها الحاج في طريقه في الزمن السابق . وفي الحقيقة فان طريق الحاج اليوم أقل صعوبة وأكثر أمناً منه بالامس ، بل لا نسبة بين الحالتين بالمرة . ومادام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا العلية فلابد أن يأتي يوم قريب يتذلل ما بقي فيه من الصعوبات ، خصوصاً اذا تحقق خبر تسيير الطريق الحديدي بين المدينة ومكة وبين هذه وجدة ، والله الهادي الى سواء السبيل .

سفر الجناب العالي

من المدينة الى مصر

في فجر يوم السبت ١٥ يناير سنة ١٩١٠ الذي قرر الجناب العالي سفره فيه من المدينة المنورة الى تبوك ، قصد حفظه الله الحرم الشريف ، وبعد صلاة الصبح ، أدى خدمته في الحجرة الشريفة ، وزار زيارة الوداع ، ثم قصد المحطة التي اكتظت رحباتها بجموع الاعيان والاشراف والمأمورين الملكيين والعسكريين ، وفي مقدمة الكل حضرات العلماء ونقيب الاشراف والمفتي والقاضي وخازندار الحرم الشريف ومديره وسعادة رضا باشا محافظ المدينة المنورة . فصافحهم حفظه الله واحداً واحداً ، وركب صالونه الخصوصي ،

شاكراً لهم ما لقيه من آدابهم ولطف أخلاقهم أثناء اقامته بالمدينة ، وركب فى خدمة جنابه العالى سعادة دفتردار الحافظة وحضرة المهمندار الخصوصى الذى تعين لسموه من قبل حكومة الحجاز ، ثم تحرك القطار فى شروق الشمس تماما قاصداً تبوك ، بين طلقات المدافع وعزف الموسيقى وهتاف الاهالى .

وكان قطار المعية السنية قام اليها قبل القطار الخصوصى بساعتين ، وقد ركب فيه نحو خمسين عائلة من مصريين وشوام وأتراك ومغاربة كان قطعهم فى المدينة ضيق ذات يدهم ، وأمر حفظه الله بتسفيرهم الى بلادهم بناء على التماسهم .

ومر القطار فى منتصف الليل على محطة العلا ، ثم على مدائن صالح (١) التي تبعد عنها

(١) ومدائن صالح (وتسمى الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم) نسبة الى نبى الله صالح الذى أرسل الى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون فى هذه الجهات الى يثرب . وهم قوم من العرب ذهب بعض المؤرخين الى أنهم من اليمن ، فروا الى شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم ، وكانت مساكنهم فيها بحضرموت قرب مساكن عاد ، ودليلهم على ذلك ما وجدوه على بعض آثارهم فى العلا من الخط المسند (الحميرى) ، وقد ذكر المقريزي في الكلام على أيلة ما ملخصه : ان حمير الاكبر ابن سبأ الاكبر أمر بطرد قوم ثمود من اليمن لظلمهم لمن جاورهم ، فنزلوا من أيلة الى ذات الآصال (أطراف نجد) فقطعوا الصخور ونحتوا من الجبال بيوتا وتكبروا وطغوا فبعث الله فيهم صالحاً نبيا ورسولا فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخرة هناك ، فأخرجها لهم فعقروها فأهلكهم الله بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (مصعوقين) .

وذهب بعضهم الى أن الثموديين من عماليق الشمال الذين أتوا من العراق وسكنوا مدينة بطره ، وكانت لهم بها دولة واسعة فى القرن الرابع قبل المسيح ، ويستدلون على ذلك بما وجدوه على كهوف الحجر من الخط الآرامى الذي هو كتابة الانباط .

ومن ذهب الى الرأى الاول يقول ان الثموديين لم يكتبوا هذا الخط الا بعد ما ذهبت دولتهم وضعف أمرهم وصاروا تابعين لحكومة النبطيين فى القرن الثاني أو الاول قبل الميلاد بحكم تغلب لغة المتبوع على التابع . وعندى أنه لا يبعد أن يكون أصلهم من عرب الرعاة الذين طردهم الملك تحوتمس فى سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد ، ومن المصريين تعلموا كيف ينحتون الجبال والصخور : قال تعالى « وثمود الذين جابوا (نحتوا) الصخر بالواد » . وأتوا وأقاموا فى المنطقة التي بين الحجر والمدينة وصارت لهم بها دولة قوية . ثم كان لهم مع نبيهم صالح ما حدثنا منه ما ذكره الله تعالى فى سورة الاعراف « والى ثمود (أرسل) أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من

بنحو خمسة وعشرين كيلومترا ، ووصل حفظه الله الى حذاءات كورنتينة تبوك فى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى (الاحد) ، فدخل القطار الخصوصى الى الكورنتينة ، وبقيت فيه دولة الوالدة مع حاشيتها ، أما الجناب العالى فانه نزل بمعيته الى الحذاء الذى ضربت فيه صواوينه الخصوصية وخيام حاشيته من ملكيين وعسكريين . ومكث حفظه الله فى الكورنتينة خمسة أيام كان يتردد فى أثنائها من الصيوان الخصوصى الى صالون قطار السكة

سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ، قالوا انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين »

وفى تفسير روح المعانى ان ثمود كانت ديارهم من الحجر الى وادى القرى جنوبا ، وقد جاء فيه فى تفسير قوله تعالى أخذتهم الرجفة : قال الفراء والزجاج أى الزلزلة الشديدة ، وقال مجاهد والسدي هى الصيحة ، وجمع بين القولين بأن أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم .

ولا يبعد أن هذه الحركة كانت ناشئة عن ثورة بركانية حصلت فى حرة العويرض (جبل بركانى تقدم ذكره فى الطريق من الوجه الى المدينة) ، فكانت منها تلك الهزة العنيفة التى خسفت بالقوم فى ديارهم من غير ما يشعرون : يؤيد ذلك ما حصل أخيراً فى كالابريا (بجنوب ايطاليا) من الخسف الذي كانت حركته ناشئة عن ثوران بركان فيزوف . وعلى كل حال فقد كانت حادثة ثمود قبل زمن موسى عليه السلام فقد ذكرهم شعيب لقومه على سبيل العبرة : قال تعالى حكاية عنه فى سورة هود « وياقومى لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح » وقد كان شعيب معاصرا لموسى كما لا يخفى .

ولقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فى غزوته لتبوك فى السنة التاسعة للهجرة ومنع قومه من الدخول الى ديار ثمود والشرب من مياههم . وأرى أن ذلك لسببين مهمين : الاول أدبى وهو مبالغته عليه الصلاة والسلام فى السخط على هؤلاء الاقوام لعصيانهم ربهم ومخالفتهم لنبيهم حتى كان من أمرهم ما كان ، والثانى صحى وذلك لان كهوفهم المتروكة من زمن بعيد ، وهى بمثابة مقبرة لهم ، لا شك يكون هواؤها فاسداً وماؤها مضراً بمن يشربه

أما النقوش التى شاهدوها على ما وصل الينا من هذه الديار فعليها بالخط الارامى وهي لا تخرج عن عبارات دينية مما ينقش عادة على قبور كثير من الامم الى الآن . نذكر لك منها ترجمة عهد كتبه على قبره رجل اسمه عائذ بن كهيل .

« هذا القبر الذي بناه عائذ بن كهيل بن الفيس لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون فى يده كتاب من يد عائذ يبيح له ولاى واحد يخوله عائذ فى حياته أن يدفن فيه . فى شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك الانباط محب شعبه (وذلك حوالى سنة ١٨ بعد الميلاد) ولعن ذو الشرى ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر أو يدفن فيه أحداً الا الذين كتبت أسماؤهم أعلاه . ان القبر وما كتب عليه فهو حرم مقدس ، حسب القاعدة

الحديد ، وكان الهواء فى تلك الاثناء بارداً جداً يتراوح بين ١٥ درجة سنتجراد نهاراً و ٥ تحت الصفر ليلا : أما الرياح فقد كانت شديدة جداً لا تستقر معها الخيم ثابتة فى أماكنها ، بل كنت تراها متزعزعة على الدوام وخصوصا فى اليوم الاول والثانى ، وكثيراً ما كنا نشاهد خيام الكورنتينة التى فى الحذاءات الاخرى تطير من أماكنها فيسرع أربابها بالجرى وراءها ويتعلقون بأطنابها فيوقفونها عن سيرها بعناء شديد ويرجعون بها ثم يزاولون نصبها وهم فى عراك مع الرياح يزهق الارواح .

وفى هذه الكورنتينة اثنا عشر حذاء جويا تحيطها وتفصلها عن بعضها شبكة من السلك ، وهى ستة فى مقابلة ستة أخرى ، يسير فيما بينها شريط الطريق الحديدى ، وطول كل حذاء مائة متر فى عرض ٧٥ متراً ، وليس فيها أبنية أصلا ، اللهم الا مبخرة واحدة فى جوار الحذاء الاول ، أخذاليها عسكر الحرس والخدم فتبخرت ملابسهم وظلوا فى أثناء التبخير عرايا فى حوش المبخرة وهم يرتعدون من شدة البرودة ، ولاشك فى أن دولتنا العلية ستزداد عنايتها بهذا المحجر [1] حتى يكون كافلا لراحة حجاج بيت الله الحرام .

....

التى يقدسها الانباط والسلاميون الى أبد الآبدين » . (انظر صفحة ٨١ من الجزء الاول من تاريخ العرب قبل الاسلام لصديقنا المؤرخ الفاضل جورجى أفندى زيدان) :

ومن هنا ترى أن القوم غيروا ديانتهم بوثنية النبطيين الذين كان من آلهتهم ذو الشرى ومناة وقيس وهبل واللات وغيرها ، ومنهم أخذ العرب وثنيتهم .

ولقد اهتم الجناب العالي الخديوى بخدمة العالم التاريخى بنقش ماتبقى من آثار الحجر فأوفد الى هذه الجهة البروفسور هيس أحد المستشرقين السويسريين ونزيل مصر الآن ، فعاد منها ببعض صور غير مهمة مما أبقته فيها يد السراق . ويوجد كثير من آثار القوم فى متاحف لندن وباريس وبرلين والاستانة . وقد بلغني أنه يوجد منها شيء كثير فى صناديق محفوظة فى مدينة حيفا منذ سنتين على ذمة متحف القسطنطينية ولا أدري ماهي الحكمة فى عدم ارسالها اليه الى الآن . وعلى كل حال فان المشتغلين بالآثار النبطية والثمودية لابد أن يزيدوا يوما من الايام معرفة بهؤلاء الاقوام

(١) هذا المحجر لايزال خاصاً بأهل تركيا والشام ، أما أهل مصر فانه لابد لهم من تمضية الحجر الصحى في الطور قبل دخولهم الى الثغور المصرية ، وقد حصلت مخاطبات رسمية فى اعتبار كورنتينة تبوك كورنتينة عامة بحيث تكفي الحجر فيها على المصريين وغيرهم ولكن لم يتقرر شيء بهذا الخصوص الى الآن

الحجازى، وسعادة وفا بك قائمقام معان ، وعلى بك فؤاد باشكاتب المتصرفية، للسلام على الحضرة الفخيمة الخديوية ، فلم يقابلهم جنابه العالى قياما بواجب قانون الكورنتينات، فبقوا فى ضيافته بادارة المحجر ،حتى انقضت مدة الحجر فى صباح يوم الجمعة ٢١ يناير، فحضروا الى المخيم الخديوى ونالوا شرف المثول بين يدى حضرته العلية . وهنالك ابتدئ فى شحن القطارات ، وتحرك الركاب الخديوى فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، فمر على محطة تبوك : وهى محطة صغيرة تبعد عن الحذاءات شمالا بنحو ألف متر وفى الكيلو ٦٩٣ من الشام ، وبينها وبين البلدة نحو ثلثمائة متر . ومساكن هذه القرية على مرتفع من الارض وسط الصحراء يحيط بها النخل وبعض غيطان مزرعة ذرة ، وبعضها مبنى بالطوب النئ وبعضها بالدبش ، وقد رأيت فيها بيتين موشيين بالجير من خارجهما ، ومن أبنيتها ماهو بالطوب المدهوك من الداخل والخارج بالشهبه (طين به مادة جيريه) . وفيها مسجد أقيم على المكان الذى صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى هذه الجهة ، وعلى باب هذا المسجد على يمين الداخل اليه بئر من أثر السيد الرسول نبع ماؤها بين يديه صلى الله عليه وسلم فى وقت كان هو ومن معه فى شدة الحاجة الى الماء ، وهى التى يشيرون اليها ضمن معجزاته صلى الله عليه وسلم بأن « الماء نبع من بين أصابعه » وماء هذه البئر عذب جدا ، وقد وضع عليها أخيراً كاظم باشا الذى كان مديرأعمال السكة الحديد الحجازية ، طلمبة تحفظ ماءها نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، فجزاه الله خيراً .

ومازال القطار سائراً حتى مر على محطة ذات الحج ، وفيها قلعة قديمة كانت تخزن فيها مؤن المحمل الشامى حين سفره فى البر ، ثم وصل الى محطة معان فى نحو نصف الليل : وهى أكبر محطة بين المدينة المنورة والشام ،وعلى كيلو ٤٥٩ من دمشق : وفيها ورشة كبيرة لتصليح الوابورات،وبيوت لمستخدمى هذا الخط الحديدى ،منها منزل جميل لمنيسر باشا .

وقرية معان تبعد عن المحطة بنحو ٢٠٠٠ متر الى الغرب بانحراف الى الشمال ، ولا تظهر للمسافر من المحطة لانها فى جوف الجبل ، وسكانها نحو ألف شخص يشتغل معظمهم فى اعمال الطريق الحديدى ، وقد كانوا قبلا يهاجرون للتجارة البسيطة، ولا يشتغل بالزراعة

منهم الا القليل فيما لا يبعد عن قريتهم لخوفهم من عرب الحويطات الذين يوجدون بكثرة فى تلك المنطقة ، وكثيرا ما كانوا ينقضون عليهم و ينهبون مزارعهم . و فى شمال هذه القرية على مسافة ثلاث ساعات خرائب كثيرة اسم أكبرها بسطة (وأظن أنها أثر مصرى) ثم اذرح (اضرح) وفيها تلال قديمة تتخللها آثار عتيقة . و فى تلك الجهة مياه كثيرة عذبة وأراض زراعية مما يدل على عمرانها فى قديم الزمان . وجل هذه الخرائب من آثار (١) مدنية النبطيين .

(١) والمنطقة التى فى غرب السكة الحديد فيما بين معان وعمان إلى نهر الاردن والبحر الميت وما يليه جنوبا غنية جدا بالآثار القديمة التى بعضها للنبطيين والفلسطيين والعرب والرومان والمصريين (البطالسة) . وأفخم هذه الآثار مدينة بطره (Petra) (كلمة يونانية معناها حجر) ومنه قولهم (Arabi Petra) يعنى بلاد العرب البحريه وهى تبعد عن معان غربا بمسافة ٣٥ كيلومتراً تقريباً وعن العقبة جنوبا بمسافه ١٣٠ كيلو، وترى بها إلى الآن كثيراً من المبانى المنحوتة الاثريه ، وهى فى واد ترتفع الصخور الى ٥٠ مترا على مدخله الذى تختلف سعته من ٣ الى ٩ أمتار ، وقد نقر فيها هيكل فخيم جداً على ارتفاع عشرين مترا ، وفيه كثير من النقوش الجميلة و يسمونه بخزنة فرعون ، و يظن بعضهم انه للرومان ، أقاموه بعد تملكهم المدينة لمعبودهم ايزيس .

و يوصل طريق هذا المدخل الى واد واسع يقطعه مجرى ماء من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى كانت فيه المدينة . ولا تزال اطلالها به الى الآن و يسمونه وادى موسى . وعلى جانبيه قبور نقرت فى الصخر ، والتى على يمين الوادى منها يعنى الى جهة الشرق كانت لاشراف القوم : لما تشاهده عليها من النقوش والرسوم التى تزيد فى فخامتها ، أما التى على يساره (فى الجهة الغربية) فهى لعامة الناس . وعدد هذه القبور لا يقل عن ٧٥٠ قبراً ، وكلها منقورة فى الصخر . و يقرب منها تياترو قد نقر فى الجبل بمرسحه ومقاعده ، وفيه ٣٣ مدرجا على هيئة أنصاف دوائر تسع ٣٠٠٠ شخص .

و يقصد بطره سنويا فى فصل الربيع قوافل السياح من الافرنج وعلى الخصوص من الامريكان . ولا بد لزيارتها من اذن خصوصى من ولايه الشام وهو ما (كان) لا يسهل على كل انسان الحصول عليه .

وفى صباح يوم السبت ٢٢ يناير أمر الجناب العالى حفظه الله فسارت حملة الجمال والهجن التى كانت فى ركابه السامى ومعها بعض الحرس الخديوى تحت قومندانية حضرة البكباشى ابراهيم افندى أدهم من معان الى العقبة، ومسافة ما بينهما ١٣٠ كيلومترا، واستمرت فى سيرها الى السويس من طريق البر .

....

وكانت هذه المدينة عاصمة لحكومة الانباط : وهى حكومة عربية كبيرة كانت توجد مدة القرن الرابع قبل المسيح . وكانت لها مدنية عالية ، وجيوش قوية ، ساعدت الاسكندر الاكبر فى استيلائه على بلاد الفرس وعلى مصر . ولقد حاربها انطيغونوس (Antegon) خليفة الاسكندر فى سنة ٣١٢ قبل الميلاد ، فانهزم أمام جندها الباسل ، وقال انه لم يمارس فى حروبه فى الشرق والغرب رجالا مثل رجالهم . ثم حاصرها ديمتريوس وانقلب عنها خائبا .

وكانت مملكة النبطيين فى القرن الثانى قبل المسيح قوية جداً وضربت ملوكهم السكة باسمهم، ومن اكبر ملوكهم الحارث الذى ملك فى سنة ١٦٩ م ، وامتد ملكه الى وادى القرى جنوبا ، ودخل فى حكمه العلا والحجر وما والاهما شرقا إلى حدود العراق ، وغربا إلى بحيث جزيرة سينا . وكانت مدينة بطره المركز التجارى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى مبدأ القرن الثانى بعد المسيح ، حيث ساق عليهم الامبراطور تراجان الرومانى جيوشه فهدم مدينتهم ، واكتسح ملكهم، ومزقهم كل ممزق ولم تقم لهم بعدها قائمة . حتى أن مؤرخى العرب لم يذكروا عنها كلمة واحدة فى فتوح العرب للشام .

والى النبطيين ينسب الرقى الذى حصل فى الكتابة التدمرية حتى كانت الحروف النبطية امهات للحروف العربية ، وحسبهم بذلك فخارا .

والعرب تسمى هذه المدينة من زمن بعيد بالرقيم . واخرج ابن جرير وابن ابى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس «ان الرقيم وادٍ دون فلسطين قريب من ايله ، والكهف فى ذلك الوادى ، فهو من رقمة الوادى اى جانبه » . واظن ان الرقيم بمعنى مرقوم ، لما هو مكتوب ومنقوش على كهوفها وربما كانت هذه الكهوف هى المعنية بقوله تعالى فى سورة الكهف « وترى الشمس إذا طلعت تزاور (تميل) عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم (تبعد عنهم) ذات الشمال » وإلى شمال هذه المدينة على الجبل قبر هارون



BOEHME & ANDERER, CAIRO

خزنة فرعون في بطره

وفى الظهر تناول سموه الغداء فى دار منيسر باشا . وفى مبدأ الساعة الثالثة تحرك قطاره قاصداً حيفا ، فسار فى صحراء واسعة ترى فيها الجبال على أفق البصر من الجانبين الشرقى والغربى ، والارض فى هذه المنطقة رملية تكثر فيها الحجارة الصوانية السوداء ، وكانت رؤوس الجبال الغربية التى يسمونها جبال الشيخ (وهى حلقة من حلقات السلسلة الجبلية التى تصل جبال لبنان بجبال السراة التى تقطع بلاد العرب من جنوبها الى شمالها) تلوح لنا بيضاء من الثلوج كانها قد شابت ناصيتها من وحشة الوحدة فى هذه البيداء الجافة .

أما الجهة الشرقية فكان يلوح لنا فيها من آن الى آخر ، بعد ميل الشمس عن خط الزوال ، بحيرات كبيرة من الماء، على دائرة أفق هذه الصحراء . وكنا كلما اقتربنا منها زاد صفاؤها وتحرك ماؤها على بعضه بتموجاته البلورية ، وكانت تظهر فى وسط هذه البحيرات

أخى موسى ، ويقصده العرب من قديم الزمان لزيارته ، وقد ابتنى الصليبيون قلعة إلى جواره .

وتحت جبال الشيخ أثر يقال له قلعة نانياس ، ويظنون أنه من أعمال الغسانية . وفى الكرك هيكل الشمس . وفى عرك الاميرهيكل من هيا كل الامونيين يقال له هيكل العبد، وفى عمان آثار رومانيه تدهش العقل ، وفى ميدبة التى تبعد عن عمان بنحو عشره كيلو متر، آثار جميلة يسمونها خربة الفال . وفى حصبان (حسبان) التى تبعد عنها إلى الشمال الغربى بنحو خمسة عشر كيلو متراً آثار من آثار مملكة يهوذا، ولم يحفظ منها إلا اصهاريج جميلة منقورة فى جوف الجبل ، ولها فتحات من أعلاها يدخل منها الماء، وفى جرش التى تبعد عن عمان بنحو خمس ساعات آثار فخمة جداً، ويقرب منها قبر يزعمون انه لهود عليه السلام ويوجد فى محطة القصر قلعة ظيظا . وكان بمحطة مشاتا آثار جميلة، ومن ضمنها قصر من القرن السابع قبل المسيح وكانت له وجهة من الفخامة بمكان أخذها الالمان هدية من السلطان عبد الحميد ونقلوها الى برلين سنة ١٩٠٤ . وفى عمان آثار جميلة جداً . وأهم ما فيها القلعة التى هى من هيا كل الامونيين، وفيها كثير من المغائر والقبور المنحوتة فى الصخور ، وعلى كل حال فهذه البلاد ملأى بآثار الاقدمين التى يهتم بها الاجانب ولا يكاد يعرفها أهل البلاد انفسهم وا كبرها فخامة قلعة بعلبك الشهيرة ، اما آثار تدمر (بالمير) فى الشمال الشرقى لدمشق فحدث عنها ولا حرج والطريق اليها من حمص .



BOEHME & ANDERER, CAIRO

خزنة فرعون فی بطره

أحيانا جزر قامت عليها غابات من الاشجار تزيد فى جمالها ، حتى اذا تاقت لها النفس ، وصارت منك على متناول اللمس ، وجدتها احدى القيعان ، سكن فيها الشيطان ، فاذا وصلت الى جنابه للحظوة بشرابه ، وجدته كان لم يكن !!

ومع أنى بمجرد ماوقع بصرى على هذه البحيرات كشفت مستورها ، وعرفت ضميرها ، ولكن كان يلفتنى اليها على الدوام حسن منظرها ، والتفكر فى مخبرها : فكنت آنا أفتكر ان هناك منخفضاً من الارض ملئ بالهواء ، وقد انعكست فى مرآته قطعة من السماء الصافية وانكسرت على سطحه ظلال مافى دائرته من الاعشاب ، وأخذت تتحرك بحركة تماوجاته فتعددت صورها بما تكونت معه هذه الغابات الناضرة ، وسط تلكم البحيرات الباهرة !! وزد على ذلك ان العين التى لم تعثر فى الصحراء الا على مناظر جافة ، تعظم ماتراد فيها من الصور اللطيفة ، وتنقله الى الوهم حقيقة مجسمة .

وكنت أحيانا أتخيل انها شئ من البحر تسرب ، ومنا اقترب ، حتى اذا خلب اللب بسنائه ، وجذب القلب بلألائه ، واشتهت أن تنال من مائه ، فتح فاه ، وابتلع مياهه ، ضاحكا من سذاجتك وبساطتك ! وكنت أتوهم آونة ان الصحراء ، أرادت أن تخفف عن أبصارنا منظر ذلك الجفاء ، فلبست لباس البحار ، وسط هذه القفار ، وأخذت تتلون تلون الحرباء ، وهل يبعد على شيطان الطبيعة أن يتشكل بما شاء ؟ حتى اذا اقتربت منه ضرب فى الهواء ، وطار طير العنقاء .

لا لا بل هو السراب الذى « يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » ، أخبرنا به القرآن قبل ثلاثة عشر قرنا ، ولم تعرفه أوربا الا فى القرن السابع عشر ، بل لم تتحقق من أمره الا تلك الحملة العلمية التى دخلت مصر مع نابليون بونابارت فى رأس القرن التاسع عشر .

ولا غرابة فى ذلك فان السراب لا يوجد الا فى صحارى البلاد الحارة : ذلك أن الشمس اذا ارتفعت حرارتها سخنت الرمال التى على سطح الارض فتسخن به طبقة الهواء التى تلامسها ، وهذه الطبقة تسخن التى فوقها ، وهذه تسخن التى تتلوها ، وبذلك يتمدد الهواء فى جميع هذه الطبقات بنسبة حرارة كل واحدة منها ، ويحدث من انتقال الطبقة الساخنة منه

الى أعلى ، ومن نزول الكتلة الباردة لتشغل محلها ، تموجات تنعكس فى صفائها صور الاشباح القريبة منها ، وهذه الصور تنعكس بمجموعها فى منخفض من هذه الرمال المتبلورة فتراها من بعد كانها حقيقة مجسمة .

أما مونج (١) (Nonge) وهو أول من شرح نظرية السراب ، وكان من أعضاء الحملة العلميه الفرنساوية السابقة الذكر ، فقد ذهب الى أن السراب انما هو صورة أشباح حقيقية يشاهدها الرائى من بعد ، فيخترق شعاعه البصرى الذى ينقل صورتها اليه طبقات الجو التى تختلف فى حرارتها وكثافتها كلما اقتربت من أرض الصحراء التى سخنتها حرارة الشمس ، و يأخذ فيها سيراً طبيعياً على خط منحن تتصل دائرته بالارض فى نقطة تنطبع فى رمالها اللماعة صورة الشبح المرئى ، وهنالك يتخيل للرائى انه يشاهد الشبح من هذه النقطة وليس كذلك .

والطريق الحديدى فى هذه الجهة كثير المنحنيات ، بل تراه فى حالات كثيرة مثل حرف (S) ، أى على شبه قوسين متضادين أخذا بطرفى بعضهما ، وذلك يكون فى حال صعوده على الجبال ، أو قطعه لها من جهة الى جهة أخرى . ومازال السير على هذا المثال حتى وصلنا الى محطة قطرانة ، وهى الثغر الحديدى لمتصرفية الكرك التى تبعد عنها غربا بنحو ٣٠ كيلومتراً ، وكان حضرة متصرفها قد حضر مع بعض رجاله لاستقبال الجناب الخديوى . و بعد تأديتهم الى مقامه الفخيم واجب التسليم والتعظيم استأنف القطار مسيره حتى وصل الى محطة الدرعا فى منتصف الليل ، ومنها يتفرع الطريق الحديدى الى شعبتين: شعبة تسير نحو الشمال الى دمشق الشام ، والاخرى تسير نحو الغرب الى حيفا . وكانت فى هذه المحطة زينة لطيفة لمقدم سمو الخديو المعظم وكان كثير من أهل الدرعا (التى تبعد عن المحطة بنحو ألفى متر) قد حضروا للتمتع بمشاهدة طلعة الجناب العالى . ولقد مكثنا فى هذه

---

(١) يرى صديقنا كامل بك ان الجيم التى تحتها ثلاث نقط أصلها أعجمى ونطقها يقرب من الشين المعطشة فلا يصح وضعها للدلالة على حرف (G) الفرنساوية ، وحيث ان حرف الزاى الفارسية التى تكتب بثلاث نقط تؤدي بالنطق بها هذا الحرف تماما فالاولى استعمالها بدله فتقول مونژ فى (Monge) مثلا .

المحطة الى فجر اليوم التالى ، ثم سرنا فى أرض زراعية من يميننا وشمالنا حتى وصلنا محطة تل شهاب ، ومنها يبتدئ الطريق الحديدى يسير فى جوف الجبل ، فكنت ترى القطار صاعداً ، نازلا ، منجدا ، متهما ، داخلا فى نفق ، مشرفا على هاوية ، قاطعاً قنطرة الى الشرق، ليمر على كوبرى الى الغرب، ذاهبا، آيبا ، مقبلا ، مدبراً ، كأنه الغزال فى لفتاته ، أو الثعلب فى روغاته ، متخطياً مجارى الماء ، متباعداً عن مساقط السيول ! ! وبالجملة فهذا الطريق صورة صغرى من طريق السمرنج فيما بين تريستا وفينا . ومازلنا سائرين بين هذه الهضاب ، وهاتيك الشعاب ، التى تحيرت فى جمالها الالباب ، مندهشين من جلال طبيعة هذه الجبال ، وفخامة ماصنعته بها يد الدولة من عظيم الاعمال ، متمتعين بما على سفوحها من الخضرة التى يكثر فيها بصل النرجس فيعطر الارجاء بعبيره ، والتى يرعى فى كلئها آلاف من قطعان الابقار والاغنام ، حتى نزل الوابور الى الوادى فشاهدنا بعض الفلاحين يشق الارض بمحراثه (وهو أصغر من المحراث المصرى كثيراً) . وبعد كيلو ١٣٥ كثرت الخيام فى جوف الوادى الذى ابتدأ يعمر بالسكان . وفى الكيلو ١٠٠ غزرت المراعى : فكنت ترى معالى الجبال ومواطيها مفروشة ببساط أخضر سندسى يتلوّن منظره فى ارتفاعاته وانخفاضاته ، وشمسه وظله ، بألوان مختلفة ذكرتنى بتغييرات مناظر البوسفور الجميلة . وهذا الوادى يسمى بوادى بيسان ، وبعضهم يسميه وادى الساسابان ، ويبتدئ من محطة صماخ [1] التى يبتدئ منها جفلك السلطان عبد الحميد ، وفيه خمسون قرية ، وأرضه غاية فى الجودة يشقها الطريق الحديدى ومياهه غزيرة جداً . وكان القمح فيه على ارتفاع شبر من سطح الارض ، ويستمر هذا الجفلك الى محطة العفولة ، التى بمجرد ماتركناها شاهدنا بكل فرح وسرور رمبانى حيفا . وقبل الوصول اليها ببضعة كيلومترات شاهدنا على

(١) ويقرب منها قرية حطين المشهورة بوقعتها الكبرى التى حصلت فى سنة ٥٨٣ هجرية بين صلاح الدين الايوبى والصليبيين وانتصر صلاح الدين عليهم نصراً مبيناً كان فاتحة لانتصاراته المتوالية عليهم . ويقرب من حطين قرية يقال لها خياره بها قبر شعيب النبى . وصماخ تشرف على بحيرة طبرية وتسمى فى التوراة بحر الجليل ، وهو أعظم بحيرات سوريا . وطولها من الشمال الى الجنوب ١٤ ميلا ، وأعظم عرض لها ثمانية أميال .

يسار ناظر يقاً بالمكدام لفسحة القوم ، وقد خرج اليه بعض الناس فى عرباتهم لاستقبال أميرنا المعظم ، وعلى حافته قهاوٍ قد اكتظت بالمتفرجين على مقدم هذا المليك الاكرم . ومازال القطار حتى وصل الى رصيف المحطة التى رفعت فيها أعلام الزينة ، واحتشد الى رصيفها صنوف المستقبلين من علية القوم ، وفى مقدمتهم مأمورو الدولة بين عسكريين ، وملكيين ، وقناصل الدول ، والعلماء ، يتقدمهم فضيلة القاضى والمفتى وأمين الاشراف . وكان جناب المتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية قائمين بحفظ النظام . ولما وقف القطار الخصوصى ضربت المدافع ، وعزفت الموسيقى العسكرية بالسلام الخديوى ، وصعد سعادة المتصرف الى الصالون مسلماً على الجناب العالى بالنيابة عن الدولة العلية ، ودعاه الى بهو المحطة الذى أعد لاستقبال سموه بصفة رسمية . فنزل حفظه الله وسار فى وسط هذه الجموع التى لا يحصى عددها حتى دخل قاعة الاستقبال . وهنالك ابتدأت التشريفات : فحضر الكبراء والعظماء للسلام على جنابه العالى ، وكان يقدمهم الى سموه سعادة القائمقام . وبعد ذلك قدمت المتصرفية الى جنابه الشاى ثم القهوة ، وعندها قام باشكاتب المحكمة الشرعية وألقى خطابة طويلة مرحباً فيها بمقدمه السعيد ، مهنئاً تلك الديار بشرف حلوله فى ربوعها ، ثم تلا قصيدة غرّاء فى مدح فضائل الحضرة الفخيمة الخديوية ، فشكرها الجناب العالى .

وقد كان حفظه الله مدة وجوده فى هذه الحفلة يتكلم مع هذا بالتركية ومع ذاك بالعربية ثم مع كل قنصل بلغته ، متنقلا من موضوع الى آخر بعبارات كلها بلاغة وحكمة حتى أدهش الحاضرين عموما من كمال معارفه ، وواسع مداركه ، وعظيم آدابه . وبعد نحو نصف ساعة ركب القطار الى الاسكلة ، وركب معه رجال الدولة مهنئين ، مودعين ، شاكرين لجنابه ، مثنين على آدابه ، فشكرهم حفظه الله ثم سلم عليهم ونزل فى الزورق البخارى لوابور المحروسة ، فبلغها بسلامة الله الساعة خمسة بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ ينايرسنة ١٩١٠ ونزل فى ركابه العالى من كان فى خدمته من رجال المعية السنية . أما بؤساء الحجاج المصريين الذين سافروا على نفقة الجناب العالى فقد أمر حفظه الله بتسفيرهم الى بورسعيد مع بعض رجال الحرس الخديوى على أحد وابورات الشركة الخديوية الذى كان منتظراً بالميناء .

• وفى منتصف الساعة العاشرة مساء تحركت سفينة المحروسة باسم الله مجراها الى ثغر الاسكندرية الذى ابتدأت تظهر معالمه فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ ، وهنالك ابتدأ يتأثر وجودنا بعامل السرور والحبور ، ومازلنا حتى تجلى لنا شاطئ الثغر ، يتعانق مع ماء البحر ، وأخذت تأتينا منه نسمات تترى ، حاملة روائح ذكية ، أحيت النفس ، وأنعشت الحس ، فكان ريحها منا كريح يوسف من يعقوب : نعم كانت تحمل إلينا ريح الاوطان ، والبنين والاهل والخلان ، فضممناه لانه أحاط بجسوم الاحباب ، ونقل الينا من عواطفهم ماحرك فينا الاشجان ، وأهاج عبرة الولهان •

ومازالت المحروسة سائرة بنا حتى ألقت مرساها داخل الميناء فى الساعة الخامسة مساء • وعندها أطلقت المدافع من طوابى المدينة بين هتاف الآلاف من المصريين الذين كانوا قد ركبوا الزوارق وساروا بها الى ظهر البحر للتمتع برؤية مليكهم المحبوب • وهنالك حضر دولة الامير محمد على باشا مع حضرات النظار وصحبتهم السير ألدن غورست على زورق بخارى واستأذنوا فى الصعود الى الركاب الخديوى • ولما تشرفوا بالمثول بين يديه الكريمتين أخذوا يرتلون آى حمد الله على وصول مليكهم العزيز بكمال الصحة والعافية • فأبدى لهم حفظه الله شكره وامتنانه ، ثم نزل وهم فى ركابه العالى الى زورق المحروسة ويمم سراى رأس التين العامرة ، وتبعته دولة الوالدة وحاشيتها ، ثم رجال المعية السنية فى زوارق أخرى •

وكانت السراى الخديوية غاصة بكبار الموظفين ، وعظماء الاجانب ، وأعيان البلاد من أدناها الى أقصاها • وهنالك جرت التشريفات على غير موعد ، وتشرف الكل بحضرة الجناب العالى ، واستلموا يد هذا الاب البار الكريم ، مهنئين أنفسهم بسلامته ، وانصرفوا شاكرين مالاقوه من كرم سموه وعظيم إيناسه • وقد استمرت التشريفات الى مبدأ الساعة التاسعة ، وبعدها تناول الجناب العالى طعام العشاء بالسراى العامرة •

وكانت المدينة كلها كأنها قطعة من نور: للزينات التى أقامها الاسكندريون فى أطرافها ، والتى أقامها المجلس البلدى من سراى رأس التين الى آخر شارع رشيد ، مخترقة المدينة من طرف الى آخر • وكانت ثريات الكهرباء فى طول هذا الطريق على شكل أقواس نصر

تجمع أطرافها أوتار تتعانق أشعتها ، وتتعاكس فى مرآة صفاء هذا الجوّ ، حتى كان يتخيل لك أن الدرارى قد نزلت من أفلاكها لتساعد الاسكندريين على معالم الزينة احتفالا بقدم أميرهم المحبوب . وعدا ذلك فكنت ترى الدكاكين والمنازل على طول الطريق وخصوصاً فى ساحة المنشية ، وشارعى شريف ورشيد ، قد قامت عليها معالم الزينة بأشكال بديعة تختلف فى مناظرها ، وتتفق فى حسن تنسيقها . وكنت ترى بين تلكم الانوار ، الاعلام على اختلاف جنسياتها ترفرف بين هذه الاضواء ، فتكسبها رواء على رواء .

وكان الناس على جانبى الطريق كالبنيان المرصوص ، تتقدمهم رجال البوليس ، ويتخللهم عمال المجلس البلدى حاملين فى أيديهم ثريات الشموع انتظاراً لتشريف الجناب العالى الذى تفضل فوعد بزيارة دار البلديه بناءً على التماس المجلس البلدى .

وفى نهاية الساعة التاسعة ركب حفظه الله عربة خديوية والى يساره سعادة محمد سعيد باشا رئيس النظار (وكان ناظراً للداخلية) ، ومر على زينة العروة الوثقى التى كانت فى مبدأ شارع رأس التين . وكان أعضاؤها مجتمعين فى سرادق غاية فى البهجة والجمال انتظاراً للركاب العالى . فتنازل جنابه الفخيم ووقف لحظة شكر فيها أعضاء الجمعية ، ثم سار بين دعاء الاهلين وهتافهم الى ميدان المنشية ، فشارع شريف ، فشارع رشيد . وكان كلما مرّ هتف الناس له بأصوات السرور والحبور ، بما كان يتردد فى جميع الارجاء ، ويرتفع الى عالم السماء . ولما وصل حفظه الله الى سراى المجلس البلدى استقبل بما يليق بمقامه الكريم ، من الاجلال والتعظيم . وبمجرد ما استقر بالصالون الذى أعد لجنابه الفخيم ، قام رئيس المجلس وتلا بين يديه الكريمتين خطبة رحب فيها نيابة عن الاسكندريين بمقدم سموه من حجه المبرور ، وسعيه المشكور ، وهو على ما يرجو الكل له من الصحة والعافية . فشكره الجناب العالى ، ثم قام حفظه الله الى البوفيه فأخذ شيئا منه وبارح المكان بين مظاهر الاجلال والاعظام ، وعاد الى سراى رأس التين العامرة من الطريق الذى حضر منه وكان احتفال الاهالى به فى إيابه لا يقل عن احتفائهم به فى ذهابه .

و فى صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يناير قصد الجناب الخديوى محطة الباب الجديد فى كوكبة من حرسه ، وكانت المحطة غاصة باعيان الاسكندريين ، وكبار الموظفين ، وكثير من سراة البلاد ، فلثموايده الشريفة ، وركب حفظه الله يحف به حضرات النظار ، وسار القطار على بركة الله الى مصر . وكانت زينات المحطات على طول الطريق الحديدى مما لم يسبق لها مثيل خصوصاً فى دمنهور ، وطنطا ، و بركة السبع ، و بنها ، التى احتشد على أرصفتها عمد وأعيان البحيرة والغربيه ، والدقهليه ، والمنوفيه ، والشرقيه ، والقليوبيه ، يتقدمهم حضرات المديرين ، وكبار المستخدمين . وشرف القطار الخديوى محطة مصر فى مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر : وكانت المحطة غاصة بأعيان القاهرة ، والعدد الجم من أعيان الوجه القبلى ، وقناصل الدول و وكلائها ، وكبار مستخدمى الحكومه السنية ، و فى مقدمتهم العلماء الاعلام ، والامراء الكرام ، والذوات الفخام ، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يتقدمهم دولة البرنس حسين كامل باشا (وكان رئيساً لهما) . و بالجملة فقد كان هنالك كل ذى حيثية كبرى ، وكان كل من صاحب السعادة محافظ مصر وحكمدارها يقوم بالنظام العام . ولما وقف القطار نزل الجناب العالى الى رصيف المحطة التى كانت كالعروس فى زينتها ، وسلم على الحاضرين واحداً واحداً ، ثم سار تحف به رجال حكومته حتى ركب عربته والى جانبه سعادة رئيس النظار ، بين دوى طلقات المدافع وعزف موسيقات فرق الجيش المصرى ، وجيش الاحتلال ، التى كانت فى رحبة المحطة لاداء واجب التعظيم . وقصد حفظه الله سراى عابدين بين جموع الخلق الذين لا يحصى عددهم والذين وقفوا صفوفاً يتلو بعضهم بعضاً فى عرض الطريق وطوله الى السراى العامرة ، و رجال البوليس أمامهم لحفظ النظام .

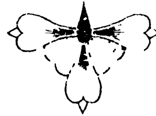
وكانت كلما مرت عربة الجناب الخديوى هتف الناس هتاف السرور لمشاهدة مليكهم المحبوب ، بما كانت ترتج له أطراف مدينة القاهرة ، بحال لم يسبق لها مثيل بالمرة . وكانت الدكاكين والمساكن التى على جانبى الطريق رافعة أعلامها على اختلاف جنسياتها حتى اذا وصلت العربة الى ميدان الاوبره كان الناس فيها على بعضهم : هذا واقف على

الارض وذاك واقف فى أوتومبيله ، وآخر على عربته، والبلكونات والشبابيك قد ملئت بعلية المتفرجين من الاجانب والاهلين نساءً و رجالا، والكل يهتف بأصوات الفرح. و لم يصل الركاب العالى الى السراى العامرة الا فى منتصف الساعة الثانية تماما .

و فى المساء لبست المدينة حلة من الانوار ، و بدت زينة لجنة الاحتفال بعيد الجلوس المأنوس فى أبهى مظاهرها ، كما تجلت الزينات الخصوصية التى أقامها الاهلون والاجانب من جميع أنحاء القاهرة . و بالجملة فقد كانت المدينة فى زينة باهرة ، وكانت كلها من ثريات الكهرباء على شكل أقواس نصر متتالية من السراى العامرة الى المحطة ، وكان اتصال هذه الاقواس بحيث كنت ترى الطريق قد تغطت بخيمة صيغت من قباب من نور .

وقد أقامت لجنة الاحتفال فى ميدان عابدين سرادقا فخما جداً كانت تتلألأ لا أنواره ، و تتألق أزهاره ، وتتصل أشعة أضوائه الى منافذ السراى العامرة حاملة عواطف الرعية الصادقة الى هذا المليك المحبوب . وتنازل حفظه الله بتشريفه صيوان اللجنة فى منتصف الساعة العاشرة مساءً . فاستقبله حضرات أعضائها بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاعظام ، وتلا حضرة رئيسها عثمان بك مرتضى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية خطابا بليغاً بالنيابة عن اللجنة ، حمد الله فيه على وصول هذا المليك الكريم بسلامة الله من رحلته المباركة ، ثم رفع الى مقامه السامى عبارات الشكران والامتنان على تنازله بتشريف الاحتفال . فشكره الجناب العالى وأثنى على همة اللجنة التى تمثل هذه الامة المخلصة بخطاب كله درر وغرر . وعندها قدمت المرطبات لجنابه السامى فتناول منها شيئاً ، وأمر حفظه الله فأديرت على عموم الحاضرين، وعند ذلك قام حضرة الشاعر المصرى النابغة حافظ افندى ابراهيم وتلا عن ظهر قلبه فى هذا المكان الرهيب قصيدة آية فى البلاغة يهنئ فيها مصر بوصول الجناب العالى بسلامة الله. فشكره سموه ، ثم كرر شكره لحضرة رئيس لجنة الاحتفال وأعضائها، و ركب حفظه الله عربته وسار مخترقا طريق هذه الزينات الباهرة ، وآلاف الناس على جانبيه مكررين آيات الهناء والدعاء ، حتى وصل بسلامة الله تعالى الى سراى القبة العامرة فى مبدأ الساعة الثانية عشرة مساءً .

وفى يوم الخميس ٢٧ يناير كانت المقابلات الخديوية : فكنت ترى السراى العامرة قد ضاقت رحباتها عن جموع المهنئين من الاجناس المختلفة، والآلاف من وفود الارياف من أصوان الى الاسكندرية يردون الى عابدين أفواجاً أفواجاً لتقديم واجبات التهانى الى الاعتاب الخديوية ، والسراى الخديوية تموج بهم بحال لم يسبق لها نظير، وكان الجناب العالى حفظه الله يقابل الكل بلطفه وإيناسه . وفى مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر تمت التشريفات وانصرف الناس وكلهم ألسنة ثناء ودعاء لحفظ هذه الذات العباسية المأنوسة المحروسة درة فى جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق هذا العصر .



تقريظ صاحب الفضيلة شيخ المشايخ الاعلام مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نحمدك اللهم حمد الشاكرين، ونصلي ونسلم على صفوة خلقك أجمعين، وآله الطيبين، وصحابته الطاهرين. وبعد فان أسمى ما خطه يراع، وسما به ابداع، ونمقه بنان، وأظهره بيان، من ضروب القول وصنوف الكلام، ما كان متصلا بحج بيت الله الحرام، وزيارة حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد اطلعت في هذا الباب على السفر الجليل الموسوم بالرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر، الذي وضعه حضرة الكاتب الماهر، والمنشئ البليغ، سعادة محمد لبيب بك البتنوني، فوجدته من أحسن ما كتب الكاتبون في هذا الموضوع النبيل، والمقصد الجليل، ومن خير ما دون في وصف تلك البقاع الطاهرة والمعاهد المباركة. واذا كان قد سبق هذا المؤلف كثير من فحول العلماء والمؤرخين في الكلام عليها، والكتابة فيها، فكتبوا وأوسعوا، وأطالوا فاشبعوا، فان كتبهم لم تتناول جميع الاغراض التي انفسح لها هذا الكتاب، وطرقها من أحسن الابواب: فقد قصر بعضهم كتابه على جغرافية البلاد، وغيره على تاريخها العمراني، والبعض لم تتجاوز كتابته مواضع العبادة ومناسك الحج. وأنت بمرور نظرك على عنوانات هذا الكتاب ترى أن واضعه بارك الله فيه، قد بلغ الى الغاية من كل ما يريد القارئ أن يتعرفه في جزيرة العرب، مما يتعلق بامر دينه أو أمر دنياه، ببيان يسحر الالباب، واسلوب يعجز الكتاب، فهو وان جاء متأخرا عمن تقدمه في مثل هذا التصنيف، فقد سبقه في أن جمع الى حسن الاختيار سبك التأليف. وجملة القول أن هذا السفر جاء برهانا واضحاً، وحجة ناطقة، بما لمؤلفه الفاضل من سعة الاطلاع وغزارة المادة. هذا واذ صحبه التوفيق، وانه لنعم الرفيق، فجرى قلمه بما جرى تسطيراً لرحلة الداوري الافخم، والامير المعظم، ولي النعم، محيي الهمم، عزيز مصر، فليواصل معنا الدعاء الى الله تعالى أن يديم ذاته السنية، ملحوظة بعين العناية الربانية، وأن يحفظ ملكه، ويخلد أيامه ما دارت الافلاك، واستنارت الاملاك، آمين.

خادم العلم بالازهر
سليم البشري

تقريظ صاحب الفضيلة وشيخ الادباء والكتاب الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لبيك اللهم لبيك ، نحمدك على ما أنعمت وأعطيت ، ونشكرك على ما تفضلت وأوليت ، ونصلى ونسلم على المبعوث لتكميل مكارم الاخلاق ، وكانت بعثته عامة لكل الناس فى كل الآفاق ، سيدنا محمد وآله وصحابته التابعين له العاملين على سننه ما طلع النيران ، وتعاقب الجديدان ،

وبعد فمن المعلوم للعموم أن تفاضل العلوم فى المرتبة والشرف إنما هو بشرف موضوعاتها ، وتفاوت غاياتها ، فكلما كان موضوع العلم أعلى وغايته أسمى كالتوحيد ، كان هو بالنسبة لغيره فى المرتبة الاولى ، وعلى هذا أيضاً تتفاضل الاعمال الصادرة من خيرة الرجال ، فكلما كان العمل أعم ، وغايته أتم ، وموضوعه أرفع ، وثمرته أجمع ، ونتيجته أنفع ، كان هو بالنسبة لغيره من الاعمال أرقى وأعظم ، وأعلى وأشرف ، كما هو مشاهد للعيان .

اسعدنى الحظ ففتحت هذه الرحلة الحجازية التى كتبها الفاضل محمد بك لبيب البتنونى وقرأتها كلمة كلمة وتتبعت غايتها خطوة خطوة ، فاذا موضوعها حج مولانا وموئلنا عباس حلمى باشا الثانى ، خديو مصر الحالى ، أدام الله أيامه ، وأعلى أعلامه ، ومن الواضح الجلى ان هذا المضاف وهو الحج هو فى ذاته عمل دينى بدنى منيف ، وركن من أركان الدين الحنيف ، فهو فى حد ذاته عمل شريف . وأن هذا المضاف اليه وهو الجناب الخديوى الاعظم هو ذلك الذات الاكرم ، أشرف ذات فى الاقطار والامصار ، وليس من يدانيه أو يضاهيه فى شرف المحتد والعنصر والاصول ، ولا من يشبهه فى حسبه ونسبه أو فى مركزه وعلو مقامه ، فالعمل الذى قام به الجناب العالى فى هذه الرحلة المباركة من أشرف الاعمال (خصوصاً أنه فضله على ما أوتيه وقتاً ما من أبهة الملك وجلال السلطان) ، والعامل وهو جنابه الفخيم هو أشرف الرجال ، فموضوع هذه الرسالة من أشرف الموضوعات ، ولذلك نحكم بان تأليفها عمل من أفخر الاعمال ، يبقى حجة على ان حج مولانا العباس ، خير كله للناس ، ببقاء الدهور والازمان .

ربما ساعد على قبول العمل وتعميم النفع به ما يكون لعامله من المنزلة بين أهل فنه ومعرفتهم بانه كفؤ للعمل ومخلص فيه والحمد لله قد استجمع الكاتب لهذه الرسالة هذه المزايا فمنزلته بين أفاضل الكتاب منزلة المجيد، وكفاءته كفاءة القادر المجتهد، وأخلاصه فى عمله هذا لا يحتاج الى برهان .

لا يمترى واحد ولا يختلف اثنان فى ان الغايه من هذا السفر الواجب الذى انشأه مولانا العباس، هى من أشرف الغايات وأكمل المقاصد ، لانه أدى به واجباً من واجبات الدين المفروضة على كل مستطيع من المؤمنين، وتحبب فيه بالزيارة لسيد المرسلين ، وفوق هذا القصد قد ضمن سفره المبارك فوائد اجتماعية عامة النفع، فجمعت رحلته الميمونة بين المفروض والمسنون ومصالح العباد ، وأهمها ان تقتدى بعمله هذا عامة أمراء المسلمين، وكبار السراة والمثرين، فى قصد هذه المنازل المقدسة، وأسداء المبرات، وارسال الحسنات والخيرات ، فتعمر بها هاتيك البلدان .

ولا نذكر للاستدلال على ان للجناب العالى حفظه الله مقاصد عاليات غاليات ، أكثر مما جاء فى ارادته السنية التى أصدرها قبيل سفره الى رئيس نظاره اذذاك فقد جاء فيها ما نصه (وانا لنرجو أن يكون توجهنا الى تلك الاقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثا فى المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم) ، وقد حقق الله رجاء جنابه الفخيم، واتخذت الاحتياطات الكافلة لراحة الحجاج فى هذا العام أكثر مما كانت فى غيره من الاعوام . وما تغيير خطة السفر وتبديل الطريق الا احدى هذه النتائج المباركة التى تعود على الحجاج بالخير والبركات ان شاء الله . وليست هذه وحدها بل قد علمنا أنه عقب عود سموه من السفر السعيد أرسل وفدا من خيرة الرجال لينظروا فى حال الطريق من جهة الوجه، فذهبوا ورسموا واشتغلوا وحكموا وعادوا الى مصر فعرضوا عملهم على أنظاره السامية وسيكون من وراء ذلك كله الخير الجزيل، فيكون الحجاج فى أسفارهم على أحسن ما يكون من الامن والاطمئنان .

ربما عددنا تأليف هذه الرسالة من خير نتائج هذه الرحلة المباركة فانها جاءت فى بابها

محكمة الوضع، متقنة الصنع، مفيدة لمن يقصدون الحج بمعرفة مسالكه ومناسكه على المذاهب الاربع، ولمن لم يسافر بمعرفة هذه المواطن وما فيها من عجائب القدرة وما كان لها من شرف فى الجاهلية والاسلام، وهذا من أشرف ما يقصده القصاد، و يطلبه الروّاد، و يعمله ذوو الفضل والعرفان .

اشتملت هذه الرسالة أولا و بالذات على وصف تنقلات الركب الخديوى من مصر الى السويس فجدة فمكة المكرمة فالوجه فالمدينة المنورة ومنها الى حيفا الى الاسكندرية فى العود، وما بين هذه المواطن الكبرى من المنازل الصغرى، فقد وصف الكاتب فى كل من هذه الامكنة وصفا تفصيليا ما كان للجناب العالى من الحفاوة بمقدمه المبارك رسمياً وغير رسمى حتى لكانى بالقارئ لهذه الاوصاف يعد نفسه حاضرا مشاهدا بنفسه هذه الاحتفاءات فى تلك الاستقبالات فيعظم من قدرها كما عظمها الحاضرون، و يتمنى أن لو كان له فيها خدمة شخصية حتى يشارك أهلها فى أداء الواجب لهذه الذات الجليلة المستحقة لكل اعظام واحترام، ولكنه يعود فيكتفى بما شاهد فى الرسالة و يلتزم التعظيم القلبي الوجدانى والدعاء بظهر الغيب بان يحرس الله هذا الجناب للبر والمعونة والفضل والاحسان .

وصف هذا الكاتب البليغ هذه المشاهد وصفاً حقيقيا و لم تفته دقيقة فى تبيان الزينات والاستقبالات والاستعداد للملاقاة على أكمل الهيئات، وما كان للخاصة من الحفاوة اللائقة بمقامه الكريم، وما كان للعامة من الاجتماعات حول ركبه المهيب، وضجيجهم بصالح الدعوات، وقد تنقل الكاتب فى ذلك من أسلوب الى أسلوب ومن تعبير الى تعبير، ولا غرو فالمجال فسيح، والقائل فصيح، وماهى الا كتابة ما عليه الواقع وتصوره المشاهدة، فما على الكاتب الا نقل ما شاهدت العينان الى العيان . وتفاوت الكتاب فى هذا الباب انما هو فى القدرة على التصوير، وما أقدر كاتبنا على تصوير هذه المناظر حتى جلاها للقارئ مجسمة المعانى تكاد تلمسها اليدان .

وكما أبدع الكاتب فى وصف هذه الهيئات الدنيوية، أغرب فى وصف ما كان للجناب العالى حين تأديته للمناسك المفروضة من عظيم التواضع وكبير الخشوع، حتى ان جنابه لم يبال

بالمظاهر الدنيوية وأدى مناسكه كلها من احرام وطواف واستلام وسعى و وقوف بعرفة و رمى للجمرات كما يؤديها من عاش عمره فى شظف العيش وخشونة البدن، ولم يحفل بتعب الجسم فادى السعى ماشياً على القدمين مع صحة أدائه راكباً حتى لا تفوته مثوبة المشقة ولا أجر التعب، وكذلك أدى المسنونات على وجهها الاكمل كما يؤديها عامة الناس، ثم بعد هذا نفع الفقراء والمساكين من أهل هذين الحرمين الشريفين بما نفحهم به من الصدقات، وأعان الحجاج المملين بتسعيرهم على نفقته الخصوصية، فجزاه الله عن دينه وفقراء عبيده أفضل مايجزى به انسان .

ولقد اشتملت هذه الرسالة بعد على فوائد تاريخية لاشهر البلدان ولاشهر الرجال ولاشهر الاعمال، ففى كل بلد من البلاد الكبيرة كجدة ومكة والمدينة تكلم عن أوصافها أوصافا جغرافية من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكانها ومعابرها ومزاراتها وآثارها، و بين على الخصوص تاريخ مكة القديم والحديث ومن له اليد الطولى فى عمارها ثم تاريخ الكعبة ومن بناها والازمان التى بنيت فيها وكسوتها ومن كساها داخلا وخارجا وعين زبيدة ومنافعها، وما للاسرة الخديوية من منافع مادية وأدبية فى تلك البلاد، وحروب الوهابيين واستناد المدينة ومكة منهم . وأحسن شئ يستلفت النظر ما تكلم به عن قبر امنا حواء فى جدة فانه لا يبقى معه للشك مجال فى أن هذا القبر هو على اسمها فقط كما يوجد كثير من الاضرحة فى بلادنا باسم البعض من الصالحين وليسوا فيها على التحقيق . وألطف من هذا انه نبه على ما يعتقد فى مكة من جهة الامور الصحية (خصوصا فى عين زبيدة و بئر زمزم وجهة المسعى) وغير الصحية بادق عبارة، وطلب الاصلاح باشارات مؤدية للغاية وهذا هو اللائق برسالة الفت لغرض شريف هو بيان رحلة أكبر أمير اسلامى فانه لا يليق بها الا الكمال فى التأدب والتلطف فى البيان .

ثم انه وصف الطريق بين القديم والحديث بين الحرمين و بين مصر فاجاد وأفاد، وذكر تاريخ الاسفار ومقدار ما كانوا يقاسونه من وعورة الطريق وطول الزمان ، ثم وصف الحرمين الشريفين وصفا مدققا من جهة الحدود والسعة والتاريخ وما تجدد فى كل منهما من العمارات، كل ذلك بعبارة فى نفسها واضحة ومؤيدة بالنقول والنصوص من الكتب المعتبرة

مما لم يسبق اليه هذا الكاتب المجيد، وما على من وصلت اليه هذه الرحلة الا تتبعها واستيعابها يتضح له صدق ما قلناه ويثنى على كاتبها بكل لسان .

لقد حمدناه عندما بين سنة الطواف وأصلها، وعندما أوضح احترام بعض الاحجار لناس من قديم الزمان حين الكلام على استلام الحجر الاسود، وعندما تكلم عن احترام الحمام فى كل صوب وناحية قديما وحديثا حين الكلام على حمام الحمى وهو الحمام الذى يأوى الى بيت الله الحرام فيكون آمنا، وعندما تكلم عن لباس الاحرام وأصل استعماله قديما بين أمم كثيرة من البدو والحضر، الى غير ذلك من الفوائد التاريخية التى تناسب كتابا مثل هذا الكتاب ، ولقد أعجبنى كثيراً بيان الحدود والمسافات وتعداد المحاط من مدينة الى أخرى كما بين مكة والمدينة أو بين المدينة وحيفا مما يحتاج اليه فى مثل هذه الاسفار الطوال ، كل هذا أقوله بعبارة مجملة تنوه عما تضمنته هذه الرسالة من نضرة العلم ونور العرفان .

ومن المباحث التى تعجب كل قارئ ما استظهره المؤلف فى أصل وضع الروضة الشريفة والحجرة النبويه المنيفة من أنها هى بذاتها ما كان داره فى حياته عليه الصلاة والسلام وان ما استدل به على ذلك من الاحاديث الواردة فيه منتج لما استظهره فيها أعلم ، وكذلك كلامه على الكورنتينة وقوم صالح وما حققه المحققون فى بيئهم وتاريخهم وكيفية مجيئهم الى وادى مدائن صالح، فكله مقبول ومعقول، يؤيده ما أورده من النصوص والنقول، فلا نطيل فيه القول ولا نؤيده بغير ما أيده به من البرهان .

ولقد اطلعت على الخرائط الكروكية والرسوم الفوتوغرافية التى وضعها للحرمين الشريفين (خصوصاً ما كان عليه الحرم المدنى فى غابره وحاضره) ليحلى بها جيد هذه الرسالة من مناظر المواقع ومناظر الحفلات الرسمية فى كثير من الاستقبالات وكلها رسوم جلية واضحة تمثل تلك المشاهد للعيان .

ظهر من هذا المختصر الذى ذكرناه ان هذه الرسالة قد شرّف موضوعها حج الجناب العالى الخديوى الشرف الذى لا يضاهيه شرف، وشرفت غايتها كما سلف، وارتفعت منزلة

كاتبها عند كل من ذاق وعرف ، فلم يبق الا أن نصفها حقاً بأنها أشرف رسالة ألفت فى هـذا العهد لهذا القصد، فليدم الله سبب تأليفها (الجناب العالى) فينا نوراً ساطعاً، وليبق مؤلفها فى ظله الظليل عاملا نافعاً، ولتكن هى لقرائها دواءً ناجعاً، ولينتفع بها طلاب الفضل والفضيلة فى كل زمان و فى كل مكان ٠

كاتبه

« عبد الكريم سلمان »

